عندما يصبح الحدس حقيقة

نسرين أبو قلام

الكتاب : عندما يصبح الحدس حقيقة (رواية)

المؤلف : نسرين أبو قلام

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٤٧٩٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978-977-493-181-9

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



عندما يصبح الحدس حقيقة

رواية

نسرين أبو قلام

لكلٍ منا ما يُسمى طاقة كامنة، تتفجَّر فيضًا من نورٍ أحيانًا، وتخبو خلف ترَّف الحياة أحيانًا كثيرة.. كثيرةٌ هي محاولاتي، وأكثر منها كتاباتي، غارتْ بعيدًا في تجاويف عقلي وذاكرتي، فأقفلتُ عليها في جرَّات كهرَّمانة بعيدًا عن الأربعين حرامي... لم أخطئ في احتفاظي بها كنزًا أبيض أصبح خير معيِّن لي في يومي الأسود... أمضيتُ حياتي فتاة عادية يُفرحها القليل ويُحزنها الأقل منه، زرعتُ بستاني بزهرة قطفتها من جنائن بابل المعلقة وأخرى استلفتها من تاج عشتار، فسقيتها ريًّا ريًّا من دجلة الخالد، صابرةً مع مده وجزره... أثمر بستاني فيَنع به ثلاث صبيان أُسدٌّ بظلهم عين الشمس ولهيبها، اتخذتُ من سُمرة بشرتهم وسواد شعرهم كُحلًا لعيني أحتفظ به في مكحلتي الذهبية

فاض دجلة... أراد أن يغسل نفسه ويُطهِّرها من دَرَنٍ غَصَّ به قاعه الطاهر، لافظًا زبدًا حديثَ العهدِ به، فزمجرَ سيله... وطافَ غضبه بأروقةِ مدينتي... مُقتلِعًا فُسيفساءِ لوحةٍ فنيةٍ ازدان مدخل مدينتي بها، مارًّا بمأذنةِ سامراء فأحالها خرابًا، حلَّ زائرًا غيرَ مُرحَبٍ به في بستاني..! عبثَ بمكحلتي الذهبية فتحوّلَ كُحلها رمادًا يُذَرُ في العيون، أغمضتُ عيني طويلًا... آلمتني عتمة أيامي!... اكتشفتُ وعثرتُ على طاقتي الكامنة أخيرًا!... عُدتُ لأنهل من كنزيِّ المدفون في إحدى جرات كهرمانة!... أحلتُ رمادي إلى مِدادٍ رويتُ به دواتي بعد ما نضبتْ لطول انتظارها، وبعد طول معاناة أتممتُ كتابي الذي بين أيديكم... مُعايشة أحداث حقبة زمنية امتدتْ لأكثر من ثلاثين عامًا، بدأتْ في مطلع ثمانينيات القرن الماضي... أسير الهوينا لا

ريث ولا عجل، أتهادى مع أحداثٍ مشرقة تارةً وأتعثر ببقايا قذيفة مَدفع من مخلفات حرب الخليج الأولى تارةً أخرى، تزكُم أنفي رائحة بارود حرب الخليج الثانية، تجود عيني مطرًا أسودَ حينما تطرق مسامعي قصص معاناة أُمهات كل ذنبهن غَرْسُ بساتينهن في بلاد ما بين النهرين!... وأدركتْ شهرزاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح.

ما كنتُ متممةً كتابي لولا مَنْ مدَّ بيد العون لي... فهذا زوجي الدكتور/ ثابت العادلي الحبيب عمل على إزالة الصدأ عن قفلِ جرَّتي، وأعانني الأستاذ/ حيدر عودة المحترم على تخطيط دفتري كي لا تحيد كلماتي عن السطر، ناثرًا أحرفًا من نورٍ أضاءتْ فكري، فاتحًا لجراتٍ من كنزِ دُرهِ المكنون ليكتمل وهجُّ كلماتي... وكيف لي أن أغفلُ عن مساعدة أخواتي الثلاث وبقية أفراد عائلتي بفتحِ صفحاتٍ جديدة لي كلَّما نفذتْ صفحاتي، أو هل أستطيع أن أتناسى الأخ الصديق الدكتور/ سلمان رشيد الذي جعل من صفحاتي طائرًا يحلِّق عبر الأثير فيحطُّ على سطوح منازل بلدي...

فشكرًا وشكرًا لكم جميعًا حتى صدور كتابٍ آخر.

نسرين أبو قلام

في شهر حزيران لعام ٢٠١٣م

إهـــداء

إلى مَنْ أهدتني أبجدية الحياة.. وأرضعتني أبجدية اللغة.. وعلمتني أبجدية حب وعطاء الأم، وخطتْ بيمينها أول دستور في حياتي، فسطرتْ بدفتر مذكراتي أول حكمة تطرق مسامعي أضعُ بين يديكِ أول عمل انبثقَ من معاناتي وبعد سهر ليالٍ طويلة مقتفيَّة أثر حكمتكِ (مَنْ سهر الليالي نالَ المعالي)... اقبليه منّي ليقبلَ الباري ـ عزَّ وجلَّ ـ بقية أعمالي.

إلى مَنْ سما فاستقر فوق السحاب.. وتسامى على دنو الدنيا، تركتني فصرتَ نفسًا لتكونَ ديمومتي حلّْلتُ معي بحلّي وترحالي... تدفقتُ من قلبي فكوَّنتُ مداد أيقونة سطرتُ بها عبقًا سرمديًّا يفوح في شدوي لينثر بنفسجًا طغى على ما أزكم أُنوفنا، فتغنيتُ بكَ وقلتُ:

سـامحتُ دهـري إذ لم أعـد ألقـاك   مـذُّ عرفـتُ أنَّ الجنـةَ مثـواك

تعمـدوا اغتيـال ضـحكةً مـن محيـاك   فخـلا قلبًـا وحظنـا طالمـا ربـاك

ففوضـتُ أمـري للـذي لقربـه نـاداك   تـنعم بجنـةِ الشـهداءِ فيـا سـعداك

تقبل منّي قليلٌ من كثيرٍ فلمثْلُكَ يكتبُ الكُتّابُ وينشدُ الشعراءُ...

إلى الحبيب أحمد وإلى كل شهداء العراق... إلى كل من أُستشهد مظلومًا فاصبح سعيدًا في الجنان.

(١)

أنظرُّ من نافذةِ غرفتي في الفندق الكبير الواقع في قلب مدينة شيكاغو، إحساس غريب ينتابني وأنا أُراقب عملية عبور المارة أعداد كبيرة من الناس على جانبي الشارع في انتظار أن تَأذن لهم الإشارة الضوئية بالعبور بعد ظهور ضوء أخضر، مهما طالتْ فترة الانتظارهم مُذْعِّنون لها!، فتبدأ عملية اندماج سريعة في وسط المنطقة المخططة الخاصة لعبور المشاة حتى وهم في حالة العبور فهم لاهُّون كلٌّ بما يعنيه، كانتْ الأحجام والمقاسات مختلفة من زاوية نظري.. كيف لا؟! وأنا أُتابع المنظر من على ارتفاع شاهق حيث غرفتي تقع في الطابق الثاني والثلاثين! كل شيءٍ يبدو أصغر من حقيقته بمرَّاتٍ عديدة إذ يُخيَّل لي وكأنَّ المنظر كلُّه لُّعبة للأطفال، غرباء هم على جانبي طريق ليندمجوا في وسط منطقة العبور ليعودوا فيفترقوا!.. تشبه إلى حد ما مسيرة الحياة...

أُتابع هذا المشهد لأكثر من مرة في اليوم وأصف إحساسي لزوجي متناسيةً أني قمتُ بهذا لمرَّاتٍ، أدهشتني هذه العملية كثيرًا حتى أكثر من دهشتي من البنايات شاهقة الارتفاع وألواح الزجاج التي تغلف كل سنتيمتر من واجهة البنايات لتنعكس صورة كل بناية على جاراتها من بقية البنايات فيخامرُّكَ شكٌّ بأنك تسير وسط متاهة...

حتى عندما تناولنا العشاء في مطعم وعلى ارتفاع شاهق في برج "جون هانكوكز" وهي ناطحة سحاب مشهورة في شيكاغو؛ حيث الأجواء ساحرة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، المنظر الأخَّاذ الذي

يأتي إليك وأنتَ في مكانك دون الحاجة للذهاب له، فكل المدينة تنام بسلام بالأسفل وأنتَ تسمو بإحساسك مع حركة طائرات الهليكوبتر، ففي ذلك الارتفاع لا يتواجد سواك وأنغام الموسيقى التي تنساب من آلة البيانو الموجودة وسط المطعم.

كنا أنا وعادل مستمتعين بالأجواء، وعادل يشعر بالزهو في أنه مَنْ اختار المكان بالذات لدعوتي إلى العشاء باعتبارها الليلة الأخيرة لنا في شيكاغو، فهذه هي شخصية عادل، لا يدع مناسبة صغيرة أو كبيرة إلا ويشعرني بأهميتها، وإن لم يجد مناسبة فهو يفتعلها؛ ليهدي لي ولو وردة قرنفل واحدة... أما بسمان طفلنا ذو العامين كان لاهيًا عمَّا نحن فيه مستمتعًا بالهدية التي منحتُه إياها نادلة المطعم، وهي عبارة عن عدد من الشمسيات الورقية الصغيرة التي تُسْتَعِمَلُ لتزيين قدح العصير...

كانتْ فرصة جيدة لمناقشة عَرْض كان قد عُرض على عادل من قِبَل شركة مقاولات ضخمة للانضمام إليها...

- رغم علمي بشخصيتك ورأيك فأنا أعيدُ عليكِ سؤالي (قالها عادل وهو متأكد من جوابي، غير أنه تعمد سؤالي): ألم تعطي شيئًا من وقتكِ للتفكير في العرض يا لميس؟!

- أنا حتى لا أعتبره عَرْضًا... أجبتُ عادل بشيءٍ من الاهتمام مُتَعَمِّدةً لأُقنعهُ بأهمية الموضوع بالنسبة لي...

- وكيف يكون العَرْضُ حسب رأيكِ؟!... أجابني عادل مستفسرًا رغم علمه بالجواب.

- أن يكون مُغريًا مثلًا، أن يكون الراتب أضعاف راتبك في بغداد، أن يتحملوا توفير السكن... أجبته وأنا على استعداد لذكر الكثير من المُغريات.

تنهد عادل بوضوح ليُعْلِّمَني بما في نفسه من ميلٍ لقبول العرض أو على الأقل ليعطيه وقتًا أكبر لمناقشته وتحليله من خلال الكثير من الأبعاد...

تَعَمَدتُ ذكر منزل العمر الذي قام بتصميمه:

- أنت استغرقتَ وقتًا ليس بالقصير لتصميم منزلنا، كَرَّستَ جُلَّ اهتمامك وخبرتك، وأنت أستاذ مادة التصميم في القسم المعماري لِتُوفِرَّ لنا بيت العمر؛ ليكونَ تحفةً هندسيةً لا يستطيع أيٌّ من المارة أن يمنع نفسه من النظر إليه والتعرُّف على قابليات المعماري العراقي.. لنتركه بعد ذلك!!... وهل يطاوعك قلبك؟!

- أنا متأكد من جوابك يا لميس؛ حتى قبل أن أسألكِ، أنتِ غير قادرة على مغادرة بغداد لأكثر من سفرة قصيرة للتنزه.

كانتْ أساريره تنُّم عن خيبة الظن فقد ازدحمتْ جبهته بخطوط متوازية مع حاجبيه وثلاثة عمودية بينهما لتُشَكِّلَ الرقم ١١١.

وصلنا إلى "كوبنهاجن" عاصمة الدنمارك صباحًا، بعد ما تركتْ علينا الرحلة الطويلة آثارها، لكن مع هذا لم يستطع تعب الرحلة أن يثنينا عن التجوال في هذه البلدة الجميلة والانبهار والدهشة تملؤنا، وعلى الرغم من زيارتنا لها عند المجيء إلا أننا أصرَّينا على إكمال التحرِّي عن مكامن الجمال التي لا تنتهي، رغم التاريخ كان هو ١٩٨٠/٩/٣م إلا أن الطقس كان باردًا جدًا، الهواء البارد له القدرة

على اختراق ملابسك ليؤثر بعظمك ليُشعِرِكَ أنها خاوية... اتجهنا إلى أقرَّب محل لبيع الملابس لاقتناء ما يقينا من هذا البرد، منظرالزهور التي تملأ حافات الأرصفة، جمال البنايات التي تُخبِرُ عن تاريخ بنائها وطراز عمارتها الأوروبي القديم المرتفع في غير مبالغةٍ أو تطرُّفٍ مزدانة بالزهور التي نَبَتتْ على شرفاتها بكل ما حبا الله الأرض من ألوان وأشكال تبعث الراحة في النفس، كل شيء يبعث على الهدوء، حتى إيقاع حركة المارة والسيارات... كنا نرغب في البقاء بها لفترة؛ للاستزادة من جمال الطبيعة والتي عملتْ على زيادته ثقافة الشعب وحبه لبلده، لكنَّ ليلة واحدة مبيت بها هي ما كان مُخطَّطٌ لها ضمن خط الرحلة.

(٢)

ونحن على متن طائرة الخطوط الجوية العراقية يأخذنا الفرح لقرب الوصول إلى بغداد الحبيبة مرتع صبانا، مدينة الحب والسعادة التي لم تبخل عليَّ بها طوال ثلاثة وعشرين عامًا هي سنين عمري، لقاء أهلي بعد غياب شهر بأكمله يا لطوله!!.. شعرتُ بسعادة وراحة واسترخاء مَنْ يجلس في بيته أمام مدفأتهِ، الوجوه بابتسامتها وودها، ارتفاع أصوات الكلام حتى تتشابك لتطرُّق مسامعك مرَّة واحدة دون تمييز كلمة واحدة لازدحامها في مدخل أُذنيك، سمرة الوجوه هي السمة السائدة، خشونة معالم الوجه خاصة الأنف!!.. فهي سمة أكثر من سائدة بل غالبة، تَرَهُّل الأجسام في منطقة البطن وما يحيطها!، إنما يؤكد هجر التمارين الرياضية إلا لذوي الاختصاص...

- الحمد لله على السلامة عيوني شلونكم؟...

جاءنا صوت لطيف حلو حلاوة بلدي

- ليسلمك الله، هل لي بالصحف العراقية؟.. فأنا في لهفة لها...

طلب عادل الصحف من المضيفة بتودد غير مصطنع.

لُبِّي طلب عادل بعدما نسي طلبه!!، فطول الانتظار طرَّد الفكرة بأكملها، أخذ يُقّلب صفحاتها وأقول صفحاتها فهي جريدة واحدة! إذ لم تكن سوى جريدة الثورة، وهي تقريبًا الجريدة الرسميَّة الناطقة بلسان الحزب الحاكم والوحيد، فليس هناك تعددية حزبية نحن بلدان - الحزب الواحد القوي الذي يستطيع التفرُّد بالسلطة بعد الاستيلاء عليها وحتى الاستيلاء عليها ممن بعدهم، وهذا هو معنى العمل

الحزبي في بلداننا - رعاها الله -... اعتاد الناس على قراءة صحيفة الثورة؛ لأن بقية الصحف تدور في فلكها، وإلا فالإغلاق مصيرها.

رفع عادل رأسه وجال بنظره يُمنةً ويسرةً فقد احتل هو المقعد الخارجي في الصف ليتسنَّى لبسمان النوم براحة ممددًا رجليه على كليِّنا؛ ليغطَ بنوم عميق يوصله حتى مطار بغداد، انتظر عادل بصبر لتمرَّ بمحاذاتنا إحدى المضيفات فلا حاجةً به لضرب الجرس المُثبت زرَّه أعلى المقعد، فهي لن تلبِّي النداء كعادة غالبية مضيفات الخطوط الجوية العراقية...

- اسمحي لي بسؤال يا آنسة... (قالها عادل مستفسرًا): أسبق لكِ أن سمعتِ عن مناوشاتٍ تجري على حدودنا مع إيران هذه الأيام؟!، فهذا ما يذكر على صدر الصفحة الأولى.

- كم مضى لك من الوقت وأنت خارج البلد ؟، فيبدو لي من سؤالك أنك خارج البلد لأكثر من أسبوعين... قالتْ ذلك وهي متأكدة أنها على صواب.

- بل لأكثر من شهر، وهل ابتعادي عن البلد يؤدي إلى تغيُّر الحالة السياسية؟!... هنا تعمَّد عادل استدراجُّها للكلام.

- أرجوكَ سيدي لا مجال للفكاهة في هذا الموضوع...

انفرجتْ شفتاها دون أن تظهر أسنانها، في عينيها تكمن دلالات كثيرة متفاوتة، التندُّر، الخوف، التهجُّس، رغبة في مواصلة الكلام وأخرى لإنهائه... همستْ بصوت خافت قائلةً:

- يقولون...! (وهذه وكالة الأنباء غير الرسمية) والتي من خلالها ينتشر الخبر دون كاتب أو مصدر معروف، فقد تسمع خبرًا ولا

تعرِّف مصدره الحقيقي، ولكننا بدأنا نعتاد على الأخبار التي تنتشر (عبر يقولون)، وأنت تسمع وتتأكَّد من الخبر ففيه الشيء الكثير من المصداقية، هذا هو حال البلدان المحكومة بالخوف، الكل يتكلَّم ولكن بالهمس، وحين ترى شخصًا يرفع صوته بخبر نعرِف أن مصدره جريدة الثورة...

أكملتْ المضيفة بصوتها المكبوت:

- يقولون إن حربًا ستقوم بين البلدين، وهناك احتمال كبير بأنها ستطول لعشرة أيام.

- غير معقول!...

قال عادل، وتكذيب الخبر بادي في صوته وفي معالم وجهه.

(٣)

بغداد ١٩٨١/٩/٢٢م

- ما هذا الصوت؟!.. إنه صوت غريب!.. أيُعقل أن يكون صفارة إنذار؟!...

تساءلتُ مع نفسي بصوتٍ مسموعٍ متعمدة إسماعه لعادل علَّه يجيبني دون أن أطلب منه.

- أكيد إنها غارة تجريبية مثلما عَوَّدونا منذ فترة، دائمًا هم يرغبون في معايشتنا لحرب غير معلنة...

قالها عادل وكلّه شك في جوابه حيث إن نبرة صوته تنبئ عن إيمانه بأن الحرب قد قامتْ مستندًا إلى الحديث الذي يدور في كل المجالس، وحتى الأخبار التي تُبَثُّ عبر محطة التلفاز الرسميَّة الوحيدة تعبئ الشعب لتلك الحرب المتوقعة.

رنَّ جرس الباب، تركنِّي عادل مسرعًا؛ ليفتح للطارق علَّه يحمل لنا خبرًا ينفي أو يؤكِّد اندلاع الحرب...

- هيا لنذهب إلى الملجأ... جاءني صوت أختي نهى يملأه الخوف والرعب...

- ما الخبر؟ وعن أيِّ ملجأ تتحدَّثين يا نهى؟!... سألها عادل، وكأن كلماته تزاحمتْ مع بعضها البعض أيُّهما تخرُّج أولًا.

- إنها غارة حقيقية يا جماعة أسرعوا.. إنها ليستْ تجريبية، ألم تشاهدوا التلفاز يوم أمس؟!، هيا.. واجلبي معكِ احتياجات بسمان إذا اضطررنا للبقاء طويلًا.. مَنْ يدري ما يخبئه لنا القدر؟!.. أنا سأذهب وأنتم اتبعوني إلى هناك.

- إلى أيٍّ ملجأ نتبعك يا نهى؟ فهم كُثر!... على حد علمي فإنه لا يوجد أيٌّ منها لا في الكرادة داخل ولا في الكرادة خارج... سألتُها بتهكم وابتسامة لأقلِّل من انفعالها الواضح.

- لكِ قابلية الضحك والابتسام في كل الأوقات، أنا أحسدكِ عليها...

كانتْ العصبية وفقدان الصبر بادية في كل حركة وكلمة كانت تَتَفوَّه بها نهى، كيف لا؟! وهي صبيَّة في عمر المراهقة في مقاعد الثانوية، هي متفوقة على الدوام جادة في كل ما يُطلب منها، وهي مثلُ قريناتها في العمر والشخصية يكون التوتر والحذر صديقها اللصيق.

- بالعمارة التي تُشيد مقابل منزلكم قبو، يمكن اتخاذه ملجأً على أقل تقدير.

أشارتْ نهى برأسها صوب بناية تعجُّ بالعمال ومواد البناء، وآليات صغيرة ومتوسطة الحجم تملأ المساحة المحيطة بها... توجَّهنا لها غير مصدقين ما نحن بصدد فعله!، ولكن إقبال أعداد كبيرة من الجيران من الشارع نفسه بل وحتى من الشوارع المجاورة.. هذا ما استنتجناه فإن وجوههم غير مألوفة لدينا.

أخذ الرجال والشبَّان في مساعدة النساء والأطفال على نزول السلالم حيث إنها خالية من الدرابزين، لم تُغَلف بعد بالبلاط، حافاتها مليئة بأنقاض البناء وشيش التسليح، المكان تلفه العتمة، والملفت للنظر هو

برودة المكان ورطوبته، إنه حقًّا ملجأ من الحر الشديد، ففي مثل هذا التوقيت من السنة يكون الطقس حارًا جدًا حتى أن درجات الحرارة تتعدَّى الخامسة والأربعين في الظل!، وقد تصل إلى الخمسين دون أن تُعلن، فهذا يعني أنه يتعين على الحكومة إعلانها عطلة رسميَّة لذاك اليوم؛ لأن الدستور ينص على ذلك.

أخذتْ أصوات القصف الجوي، وكذلك أصوات مضاداتنا الأرضية في الارتفاع، إن عنف الأصوات وتبادله شديدان جدًا؛ ليعطينا انطباعًا عن الكره المتبادل بين الطرفين.

تكررتْ الغارات، تكرر نزولنا إلى قبو العمارة حتى صدقنا كذبتنا على إنه ملجأ، ومع الأيام تطبعنا بعض الشيء مع الوضع، أقول الأيام!! بعدما كنا نتوقَّع وبكل استغراب أن الحرب ستستمر لعشرة أيام أخذتْ الأشهر تجرِّي بين أيدينا ولا وجود لِلتَكهُّن بنهاية الحرب.

تركنا الذهاب إلى الملجأ، اعتدنا سماع القصف والمضُادات، سماع صفارة الإنذار بعد ابتداء القصف بعدة دقائق، السيارات في الشوارع الرئيسية تستمر بالحركة لا تعمد لإطفاء أنوارها حسب تعليمات الدفاع المدني مرَّت خمسة أشهر ونحن على نفس هذا الحال، الحرب مستمرة، الغارات، صفارات الإنذار، التلفاز معباً بأناشيد حماسية للمعارك، وبيانات حمراء تقطر دمًا بأعداد الموتى من قِبَل الطرفين، جدران الشوارع مثقلة بلافتات تنعى شبَّانًا في أعمار الورد لا ذنب لهم سوى أنهم وُلِدوا بهذا البلد العظيم، أُريد لهم الاستشهاد لغاية في نفس يعقوب!!! لم يخطر ببال أحدهم أن يتركوا الحياة بهذه السرعة وبهذا العمر الصغير... إن السؤال الذي يدور بعقلي ليل نهار: ماذا

عن الأم المسكينة التي فقدت ولدها الغالي التي كانت تربيه وتسهر الليالي لتراه شابًا يُفرح القلب منظره؟ فتودعه إلى غير لقاء مرتقب! ولا عزاء لها سوى الدموع واللوعة ؟! كنت أكذب على نفسي مقتنعة بكذبتي مؤكدة على أن الأم حتمًا فارقت الحياة بعده فلم تعد تعاني بل تنعمت بلقائه في دار الآخرة!! يا لسذاجة تفكيري... ويا لسخرية الأقدار!.

اليوم هو الخميس.. وهذا يعني ذهابنا إلى نادي الصيد، وهو أرقى نادي اجتماعي في بغداد هو ونادي العلوية يقع في أحد شوارع حي المنصور الراقي أُسِّس من قِبَل الحزب الحاكم بسبعينيات القرن العشرين ليكونَ أحدث وأحسن نادي اجتماعي بوقته، كان الانتماء إليه مقصورًا على أعضاء الحزب تقريبًا عدا القليل من عليَّة القوم من تجار وأساتذة جامعات وأطباء ممن يُزَكَّون من قِبَل أعضاء في النادي، استطعنا الانتماء له لكون عادل أستاذ جامعي وجاءت تزكيتنا من قِبَل عضوين قديمين لهما السمعة الحسنة، اعتدنا التوجه للنادي يومي الخميس والأحد ففيهما فاعليات مسلية تروح عن النفس بعد عناء الدوام والتعب وأخبار الحرب التي لا تفتأ أن تُعيدنا إلى الواقع المؤلم بكل ما فيه من حضور مجالس العزاء لشُبَّانٍ تربطنا علاقات حميمة مع ذويهم، الأحد موعد لعبة البينكو، الخميس موعدنا مع أنغام فرقة موسيقية غربية، حضور مطرب أو مطربة عراقية في المناسبات، مثل الأعياد الدينية، أما الأعياد أو ذكرى المناسبات الحكومية يكون المطرب عربيًا من المشهورين على صعيد الوطن العربي.

كان النادي مبهرًا من حيث التصميم والمساحات، فهو يحتوي على الكثير من الحدائق الغنَّاء، يحتوي على قاعة كبيرة فرشتْ بأثاثٍ راقٍ مرفقة بمسرح مُخَصَّص للفرَّق الموسيقية والاستعراضية وفي الوقت نفسه تُستعمل هذه القاعة لإقامة أعراس أولاد منتسبي النادي ومعارفهم، المطعم الكبير ذو الخمس نجوم يتوسَّط الطابق الثاني يمتد فيتصل بصالات البليارد، أُلحق بالمسبح الرئيسي مُجمَّع صحِّي متكامل يحتوي على مسبح مُغلق وغرف للساونة وأخري للبخار وأيضًا للمساج، حتى أحواض الچاكوزي، خُصِّص يوما الأحد والأربعاء للنساء من العضوات وبقية أيام الأسبوع مختلط، ومن مرافق النادي المفيدة أيضًا الصالة الرياضية المزودة بأحدث الأجهزة وبإشراف مختصين من حملة شهادة الماجستير للتوجيه والتدريب بصورته الصحيحة، انتشرت بأروقة النادي محلات صغيرة تُوفِّر باقي الخدمات المطلوبة كبيع الإكسسوارات والتصوير ومحل لبيع الزهور وتنسيق قاعات الأعراس يديرها المشاهير من نساء العوائل البغدادية القديمة الحائزين على شهادات الخبرة، وأخيرًا دروس (الباراسيكولوجي)، ولا يفوتني ذكر تنظيم رحلات ترفيهية لمناطق سياحية مختلفة وبأسعار تفضيلية للمنتسبين.

اقترح عادل دعوة أخواتي نهى وريم لحفلة من حفلات يوم الخميس بعد أن تركنا بسمان مع ماما... قاد بنا عادل السيارة (الفولكس ڤاگن) القديمة موديل١٩٦٢م من منطقة الكرادة الشرقية عابرًا (الجسر المُعلَّق) وهو أحد الجسور التي تربط جزأي مدينة بغداد ببعضهما وهو جسر مُحَبّب لدى البغداديين؛ حيث كان في وقت تشيده يمثِّل

طفرة في عالم الهندسة أولًا: أنه يربط منطقة حيوية مثل الكرادة بمنطقة حيوية أخرى هي المنصور... ثانيًا: أنه تمَّ تشيده وافتتاحه بزمن الزعيم الراحل "عبد الكريم قاسم" والذي بقي يحظى باحترام المعارض قبل المؤيد. إن أول ما يقابلك بعد عبور الجسر هو القصر الجمهوري على اليمين من الشارع وهو يقع على ضفة نهر دجلة العظيم والذي يجزؤ مدينة بغداد لنصفين جغرافيين دون تجزئة عاطفية!، وجود رجال شرطة المرور المكثف عند تقاطعات الشوارع بالقرب من القصر وهم مدججون بالأسلحة الخفيفة، وبالدماء الثقيلة، وبالشوارب الكثة التي تتدلى فوق شفاههم بتَعَمُد، وتقطيب الحاجب طول الوقت، ينظرون لسائقي السيارات بحذر وتوجُّس مخافة اقتراب أي سيارة من بوابة القصر! كل حركة كانت ترعبهم، وفي الوقت نفسه كانوا هم يُرعبوننا، نصلي لله ابتهالًا لئلا يحدث أي طارئ للسيارة في هذه المنطقة، والذي يخاف من الجن (يطلع له) مثل ما يقولون.. عند وقوفنا أثناء إشعال الإشارة الحمراء توقف محرك السيارة عن العمل! لا نعرف سببًا لهذا التوقف! حتى السيارة توقَّف قلبها عن النبض مخافة المكان!! شعرتُ بإحباط شديد بتوقفها بالقرب من السيارات الحديثة الفارهة ذوات الماركات العالمية فهي ألمانية الصنع أيضًا مع الفارق!. كانتْ سيارات أعضاء الدولة والحزب تُمَيَّزُ لكونها السيارات الوحيدة ذوات صُنعٍ حديث.

لا نعرف من أين توافد علينا أعداد من رجال الشرطة والأمن مصوبين فوهات بنادقهم باتجاهنا! طالقين العنان لأصواتهم الجهورية لزيادة الموقف رعبًا...

ـ ألا تعلم ممنوع التوقُّف هنا؟.. ما الذي جعلك تتوقَّف؟!... صرخ أحدهم بلهجة بدوية تعَمّد معها الإهانة.

ـ أيعقل أن أتوقَّف هنا لأتنزَّه مثلًا؟! أو أضع نفسي بموقفٍ لا أُحسد عليه؟!... إجابة عادل بتهكُّم مُغلف بمزاح محبَّب.

ـ ماذا حلَّ بها ؟... سأل الآخر بصوت قاسٍ دون أي ابتسامة.

ـ لو كنتُ أعرف، لما جعلتها تتوقَّف بهذا المكان أو أي مكان... قالها عادل هذه المرة بعصبية وارتفاع لدرجة حرارة وجهه بعثت حمرةٌ شديدة واضحة في وجهه.

كنا أنا وأخواتي نتلو ما حفظناه من سور قرآنية قصيرة دون أن نحرك شفاهنا مخافة جلب نظرهم...

انتهى الموقف على خير بعد أن زودونا بغلون بنزين بعد ما اهتدينا لسبب توقُّف المحرِّك، فإن مقياس البنزين عاطل!!، وهكذا عادتْ الابتسامة لوجوهنا واندفع عادل مسرعًا باتجاه النادي؛ لنستريح ونتناول عشاءً لذيذًا مع أنغام الموسيقى والتطَّلع على ملابس السيدات والرجال فالكل هنا يكون حريصًا على ارتداء أكثر الملابس جودة من حيث السعر والتصميم الحديث والأكثر أناقة.

استقر بنا المكان على طاولة بعيدة عن المسرح وهذا بسبب التأخير الناجم عن توقُّف السيارة، بدأنا في الاسترسال بالحديث حيث توقَّفتْ الموسيقى لمدة نصف ساعة ونحن نلتهم أصناف المقبلات ومع هذا لم نكف عن الحديث، نسينا الموقف المزعج نهائيًا مع ابتداء الموسيقى وطربنا مع الأغاني اللاتي نحب سماعها... أُطفئت أنوار

الصالة وأخذ كل نادل يخبر الحاضرين المسئول هو عن راحتهم ببدء غارة جوية ويطلب منهم الهدوء ونسيان ما يدور بالخارج فإنها لابد لها أن تنتهي قريبًا وأخذ على عاتقه إنارة الشموع الموجودة على كل الطاولات فأضفت جوًّا جميلًا.

مرَّت حوالي نصف ساعة وأصوات الانفجارات تتقارب وتتكاثر مما خطف من النفوس الفرحة، والاستئناس بدأ التكهن والحديث عن المواقع التي استُهدِفت، ساد صمت واضح مما يعني انتهاء الغارة، أشعلت الأنوار وتلألأت الصالة بألوانها وديكوراتها الجميلة والموسيقى تصدح بأحلى الأغاني الفلكلورية القديمة التي تَمَّ تجديد توزيعها مع الآلات الغربية... أخذ الحاضرون بالتوافد على المسرح كل رجل مع امرأته تتمايل أجسامهم طربًا مبتعدين ومتناسين الخوف الذي اقتحمهم عنوة قبل قليل، مع كل ما مَرَّ بنا هذه الليلة إلا أننا نفضنا عن أنفسنا ريح البارود ومحونا من نظرنا أسماء الشهداء ولافتاتهم التي تكسو أسيجة المباني والبيوت التي تقع في مواجهة الشوارع العامة والرئيسية للمدينة...

نحن العراقيون شعبٌ حيٌّ نؤمن أن الحياة مستمرة بحلوها ومرها.

(٤)

جاء العيد...

أوشكتُ على الانتهاء من ترتيبات هذه المناسبة السعيدة، فقد أكملتُ تنظيف المنزل وتهيئته، فرشتُ المفارش الجديدة لتزدان بها الطاولات، حلويات العيد الخاصة بهذه المناسبة، صحن المكسرات والشيكولاته، صحن الكليجة سيد المعجنات (لا يمكن لأي عائلة غنية كانت أو فقيرة أن تتنازل عن تحضيره فهو العلامة المُمَيِّزة لهذه المناسبة)، هو المنسك الأهم وهو بمثابة شجرة الكرسمس.

صعدتُ لغرفة النوم لأتأكد من تحضيري ملابس العيد الجديدة لي ولزوجي وبالطبع لابني الصغير، درجت غالبية العوائل العراقية على ارتداء ملابس جديدة زاهية لكل أفراد العائلة خاصة الأطفال منهم، ومن مناسكه المُهمَّة أيضًا هي زيارة الأهل والأقارب فالصغير يذهب للكبير للتهنئة بهذه المناسبة، كنا نعمد إلى التجمع في بيت الوالدين منذ الصباح وتناول وجبة الغداء الدسمة المعدَّة مسبقًا، كانت فرحة الأطفال بملابسهم الجميلة واستلامهم مبالغ نقدية من كبار العائلة... عند المساء تَوجَّهنا إلى بيت أهل عادل للقيام بما قمنا به في بيت أهلي، في صباح اليوم التالي ذهبنا لبيت عمي، هو الأخ الأصغر لأبي، عمي يتمتع بشخصيَّة مرحة ومحبَّبة لذلك كان عادل يحرص على زيارته، ما إن دخلنا وتبادلنا التهاني والتبريكات، استطعنا أن نَلحَظ بأن الأجواء ليست على ما يرام، مظاهر العيد مختفية، كان القلق والتوَّتر هما سيِّدا الموقف! وأكثر مَنْ بدا عليه القلق هي عيون

زوجة عمِّي وآثار دموع لم تستطع مغالبتها، شعر عمي باستغرابنا الوضع!... توجَّه بالكلام إلى عادل:
- إن علاء رافض العودة لجبهات القتال!!!
علاء هو الابن الأكبر لعمي، شاب في عمر الثامنة عشر، طويل القامة ممتلئها، بشرته بيضاء مشوبة بحمرة، ذو عينين زرقاويتين وشعر أصفر، تسلسله الثالث بالعائلة تسبقه بنتان وتليه بنت واحدة فهو الولد الوحيد بالعائلة، شاب هادئ الطباع قليل الكلام، تَعَثَّر بمسيرة الدراسة، لم يتمكَّن من الحصول على مُعَدَّل جيد في الثانوية العامة وعليه لم يتسنَّ له إكمال مسيرته الدراسية والالتحاق بأية كليَّة أو جامعة، ففي بلد مثل العراق تكون السنة الأخيرة من الثانوية العامة هي الحد الفاصل بين النجاح في المسيرة العلمية وبين التعثُّر ولا شيء غيرها يستطيع أن يبدل مستقبل الطالب، وهذا أيضًا يعني الانخراط بصفوف الجيش! ومن هنا يعني الفشل بعينه فبدلًا من الجامعة والحصول على مركز مرموق في الحياة إلى جندي مكلف، حيث التجنيد الإلزامي، جندي يعني استلام أقل راتب بالدولة، يعامل معاملة دونية، يُعمد لإهانته، ضابط الجيش ينظر إليه بازدراء كأنه حشرة، يُكَلَفُ بمهام ـ ما أنزل الله بها من سلطان ـ كأن يُكَلف بحفر حُفرة ما في الأرض ليعود فيردمها! مع القليل من التدريبات العسكرية، هذا في حالات السلم... أما ونحن في حالة حرب فإنه يُزَجُ بجبهات القتال وأحيانا كثيرة بالصفوف الأولى للمعارك الطاحنة؛ ليكون نصيب علاء المشاركة بالصفوف الأولى!، لا مجال للتراجع حتى وإن كان الشاب غير مستعد نفسيًا، فمَنْ يتراجع هو بالتأكيد

متخاذل لا يجود بنفسه وبدمه عن الوطن فيكون مصيره الإعدام رميًا بالرصاص دون الحاجة لمحاكمة فعلية فقد شُكلتْ في جبهات القتال فِرقُ إعدام تأخذ على عاتقها الرمي بالرصاص كُلُ عسكري سواء كان جُنديًا أو ضابطًا أو نائب ضابط، عند تراجعه عن خَطِّ التماس مع العدو، ويُطلَقُ عليه تسمية (مُتَخاذل) وتبقى جُثته في العراء بدون دفن... لهذا ولغيره كانت الأجواء في بيت عمي تراچيدية لحد كبير.

- أين هو الآن علاء يا عمِّ؟... سأل عادل بهدوء محاولًا تهدئة الموقف قدر الإمكان.

- إنه مُعتكف بغرفته... أجابت زوجة عمي بأسى واضح وبصوت لا يكاد يُسمع.

- ولماذا هذا القرار المُفاجئ؟... سألها عادل ليستبين ما وراء القرار.

- إنه ليس بالمفاجئ يا ولدي... (أجاب عمي وتنهيدة طويلة ملأت صدره)... فهو في كل مرة يأتينا في إجازته الدورية يحاول إقناعنا بصواب قراره.

- وما الذي استجد هذه المرة ليكون مصِرًّا وبشدة؟... سأل عادل موجهًا كلامه لعمي مستفسرًا.

نادى عمي بصوت منكسر يملأه الحزن والإحباط:

- علاء.. علاء، انزل يا بني هذه لميس ابنة عمك وزوجها يودَّان السلام عليك.

نزل علاء وأدَّى التحية وتبادل التهاني بالعيد... عندها جاء دور الكلام الجد...

- ما هذا يا علاء.. أصحيح ما سمعناه من الوالد؟!، لم أعرف أنك عنيد قبل الآن... قالها عادل ليعلمه بكل ما عرفناه اختصارًا للشرح وأعطاه الفرصة في الاسترسال.

- نعم أنا مُصِرٌّ!... عمد إلى الجواب بنبرة واضحة وصارمة ليوصل رأيه إلينا كاملًا.

- أنت على يقين بتبعة قرارك عليك وعلى العائلة... أنا متأكد من ذلك، أقل ما سيقال إنك متخاذل، وهم متسترون على فار!... (كأن عادل أراد إسماعه ما سيقال عنهم).

- نعم أعرف سأوصف متخاذلًا يعرف الحكومة طبعًا.

استمر السجال بين علاء وعادل:

- منذ متى ونحن مقتنعون بمسميات الحكومة؟ ألسنا من نَصفهم بالرعاع؟... قالها علاء مذكرًا إيانا بآرائنا عن الحكومة.

- هذا صحيح، ولكن ما بيدنا تغيير الحال، هم أعلى سلطة في البلد، إنهم يحكمون بالحديد والنار... أجاب عادل مستسلمًا لوضع حال ليس بيد أحد تغييره.

- هذه قناعتكم! ليست بالضرورة أن تكون قناعتي... (أجاب علاء بإصرار المتأكِد من كلامه)... فأنتم لا ترون ما أرى كل يوم في جبهة القتال! فأنا أرى العجب العجاب، مَنْ منكم تذَّوق الموت وتَجَّرعه كل لحظة؟!، أَمنكم مَنْ اضطر لوداع رفيق له بين الحين والآخر؟!، أَعْمَدُ إلى إغماض جفنيه بيدي لعلّه يرقد بسلام، ليس باستطاعتي مواصلة هذا العذاب اليومي.

- أكيد أكيد يا أخي إنها الحرب، وأستطيع أن أَتَخيّل ما يدور هناك، على الأقل شاهدناه في الأفلام... قال عادل محاولًا مساندته عبر هذه الكلمات.

ابتسم علاء ابتسامة مَنْ كان مُتوقِّعًا لمثل هذا الجواب!!:
- هل يمكن لك أن تتخٰيل أنك قابع في خندق صغير مع خمسة رفاق فُرِضوا عليك، لم تعرفهم من قبل، بل وحتى لم تسمع بهم!! ولكن ما هي إلا ساعات حتى أصبحوا يشكّلون لك كل الأصحاب والأهل، مصيرك مرتبط بمصيرهم، أي تصرُّفٍ يبدر من أي مقاتل بالمجموعة يؤثر سلبًا أو إيجابًا على الجميع، أي شعور ينتابك يا سيدي وأنت في حفرة لعينة على مدى أربع وعشرين ساعة! لا تغادرها إلا لقضاء الحاجة وإن قُدر لك العودة سالمًا، تجد رفاقك تناقص عددهم فقد أُستشهد أحدهم.. فرفيقك حتى لم يُكتب له أن يتسجى على طول قامته مثل ما يسجى كل مَنْ بحالته! عليك أن تتعايش مع هذا البدن الساكن وأنت بقربه بل إن بدنك لصيق ببدنه فتشعر ببرودته شيئًا فشيئًا.. الوجه الممتلئ حيوية يتحول إلى بياض الثلج! وأنت لا تزال تراقب وتتابع دون إرادتك المراحل التي يمربها...

أخذ صوت علاء يعلو ويمتزج به نوع من الندب وشيء من النحيب الخفيف، ترقرقت الدموع وتحجرت بمقلتيه!:
- بل ويطاوعك قلبك ولأول مرة لا تخونك شجاعتك فتجرؤ على مد يدك إلى كفه لأخذ خاتم أو حلقة خطوبة من إصبعه لعله يتسنى لك أن تسلمه لخطيبته أو لأهله إذا كان في عمرك بقية! أحيانًا تبرر لنفسك

فتسلبه ما يرتدي من سترة واقية أو درع واقي، فيخفف من إصابتك التي حتمًا تنتظرك!!...

- يكفي هذا يا علاء، ألم تشعر بوجود الأطفال معنا... نهره عمي وقد تذرع بوجود الأطفال لعدم قدرته على سماع المزيد من التفاصيل.

- يكفي سامحك الله يا بني، ألا تشعر بوجودي؟!... تفوهت بهذه الكلمات زوجة عمي والدموع تبلل وجنتيها وفلتت منها زفرة لم تستطع إخفائها فهي لم تعد قادرة على الاستماع للمزيد، إنه نفس المصير الذي بانتظار فلذة كبدها.

- ومع هذا أنا على يقين من نباهتك، بالتأكيد أنت متصور كل ما يمكن أن تتعرض له أنت وعائلتك من مصير مظلم... قاطعه عادل لينهي هذا الفيلم المصور عن جبهات القتال حيث أن عادل هو الآخر لا يحتمل سماع وصف بهذا الشكل، إن علاء يتكلم عن الموت والدماء فليس من المستبعد أن ترى عادل مغشيًّا عليه لو طال الكلام!.

- أعرف، بالتأكيد الإعدام رميًا بالرصاص! مطاردة الأهل ليل نهار، إحالة أخواتي وأزواجهن على الاستقالة، ومع كل هذا أنا لم أُخلق لهذا، إنك أستاذ جامعي ومربي وعلى تماس بالشباب من سني وعلى الرغم من عدم انخراطك بالعسكرية، ولكن تستطيع أن تعرف أن العسكرية لها رجالها وتدريباتها الخاصة، حتى إنهم لم يقوموا بتدريبنا بالطريقة المطلوبة، هم عمدوا وعملوا جاهدين لإهانتنا، وفوق كل هذا وذاك أنا عازف عود من الطراز الأول، وأنت تعرف والكل يعرف.

- كلنا على دراية بأنك عازف ماهر وذو إحساس مرهف، وأيضًا على قناعة تامة بأن دربك لا ينسجم وهذا الدرب، ومع هذا فإن الأمور أعقد من ذلك بكثير! أرجوك علاء عِدني بمراجعة نفسك والتفكير مليًا قبل اتخاذ أي قرار من شأنه إلحاق الضرر بك وبالأهل... أنهى عادل كلامه محاولًا إنهاء النقاش.

همس زوجي بأذن عمي:

- لا تقلق، سيغير رأيه بالتأكيد، المهم أن تسايسه فهو محقٌّ في الكثير من آرائه.

ركبنا السيارة، ونحن مهمومون لما سيحلُ بعائلة عمٰي فيما لو أصرَّ علاء على قراره.

انتهى العيد بأيامه الثلاثة، وعاد كل شيء كما كان، الدوام، الغارات والسعي وراء توفير لقمة العيش.

الساعة الثامنة مساءً.. وهو موعد النشرة الإخبارية في تليفزيون الجمهورية العراقية، أطلَّ علينا مذيع معروف لدى الشعب العراقي بتلاوة البيانات الحكومية الصادرة من قيادة القوات المسلَّحة والتي تُستهل بإحدى الآيات القرآنية المُنتقاة بدقٰة لتناسب ما سيُذاع من خبر، هذا المذيع الذي يُجيد قراءة البيانات الناريَّة المفعمة بأصوات المدافع والصواريخ قصيرة وطويلة المدى، فهو على قدر عالٍ من منح الخبر صدى فعَّال بنفوس المشاهدين المتابعين له، التحكم بنبرة صوته، إضفاء الشجاعة والإصرار بمقارعة العدو، أسرّ أنظار المتابعين، إن ظهوره يعني لنا وجود مصيبة ما، خبر هجوم عنيف،

إعدام مجموعة ما.. وما إلى ذلك من أخبار الفواجع وكأنَّ القيادة العامة تعاقدت معه لبثّ تلك الأخبار... استقبل الرئيس القائد المُلهم ـحفظه الله ورعاهـ السيد فلان بن فلان في مكتبه الخاص صباح اليوم لتقليده نوط الشجاعة العسكري من الدرجة الأولى لقيامه ببطولة لم يسبق لها مثيل وإليكم التسجيل الكامل ...! ـ الله الستَّار ـ نطق بها جميع مَنْ في الغرفة.

هذا ما هدر به صوت المذيع بطريقة حازمة تَنِمُّ عن حدوث مصابٍ جلل، مُتَعمّدًا تغليظ صوته تجهَّم وجهه يتخلله فتح وغلق لمنافذ أنفه الكبير سامحًا لدخول وخروج الهواء بصوت مسموع، جاهدًا نفسه بحفظ الخبر عن ظهر قلب متحاشيًا النظر إلى الورقة التي أمامه ليضفي هيبة أكبر على الخبر، التسجيل الكامل... هذه الجملة تعني ساعتين من الأخبار المتواصلة لترتبط نشرة أخبار الثامنة مع موعد نشرة أخبار العاشرة فيعاد كل ما ذُكِرَ بالنشرة الأولى بالنشرة الثانية... مُلخص ما بُثَّ على مدى أربع ساعات، إن أحد المواطنين أقدم مع سبق الإصرار والترصُّد على اقتراف جريمة قتل من الدرجة الأولى، حيث سَوّلتْ له نفسه سحب سلاحًا خفيفًا (مسدس) قديم الصنع وأطلق منه عدة عيارات نارية لتستقر برأس ولده الشاب فترديه قتيلًا بالحال!!!! دون أن يرمش له جفن وقد أقدم على فعلته النكراء بسبب غيرته وحسه الوطني بعد ما أصرَّ ولده ـ فلذة كبده ـ على عدم الالتحاق بوحدته العسكرية بعد انقضاء فترة إجازته الدورية حيث هالته مناظر الموت والدماء، عُرِضَ الموقف من قِبل القيادة العامة على أنه بطولة ما بعدها بطولة من قِبل الأب فقد أبى أن

يُكنى أبو المتخاذل!!، وبدل أن ينال عقابه العادل كأي مجرم قُلد نوط شجاعة؛ ليزين به صدره وجيبه، فنوط الشجاعة يعني سيارة جديدة ومبلغًا من المال وبعض الامتيازات الأخرى لم نُصب بذعرٍ أو حتى وجوم ولو لعدة دقائق فهذه التربية والتوجُّه هو بالضبط ما أُريد له أن يعمَ ويترسّخ بعقول النشئ، ما همنا فعلًا، هو تعقيد الأمر بالنسبة لعمي أبو علاء ومَنْ هم بنفس موقفه.

(٥)

جاءت ساعة الاستراحة... وهي كالمعتاد من الثانية عشر وحتى الواحدة ظهرًا، بدأنا بالتهام ما أحضرناه معنا مسبقًا من البيت من طعام خفيف نستطيع معه الاستمرار في العمل وساعاته الطويلة والتي تبدأ عند السابعة صباحًا حتى الرابعة عصرًا، إن هذه الساعة تعني مزاولة هواية (كرة المنضدة) المحببة لنفوس كل منتسبي القسم الهندسي في دائرة مشروع تنفيذ وحدات سكنية في منطقة زيُّونة ببغداد فهو انشاء عدد من العمارات ذي الخمسة طوابق بتصميم جميل وحديث مزودة بمصاعد كهربائية وأنابيب لتزويد الشقق بالغاز السائل الذي يُستعمل في تشغيل مواقد الطبخ تفاديًّا للسكان من عناء رفع وتوصيل قناني الغاز السائل المتعارف عليها، خُصصتْ هذه الشقق لموظفي الدولة، تمَّ فتح باب التسجيل على هذه الشقق قبل المباشرة بإنشائها، كل موظف يدفع مبلغًا من المال كمقدِّمة لحجز الشقة ويُباشر باستقطاع دفعات شهرية من رواتبهم، وفعلًا بوشِرَ بشق الأسس بعد عدة سنوات من التسجيل!! كل رَب عائلة ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي ستقرُّ عينه باستلام الشقة ذلك الحلم الجميل.

ثمانية نحن منتسبو القسم الهندسي، وحوالي العدد نفسه هم منتسبو القسم الإداري مع السيد المدير نمثِّلُ ما يُسمى بـ"دائرة التنفيذ المباشر" التابعة لمؤسسة الإسكان والتي تتبع بدورها وزارة الإسكان والتعمير، هذا عدا العمّال والفنيين، جملون خشبي صغير يتألف من ثلاث غرف صغيرة قياس اثنان متر مربع، وصالة كبيرة هي مكان

تَجمعنا نحن القسم الهندسي، جملون آخر نُصب على امتداد الأول بعدد من الغرف الصغيرة، وواحدة أكبر بقليل (هي غرفة السيد المدير)، هو ما يطلق عليه القسم الإداري، أُقيمت غرفة بين القسم الهندسي والإداري خُصٰصت للعب كرة المنضدة، أصبحت هي قبلتنا خلال ساعة الاستراحة.

جاء دوري للعب كرة المنضدة مع زميلتي بل صديقتي سوسن...

- أخبريني، ماذا عن سفرك إلى جميل؟.. ألم تتقدَّم ولو خطوة تلك المعاملة؟.. هل تمَّتْ موافقة السيد المدير ؟.

- العبي واتركيني لهمي يا لميس، فإنها خارج صلاحيات المدير!... نفذت زفرة خارجة عن إرادتها.

- أيعقل هذا؟! صلاحية مَنْ إذًا ؟... أثارت فضولي حقًا ومع هذا لم أنقطع عن اللعب...

- السيد الوزير بجلالة قدره!!!...(انحنت لجلب الكرة البيضاء الصغيرة فغاب صوتها ليصلني ضعيفًا وغير واضح)... كونها إجازة سفر خارج القطر... (أكملت كلامها وهي ترمي بالكرة فكانت رمية الإرسال معها).

- يتوجَّبُ عليكِ مقابلته إذًا!، وهذا يعني التوجُّه إلى مقرِّ الوزارة في باب المعظم.

- يتوجب علي ذلك، قدمتُ طلبًا قبل عدة أيام لمقابلته، ها أنا بانتظار الجواب مرفقًا بالموعد.

- متى يصل جميل إلى لندن ؟.

ـ لم يزل في يوغسلافيا الآن ورحلته إلى لندن بعد يومين ـ بإذن الله.

رقصتْ عيناها فرحًا لذكره وكلها أمل باللقاء المرتقب في لندن بصحبة ابنتهما الحلوة "صابرين" الثمرة الأولى لزواجهما وقصة الحب الرومانسية الغريبة.

ـ آه يا سوسن لقد أخذنا الكلام ونسينا أن ساعة الغداء انتهت منذ خمس دقائق!! هيا.

لمحتُ (عبد الجليل) وهو الساعي الخاص بالمدير مُتَّجهًا نحوي:
ـ إن السيد المدير بعثني لطلبك، فهو يود محادثتك!.
قلتُ مع نفسي إنه يبعث بأثري؛ لأني تأخرتُ عن الالتحاق بموقع العمل عن الساعة الواحدة.
اتجهتُ لغرفته وأنا متجهمة الوجه، أُحضِّر نفسي لسماع عبارات التأنيب المعتادة في مثل هذه المواقف، وأُهيئ بدوري الرد، فلن أقف صامتة بل سأُدافع عن نفسي فليس مثلي من تُؤنب! المعروف عني الالتزام بمواعيد العمل وأني حريصة كل الحرص لأن أتواجد في موقعي حتى قبل الموعد المحدد والكل يعرف ذلك بما فيهم عمّالي؛ لذلك هم يهمون بالعمل في الوقت المحدد.

حييتُ المدير وأنا على أهبة الاستعداد للمعركة!!:
ـ هلو أستاذ!!!... صوتي ينمُّ عن حالي.
ـ استريحي... طلب مني المدير بعد أن رمقني بنظرة من تحت نظارته (إنه مهندس قديم وقدير)، هو أيضًا شخص بسيط وغير مُتعالٍ، في منتصف الخمسينيات من العمر، تنطبق عليه المواصفات

الخارجية لغالبية المدراء، أصلع الرأس، ممتلئ الجسم، بطنه يرتفع أمام جسده بوضوح، وأخيرًا النظارات الطبية المكمِّلة للوجه فنحن لم نرَ وجهه بدونها...

أجبته على الفور:

- لا شكرًا يا أستاذ يجب علي الذهاب فأنا أصلًا متأخِّرة لخمس دقائق عن عملي!... أردتُ تثبيت موقفي، فإن تأخّري قليل جدًا.

- اجلسي يا لميس لأتكلم معكِ، فحديثي يحتاج وقتًا!!!... قال عباراته بتَودّد وهدوء مع ابتسامة لم أستطع تمييزمغزاهما.

- حاضر أستاذ...

(الظاهر محاضرة الأخلاق والإخلاص بالعمل والشعور بالمسئولية؛ ستطول)!!... قلتُ مع نفسي.

- سمعتُ من زميلاتك وأُريد التأكُّد منكِ...

اتسعت الابتسامة، بل علتْ كُلُّ وجهه، تقدَّم في مجلسه ليلتصق بالمنضدة خشية تناثر كلامه، أراده موجهًا لي فقط... قال بصوت هامس فيه الكثير من الحياء:

- أنتِ حامل بالأشهر الأولى يا لميس صح؟...

انتظر جوابي وهو لا يزال ملتصقًا بالمنضدة وعيناه كلاهما في تركيز انتظارًا لجوابي...

- هذا صحيح يا أستاذ!!.

شعرتُ بارتفاع درجة حرارة وجهي حتى الحرارة وجدتْ مخرجًا لها من عينيّ لينفجر وجهي من شدَّتِها!...

- إن الموضوع في أوله لذلك لم أُخبِر أحدًا به، علاوةً على عدم رغبتنا بهذا الحمل لسوء توقيته فمَنْ يا ترى يجازف بهكذا خطوة والحرب مشتعلة والظروف غير طبيعية...
تأكّدتُ من أن سوسن هي من أفشتْ له بالسرِّ!.. مَنْ غيرها إذًا.. وهي الوحيدة التي أودَعتُها سِرّي!!... سألتُ مديري:
- ترى مَنْ أعلمك يا أستاذ؟!
- مَنْ غيرها صديقتك اللصيقة لكِ سوسن!!.. وهل يُخبّأ مثل هذا الخبر؟، ولماذا؟!.
- لا لشيء معين سوى أن إفشاءه جاء مبكرًا.
- إن واجبي كمدير، والمدير يُمثِّل الأب أيضًا، فهذا يُحَتِّم عليّ التفكير بتبديل طبيعة عملك هذه الفترة! ولتكن مسئوليتك حسابات الكميات والتخمين بدلًا من المواقع واضطرارك لِتسلُّق السلالم الخشبية إلى غير ذلك من مخاطر تَحِفُ بعملك الحالي.
- شكرًا جزيلًا لموقفك، لكني لا أشعر بحاجة لمثل هذا التبديل، فأنا وكما تعرف حضرتك مستمتعة بتأدية عملي.
- أنا واثق من ذلك ولكن المنطق يُحَتِّم علينا ذلك... قالها وهو لا يكاد يخفي إعجابه بشجاعتي واندفاعي للعمل، علتْ وجهه ابتسامة المُتوقِّعِ لهذا الجواب أصلًا:. حسنًا عودي الآن إلى عملك، الموضوع لن يقفل ولكن يُؤجَّل لحين إحساسك بضرورة النقاش!...
إنه يشعر بأن النقاش سيكون قريبًا لا محالة.
- أنا شاكرة لك هذا التعاطف الأبوي.

شعرتُ بتأنيب الضمير، استقلَّيتُ سيارة البيك أب القديمة التابعة لموقع العمل.. كيف دخلتُ مستعدَّة لمعركة؟!، لكنه في الحقيقة فاجأني بإنسانيته (فعلًا المواقف هي التي تُبيِّنُ معادن الناس).

رَدّد زوجي الكلمات نفسها عندما كنتُ أسرد له ما كان من المدير هذا اليوم بعد الانتهاء من تناول وجبة الغداء، والتي تكون عند الساعة الخامسة والنصف مساءً على أقل تقدير، لأني بعد ما انتهي من عملي في الساعة الرابعة بعد الظهر؛ بعد ما أكون مررتُ على دار أهلي لجلب بسمان فإنَّ حافلة المدرسة توصله إلى هناك إذ أن دوامه ينتهي قبلي بكثير، ومن هناك أتوجه إلى الجامعة التكنولوجية لينضمَ إلى قافلتنا عادل فهو قريب بعض الشيء من دار أهلي الواقعة في الكرادة داخل، والجامعة تقع في شارع الصناعة الذي لا يبعد سوى دقائق معدودة بالسيارة، لنصل إلى والواقع في حي الكفاءات... إنَّ رحلتي اليومية ما بين مقرّ عملي في حي زيونة وحتى دخولنا البيت لا تَقِلُ عن ساعة على أقل تقدير، لذلك ليس بإمكاننا تناول وجبة الغداء قبل الخامسة والنصف بأيِّ حال من الأحوال... بعد الانتهاء من وجبة الغداء والاهتمام بشئون بسمان المدرسية وشرب شاي المساء تبدأ المرحلة الثانية ألا وهي تهيئة وجبة العشاء الخفيفة ووجبة الغداء لليوم الثاني بما فيها تحضير بعض السندويتشات لعادل وبسمان لليوم التالي.

وأنا منهمكة بالمطبخ، سمعتُ رنَّة الهاتف لتَسكُتَ بعد لحظات، وهذا يعني أن النداء قد استُقبل من قِبل عادل أو بسمان...

- النداء لكِ يا ماما، إنها خالة لا أعرف اسمها!! ولكنها تعرفني إنها تطلب مكالمتك... قال بسمان جملته وفرَّ راكضًا، فهو على ما يبدو منهمك بحَلّ الواجب البيتي.

- ألم تُخبِرك باسمها يا بسوم (هذا اسم الدلال الخاص به) هل سألتُها؟... رفعت صوتي ليسمعني.

- لقد ذَكَرَتهُ لكني لم أستطع تمييزه... أجاب بسرعة شديدة ليعود إلى ما يشغله.

رفعتُ سماعة الهاتف بعد قطع سلسلة أفكاري حول الوجبات، وما يمكنني إعداده...

- ألو، تفضّل مَنْ حضرتك؟

- أنا خالتك أم علاء يا لميس، كيف أنتِ؟، أرجو أن لا أكون قد اتصلت بوقت غير مناسب... جاءني صوتها يملأُه الفرح تكاد الكلمات تخرج من فمها مرة واحدة تتزاحم لتصلني متداخلة دون تمييز أيٍّ منها.

- إنكِ تحملين خبرًا سعيدًا يا خالة كما يبدو من صوتك! أتمنى أن يكون كذلك.

- حزرتِ والله يا حبيبتي!!! إنه يتعلق بعلاء بالتحديد.

حاولتْ تهدئة نفسها لتعطي الخبر أهميته...

- خبريني ما عندك - بالله عليكِ - فكلّي لهفة لسماعه... سَرْتْ لي العدوى بالكلام السريع والمتداخل.

ـ إنه حي يرزق يا بنيتي! إنه حي!... هل يُعقل هذا بعد كل هذه الفترة!... ألا إن رحمة الله وسعتني.

ـ الله عليك يا خالة خبريني كيف عرفتِ؟، ومن أين وصلك الخبر؟، وهل تأكدتِ؟ قولي بسرعة.

ـ إنها إحدى قريباتي والتي تسكن المنطقة الشمالية من البلد، اتصل بها علاء يوم أمس على عجلٍ، طلب منها أن تتصل بي لتطمئن قلبي. سألتها إن كانت قد تأكّدتْ من شخصيته فهي لم يسبق لها أن استمعتْ لصوته عبر الهاتف، هي لم تجب عن أسئلتي، لكنها متأكّدة إنه هو...

ـ أعرفتِ أين كان طول هذه الفترة؟... (حاولتُ استدراجها بالكلام علّي أستنتج صِحّة خبرها من عدمه)... ومتى كان ذلك؟.

ـ قبل عِدّة أسابيع عندما قام أفراد من المنظّمة الحزبيّة في منطقتنا بتفتيش مباغت لبيتنا ـ ككل مرة ـ أخذوا في التهديد والوعيد والصراخ وككل مرة أيضًا انهمرت الدموع من عيني دون إذن مني!، وكلما زاد وارتفع بكائي وحزني ولهفتي البادية على وجهي، يرتفع صوتهم أكثر، فإنهم كما تعرفين ويعرف الجميع؛ يلتذون بمعاناة الناس! فيثبتوا بذلك لأنفسهم بأنهم الأقوى والأقدر، التفتَ إليَّ أحدهم؛ ليقول بصوت غليظ كغلظة فؤاده... اسمعي يا أُم الجبان المتخاذل: صحيح إن دارك خاليةٌ منه الآن، لكننا كلنا يقين بأنكِ على علم بمكان اختبائه!، ومهما طال الزمن سوف نعثر عليه لا محالة، وبهذه الحالة تكونين متسترة على خائن مطلوب للعدالة، وبحكم القانون ستواجهين الحكمَ نفسه الذي سيواجهه ابنك الخائن!!! ليُنَفذ بكما حكم الإعدام!...أجبته وبصدق نابع من قلبي: والله يا بني لا أعرف شيئًا

عنه ولا عن مكانه، وهل هو حي أم ميت؟! وأجهشتُ بالبكاء، أتمنى لو تعثروا عليه بطريقة أو بأخرى فيطمئن قلبي عليه! وبعدها افعلوا بنا ما بدى لكم.. على الأقل أكون معه حيًّا أو ميتًا.

- ليتكِ تستطيعين السيطرة على مشاعرك أمام هؤلاء القساة بل إنهم ليسوا قساة بل إنهم بالفعل ساديين... قلتُ لها وأنا أشتعل غيظًا.

- قاطعتني لتسأل: ساديين؟!.. ما معنى هذه الكلمة إن كنتُ سمعتها صحيح؟!.. أتقصدين إنهم سادة القوم؟! لا أتصوّر أنكِ تعتبرينهم سادة القوم لمجرد احتكامهم على سلطة!... سألتْ بكل عفوية وبساطة، وهي متأكّدة من جوابي مسبقًا.

- بالطبع لا يا خالتي العزيزة... (جعلني سؤالها أضحك من قلبي رغم ما أشعر به من وجع على موقفها)... أقصد إنهم أشخاص مصابين بمرض نفسي.

- والله إنهم أصحاء بنيتهم أقوى مني ومنكِ.

لا زالتْ غير مستوعبة ما أقول والظاهر أن كلامي أعلى من مستواها الفكري والثقافي.. مرَّ بذهني أن أسألها عن تحصيلها العلمي لكنني شعرتُ بسخف تفكيري، إنها فعلًا إنسانة أميَّة لم يتسنَّ لها الجلوس على مقاعد الدراسة من قبل، وهذا لا يعني جهلها للحياة فهي شخصية على إطلاع كبير بالكثير، إنها أم حنون بمعنى الكلمة، على إطلاع واسع بالعادات والتقاليد، مُحبة للناس، تُكِنُّ حُبًّا لبلدها يَسري فيها كسريان الدم بالشرايين (وهذه صفة تنطبق على كل العراقيين)، من خصالها الواضحة والخاصة بها: كثرة وسرعة توجُّهها إلى الأطباء، أقل ما يُلِمُّ بها أو بأولادها حتى أبسط دور برد، تراها عند الطبيب بَعُدَ أو قَرُبَ.

أكملتْ حديثها وعادت إليه متناسية التشخيص الطبي التي لم تَطَّلِع عليه من قبل:

- بعد أن ذهبوا وولوا عن وجهي سمعتُ رنَّة الهاتف، كانت إحدى قريباتي على الطرف الآخر منه لتخبرني بما أخبرتكِ به للتو.. أكَّدتْ لي بأنه يستعد للهروب إلى إيران عبر الجبال.

- آه يا خالتي العزيزة، كأنَّ الله استجاب لكِ ولدموعكِ.. مبروك لنا جميعًا هذا الخبر.

- ومع هذا فهنالك ما يُنَكِّدُ عليَ، ويحرمني التمتّع به!.. لما لم يتصل بي.. ويخبرني بكل ما أخبر قريبتي به؟!.. أ نسي رقم هاتفي؟!.

- خوفًا عليكم بالتأكيد يا خالة.. من المؤكد أن هاتفكم تحت المراقبة الآن، فهذه أول خطوة يقومون بها في مثل هذه الحالات.

- ليكن صحيحًا ما تقولين يا ابنتي.

- ليكون هذا إن شاء الله... حاولتُ طمأنتها قدر المستطاع.

بدأ المارثون الصباحي، وتهيئة وجبة الفطور، والتأكُّد من حقيبة بسمان المدرسية واحتوائها على كل ما يلزمه من ساندويشات وفواكه وعلبة العصير؛ إلى غير ذلك، حتى عادل فأحرص على تحضير الساندويشات له؛ فإنَّ ساعات دوامه طويلة جدًا... وبعد كل هذا أتفرغ لنفسي، أرتدي بنطلوني الجينز لأجعل قميصًا طويلًا يسترسل فوقه، حتى قمصان عادل وبابا لم تسلم من يدي! فكثيرًا ما ألتجئ إليها حيث أقمشتها السميكة بعض الشيء، قياساتها الكبيرة بالنسبة لقياس جسمي تجعل منها فضفاضة ومريحة مع طبيعة عملي، أما

الحذاء فاختياره شيء ليس بالسهل حيث قمتُ بتجربة أنواع كثيرة، منها الرياضية والجلدية الواطئة، انتعلتُ في بادئ الأمر صندلًا خفيفًا تصورًا مني بأنه سيكون الأروح! لكنها جميعًا فشلت بالمواصلة مع طبيعة عملي، الأرض وعرة تملؤها الأحجار وقطع صغيرة وكبيرة من شيش التسليح، كثيرة هي المرات التي اخترقت بها قطعة من الحديد قدم أحد العمال أو الفنيين، فمن هذه الحوادث وغيرها كان علي اختيار الحذاء الملائم، كانت لي صديقة عربية اقترحتْ لي ماركة حذاء مخصص لمواقع العمل مصنوع من الجلد السميك يُغطّي كل القدم حتى الكاحل، يرتفع عن الأرض بطبقة سميكة من المطاط ولكن لا وجود له في أسواقنا، فقامت بجلبه لي مشكورة من إحدى الدول المجاورة كهدية، وهكذا لم أستعمل غيره طوال ست سنوات هي مدة بقائي بالعمل.

وصلتْ سيارة الدائرة عند الساعة السادسة والربع صباحًا لتقلَّني إلى عملي... ألقيتُ بالتحية على الزملاء والزميلات، ألقيتُ بجسدي على مقعد قرب النافذة وهو المفضل لدي، كان صوت فيروز يهدر من مُسَجِّل السيارة رغم أن سائقها هندي الجنسية!، إلا أننا وفّرنا له شريط كاسيت للمطربة المفضَّلة لدى غالبية العراقيين عند الصباح، حيث إن إذاعة بغداد عوّدتْ آذاننا على هذا الصوت الملائكي الكنائسي عند كل صباح، فهي تَبُثُّ مجموعة من أغاني هذه الفنّانة لمدة نصف ساعة يوميًّا، ولكننا لم نحظَ بهذا البث لتبكيرنا بالعمل دونًا عن كُلِّ المؤسسات الحكومية، اتجهتُ بنظري إلى النافذة... انطلقتْ بنا سيارة اللاند كروز بسرعة شديدة لإيصالنا بالوقت

المُحدّد، كانت الرحلة من داري إلى منطقة عملي في زيونة تستغرق حوالي خمس وثلاثين دقيقة، وفي هذا الوقت من النهار تكون الشوارع غير مزدحمة بعض الشيء، لتبدأ الازدحامات الصباحية عند الساعة السابعة والربع فما فوق، إن طول الرحلة يوفِرُ لي فسحة جيّدة للتأمُل والتفكير، تَمَحّور تفكيري هذا اليوم حول منطقة الكفاءات (اسم المنطقة السكنية التي نقطنها) أطلقتْ هذه التسمية لمنح أراضٍ لحملة الشهادات العليا حيث أُطلق على هذه الطبقة ذوي الكفاءات، سُنَ قانون في منتصف السبعينيات سُميَ قانون الكفاءات لتشجيع العراقيين من حملة الشهادات العليا والذين استقر بهم المقام بالدول الغربية التي توجهوا لها للدراسة حيث منحتهم امتيازات كبيرة للبقاء بها للاستفادة من العلم الذي استقوه منها، شعرتْ حكومتنا بأهمية هذه الطبقة في بناء البلد من كل النواحي العلمية والعمرانية والأهم بناء الأجيال القادمة، فعمدتْ إلى تشريع قانون يسمح لكل قادم إلى البلد إدخال أحدث موديل سيارة يرغب بها دون الحصول على ضرائب جمركية وهذا ما كان معمول به، إدخال أثاث بيتي كامل معفو من الضرائب، وأخيرًا توفير قطعًا سكنية ومساعدتهم ببنائها عن طريق تسليفهم مبلغ قدره عشرة آلاف دينار عراقي مما يساوي ثلاثة وثلاثين ألف دولار أمريكي، وأيضًا بدون فائدة مصرفية على أن يخدم في جامعات ووزارات الدولة ومؤسساتها... عادل هو أحدهم، تزامنت فترة سريان القانون مع فترة زواجنا وإعداد بيت الزوجيّة، فكانت فرصة جيدة لتوفير أثاث المنزل من الكويت حيث شركات الأثاث العالمية وهذا ما لا يتوافر عندنا، حتى مستلزمات حفل

الزفاف، ابتداءً من كاسات الحلويات الخاصة بهذه المناسبة انتهاءً بالبدلة البيضاء ومكملاتها من أكاليل ومسكة يد... إلى غير ذلك، بعد ما كانت بغداد قبلة هذه الدول في مثل هذه المناسبات، استذكرتُ كلام الأهل عمَّا كنا عليه قبل سنة ثمانية وستون حيث كل الشركات العالمية المشهورة وكل حسب اختصاصه كانت تتسابق بإنشاء فرع لها في بغداد، كل أنواع السيارات العالمية لها وكالات، دائمًا تحدثنا ماما عن الحليب الذي كانت تسقيه لي عند ولادتي، وكان هذا عام ثمانية وخمسين يصل إلى دارنا كل صباح بسيارة تابعة لشركة سبنس الإنجليزية بعد وصوله على متن طائرة تحط على أرض مطار بغداد الدولي، حتى أنا وأختي حنان كنا نمزح معها على أساس أنا أخت الأمير أندرو بالرضاعة!... سيارات شركة مووتا الإيطالية المشهورة بصناعة المرطبات (الآيس كريم) كانت تجوب شوارع بغداد لتوصل منتجاتها اللذيذة للأسواق المنزلية... هذا وغيره الكثير تلاشى رويدًا رويدًا ليضطرَّ الفرد منا إلى السفر إلى إحدى الدول المجاورة لتوفير أبسط مستلزمات الأفراح!!!.

جلب انتباهي صوت إحدى زميلاتي:

- أرجوكِ يا لميس، حاولي أن تكوني متواجدة عند السيارة قبل الرابعة بقليل اليوم فقط، ولا تجعلينا نتأخر في العودة ككل الأيام.

أفقتُ من غفلتي وتذكرتُ وجود الزملاء معي بالسيارة...

- أنا لا أغادر قبل الرابعة بأي حال، وأنت تعرفين ذلك يا ضمياء، فما الجديد اليوم؟!.

- للأسف الشديد أنا أعرف ذلك بل ومتأكدة منه... (قالتها ممازحة إياي)... لذلك اترجّاكِ اليوم أن تُغيري من عادتك... (استمرّتْ بممازحاتها متعمدة تذكيري بشيء ما، المفروض أني أعرفه).
ماطلتها بالجواب لأخذ وقتي علَّني أتذكر شيئًا ما:
- حاضر سأكون هناك الساعة الرابعة والثلث... (ممازحة إياها)...
- لا تكوني سخيفة، اليوم في تمام الساعة الخامسة سيحضرون لطلب أختي رسميًّا، وأنتِ على علم بذلك...
لم تفلح بمحاولتها إخفاء نفاد صبرها منّي عندما ترتعش شفتها السفلى فتتهدَلُ قليلًا في الزاوية اليمنى، فإن ضمياء متوترة اليوم بالذات...
- أكيد سأضطر للتأخر، سنقوم اليوم بصبِّ السقف الخرساني، وهذا يتطّلبُ الإشراف المباشر والمستمِّر حتى انتهاء العملية.. أقترح عليكِ الطلب من المدير بتخصيص سيارة خاصة بي لتُقِلَّني لوحدي عند انتهاء الصب.
- إنه اقتراح معقول ومناسب...
تهَّللتْ أساريرها، وعادت إلى صمتها لتمنحني الفرصة من جديد لأُكمل تسلسل الأفكار التي فاضت بها خلايا دماغي إذ عادت بي ذاكرتي لعام خمسة وستين فهو موعد لقائي الأول مع الطبّاخ الغازي وهجر أخيه النفطي، كانت احتفالية حقيقية، وَقَفَتْ ببابنا شاحنة صغيرة تحمل الطباخ الأبيض الأنيق، زوَّدوا ماما بورقة طُبع فيها أرقام هواتف متعددة، تعود لمركز تسويق أسطوانات الغاز السائل، كل مشترك مع هذه الشركة عنده رقم اشتراك خاص به، فعند احتياجنا لأسطوانة غاز جديدة، فما علينا سوى الاتصال بأحد هذه

الهواتف وإعطاء رقم الاشتراك الخاص بنا، فتأتي سيارة صغيرة لباب منزلنا لتزودنا بأسطوانة جديدة وهذا كل ما في الامر!!! ليمر بنا بائع أسطوانات الغاز بعد حوالي عشرين عامًا بعربته الخشبية المُتَهرِّئة تصطف على ظهرها كتل معدنية ثقيلة لا لون لها تبدو على أسطحها آثار الصدمات التي تلقتُّها متدحرجة من العربة إلى الأرض، كانت في يوم من الأيام أسطوانية الشكل!! تَجر العربة الخشبية دابة متهالكة أُجبرت على المشي، يُنقر بأنبوب حديدي صغير على صحن معدني قديم ليصدر رنين بإيقاع متواتر أصبح مألوف لنا، فنعرف أن بائع الغاز قد حلَّ أهلًا ونزل سهلًا بشارعنا!... إن حضارتنا تمشي بخطوات ثابتة نحو الخلف!... الحمد لله على سلامة العقل والدين.

(٦)

لم أحظَ اليوم بمقابلة صديقتي سوسن لأطَلِعَ على آخر مُستجدّات سفرها لزوجها، فأنا منشغلة بعملية صب السقف الخرساني... طافت بفكري كلمات سوسن، وأنا مستلقية قليلًا بعد تعب نهار طويل، وهذا بأمر من عادل ـ كيف لا؟!ـ فأنا أحمل ابنه أو ابنته بأحشائي، فعلًا اليوم كان مجهدًا وسبَّب لي آلامًا في أسفل ظهري، أنا بحاجة لهذه الراحة حتى عَيْنيَّ بحاجة لهذه الراحة... انطلقتْ أشعتها لتخترق زجاج النافذة المقابلة للسرير، اصطدمت بشجرة البرتقال الصغيرة التي غرسها عادل بالربيع الماضي، لكن نظري لم يصدَّه فرع الشجرة الصغيرة، بل استمر في السفر إلى بعيد، كأني ركبتُ آلة الزمن لأعود بالتاريخ إلى ثلاث سنوات مضت، حيث بدأ اسم جميل يطرق مسامع سوسن!.. تردد هذا الاسم كثيرًا على لسان والدها، عرفتُ وتأكّدتُ بأن جميل يتربع بقلب السيد الوالد لا لأنه يستحق ذلك فقط بل لمكانة والد جميل ـ الصديق الغالي والعزيزـ كيف لا وهو شريك مقاعد الدراسة وبعدها العمل لأكثر من عشرين سنة استمرّتْ هذه العلاقة، لتنتهي برحيل والد جميل ـ رحمة الله عليه ـ أيامها كان جميل لا يزال ولدًا صغيرًا لبقًا، يتحين الفرص للتودُّد لوالد سوسن للحصول على ما يريد من حلويات وحتى بعض الألعاب الصغيرة التي كان يحرص والد سوسن على اقتنائها مُقَّدمًا قبل الدخول إليهم، كثيرًا ما كرَّر السيد الوالد المحترم قصصه مع جميل ذلك الولد المحبوب.. اهتم بمتابعة أخباره بعد رحيل الصديق الغالي، حتى بعد

أن أصبح جميل شابًا مميزًا بالذكاء واللباقة وسفره إلى لندن للحصول على أعلى شهادة بمجال تخصصه (شهادة الجارتر) ليصبح محاسبًا قانونيًا.

جاء اليوم الذي ستَرى به صديق الوالد المجهول، صاحب الرسائل المتباعدة ـ إنه العزيز ابن العزيز ـ إنها تتذكّرُ جليًّا تأثير تلك الرسائل على نفسية والدها.. كانت هي الأخرى تفرح بوصول أية رسالة منه، فإنها تحصل على ما تطلب من الوالد في ذلك اليوم!!..

بمجرد وصول جميل إلى أرض الوطن، حتى بادر الوالد بدعوته إلى وليمة عشاء عراقية، ولم يتردّدْ هو لتلبيتها، هو أيضًا في شوق لرؤية الصديق المقّرب لوالده بعد عدد غير قصير من السنين البيت برمته مشغول لاستقبال الضيف وكالعادة سيدة المنزل لم يتسنَّ لها مغادرة المطبخ منذ الصباح الباكر، منهمكة في إعداد أشهى المأكولات والحلويات والتي عادةً ما تكفي لأكثر من عشرين فردًا!! وهذا هو ما اعتادت عليه السيّدات العراقيات لتُشعر الضيف بمدى ترحابها وكرمها، خاصة وإن ضيف اليوم بالذات في شوق إلى الأكلات والجلسات العراقية بكل ما فيها، بعد ما حُرم منها طوال تلك السنوات.

سوسن هي الابنة الوحيدة مع ثلاثة صبيان، وهي الصغرى بينهم، وهذا الموقع يجعلها مميزة ومدّللة من جميع أفراد العائلة، فهي الصغيرة مهما تكبر، ستدرك سن الرشد بعد حوالي أربعة أشهر، وهذا لا يمنع من تصرفها الطفولي العفوي وكأنها بنت الخمس سنوات، لا زالت تنتظر من كل قادم إليهم حمله الحلويات

والمصّصات وأنواع كثيرة من العلكة بنكهات مختلفة!، وأخيرًا الشيكولاته.. هي متخصصة في شيكولاتات الماركات الغربية المشهورة غالية الثمن، وخاصة التي تُشترى من الأسواق الحرة.. مَنْ يجلب لها أكثر فهو يحبها أكثر!.. إنها شابة على قدر كبير من الجمال والرقة، مليئة بالأنوثة والغنج، هي طفلة كبيرة، قامتها الطويلة لم تضفي إليها رشاقة فإنها ممتلئة، مكتنزة الأرداف جعلتْ خطواتها تقع بثقل على الأرض، رأسها مُتدلٍّ فوق صدرها كأنها ببحث دائم عن شيء مفقود تود التفتيش عنه!، بشرتها بيضاء تشوبها حمرة خفيفة تزداد بأوقات معينة، معالم وجهها توحي بالكثير من علامات الطفولة، إنها طفلة شكلًا ومضمونًا، تُصدق كل ما يقال لها حتى وإن لم يكن منطقيًّا.

رَنَّ جرس الباب! ذهبتْ سوسن لتفتحه، إنها الشخص الوحيد المتفرِّغ، الكل لاهٍ في إعداد جزءٌ من الوليمة المعّدة للضيف.. متوقعة مَنْ على الباب، ومَنْ غيره! فتحت، اضطرت لرفع رأسها أكثر من المعتاد للنظر إلى الشاب؛ لترى ابتسامة مرسومة بغير تصنُّع فهي ابتسامة ودودة.. بادرها بالسلام فَرَدّت عليه.. اقتحم ذهنها استفسار حول عمر مَنْ يقف أمامها حيث أصابها الذهول، فهي تعرف بأنه في الثلاثين من العمر بل بنهاياتها، لكنَّ مَنْ يقف أمامها يُخَيّلُ لها أنه أصغر بكثير!.. إنه وسيم، تكاد عضلاته تنفر من قميصه، أبيض البشرة مع شعر أسود كثيف، انساب على جبهته ليُلامس أذنه اليسرى متوسطة الحجم والتي تلتصق برأسه، نزلت بنظرها إلى أنفه !!!.. إنه كبير ومستدق أو هذا ما بدا لها، فإن شاربه كث شديد السواد غطى جزءًا كبيرًا من شفته العليا، ونهاية أنفه، أحستْ بدفءٍ يلف

يدها!!.. إن يده امتدّتْ لتأخذ يدها، وهذا شيء أكيد أن يصافحها، لا بل يأخذ يدها عاليًّا، قرّبها من فمه.. قبّلها !! ركّز نظره بعينيها أطال فترة تقبيل يدها.. شعر بيدها البيضاء الغضة ترتجف، لكنه لم يأبه لذلك، وهي تتحاشى النظر إليه توقف عقلها عن التفكير، كما توقف كل شيء بها حتى كأنَّ قلبها توقّف للحظات أو هكذا شعرتْ!!.. تركها، تابع تقدُّمه إلى مدخل البيت دون استئذان أو انتظار كلمة ترحيب من المفترض سماعها في مثل هذه المواقف، أُجبرتْ ساقيها على التحرك، عادتْ الدماء تسري في عروقها، ما هذا الذي فعل؟! (سألتْ نفسها)، ماهو التصرّف الصحيح الآن؟، كيف ستخبر أهلها؟.. بالتأكيد سوف تطلعهم ليكونوا على علم بالأخلاق المُنحلَّة للضيف.

تبادل السلام والتحية الحارة معزِّزًا إياها بتبادل القُبل مع أفراد العائلة من الذكور فقط، والسلام من بعد على الوالدة هذا هو المتعارف عليه في مجتمعنا، فالرجل لا يجرؤ على لمس مَنْ هي مُحَرّمة عليه، لاحظتْ ذلك سوسن.. تفاجأت.. هو يعرف إذًا عاداتنا، ولا زال يتذكّرها! إذًا هو قصد الحركة معها بالذات مرَّت الليلة، والكل كان منسجمًا مع جميل.. هو شخص ودود، لبق، يجيد التحدُّث إلى مختلف الأعمار حتى أنه لم يفته حمل بعض الزهور الجميلة والشيكولاته!.. نعم إنه حمل معه الشيكولاته السويسرية بعلبتها الأنيقة، وهذا ما جعل الوالد يشعر بالزهو، وكأنه يقول للكل أرأيتم: هذا هو صديقي ابن صديقي.. تأكَّدتْ سوسن من أنه شخص محتال وغير واضح بتصرفاته، فهو لم يتطرّق إلى فعلته لا من قريب ولا من بعيد! ولم يكلف حاله بإعطاء مبررًا لما بدر منه عند الدخول !، وهذا يعني أنه

كان يقصد مغازلتها أو بالأحرى معاكستها، وهذا ما لا تستطيع تمريره دون الوقوف عنده، يجب أن يعلم كلُّ مَنْ في المنزل؛ ليعتذر أو ليقدِّم تبريرًا، انشغلتْ لوقت طويل تفكّر في طريقة ما لفتح الموضوع، وليس بعد ذهابه، فإن تركها للموضوع يعني موافقتها على الفِعلة المشينة، ويفتح له مجالًا لتكرار الفعلة، وسيتأكّد من سوء أخلاقها..وسيظن كذا وكذا...

انتبهتْ إلى جميل وهو يَهمُّ بالمغادرة، أخذ يشكر الجميع على هذه الليلة الرائعة، والتي عادت به إلى كل ما هو جميل في الوطن، راح يصافح أباها وإخوتها بحرارة، أخذ بيد أمها وقبّلها !!!، وسحب يدها هي الأخرى فقبّلها!!!.. أُصيبت بالذهول والحزن والإحباط شعرتْ وكأنها بالون كاد ينفجر قبل ثوانٍ ولكن شَكّة الدبوس أضاعت وخفّفتْ من دَويِّ الانفجار الذي كان سَيهزُّ المنزل فَيَتحوَّل البالون إلى قطعة مطاط مرمية على الأرض ـ لا حول لها ولا قوة.

انسحب الضيف بكل خفة ورشاقة مثلما دخل...

شرِّدتْ مع أفكارها، وهي تشعر بكل مَنْ في البيت يروح ويجيء من أجل لملمة المكان وتفريغ مائدة الطعام ـ هنا ـ جاء صوت الأم بنبرة حادة لتنبهها إلى واجبها المعتاد وهو غسل الأطباق وترتيب المطبخ، استجابت مذعنة، استغرقتْ في أفكارها وهي تغسل الصحون.. إنه لم يكن يعنيها بالقبلة، فها هو قبَّل والدتها، لكنه لم يقبل الوالدة عند الدخول! فَلِمَ القبلة عند الخروج؟!.. بل قَبّل سوسن بالدخول والخروج.. لا تنسي أيضًا أنه قبلك أمام الجميع ـ خاطبتْ نفسها، استشاطتْ غيظًا، فهي لا تجد تحليلًا مقنعًا لما حدث.. بالغتْ كثيرًا

وأعطتْ أهميّة أكبر مما تستحق لقُبلة صغيرة طُبعتْ على يدها، ثارت كبركان، وجهتْ لنفسها سؤالًا أرادت توجيهه لأهلها!.. أين هم إخوتي والوالد من كل ما حدث؟.. أين الرجولة التي يتحلون بها؟، تركت غسل الصحون وصاحت: بابا، بابا... رددتْ الكلمة أكثر من مرة، على طول المسافة بين المطبخ وغرفة الجلوس دون إعطاء فرصة للإجابة...

- نعم حبيبتي... كان الوالد يجيب بهدوء، وهو جالس على كرسي بجانب الموقد النفطي والذي يعلوه إبريق الشاي، ممددًا ساقيه على طوليهما دون أن يثنيهما، ملقيًّا برأسه إلى الخلف، مغمض العينين، مبتسمًا.

- أريد أن أسأل... توقفتْ قليلًا لجلب انتباه أبيها... ما الذي حدث من قِبَل ابن صديقك العزيز؟!... وهي تتميز غيظًا بانتظار الجواب...

- وما الذي حدث يا حلوتي؟... وهو لم يغيِّر من وضعه قيد أنملة...

- لقد قَبّل يدي، أي: عاكسني... مستطردة فيما تقول دون أخذ نفس بين الجملتين!، متعمدة ذلك لتوصل إلى ذهن الأب ما تريد توصيله.

- كذلك قبّل يدي والدتك... فتح عينيه، وهذا أول تغير يحدثه على وضعه المريح...

- لكنه قبّل يدي مرتين؛ عند الدخول والخروج... أرادت إضفاء خصوصية معها بالذات...

- وهذا أيضًا ما فعله مع أمك... عَدّلَ قليلًا من جلسته.

- عند الخروج فقط مع ماما... إنها مُصِرّة على إضفاء الخصوصية بل هي راغبة بذلك...

- أنتِ على خطأ، لقد قبّل يديها في المرَّتين.

- لكني لم ألاحظ ذلك... قالتها بضيق محاولة نقض الحقيقة التي بدت تتكشف أمامها...

- هذا راجع لكِ إذا لم تنتبهي، لكنه فعل... همَّ واقفًا، شابكًا يديه وراء رأسه مُطلقًا تثاؤبًا...

- ألاحظ أن حضرتك لم تمانع أوحتى لم تعترض... أُصيبت بالإحباط أكثر وأكثر...

- ولِمَ الممانعة؟! هو شاب مثقف، مجامل، وفوق كل هذا وذاك فهذه أخلاق الغرب، وهو كما تعلمين تأدَّب بأدبهم.. لم يحدث شيء يستحق الكلام والمناقشة ما دام الشاب لم يكن يقصد إلا المجاملة...

تركها واستدار ناحية غرفة النوم، ناقلًا خطواته بتثاقل.

- لكنها قبّل يا أبي... وهي تمشي خلفه لاحقة به تريد مواصلة الحديث

- تراه لم يشعر بأيِّ إحساس حينها مجرد تحية غربية... ديننا يقول:"إنما الأعمال بالنيات"، أنا ذاهب للنوم، كان يومًا طويلًا.

تأكدتْ بأن كل شيء كان للمجاملة لا غير!...

فها هي الأيام والأسابيع تَمُّر ولم يتصل أو حتى يمُّر للزيارة كل شيء يسير برتابة، تذهب وتعود من وإلى معهدها، وهي بالسنة الأولى على مقاعد الدراسة، كل مَنْ حاول التودد لها من زملائها، كان مصيره الصَدَّ واللامبالاة، فهي لا تنجذب لهم، إنهم جميعًا بعمرها أو أكبر قليلًا، وهي لا تنجذب إلا لمن هو أكبر منها سنًا.

(٧)

- إن زوجك عند السيد المدير، وهو يطلب منكِ الحضور...

أنا في الموقع مثبتة جهاز (الثيدولايت)، وهو جهاز هندسي يستعمل لتحديد وتثبيت نقاطًا على الأرض أثناء تخطيط الأسس لبناية ما، وأنا بموقع بعيد بعض الشيء عن موقع الإدارة حيث أمرتْ الوزارة بإضافة أربع عمارات للمجموع العام ليتسنّى لها توزيعها على الموظفين المُسَجّلين أصلاً منذ سنين بعدما وهب السيد القائد الكثير من الشقق لفنانين وشخصيات عامة استطاعت أن تحظى بقبول القائد!!! ليترك الموظف البسيط صاحب الحق ضمن قوائم الانتظار...

أخبرني الساعي (مصري الجنسية) بعدما أحضره سائق (هندي الجنسية)، وهم بديلان لشبَّاننا الذين زُج بهم في جبهات القتال ليكن نصيبهم اليسير من الدنانير راتبًا شهريًّا فيما لو قُدر له البقاء على قيد الحياة...

- أنت متأكد يا عبد الجليل بأن عادل زوجي مع المدير؟... سألته للتأكد...

- نعم يا ست لميس، وأنا قدمتْ له فنجال القهوة على الريحة بنفسي... قالها بلهجة مصرية صعيدية تحديدًا...

نظرتُ لساعتي، فهي تشير إلى الحادية عشرة صباحًا!.. ترى ما وراءُهُ ؟!.. ركبتُ السيارة وأنا في طريقي إلى السيد المدير ويملؤني تساؤل يحيرني.. ترى ما الذي حدا بزوجي المجيء في مثل هذا

الوقت؟ ولمن ترك الطلاب ؟... وقعت عيني على وجه عادل فتأكدتْ شكوكي ومخاوفي، لم يأتِ به إلا شيء يستحق المجيء من أجله..

- هلو عادل... (بادرته بإلقاء التحية اختصارًا للوقت، حتى إني نسيتُ أن أحيّي المدير)... ما هو الشيء الكبير الذي أجبرك على ترك طلابك ؟.

- إنها أمور دنيانا... أنسيتُ أننا نعيش حربًا؟!... (اغرورقتْ عيناه بالدموع دون أن يسمح لها بالنزول، اختنقتْ كلماته في حلقه حتى تعَّذر عليها الخروج)... إنه أخي سامي، لميس رفقًا بي، هاتي أغراضك والحقي بي إلى السيارة.

لم يكد يكمل كلماته، حتى استدار مخفيًا وجهه عن الأنظار، خارجًا من غرفة المدير... أكيد هو متوجه إلى السيارة...

- أ أذهب فعلًا يا أستاذ؟!.. والعمال، وتسقيط الأسس؟.. لمن أترك الجهاز إنه في منتصف الشارع تقريبًا؟.

- وافِ زوجك ولا حاجة بكِ لكل هذه الاستفسارات اتركي كل شيء وأسرعي خلفه... بدا لي حتى صوت المدير مختلف بل مختنق هو الآخر حتى إنه ترك مقعده لشِدَّة التأثر...استأذنتُ منه وشكرته.

استقليتُ مكاني بجانب عادل، وكنتُ شديدة القرب منه.. فإن سيارتنا هي (ڤولكس واگن) موديل ١٩٦٠م لذلك تراني شديدة القرب؛ لأن السيارة أصغر من صغيرة...

- عادل يا حبيبي أتمنّى لو تخبرني بكل شيء.

أجهش عادل بالبكاء، واضطّر لإيقاف السيارة بعد ما كنا قد مشينا مسافة بسيطة، فلم يعد قادرًا على القيادة!...

- لقد اتصلتْ زوجة أخي سامي بي لتخبرني بأنه قد...
لم يستطع تكملة كلامه... انتظرت حتى استطاع أن يتكلم مرة أخرى...
- إن سامي يا لميس قد أُستشهد...
انخرط بنوبة بكاء حادة لم أستطع معها فهم ما يقول... دارتْ بي الدنيا، شعرتُ بشيءٍ ليست بي القدرة لوصفه، وفي الوقت نفسه آلمني مغصٌ شديدٌ في أسفل بطني...
إن سامي أصغر من عادل وهو من مواليد ١٩٤٩م، هذه المواليد التي طالما استدعيتْ لخدمة الاحتياط وبحسبة بسيطة يتبين أن عمره الآن ثلاث وثلاثين يزيد أو ينقص قليلًا...
حاولتُ جاهدة كبح حاجة بي للبكاء بل الصراخ عاليًا لعلي أستطيع إخراج ما في نفسي من ألم، لكني استجمعتُ قوايَّ قدر الإمكان محتفظة برباطة جأشي من أجل عادل لأعمل على تهدئته.. مسحتُ دموعه، أخذتُ بتطييب خاطره مؤكدة له أن الكثير من هذه الأخبار تكون غير صحيحة، وأحيانًا كثيرة (يختلط الحابل بالنابل).. سألته، مضطّرة! والله لا أقوى على تلفظها: هل أُحضِر الجثمان؟!.. كيف للساني النطق بها؟!، وكيف كان وقعها على مسامع عادل؟! لكن ما باليد حيلة...
- لا لا، لم يحضر أي شيء سوى الخبر المشئوم من قِبل المنظمة الحزبية للمنطقة، بناءً على خبرٍ من أحد الجنود الذي كان بالقرب من دبابتهم.

- عسى أن يكون الخبر غير صحيح... (محاولة تهدئته حتى وإن لم أكن مقتنعة بما أقول)... يا الله، ارحم زوجته وولديه فهما لا يزالا صغيرين.
- أرجوكِ استمري بالدعاء لعل الله يستجيب إليكِ، يا لميس... تكلم عادل هذه المرة ونبرة أمل تخالط كلامه.

دخلنا لبيت أهل زوجي وهو بيت كبير يقع بشارع فلسطين خلف جامعة البكر، وكان الوالد قد بنى دارًا صغيرةً لصيقةً للدار الكبيرة، وهو ما يطلق عليه البغداديون (مُشتَمَل) ليسكن به سامي وعائلته حيث إنه تزوج بعمر صغير لا يتجاوز الواحد والعشرين، فهو غير قادر على توفير بيت الزوجية، لكن للحب على القلوب سلطان.. دخلنا، لنرى الوجوه مكفهرة والعيون دامعة، أما زوجته المسكينة فكانت في حالة ذهول كامل، فهي لم تنطق بكلمة ولا يُسمَعُ لها صوت أو أي تعليق، دموعها تنساب دون إذن مانعتها من الكلام، والولدان الصغيران لم يفهما ما يدور حولهما أحيانًا تراهما يبكيان لبكاء أمهما... بدأنا نسأل مذعورين عن ماهية الخبر!... لتجيبنا أخت عادل رغم حزنها تحت إصرار عادل على الاستفسار:
- أنت تعرف أن سامي أحد أفراد فريق مكون من خمسة أشخاص على متن دبابة، وبحكم المخاطر المُعَرَّضين لها كل واحد منهم أعطى معلوماته الشخصية للأربعة الباقيين، وتبادلوا أرقام هواتفهم في حال يطرأ ما يستدعي الاتصال، والظاهر أن مشاغل الحياة أخذتنا ولم ننتبه إلى أن سامي قد تأخّر عن موعد النزول في إجازته الشهرية المعتادة، وها هو اليوم السابع دون خبر منه وأننا لا نعرف

بذلك، فإن زوجته آثرتْ الانتظار والاتكال على الله في عودته سالمًا، فتخبرنا بعد ذلك خاصة وأن الأنباء أعطتْ معلومات حول قيام هجوم عنيف في منطقة تواجد سامي... (فرَّتْ الدموع من عينيها وكأنها تجمَّدتْ في مُقلتيها وهي تسترسل بالحديث)... وبعد ما فقدتْ الصبر لطول الانتظار، عمدتْ إلى الذهاب إلى مقر الفرقة الحزبية للاستفسار عن أي خبر من شأنه طمأنتها، لم تحصل على أيِّ خبر، تذكرتْ أرقام الهواتف التي تركها سامي بحوزتها، اتصَّلتْ لتسمع أصوات البكاء والعويل ومجالس العزاء المقامة بعد وصول جثامين أعزائهم...

- أبعد ما سمعتْ يبقى شك حول مصير سامي وهو خامسهم...

استدار الجميع لمصدر الصوت الذي تداخل مع صوت أخت عادل.. فإذا بها زوجته تندب وتنعي حبيبها التي ارتبطت به وهي لم تتجاوز سن الرابعة عشرة.. قررت أن تخبرنا علَّنًا حتى نصل إلى مخرج ما لم تواصل ذهابها إلى عملها وكذلك فعلتْ مع الأولاد... لأول مرة ساهم الوالد معنا في الكلام، فوضعه النفسي لا يحتمل الكلام:

- محقة هي والله.

قال زوجي:

- كان الله بعونها وعوننا.

تبادر إلى ذهني نفس ما يتبادر في كل هذه المواقف، أو عندما أنتبه إلى لافتة تنعي شهيدًا وما الذي تقاسيه الأم، هنا حمدتُ الله أن والدة عادل متوفية.

أخذنا بالتردَّد إلى بيت سامي كل يوم تقريبًا، تلمُّسًا لخبر أو اتصال هاتفي من قِبل أحد يُطمئننا، وأيضًا التخفيف عن زوجته المكلومة.. استمرَّ بنا الحال على ما هو عليه لمدة خمسة أيام، ولك أن تتخيل حال الجميع، وعلى الخصوص حال زوجته وأبيه حيث بدأ اليأس يأخذ مكانه في نفوسنا وكل يوم يكبر؛ ليكتسح شيئًا اسمه الأمل، خمسة أيام دون أي اهتمام من قِبل المنظمة الحزبية إنها لم تقم بأيِّ دور يُذكّر، وكأنهم اختصوا بتوصيل الأخبار السيئة فقط.

غادرنا بيت سامي حوالي الساعة العاشرة مساءً لأخذ قسطًا من الراحة والنوم الكافي الذي يمكننا من مواصلة ما يقع على عاتقنا من دوام والتحضير لليوم التالي، اجتمعنا على الغداء في البيت كالمعتاد، وكنا نلتهم ما تصل إليه أيدينا دون تمييز طعم معيَّن للوجبة المهم سدُّ الجوع الذي نشعر به... رنَّ الهاتف.. بدأنا نهاب رنَّةَ الهاتف، وهذا ليس حالنا فقط فهو حال كل العراقيين.. خطى عادل خطواتٍ سريعة نحو مدخل البيت حيث موقع الهاتف، وأكاد أجزم أن قلبه خرج وعاد إلى مكانه حتى وصوله الهاتف.. تسمرتُ بمكاني، تعمدتُ البقاء وعدم اللحاق بعادل، لم تسعفني شجاعتي لسماع خبر لا أريد أن أسمعه...

- غير معقول.. غير معقول! قولي غير الذي تقولين بالله عليك!... ارتفع صوت عادل للحظة، وعاد ليختفي!.. أردتُ موافاته لكن رعشة سريعة مرَّت من أعلى رأسي حتى أُخمص قدميَّ.. جاءني صوت نحيب عادل بكل وضوح!، أحسستُ بأمعائي تتقطع في جوفي!.. عدم عودة عادل إلى المطبخ بعد استلام المكالمة وسماع

نحيبه جليًّا، أكَّد لي ما خِفتُ وقوعه!!.. انتفضتْ بداخلي حمية، غَلتْ دمائي في عروقي.. فمن الأحرى مساندة زوجي والوقوف بجانبه في هذا الوقت بالذات، قفزتُ من الكرسي قفزة عالية تفاديًّا للتأخير الذي من الممكن أن ينجم من إرجاع الكرسي للخلف للتحرر من المنضدة ومن ثم استدارتي، كانت خطوتي أعرض من تحملي سقطتُ على جانبي، رفعتُ يدي وأمسكتُ بالمنضدة ونهضتُ مُتوجِّهةً إلى عادل... رفع رأسه، لم أستطع تمييز ملامح وجهه وما تعنيه، الدموع تملؤ وجهه، عيناه ترقصان فرحًا، جسمه منحل لا يستطيع معه حركة!، لا يقوى على التفوه بكلمة واضحة...

- لقد عاد سامي، وهو الآن في منزله مع عائلته!..عاد سالمًا، عاد سالمًا، ما أوسع رحمة الله...

حاول تجفيف دموعه بِكُمِّ قميصه فلا وجود لعلبة مناديل بالقرب منه... اشتد الألم بي، أخفيته، منعته من التأثير على ملامحي، أردتُ ملامح الفرحة فقط هي من تستأثر وتعلو وجهي...

وصلنا إلى بيت سامي، وسيارات غالبية أفراد عائلة عادل قد صُفتْ داخل وخارج المنزل عدا سيارات لا أعرف لمن تعود.. إن اللقاء مفرحًا، مبكيًّا، مؤثرًا.. عِناق وقبلات تعني الكثير من المعاني، جاءني بسمان من الطارمة الخارجية حيث يلعب مع بقية أطفال العمومة، جاءني مذعورًا!.. تاركًا اللعب، شاحب الوجه، التصق بي:

- لقد ذبحوا الحشرة يا ماما!.. دمها على الأرض... صوته متقطع عيناه قد انفتحتا على اتساعها، لم أفهم ما يود وصفه لي... أمسكتُ بيده الصغيرة وهي باردة رغم دفئ الطقس، سحبني إلى الخارج

وأشار بيده صوب خروف مذبوح على جانب البيت (إنها عادة متأصلة عند العراقيين)..عرفتُ مغزى كلام بسمان، فهو يطلق على الخروف (حشرة) رغم ضخامته... هالني منظر سامي.. أين هو من ذلك الشاب الذي ودعناه بالأمس قبل الالتحاق بوحدته قبل حوالي أربعين يومًا فقط؟!.. الهالات السوداء حول عينيه، ظهور بعض الشعرات البيضاء بمقدمة رأسه... حاول البعض سماع ما حدث معه إلا أن وضعه النفسي لم يسمح بذلك، وأيضًا لهفته على زوجته وأولاده وحاجته للاختلاء بهم وبنفسه.

غادرنا المنزل على أمل اللقاء به بعد يومين، وهو موعد الوليمة التي ستقام على شرفه... جئنا في الموعد المحدد للوليمة، وبعد الانتهاء من الطعام جاءت فقرة شرب الشاي المُنَكَّه بحبات الهيل.. تركَّزتْ الأنظار صوب سامي، وحلَّ الهدوء في الغرفة، واللبيب تكفيه الإشارة، فاستجاب سامي لعلمه المسبق بنفاذ صبرنا للاستماع إليه:

- قبل موعد النزول في الإجازة الدورية بيومين، كان الوضع هادئًا لحدٍّ ما... (توقَّف للحظة وكأنه يحاول تذكُّر تفاصيل معينة)... كان يومًا هادئًا... (كرَّر سامي الجملة نفسها التي لم نسمع غيرها في الحقيقة)... كنا قد انتهينا من تناول الغداء على عجل في مثل هذه الأمكنة والأزمنة بالطبع، جاءنا مسئول الأرزاق، مَنْ منكم لا يعرفه؟...

- الكل يعرفه، فمَنْ منا لم ينخرط بالجيش؟! (أجاب أخو عادل الأصغر بصوت مرتفع ممزوجًا بابتسامة بسيطة)...

رمقه سامي بنظرة وأشاح بوجهه عنه...

- حتى نحن معشر النساء سمعنا به عن طريق أزواجنا أو إخواننا (قالتْ أخت عادل)...
- جاءوا بمفاجأة! ألا وهي الفاكهة وأيمَّا فاكهة، الرقي! مَنْ منا لا يحبه؟!...
عاد أخو عادل الأصغر:
- مفاجأة ! أوجدتم خاتم سليمان في داخلها؟... (قهقه بصوت واضح) إنه معروف بفكاهته.. ضحكنا بخجل، أو أستطيع أن أقول خرجنا قليلًا من أجواء الجبهة والحرب.
- قرّرنا... (قالها سامي بنبرة عالية وحازمة، أَفهمنا أنه ليس هذا هو الوقت الصحيح لإلقاء الفكاهات.. الأكيد أنه لم يسمع سوى صوته)... قررنا أن نتناولها وقتَ العصر لنشعر بأننا في بيوتنا كما تعرفون البيت العراقي اعتاد تناول الرقي وقت العصر وبعد القيلولة...
امتقع وجه سامي، سرح بنظره بعيدًا... عادت به ذاكرته إلى الجبهة:
- ما هي إلا نصف ساعة، بدأت أصوات المدافع وكل أنواع الأسلحة تهز مسامعنا بل تهز قلوبنا!.. أخذتْ القذائف تنزل على موقعنا مثل المطر! جاء الضابط ليخبرنا بأن هجومًا عنيفًا ومباغتًا بدأ للتو من قِبل العدو، صرخ فينا ليتخذ كل منكم موقعه المكلف به، لَجَأنا إلى الدبّابة، بدأنا بإطلاق القذائف من المدافع حسب إحداثيات معينة لتنفيذ ما كُلفنا به مُسبقًا، والأرض تهتزُّ تحت الدبّابة، تعالتْ الأصوات من كل نوع وفي كل الاتجاهات.. أصوات قذائف تنطلق وأخرى ترتطم بالأرض مُحدثةً دويًّا مخيفًا، أصوات صراخ من كل جانب بعضها يلهمك الحماس ويحثك على الثبات، وغيره يطلب تعزيزات وآخر يستغيث ألمًا!.. لم يتسنَّ لنا معاينة ما يحدث في الخارج لكنا نستطيع

التكهُّن... (لم ينبتْ أحدًا منا ببنت شفة، لِما نرى من انفعالات سامي، وأيضًا ما يُنقل لنا يحبس الأنفاس)... مرَّت حوالي ساعة أقَّل أو أكثر، لكنها مرَّت بطيئة كأنها سنة... (حاول سامي حبس تنهيدة وأنّة دفينة إلا أنه أخفق علتْ وجهه حمرة شديدة أخفت معها بياض بشرته، استجاب لثورة نفسه ورغبتها في الكلام)... طلبتُ من أصحابي... وعندها اختفى صوته تمامًا، حاول عبثًا أن يستجمع عقله لتكملة الموقف، إنهار.. أخذ يبكي وهو مطِّرق الرأس.. ساد الغرفة صمت مطبق احترامًا لحالته، انصبَّتْ نظرتنا على أرضيِّة الغرفة ولم نسمع صوت بكائه...

- لميس أأنتِ بخير؟... (همستْ بأذني أخت عادل)...

- لِمَ هذا السؤال ؟!.. (أجبتها هامسة)...

- كأنك متألمة من شيء ما!... (وهي تركِّز على وجهي)...

- أشعر بمغص شديد.. أخشى أن تكون تقلُّصات!.

- لا تنسي أنكِ حامل بالشهر الثاني، وأنكِ تتعرضين لهذه الضغوط النفسية...

- لا أستطيع التحديد أو التمييز... قطعتُ كلامي معها؛ لمعاودة سامي الكلام.

- قال أحدنا: لنغادر الدبابة، لِنطلع على ما يجري... البعض رفض الفكرة؛ لأن الهجوم لم ينتهِ بعد، فإن هدوءه لا يعني انتهاءه وفي هذا مخاطرة.. لا أعرف السبب وراء اتخاذي قرار الخروج من الدبّابة!.. أهو بدافع الفضول، أم بدافع الاستجابة لنداءات الاستغاثة التي لم تبرح تصلنا من كل مكان، أم هو قدري؟!! ـ الله أعلم ـ قال لي أحدهم مخاطبًا عقلي: ما هذا يا سامي أتود المجازفة؟! لا تنسى بأنك الوحيد

من بيننا متزوج ولكَ طفلان.. قلت له: أصوات الاستغاثة تهزُّني بل تُدمرني فهم بحاجة لمساعدتي... أجابني أحدهم ناهرًا لي: كلُّنا نروم ذلك لكن الواجب يحتم علينا الإذعان للأوامر العسكرية، بعدم مغادرة مواقعنا... أجبته بحزم عازمًا على الخروج: سأختنق! فيما لو بقيتُ هنا...
اغرورقتْ عيناه بالدموع لكنها لم تسل على خديه! وكأنها تحجرت.. تركز نظره نحو شيء أو مكان بعيد وكأنه يتمثَّلُ أمامه حاليًا...
- خرجتُ من الدبابة.. ذهبتُ إلى حيث الأصوات.. رأيتُ ما لم تَّرَ عيناي من قبل!.. مناظر مؤلمة مفجعة، لا يستطيع معها أقسى الرجال وأكثرهم صلابة التدقيق والنظر إليها.. أشلاء آدميِّة متناثرة حولك بكل الاتجاهات!، كيف لي أن أهتدي إلى أصحابها؟!!.. عجزتُ في الحقيقة عن التطَّلعِ إليها طويلًا، فررتُ بنظري صوب أنين بعيد، رأيتُ جنديًّا لا زال على قيد الحياة.. اقتربتُ منه.. إنه ليس بواحد فهم كثر.. يتألَّمون.. ينزفون!.. بُتر الطرف الأيمن لأحدهم من الرسغ، لا أكاد أتبيِّن ملامحهم فوجوههم تصطبغ بالدماء.. سمعتُ دويَّ انفجار شديد، إنه قريب.. أخذتُ وضع الانبطاح تلقائيًّا، وضممتُ رأسي بكلتا يديَّ.. رفعتُ رأسي، إنها أعمدة دخان أسود كثيف تتصاعد باتجاه موقع دبابتي!.. هرعتُ راكضًا نحوها، تبيِّنتُ أن الدخان يتصاعد من دبابة ثانية.. ارتحتُ قليلًا إلا أن مظهر دبَّابتنا لا يبَّشر بخير!، فقد عملتْ المدافع عملها!!.. صعدتُ إليها وأنا أتهجَّسُ المكان، الظلام يلف المكان الصغير.. بدأ الخوف يسري في جسمي وكأنه جِنٌّ تلبَّسني!، مددتُ يدي أتلمس الأشياء.. تُرى أين ضجيجهم؟!.. ناديتُ بأسمائهم لا من مجيب يجيب ندائي!.. لم أستمع

حتى لأنين.. أين أجسادهم إن كانوا قد فارقوا الحياة؟!.. وصلتْ يدي لشيء مكَّور!.. كاد قلبي يخرج من مكانه، فهو بالتأكيد رأس أحدهم!! اجتهدتُ لتمييز رأس.. مَنْ منهم؟!!.. إنها حبَّة الرقّي!!.. انزلقتْ من يدي لزجةٌ هي.. علَّها اتسخت؟! أسأل نفسي، وأنا أعرف جيدًا سبب لزوجتها!.. إنها دماء أصحابي!!...

أجهش سامي بالبكاء وكذلك فعلنَّ كل النسوة.. أكمل كلامه بألم:

- حبَّةُ الرقّي التي كنا سنأكلها جميعًا، المساء الذي سنحتفل بتناولها...

اختفى صوته.. غاص مع أحزانه وذكرياته الحزينة التي تمر أمام عينيه كشريط سينمائي...

- إنه المغص من جديد... (قلتُ لأخت زوجي)... أشعرُ وكأنني سألد.

- إنكِ تفقدين طفلكِ يا لميس!.. كفّي عن إيهام نفسكِ بأنه مغص...

قامتْ وهمستْ بأذن عادل: إن لميس موجوعة! يجب عرضها على طبيبها الخاص.. أسرع يا عادل الوقت ليس في صالحنا.

استأذن عادل من الحضور، بعد أن اتصَّلَ بماما لِتتهيّأ لمرافقتي إلى المستشفى.

(٨)

مستشفى الحيدري، هو مستشفى خاص وهو من بين عدد قليل من المستشفيات الخاصة، فغالبية المستشفيات حكومية، وهي دون المستوى المطلوب من نظافة وعناية.. إنها مستشفى صغيرة نسبيًّا، تحتل ركنًا واضحًا في منطقة العلوية في قلب بغداد، يقوم على إدارتها طبيب أخصائي له باع طويل بمهنته، يتحلّى بالهدوء والأناة، عمد بإنشاء مستشفى خاص به تحاكي زميلاتها في البلدان الأوروبية.. تحتوي على عدد قليل من الغرف، البناية جميلة يحلي ممراتها الكثير من النباتات والزهور الداخلية التي انتُقيتْ بذكاء لتضيف لمسة رقيقة للبناية، تجوب ممراتها عدد من الراهبات بزيِّهنَّ المُميَّز مما يضيف انطباع الالتزام والقوانين الصارمة للمكان!.. فوق كل هذا وذاك إني أشعر بالراحة النفسية عند دخولي لها؛ لأنها مألوفة لدي، فإني ولدتُ بها ابني بسمان إضافة إلى ولادات أختي حنان، بل وحتى اثنين من ولادات ماما حيث ولدتْ بها حنان ونهى! أما أنا وريم ولادتنا كانت في مستشفى الراهبات.

أمر الطبيب ببقائي في المستشفى وملازمة السرير لعدة أيام إذ أن الحمل مهدد... قاموا بزرقي بإبرة مهدئة؛ لأن الآلام أخذتْ وتيرة تصاعديَّة، استغرقتُ بنوم عميق لتبقى ماما بقربي، ويتوجه عادل إلى بيت أهلي بصحبة بسمان ليكون برفقة خالاته لمراعاته، وليتسنى لعادل الاستمرار بدوامه.

انتظرتُ لساعة ونصف تقريبًا بعد فجر اليوم التالي؛ لأخضع لعملية إنزال الجنين حفاظًا على سلامتي بعد تأزم وضع الحمل حيث قاموا بتوضيح الحالة لعادل فوافق على العملية خوفًا عليَّ...

وفقدنا الجنين!! تأثَّر عادل لذلك لحدٍّ ما، أما بالنسبة لي ـ أصدقكم القول ـ فلم أكن متأثرة على الإطلاق حتى أني لم أشعر بفقداني شيئًا عزيزًا!، فإن فترة الحمل لم تتعدَّ ثلاثة أشهر، وكان التوقيت غير صحيح فالحرب مستعرة والأوضاع غير مشجّعة، لقد عارضتُ فكرة الإنجاب أثناء الحرب وكنتُ أفضّل الانتظار حتى انتهائها!! وها هي الأيام تثبت صحة رأيي، فالحرب هي من أفقدتني جنيني.

قضيتُ حوالي عشرة أيام في بيت أهلي للنَقاهة، جاءت الخالة أم علاء لزيارتي بمعية إحدى بناتها.. تكلمتْ وتكلمتْ كثيرًا عن علاقة الأمهات بأولادهن!، وأسهبتْ في ذلك، استرسلتْ بوصف حنان الأمهات.. يتخلل حديثها بين الحين والآخر تعزيتي لفقدي ولدي!!، وعلى الأصح جنين غير مكتمل النمو لكنها مصرة على وصفه بالولد!!.. كنا جميعًا مضطرين للإنصات لها وعدم مقاطعتها لإعطائها الفرصة الكافية لتفريغ ما بداخلها عله يعمل على تسليتها والتخفيف عنها، استدارتْ نحوي والدموع تملأ عينيها موجهةً الكلام لي بالذات:

ـ أنا أشعر بكِ تمامًا يا بنيتي!، أعرف إحساس الأم عند فقدها لوليدها!، وما عليكِ سوى الصبر والابتهال لله ليعوّضك في القريب العاجل... إنها تركّز نظرها عليَّ، ومع هذا فهي ليست معنا على الإطلاق.. استغربتُ كلامها وحالها، فهل هي تعني ما تقول حقًا؟!!..

فأنا لستُ متأثرة أصلًا... هممتُ بالكلام لطمأنتها على حالي، وقبل أن أفتح فمي بادرتني ماما (مرسلة إشارة بحركة خفيفة بحاجبها) تفيد بأن ألتزم الصمت...

- هذا هو حال الدنيا!... (قالت ماما)...

- أنتِ لا تزالين صغيرة والوقت أمامك ليمُنَّ الله عليك بولد جديد، أنا مَنْ فاتت عليها الفرصة ولم يعد الزمن قابلًا لتعويض علاء!!!.. من أين آتي بعلاء جديد؟!...

- هل من أخبار جديدة عنه.. عبر الحدود أم لا زال متخفيًّا بانتظار فرصة ملائمة لذلك؟ (سألتها ماما لإعطائها فرصة أخرى للكلام عنه)...

- ما من جديد!، ولم يؤكّد خبر وجوده أحد غير قريبتي التي اتصلتْ قبل عدة أشهر.. كما أخبرتك... بدرتْ منها تنهيدة لم تحاول إخفاءها...

- أشعر بأن الخالق سيمُنُّ عليكِ بخبر يفرح قلبكِ قريبًا... تمنتْ ماما هذا مع نفسها وأرادت إسماعها إياه...

- لو كان وجوده صحيحًا، إذًا لأتصل بي هاتفيًّا على الأقل، أهذه الخطوة صعبة التحقيق؟!... برمتْ شفتها العليا وقطبتْ حاجبيها دلالة اليأس وتكذيب الخبر من قِبلها على الأقل...

- إن عقلك يزن بلدًا يا أم علاء!.. فكيف لكِ أن تتصوّري ولو للحظة بأن الغالي علاء يرضى على نفسه تعريضكم للخطر؟!.. أمن المعقول أن يتركوا هاتفكم لحد الآن بدون رقابة؟.. هو متأكّد من ذلك مثلما نحن متأكدين.

انتهتْ الزيارة التراچيدية أخيرًا... توجَّهتُ بكلامي إلى ماما:

- ما سبب كل هذه التعزية؟ إذا كنتْ أنا نفسي غير مبالية.

- عندما تعم المصيبة تهون!!... (أرادتْ إيهام نفسها بذلك كان الله بعونها).

عند مساء اليوم الثاني جاءت سوسن لزيارتي، بادرتها بالسؤال - بعد التحية والسلام وتمنياتها لي بالسلامة- عن جميل...

- إنه يتَّصلُ بين الحين والآخر ليطّلع على إجراءات سفري أنا وصابرين... اتَّقدتْ عيناها فرحًا بمجرد مرور اسمه على شفتيها...

- وما هي المستجّدات؟.

أشعر بأن فترة طويلة مرَّت وأنا بعيدة عنها، فموضوع سامي أخو عادل لم يكن شيئًا يسيرًا ولم نكد ننتهي منه دون خسائر، وإن كانت خسائر بسيطة لا تستوجب الكلام حتى، مشيرةً إلى فقدي للجنين طبعًا.

- فهِّم السيد الوزير موقفي بل وتعاطف معه أيضًا، كانت مقابلة مثمرة حقًّا، وقد وعدني بإرسال كتاب موافقة رسمي لي، وها أنا في انتظاره.

- لقد قابلتِه إذًا؟... ياه.. فعلًا كنتُ غائبة عنكِ يا سوسن، الأيام تسير بأسرع مما نتصور... هانتْ يا سوسن.. أتمنى من كل قلبي أن تسافري أنتِ وصابرين ليجمع الله شملكم، ولو سأفتقدك كثيرًا.. المهم لمّ شمل العائلة بأي مكان على الأرض.

هاجتْ كمية من الغبار على بعد يسير من موقع وقوفي، لم أعد قادرة على قراءة الرقم الذي يظهر لي من خلال عدسة جهاز (اللقْل)، وهو جهاز يُحدِّد مناسيب ومستويات الأرض التي تقوم عليها أرضيات البناية التي سنبدأ بتشييدها، فإن الشاخص الذي يحمله أحد العمال والذي يبعد عني حوالي ثلاثين مترًا، حجبته الجزيئات الكثيفة من الغبار المتصاعدة بسبب حركة عجلات السيارة (البيك أب) القادمة حتمًا من مقر دائرتنا، أبعدتُ عيني عن عدسة الجهاز في محاولة مني لأتبيَّن الشخص الموجود وراء المقود، كأنَّها سوسن.. فهي تُبعِدُ الكرسيَّ عن المقود مسافةً كبيرةً حتى يُخيّل لك أنها شبه مُستلقية... نعم إنها هي، بعد ما اقتربت مني حال الغبار من رؤيتي لها حين ترجلّتْ من السيارة.. سمعتُ سعالها!، فقد تسرَّبتْ ذرَّات الغبار إلى قصبتها الهوائية مثلما جعلتني أسعل أنا الأخرى.. حرَّكتُ يدي نزولاً وصعودًا بحركة غير إرادية محاولةً إزاحة الغبار أمام ناظري...

- هلو، لميس.. يا حبيبتي.. لميستي الغالية...

كلُّ ركن بسوسن يُبشِرُ بشيء يرقص فرحًا، تتمايل مع حركة موجية لورقة بيدها اليسرى، تلوّح بها لي... وصلتْ أخيرًا!.. إنها موافقة السيد الوزير..

- هيا يا لميس اتركي أيَّ شيء بيدك لتصحبيني إلى مكتب الجوازات

- عن أي مكتب جوازات تتحدثين؟.. الذهاب إلى هناك يعني اصطحاب ملف كبير يحوي كل ما تملكين من مستمسكات منذ نَفَسِكِ الأوّل بهذه الحياة.

- الملف الذي تقصدين كُلَّه بحوزتي الآن.. هيّا يا لميس إنني حتى لم أُطفئ محرِّك السيارة، الموقف لا يحتمل تأخيرًا.. هيا يا لميس لا تطفئي جذوة فرحتي.

• لا نعرف حقيقة الأمر!!.. كل ما نعرفه الآن الامتناع عن منح تأشيرة سفر تحت أي ظرف!... أنهى كلامه والفرحة تملأُ جنباته.. استدار بكرسيِّه الهّزاز مزهّوًا بمنصبه الإداري، وهو يستعرض أمام فتاتين متلَّهفتين لسماع كلمة منه.. إنه موظّف في بنايةٍ صغيرة تمثِّل دائرة الجوازات فرع زيونة...

• استلمتُ كتابًا رسميًّا قبل حوالي ساعة يأمرنا بالتريُّث في منح أيّ تأشيرة سفر.

- ماذا تقول؟!... صرختْ سوسن دون شعورها.

• لا داعي للقلق، كُلُّها أيام ونعرف حقيقة الأمر، لا تَنْسِي بأننا في حالة حرب.

- كيف لي أن أنسى؟!... (أجابته سوسن والإحباط أخذ في التغلغل في كُل خليَّة بها).

= أفترضْ بأنَّكَ لم تستلم الكتاب لحد الآن، فهل ستمتنع عن منحها التأشيرة؟... تدخلّتُ في النقاش لأعزِّز موقف سوسن...

• بالطبع لا، ولِمَ هذه الفرضية؟! والكتاب بين يدي.

= محلولة إذًا.. امنحها التأشيرة وأرجع بالزمن لربع ساعة فقط، هذا كل ما نحتاج إليه الآن...

تحوّل وبقدرة قادر إلى شخص آخر..

• كيف تتجَّرأين وتطلبين مثل هذا الطلب...؟!.. إنه القانون يا أختي.. ألم يسبق لكِ أن سمعتِ بهذه المفردة باللغة... كل شيء به ينتفض والغضب يسيطر عليه، يده تؤشر يمنة ويسرة صعودًا ونزولًا!، كأنه يستغيث !...

= أنا أعرف القانون وأحترمه، وأحترم كُلَّ مَنْ يلتزم به، لكني أُطالب بروح القانون، فهذا حقٌّ مشروع لكل مواطن.. إنها مثلك موظفة وتحترم العمل والقانون، كتاب الوزارة وصلها قبل قليل وصفارة الإنذار دوَّت بعد وصوله مباشرة ولم تعلن نهاية الغارة إلا بعد ساعتين!، وحضرتك سيد العارفين.. فهذا يعني منع التجوال أثناء تلك الفترة، وهذا هو سبب تأخُرِنا عن الحضور إلى مكتبك، وهذا يعني أن الموافقة على سفرها حصلتْ قبل ورود كتاب التريُّث الذي بين يديكَ الآن.

• أنا آسف، تحليل للأمور منطقي لكنه غير عملي!... قالها بغضب، يملأه الغرور والافتخار بمنصبه...

شعرتُ بحالة سوسن وما انتابها من إحباط، أخذتُ أخفِّف عنها قدر ما أستطيع، وبما حضرتني من كلمات ولا أعلم إن كانت مترابطة أم لا.

عدنا إلى موقع العمل وكُلٌّ منا اندمج بعمله... استرجعتُ ما قصّته لي سوسن حول علاقتها بجميل، وكيف تطوَّرتْ على مدى الوقت لتنتهي بالزواج ليقطفوا ثمرة زواجهما ثمرة حلوة طرية.. ابنة اسمها صابرين، وهي لم تطفِئ شمعتها الأولى بعد.. جاء لزيارتهم مرة أخرى بعد زيارته الأولى والتي حصل بها ما حصل من تقبيل لليد، قرّرتْ مع نفسها أن تظهر له عدم رضاها على ما أقدم عليه في

المرّة الأولى، يجب عليه أن يفهم بأنَّه حاليًّا في بغداد وليس في لندن، ولكل بلد عادات وتقاليد مختلفة لا يحق لأيٍّ مَنْ كان تخطّيها.. اتخذتْ من الأريكة المقابلة للتلفاز مجلسًا، والتي يكون الشبّاك ملاصقًا لجانبها الأيمن فيكون بذلك مضطرًّا للجلوس على الأريكة الأخرى، والتي يكون التلفاز إلى الخلف منها لكي تتأكد من مقابلته إياه وعدم تمكنه من الاهتمام بما يعرضه التلفاز، فيكون بذلك مركّزًا نظره عليها فلا شيء أمام عينيه سواها، وفي الوقت ذاته تبدو هي مصوبةً نظرها نحو التلفاز سارقة نظراتها خلسة لوجهه، دون أن يلمح هو ذلك أو أيٌّ من أفراد أسرتها، وفوق هذا وذاك تستطيع تجاهُلَهُ كليًّا إن أحبتْ ذلك، فالتفتتْ صوب الشبّاك المُحاذي لها!.. دخل جميل إلى غرفة الجلوس بعد أن فتح له الباب الأخ الأكبر لسوسن...

- مساء الخير حلوتي... جاءها صوته أحبَّتْ نبرته من الزيارة الأولى في الحقيقة أحبَّتْ كُلَّ شيء فيه...

- مساء النور... أجابت بكل برود بدون أن ترفع رأسها إليه، منشغلة عنه ببرنامج تليفزيوني لا تعرف عنه أي شيء أو حتى عن ماذا يدور!.. أحبَّتْ تصرُّفها هذا وأمعنتْ بتجاهلها إياه...

- مساء الخير يا بُني... بادر الوالد الضيف بالتحية والسلام، واتخذ مكانه إلى جانب سوسن.. وبذلك نجحتْ خطة سوسن بجلوس الوالد في هذا المكان بالذات لعدم استطاعته لمح نظراتها وانفعالاتها.

تجاذب الوالد مع ضيفه أطراف الحديث والولوج بمواضيع شتى؛ الاقتصادية منها والاجتماعية والسياسية، وهي دائمًا محور أحاديث الرجال، أخذ الملل يترسب في نفسها!، بل قُل العصبيَّة.. لم يكن هذا

ما رسمت كل شيء من أجله ! هزّت رجليها بحركة انفعالية رتيبة محدثة صوت أزيز بسيط في الأريكة التي تجلس عليها، وهذا ما أرادتْ بالضبط حدوثه.. جلب هذا الصوت والحركة انتباه الوالد...

- أوه لمْ ننتبه لوجود الغالية سوسن معنا (قال الوالد مبتسمًا).. أراكِ صامتة وعلى غير عادتك يا صغيرتي...
استشاطتْ غيظًا لنعتها بالصغيرة...
- كل شيء يسير على غير عادته هذه الأيام! وأنا من ضمنهم... (قالت كلماتها دون أن تحوّل وجهها عن التلفاز)...

- حلوتي غاضبةً اليوم.. ما السبب يا ترى ؟ (سألها جميل بكل خبث فهو تَعمد نعتها بحلوتي للتصغير بعدما تأكَّد من مقتها هذا الوصف).
- أوه.. تذكرتُ، فأنت مَنْ يُغضبها يا جميل... تفوَّه الوالد بكلماته بكل برود أعصاب؛ للتقليل من شأن الموضوع والتخفيف من وقعه على ضيفه المحبَّب...
- أنا..؟!... ولِمَ... تَعَمَّد إشعال النار بقلب سوسن.
- إنها؛ ومثل كل البنات عندنا، لم تعتّد أن يقبل يدها أحد!، وهذا ما قمتَ به في زيارتك الأولى.
- أنا قبّلت يدها ؟! لا.. لا أتصوّر ذلك، بكل بساطة أنا لا أقوم بتقبيل يد إلا يد الشابات الجميلات، ولا أتذكَّر مرَّة قبّلتُ يد طفلة!... أراد لكلماته أن تقع كالصاعقة على رأسها، فاستطاع بالكاد أن يخفي انفعاله أثناء التفوّه بهذه الكلمات فإن ما أصاب شاربه الأسود الكث من رجفة فَضحَ ما أراد إخفاءَهُ تلافيًّا لانفجار وشيك كاد أن يبدر منها... قامت لتغادر المكان... بادرها صوت الوالد:

- ألم أقل لكِ إنها مجّرد شكليَّات اعتاد عليها جميل.. حتى أنه لا يتذكَّر الموقف.

- عمري تسعة عشر عامًا لمن لا يعرف... خافضةً صوتها تحاشيًّا لارتفاعه بحضرة والدها وهو شيء مشين بالتأكيد...

- ها أنتِ تؤكّدين قولي... (قال جميل، مع ابتسامة عذبة كلها رجولة لتلطيف الجو بينه وبينها، وكانت هذه الابتسامة بمثابة اعتذار ضمني)... أنا متأسف حقًّا يا حلوتي !.. أنا لم أشأ إزعاجك.. وهذا ما لا أريده أو أسمح لنفسي به.

مد يده لجيبه وكأنه تذكّر للتوّ شيئًا ما! مدَّ يده باتجاهها ليقدِّم لها شيكولاتة محبَّبة لنفسها:

- لأثبتُ لكِ مدى اهتمامي بكِ فقد بحثتُ واستقصيتُ عمَّا يبهجكِ... كان صوته مزيجًا من الغزل الناعم واللامبالاة!، مركِّزًا نظراته عليها... صبَّ البنزين على نارها المستعرة لتتأجج، وفي خضمِّ ثورتها ونارها المستعرة!... مدتْ يدها لتناول الشيكولاتة... يا له من موقف عجيب...!! إذًا كان على حق ما فعله جميل... تأكّد جميل بعد هذا الموقف من أنه قد انتصر عليها، وكان قصب السبق من نصيبه.

نامتْ، وهي متأثّرة إلى حدٍّ بعيد من تصرُّفه وتصرُّفها في الوقت ذاته.. انهارت أحلامها أمام عينيها، فهي لم تعنِ له شيئًا مخصوصًا.. سوى أنها ابنة الصديق المقّرب.. شعرتْ بنار تخرج من عينيها مع هذا فهي المنتصرة بالتأكيد فقد أجبرته على التفكير بها وبما تحب، وحصلت على الشيكولاتة.

مرَّت خمسة أيام على مراجعتنا لمكتب الجوازات في منطقة زيونة حيث يقع مقرٌّ عملنا، فقرَّرتْ العودة إليه اليوم ومراجعته للحصول على التأشيرة مثلما وعد، فإن التعليمات الجديدة تكون قد وصلتْ لا محالة... عادتْ وهي تبكي بكاء طفلة صغيرة فقدتْ لعبتها للتو!...توجَّه صوبها أفراد القسم الهندسي من زملاء وزميلات، فهي محبوبة الجميع...

- ما وراؤك يا سوسن؟!، وما الذي يبكيكِ؟...

- مُنع السفر نهائيًّا!!!... أجابتْ محبطة ومتأثرة إلى حدٍّ بعيد...

- على مَنْ مُنع السفر؟، ولغاية كم؟!...

- على كل المواطنين دون استثناء، ولأجل غير مسمى... أخذتْ تشهق بالبكاء، واليأس مسيطر عليها..

تساءل الكل.. أيعقل هذا؟! إنه قانون دولي فالسفر حقٌّ لكلِّ إنسان في الكرة الأرضية.. ومَنْ له صلاحية حَرْمِ الناس من حقوقها؟... كان هذا هو مجمل التساؤلات التي كانت على ألسنة الزملاء...

- عن أي قانون تتحدَّث بالله عليك يا أخي؟!... قال أحد المهندسين موجهًا كلامه بنفاذ صبر إلى أحدهم...

- اخفض صوتك هداك الله، القانون يُستحدث هنا بجرَّة قلم... تعمَّد إلى خفض صوته خائفًا من تناثر كلماته ووصولها لمَنْ يلتذُّ بنقل الأخبار فتصل لمَنْ أُفرغ قلبه من الرحمة...

تدخلت زميلة بصوت خافت؛ لتقول:

- لا تنسوا بأننا جميعًا أصحاب عوائل، خذوا حذركم فالجدران لها آذان.

خفَّتْ شدّة بكاء سوسن.. عادتْ لتخبرهم:

- لقد سألتْ الضابط المسئول عن سبب اتخاذ مثل هذا قرار؟.. أجابني إنها الحرب، والحكومة هي أعرف بمصلحة المواطن والبلد، أم لكِ رأيٌ آخر.

ومنذ متى كان لنا رأي أصلًا ليكون لنا آخر!.

الكل شعر بالاستياء ولم ينطق أحد بكلمة زائدة.

لم تحصل سوسن على شيء سوى تعاطف الجميع معها، وكان السؤال الذي يدور بخلد الجميع.. بما ستؤول إليه الأمور بعد هذا القرار التعسُّفي.

(٩)

مساء يوم الخميس، هو موعد اللقاء الأسبوعي في بيت أهلي، أنا وعادل وبسمان، نلتقي عائلة أختي حنان التي تكبرني بثلاث سنوات عائلتها المتكوِّنة من: زوجها حمدي، وهو شخص رائع.. قريب من قلوب كل أفراد العائلة، وولد أكبر من بسمان بثلاث سنوات، وبنتان أصغر منه... كان يوم الخميس فرصة لبسمان للاختلاط بأولاد الخالة حنان واللعب دون رقابة الأمهات، فإن سلطة الأمهات تتلاشى مع سلطة الجد والجدة!!.. حتى نحن الأخوات الأربع.. حنان، أنا، نهى، وريم.. نهى تدرس بكلية الطب، أما ريم فتدرس إدارة الأعمال كنا نوّد أنا وحنان لو تعلَّمنا من بابا كيفية تربية أولادنا على المحبَّة فيما بينهم، كما فعل بابا بتربيتنا على المحبَّة ونكران الذات وتفضيل الأخت على النفس... تقاعدتْ ماما عن العمل رغم محبَّتها لعملها كمديرة مدرسة كفء ومقتدرة من منصبها وعملها.. كل المفتشين ومسئولي وزارة التربية والتعليم يشيد بإخلاصها وتفانيها، إلا أنها فضلتْ الحصول على التقاعد مبكّرًا وقبل الأوان للتحلُّل من الضغوط التي مُورستْ على المعلمين والمعلمات، ولكل المراحل الدراسية للانخراط والانضمام لصفوف الحزب الحاكم، وهذا ما لم تستسيغه ماما أبدًا ولم يكن بمقدورها حضور الاجتماعات الحزبية والإنصات لكلام المسئول الحزبي غير المنطقي، والذي لا يمتْ للعلم والمعرفة والتربية بشيء، بل لم يكن بمقدورها الإذعان لطلبه بكتابة التقارير

حول الزميلات في المدرسة وهي تقارير لا تخدم المسيرة العلمية، هي عبارة عن نميمة مسطَّرة على ورق.

حمدي يملك معملاً لتصنيع الموازين والقبابين وتصليحها، وهو يحبُّ عمله كثيرًا وغالبًا ما يشارك العمَّال ببعض الأعمال وخاصة الدقيقة منها، والتي تحتاج لمهارات يدويَّة وذهنيَّة غاية في الدقّة، فهو لا يفضل الجلوس وراء المكتب في غرفته الخاصة كمالك ومدير للمصنع.

دخل علينا حمدي في يوم من الأيام عائدًا من مصنعه ظهرًا!، وهذا من غير المعتاد.. فهو يعود من العمل ليصل إلى البيت بعد الخامسة مساءً، توجه إلى بيت أهلي حيث كنا مجتمعين في يوم من أيام الخميس.. رابطًا يده اليمنى، والوهن والضعف باديان على وجهه، إنه تعَّرض لحادث أثناء عمله بماكينة خاصة لقص الحديد!، وقد أخبره الطبيب المختصُّ بالمستشفى بتأثُّر أحد الأعصاب مما سيمنع إبهام اليد من الحركة بصورة طبيعية، أو بالأحرى توقفه عن الحركة نهائيًّا!... هذا بعدما أُجريت له عملية مستعجلة لوقف النزيف المستمرّ... بعد مرور عدّة أشهر على الحادث، أُستدعيتْ للالتحاق بالخدمة العسكرية آلاف من شبَّان البلد، وحسب المواليد وكان من ضمن مَنْ أُستدعيَ مواليد ١٩٤٩م، وهم مواليد حمدي..! وبعد ما أنهى سابقًا الخدمة الإلزامية، وخدمة الاحتياط بعدها بفترة ليست بالطويلة، جاءه الدور مرة أخرى وهذه المرة ليُزجّ بمهام قتالية فعليّة فإن الحرب مستمرّة ومستعرة...

عادت حنان إلى بيت أهلي مجدّدًا مع ثلاثة أطفال هذه المرة، لتستعيد غرفتها القديمة، فارقّتْ زوجها على مضض وقلق يؤرقها.. إلا أن ما تعرّض له حمدي في مصنعه، كانت هي القشة التي أنقذته من مصير مظلم ينتظره وينتظر كل مَنْ يُكتب له القتال في الخطوط الأولى في جبهات القتال في الحرب التي تدور رحاها، والتي لا تفتأُ تحصد المزيد من الأرواح، سيقَ حمدي إلى الجيش ولكن كجندي غير مسلح بسبب إصابة يده اليمنى وعدم مقدرته على رفع السلاح...

إن وجود أختي حنان في بيت أهلي، وما به من معاناة لها حيث كانت هي الأم والأب لأولادها خلال فترة غياب حمدي، فهي موظفة حكومية وعلى عاتقها تقع مسئولية توصيل الأطفال إلى مدارسهم والقيام بتوفير كل صغيرة وكبيرة يحتاجون إليها.. إنها معاناة!... أما بالنسبة إلى بسمان فكانت هذه الفترة بمثابة نزهة له ففي بيت الجد ثلاثة أطفال يشاركونه اللعب.

• • •

- هنالك بصيص أمل يلوح في الأفق لنلتقي جميل...! قالت لي سوسن وأنا منهمكة بتناول غدائي على وجه السرعة؛ لأتمكّن من لعب كرة المنضدة، فهنالك زميل ينتظرني في صالة اللعب بعد أن تمكّنتُ من التغلُّب عليه يوم أمس...

- لقد حصل جميل على وظيفة لدى الأمم المتحدة في لندن...

كل شيء في نفس سوسن يتحدث عن فرحة تتملَّكها، عيناها ترقصان فرحًا، أسارير وجهها تتلألأ.. أكملتْ لتقول:

- وبهذا سيكون له الحق في طلب انضمام عائلته قانونيًّا بحكم عمله، وفعلًا فقد تقدَّم بطلب رسمي من المنظمة لمفاتحة الحكومة العراقية لمنحي وصابرين تأشيرة سفر!، وهذا ما كان يخطِّط له جميل طوال الأشهر الثمانية المنقضية.

- مرَّت ثمانية أشهر على فراقكم يا سوسن ؟!

- هذا صحيح!.. وها هي صابرين بدأتْ تنادي جدّها بكلمة بابا!، وجميل المسكين حُرم من سماعها.

- كوني صابرة، فإن الله لا يضيع أجر الصابرين، وستنعمون بلقائكم ومعيشتكم معًا قريبًا.. يا حبيبتي.

- أتمنى على الله ذلك، فإننا لم نطلب سوى حقنا الطبيعي في الحياة ليس إلَّا... أود أن أهمس بأذنكِ قرارًا اتخذته مع نفسي مؤخَّرًا، وبناءً على ظروفي الحالية... انحنتْ سوسن قليلًا واقتربتْ منِّي، وهي تدور بعينيها حول الغرفة لتتأكّد من خلوها من الزملاء... أنا أخطِّط للانتقال إلى مشروع آخر بعيدًا عن هنا!!...

انتظرتْ ردَّة فعلي ووقِّع الخبر علي...

- ماذا تقولين؟!، ولماذا؟.. حسب علمي فأنتِ مرتاحة هنا؟.

- هذا صحيح، غير أني لم أعد محتملة قسوة مُزاح الزملاء معي، فهم يتندَّرون دائمًا، بل يلتذَّون بالكلام عن جميل وبأنَّه تركني ليعود إلى صديقته اليوغوسلافية السابقة.. إلى غير ذلك...

كادتْ الدموع تطفر من عينيها، وهي تذكر صديقة زوجها قبل زواجه بها، وهي الآن متواجدة في لندن... إنهم يدَّعون بأن جميل قد أصابه الملل مني ومن ممارساتي الطفولية على حدِّ وصفهم.

ـ كل الرجال يعشقون التفكُّه بمثل هذا الكلام!، وهذا لا يعني أنهم يعنون ما يقولون... حاولتُ تطييب خاطرها، فإن شاغلهم الشاغل هذا الحديث وهي محقَّة إلى حدٍّ ما...

ـ لكنه حديث ثقيل ويتعب أعصابي، وما أتعرّض له هذه الأشهر من معاناة؛ جعلتني غير قادرة على تحمُّل الترَّهات، خاصة بهذا الموضوع.

تبيَّن لي من كلامها أنها مصرّة على موقفها...

ـ هل أستطيع أن أفهم بأنكِ على استعداد للتضحية بعمل ما تحبين، وبعد أن اعتدتِ على المكان وطبيعة ما نعمل.. من أجل مزاح ؟!.. حسنًا اتركي لي هذه المهمة، وأنا سأتكلم معهم ليمتنعوا عنه لاحقًا... قلتُ لها وأنا أعني ما أقول...

ـ بل مصرَّة عليه فهم أثقلوا العيار بالمزاح.. لا تتعبي نفسك يا لميس، وأنا شاكرة لكِ موقفك.. لكني قد عزمتُ واتخذتُ قراري.

ـ الأمر يعود لكِ أولًا وآخرًا.. لكني أتساءل، ألم يخطر ببالك تعاطف المدير معكِ ومساعدته لكِ بكل ما تطلبين من إجازات زمنية وغيرها لمتابعة أمورك وموافقته على أي طلب تتقدمين به حتى وإن كان على حساب العمل؟!.. فهل ستضحين بكل هذا وأنتِ بأمسِّ الحاجة له لمجَّرد إنزعاجك من كلام الزملاء؟!.. أرجوكِ فكِّري بالأمر من هذه الزاوية.

ـ إن ما تقولينه صحيح للغاية!.. كيف فاتني ما تقولين؟!... وكأنها صحتْ لتوها من نومٍ عميق...

ـ أنتِ غارقة بهمومك وتدورين في الفلك نفسه ليل نهار، فلم يبقَ لديكِ متسع من الوقت للتفكير أبعد من هذه الحلقة المفرغة، وبمثل هذه الحالات تكون الصورة لدى الشخص المقابل أوضح...
تراجعتْ سوسن مجبرة عن قرار الانتقال.

حكاية حب جميلة وبكل الرومانسية التي طغتْ عليها تؤول إلى ما آلت إليه الآن... ؟!.. قلتُ في نفسي، وأنا أستقلُّ مقعدي في جانب النافذة في سيارة (اللاند كروز) التي تطوي الطريق الطويل من مقر عملي إلى بيتي.. إن تفكيري لا يفتأ يعود بي إلى قصة ارتباط سوسن بجميل.
ذهبتْ عائلة سوسن بكل أفرادها بمعيَّة صديق العائلة الجديد، والذي اقتحمها بكل خفّة ودماثة خلق، للتنزُّه وأخذ قسطًا من الراحة بمكان يعجُّ بالعوائل التي تقصد المكان في مثل هذا الوقت من السنة، فإن الطقس في شهر مارس وخاصة في اليوم الواحد والعشرين منه، وهو عيد الشجرة أو ما يطلق عليه عند الأكراد بعيد (النوروز)، وعند غالبية البلدان العربية بعيد الربيع أو شم النسيم، وهو عادة ما يكون يومًا مشمسًا وجميلًا دافئًا على غير حرارة مزعجة، وعلى اختلاف تسمياته ـ هنا وهناك ـ فإن كل العوائل العراقية تحرص على الاستعداد لهذا اليوم لقضائه بين البساتين وما بها من راحة نفسية، غالبية البغداديين يتوجهون إلى منطقة أثرية تقع إلى الجنوب من بغداد تسمى (سلمان باك)، ولهم اهزوجة معروفة متواترة عن السلف تقول: (الما يزور السلمان عمره خسارة) مفادها الذي لم يتسنَّ له زيارة هذا المكان فقد خسر عمره!؛ لجمال المكان وخضرته في

مثل هذا الوقت وهوائه العليل، أكثر ما يميز هذا المكان وجود إيوان كسرى أو ما يطلق عليه عند العامة (طاق كسرى)، وهوالأثر الباقي من أحد قصور الملك "كسرى آنو شروان" في مدينة قديمة تعرف قطسيون، وهو يمثِّل أكبر قاعة مسقوفة بالآجر على شكل عقد دون استخدام دعامات أو تسليح بأبعاد تربو على الخمسين مترًا وبعرض ستة وعشرون مترًا وبطول سبعة وثلاثون مترًا، يعود تاريخه لسنة خمسمائة وأربعين ميلادية، رسمتْ على جدرانه معركة أنطاكية التي دارت بين الفرس والروم أثناء الحملة العسكرية على البيزنطيين... هذه فاعلية النهار.. أما بعد العودة من السفرة والتنزُّه، تكون الأم أو الجدة قد أعدتْ واستعدتْ قبل أسبوعين من هذا التاريخ بتحضير أواني فخارية بسيطة الصنع.. عبارة عن زير وإبريق بعدد أطفال العائلة الزير للبنت والإبريق للولد، تضع بها حبات من الشعير ملفوفة بقطعة شاش أو قطن، وتعتني بها.. بسقيها طول الفترة ليعلوها العشب الأخضر الجميل، وعند قدوم المناسبة وبعد العودة من السفرة، توضع هذه الأواني الفخارية على حدود صينية كبيرة إلى جانب صحون صغيرة الحجم تحوي أنواعًا مختلفة من الحلوى المحبَّبة لدى الأطفال إضافة إلى عدد من الشموع لتضيف بنورها بهجة لتكتمل معها فرحة الأطفال وهم يقرعون على طبول صغيرة الحجم أُعدتْ أصلًا لهذه المناسبة...

إن وجود جميل معهم بالرحلة، هو نتاج لعلاقة توطدتْ على مرِّ عدة أسابيع تخلَّلتها عدَّة زيارات من قِبل جميل لهم، وبمباركة الوالد بل وإصراره على تردّد جميل على العائلة.. كانت سوسن تشعر بامتعاض لمجَّرد التفكير بأن الوالد يفرضه عليهم، فقد أصبح كثير

التردّد حتى دون دعوة منهم!.. الجميع كان مرتاحًا لوجوده فهو حلو المعشر، بدأ كل أفراد العائلة يفتقدونه إذا مرَّت عدة أيام دون مجيئه.. إلّا سوسن فهي لا تفتقده!... بل إنها تشتاق إليه!... نعم أخذتْ تحتاج لوجوده، إحساس مركَّب نحوه يختلج في داخلها!.. فهي بين رافضة إقحامه في العائلة بهذا الشكل السريع، وبين تعلقها به إذا ما أبعدنا كلمة حبها له... كان قلب سوسن مفعمًا بالفرح، ينبض بإحساس لم تألفه من قبل، يُعصَرُ بين أضلاعها كُلَّما مرَّ بها ذكر جميل!.. كانت طوال الرحلة منتشية، ازداد بريق عينيها إلى أقصى درجاته، وهذا كله سهل على جميل فهم وتحليل ما ينتاب سوسن، وهو بدوره سهَّل عليه أخذ جوابًا لسؤال يودُّ طرحه على سوسن حتى قبل أن يسأله...

ابتعدت سوسن لتخلو بنفسها وبقطعة شيكولاتة كانت معها، بعد تناول الغداء وشرب الشاي المعدُّ مسبقًا في قنينة ثرموس.. ذهبتْ لا لتخلو بنفسها فقط، بل لتختبر مشاعر جميل التي لم تعرف عنها شيئًا بعد أو لنقل لتتأكَّد من مشاعر بدأت تصل إليها دون كلام وصلتها فقط بلغة العيون، لم تحتَّج للانتظار طويلًا بمعتكفها حتى أحستْ بشيء يلامس كتفها..!.. حركتْ يدها عاقدة إصبعي الإبهام والوسطى بحركة مَنْ يريد نفض حشرة أو غبار عن ملابسه.. اخترقتْ أنفها رائحة عطر رجالي تعرفه!... هو عطرٌ محبَّب لها...
- ما بكِ يا صغيرتي؟!، أنا آسف لم أقصد إخافتك... همس بأذنها صوت كله رجولة وعذوبة، وهو يحرِّك خصلة صغيرة من شعرها جاءت لتلتصق بأذنها.. ازدادتْ رجفتها ودهشتها، لم تستطع الكلام... قرَّب وجهه من وجهها، ركَّز بصره على عينيها اللتين اتَسعتا دهشةً لما يحدث، قرأ ما بعينيها فتأكَّد...

- حبيبتي!.. أنا قصدتُ الانفراد بكِ ولو للحظات..!، فهذه اللحظات هي التي تُعينني على الاستمرار بالعمل بل بالحياة...
اتسعتْ عيناها الواسعتان أصلًا.. ازداد بريقهما، وهي لا زالت عاجزة عن الكلام تأخذها الصدمة والدهشة...
- نعم.. نعم.. هذا هو جواب السؤال الذي طالما ألح عليكِ... قالها بكل رقّة.. كادتْ أن تسيل بين يده كما سالت قطعة الشيكولاتة بيديها لارتفاع درجة حرارتها، تلك القطعة التي حرصتْ على أكلها بعد الغداء (وانتبذتْ من أهلها مكانًا قصِيًّا)...
- دُهشتُ بجمالكِ، أنوثتك، وجهكِ الطفولي.. وقعتُ في غرامك من أول لحظة وهذا ما لم يحدث لي أبدًا.. أردتُ ضمُّكِ إلى قلبي.. نعم قبَّلتُ يدك.. صببتُ بقبلتي كل ما انتابني تلك اللحظة!.. ويا لها من لحظة، هي العمر كله أنا لم أنسَ تقاليدنا!.. لكني كنتُ مأخوذًا بحسنكِ.. ولتلافي ما وقعتُ به، قرَّرتُ أن أعيدها مع الوالدة وأمام الجميع لأُعطي الانطباع الذي توّلد لدى الوالد...

- هيا يا سوسن!، تعالي وانضمّي لفريقنا فقد تهيّأنا للعب الكرة الطائرة، هيا أسرعي.. انتبهي فإن الشيكولاتة تملأُ يديكِ وحتى قميصكِ الأبيض لم يسلم منها... اقتحم صوت أخيها العالم السحريَّ التي عاشته للتو، شعرتْ بصوت أخيها مرتفعًا جدًا، فإن ذبذبة الهمس الذي كان يتحدَّث بها جميل جعلتها ترتعب من أيَّة وتيرة أعلى منها.. عادتْ إلى العالم الذي انتزعها منه أخوها.. حدَّثتْ نفسها بلهفة نعم... نعم... هذا ما كنتُ أنتظر سماعه منكَ منذ شهور، علتْ وجهها ابتسامة المنتصر، وارتسمتْ على محيّاها ما ينمُّ عن ذلك.

تقدَّم لخطوبتها رسميًّا، وكان الترحيب هو سيِّد الموقف!.. إلا أن الشيء الغريب واللافتُّ للنظر هو تحفُّظ الوالد وعدم قناعته بهذه الزيجة! فارق السن... فارق النشأة... بل وفارق الشخصيِّات، هو رجل ناضج واعٍ وعلى علم بما يريد!... أما ابنته فهي طفلة ليس بسنِّها بل بتفكيرها... لم يكن رفضه جميل لشخصه.. لكنه ليس بالشخص المناسب لسوسن... أخذ تبادل الآراء بين أفراد العائلة وإصرار الأم على الموافقة لعلمها وبفطرتها كأم ما بقلب ابنتها، وإصرار الأب على عدم الموافقة لعلمه وبعقله كأب مصير هذا الزواج... أقول استمرَّ الحالُ لثلاثة أشهر!... ليعلو رأي الأم والأولاد على رأي الأب.. وحصلتْ الموافقة وتمَّ الزواج... أثبتتْ السنة الوحيدة التي قَضَتْها سوسن مع جميل، وقبل أن يتخذ قرارًا فرديًّا دون الرجوع إليها، بالسفر فورًا إلى خارج القطر خوفًا من أن يتمَّ استدعاؤه للخدمة العسكرية، تاركًا وراءه زوجة وطفلة لم تتعدَّ الثلاثة أشهر بعد... أوضحتْ الرؤية الصحيحة لوالدها!، وبُعد نظره.. كان جميل يتعامل مع سوسن على أساس طيبتها وطفوليتها وبراءتها لا ليؤذيها أو يهينها؛ لا سمح الله؛ بل ليسيَّر الأمور كما يشتهي أن تكون.. حتى وإن أبغضها فهو متأكّد بأن قطعة شيكولاتة مع تنزه بالسيارة وكلمة حلوة تُعيد المياه إلى مجاريها... هذا هو بالضبط ما كان يؤرِّقُ والدها، كان رافضًا انقياد ابنته التي ربَّاها على الحرية وفضَّلها على أبنائه من الذكور.. ماثلًا أمام عينيه المقولة التي تقول:"رفقًا بالقوارير".

(١٠)

بعدما قضينا حوالي خمسة وثلاثين دقيقة، ونحن نقود سيارة (البيك أب) التي أعارنا إيّاه بابا لتمشية الأمور الحياتية، والتي تَصعُب بدون سيارة، بعد اضطرارنا لبيع حتى السيارة (الڤولكس ڤاكن) القديمة التي بحوزتنا لتمشية مرحلة من مراحل بناء منزل العمر، وكما كان يحلو لعادل تسميته!.. وصلنا إليه أخيرًا!!.. كانت المسافة بين بيتنا الذي نعيش فيه حاليًّا، والذي يقع في منطقة (الكرادة الشرقية)، وهو يقع على بعد دارين عن دار أهلي، إنه ليس ملكًا لنا وإنما نستأجره، وبين منطقة (الكفاءات) وهي المنطقة التي يقع بها المنزل الجديد، لا تقلُّ عن عشرين كيلو مترًا.

منطقة الكفاءات هي منطقة سكنية استُحدِثتْ بعد صدور قانون الكفاءات وُزِعَتْ على مَنْ شُملوا بهذا القرار، إنها منطقة تقع على الحدود الغربية لمنطقة بغداد المتاخمة لحدود محافظة الأنبار، صحيح هي بعيدة بشكل ملحوظ عن بقية المناطق السكنية التابعة لبغداد، بل إنها أصلًا منطقة صناعية.. لكن هذا ما جادتْ به يد القيادة السياسية لمثقفي وأساتذة الجامعات في البلد، لم تهبْ الدولة هذه القطعة السكنية ولا حتى باعتها لنا بسعر رمزي أو زهيد، بل على العكس كان سعرها مطابقًا لسعر السوق، ومع هذا فرحنا لامتلاكنا أرضًا بمساحة ستمائة متر، وهي المساحة المتعارف عليها لغالبية دور بغداد... قام عادل بوضع التصميمات وإعداد الخرائط الهندسية لدارين.. الأولى، وهي الكبيرة والمخصصة لسكننا.. الثانية، وهي

صغيرة لنقوم بإيجارها لنحصل على وارد يعيننا على تكملة متطلَّبات الشهر، والتي لا تفي بسدِّ نفقاتها رواتبنا الثلاثة: (راتبي، وراتب عادل من الجامعة، وراتب متواضع بعد انضمامه إلى المكتب الهندسي التابع للجامعة) لتصبح لدينا ثلاثة موارد مالية، إن التصميمات.. كانت غاية في الجمال والمهنية... بعد الانتهاء من المرحلة الأولى من مراحل البناء، وهي مرحلة التخطيط وشقُّ الأسس وصبُّ الجسر الرابط، صار بإمكان عادل التقدُّم بطلب سلفة من دائرة المصرف العقاري، وقد حصل عليها بالفعل بعد توفيره لكثير من المتطلَّبات والمستمسكات الرسمية التي تطلبها الدائرة إذ استطاع الحصول على مبلغ بسيط، وبذلك تمكن عادل من التوجُّه إلى دائرة مسئولة عن توفير مادة الطابوق وبعد إتمام معاملة معينة، ودفع مبلغًا من المال.. هو سعر أربعة آلاف طابوقة.. حصل على ورقة وموعد!... الموعد بعد حوالي شهر من الآن، وكذلك فعل مع مادة الأسمنت الداخل في عملية البناء.

كان عادل يتهيأ قبل يوم من الموعد بالنوم المبكر وحصوله على إجازة من عمله وإسناد مهمة تدريس مادته لذلك اليوم إلى أحد الزملاء؛ ليستيقظ قبل أن تلوح الخيوط الأولى من الفجر للتوجّه إلى الدائرة المختصة؛ ليكون ضمن الطابور المعد لذلك اليوم، فيحظى بأربعة آلاف طابوقة أو عشرين كيسًا من الأسمنت... كنتُ أعرف مسبقًا بأن عادل لا ينهي مهمته قبل حلول الظلام لذلك اليوم، فأكون متوجسة أما سيعود تملأه الغبطة لحصوله على المراد أم سيكون غاضبًا حانقًا على اليوم الذي قرر فيه الولوج في عالم البناء.

أخذ هيكل الدار يعلو ويرتفع على مدى الأشهر، لتعلو معه روح التفاؤل بنا، تمرُّ أشهر أخرى دون أن تطرأ أيَّة زيادة، فيخبو بنا الاندفاع والأمل... مرَّت سنتان حتى اكتمل الهيكل وانتهتْ معه ليالي السهر ومتابعة صبّ المادة الخرسانية الخاصة بالسقوف والأعمدة والجدران الحاملة ففي كل مرة نَمُرُّ بها بصبِّ أحد هذه المواضع يكون لزامًا علينا السهر طوال تلك الليلة.. عادل يسهر لمتابعة العملية للتأكُّد من سلامتها وإتقانها، وأنا أسهر متضرِّعةً لله لتسهيل المهمة على عادل.. راجيةً من الله حبس المطر والقطر، عدم تعرُّض أيَّة آليَّة للعطل، وهي دائمة الحدوث...

وصلنا أخيرًا إلى مراحل الإنهاء وهي فترة عصيبة ودقيقة ومكلِّفة... فهي تتطلَّب الإشراف المباشر والمستمرّ، وإلا فإن تحديد المنطقة التي لم تُرضِ عادل بخطوط حمراء متقاطعة دلالة على الأمر بهدم الجزء الذي مرَّ عليه القلم الأحمر الخاص بعادل وإعادة تنفيذه.. فإن عادل بطبعه دقيق، ويرنو إلى الكمال قدر المستطاع.. فإن ميلان أو عدم استقامة أيُّ جزء من شأنه أن يقُضَّ مضجعه.. فإما الكمال وإلا الويل والثبور أو حتى طرد الفني بعماله إلى غير رجعة... استعان عادل بعُّمال من دائرتي، وهم هنود الجنسية لعلمه بدقَّتهم وصبرهم؛ لتنفيذ أجزاء كثيرة وهذا ما يجعله في انتظار حلول يوم الجمعة من كل أسبوع، وهو موعد استراحتهم من الدائرة ليتمكَّنَ من التوجّه بهم إلى بيتنا قيد الإنشاء... نفذ كلُّ ما نملك من مبالغ... عمدنا إلى بيع سيارتنا (المرسيدس) التي حصلنا عليها ضمن قانون الكفاءات، وسيارتنا الصغيرة (الڤولكس ڤاكن).. بعد أن استنفذنا مبلغ السلفة التي حصلنا عليها من دائرة المصرف العقاري، اضطررنا لتسلُّف

مبالغ وإن كانت صغيرة من أفراد العائلة، استلفنا سيارة (البيك أب) التابعة لمعمل بابا لمدة لا تقل عن سنة لاحتياجنا وبشكل مُلِّح لها.

تمَّ أخيرًا اكتمال بناء منزل العمر... ليكون تحفة هندسيَّة بمعنى الكلمة... أصبح محطَّ أنظار القاصي والداني.. حتى إننا اعتدنا على وقوف شخص ما بباب الدار طالبًا منا إعطاءه نموذجًا للون النثر، نعمل على حكِّ الجدار الخارجي بسكين صغير لنأخذ منه الرذاذ المتطاير، لمعرفة تركيبة لون النثر المستعمل عندنا للحصول على اللون المطلوب... كان البيت واسعًا وجميلًا، كل زاوية فيه مدروسة وبإتقان شديد، الخدمات كانت على درجة عالية من الدقَّة في التفاصيل، التصميمات الداخلية والخارجية على نسق واحد متناغم، أحدها يكمِّل الآخر.. لا أبالغ حين أقول أصبح منزلنا معروفًا من بين منازل قليلة جدًا معروفة بالمنطقة، خاصة وأن المساحات الخارجية من شرفات وطارمات ومناطق خضراء تحكي مهارة وبراعة مَنْ قام بتصميمها والإشراف على تنفيذها... بعد انتقالنا إلى البيت واجهتنا مصاعب جديدة!! فَبُعْدُ المسافة بين مواقع عملنا والبيت ومدرسة بسمان كان له الأثر الكبير في عدم راحتنا.. كما كان مرجوًّا من بيت تمليك وحسب متطلباتنا.

إن المستوى العلمي للأبناء والذي يحصل عليه من خلال المدرسة، كان ما زال الشغل الشاغل لكل العوائل العراقية على اختلاف مستوياتها العلمية والاجتماعية.

• • •

حصلتْ أخيرًا سوسن على كتاب من مكتب الأمم المتحدة الواقع في مدينة لندن يفيد بأن جميل زوج سوسن هو موظف لديهم، ويطلب ضَمَّ عائلته إليه وبذلك يتوجَّب على الحكومة العراقيه وحسب الاتفاقيات الدولية.. منح سوسن وطفلتها تأشيرة سفر... كان هذا أغلى كتاب تحمله سوسن بين يديها عندما جاءتني لتطلب مني مرافقتها لمكتب الجوازات، وهو المكتب نفسه الذي تمَّتْ مراجعته من قِبلنا والواقع في منطقة زيُّونة، وهذا يعني أنها مرَّت بنفس ما مرَّت به سابقًا من طلب مقابلة السيد الوزير وانتظارها لموعد المقابلة، ومن ثم انتظارها لوصول كتاب الموافقة على منحها إجازة سفر لخارج القطر، وهذا الكتاب طبعًا قد مَرَّ بمراحل قبل وصوله ليد سوسن، وهي صدور الموافقة من السيد الوزير؛ ليُصَدَّرَ وبعد أكثر من أسبوع إلى مؤسسة الإسكان، بعدها بأسبوع إلى دائرة التنفيذ المباشر ليصل ليد السيد مدير مشروعنا...

كانتْ الفرحة العارمة التي تعتري سوسن تمنعها من التحكُّم في أعصابها، وبالتالي التحكُّم بمقود السيارة لذا آثرتْ أن تسلمني قيادة السيارة؛ لنصل لمكتب الجوازات سالمتين.

نظر إلى الملف الملقى على مكتبه، وهو يُقَلِّبُ بين محتوياته الكثيرة، محرِّكًا القلم بين إصبعي السبابة والوسطى برهةً وناقرًا لمعدن مكتبه تارةً أخرى، وأنا أحاول التهدئة والتخفيف على سوسن وحثِّها على الصبر والتزام الهدوء خوفًا من صدور أيَّة إشارة أو كلمة من قِبَلِها تثير عصبية الموظف مما يجعله وبكل سهولة يطلب منها أيَّة ورقة أو أي طلب تعجيزي آخر من شأنه تأخير توقيعه على تأشيرة

سفرها... رفع حاجبه، قطَّبه، خلع نظارته، فرك عينيه بيده اليمنى بحركة مسرحيِّة استعراضية أكثر منها حاجة لمسح عينيه أو لتعبها!... قال دون رفع رأسه، رافعًا لورقة بيده:

- ألم تلاحظي يا أختي أن كتاب الأمم المتحدة قد انتهتْ صلاحيته؟!... مُؤنبًا سوسن باعتبارها موظفة ويجدر بها أن تكون مُطَّلعة على الموضوع...

- لم أكن أعرف بأنه منتج غذائي أو دوائي فأقلبه على عقبه لأتبيِّن مدة الصلاحية!!... كان كل جزء بسوسن يتحرك بعصبية واضحة...

- أعتبر كلامك تهكُّمًا على قوانين الدولة..؟... موجَّهًا حديثه لسوسن رافعًا رأسه مُركَّزًا بصره عليها، وكان كل جزء به مستعدًا للدخول في معركة وشيكة...

- طبعًا لا حضرة الضابط... (بادرْتهُ بالجواب، وأنا أشِدُّ على يدها بقُّوة لأنبهها لخطورة ما تقول)... إنه من باب المزاح فقط...

- يجب عليكِ تجديد الكتاب ليكون كلُّ شيء قانونيًّا، تذكَّري أن صلاحية الكتاب لها شهر واحد فقط... قال كلامه وهو يطوي سجِلَّها على عجل راميًّا به بحركة عصبية باتجاه سوسن.

تكرَّر الموقف مع سوسن لعدة مرات.. لا أستطيع التكهُّن بالعدد الصحيح، وفي كل مرة تكون صلاحية أحد الكتب منتهية.. كتاب الأمم المتحدة، أو كتاب الوزارة، أو المؤسسة.. وهكذا... المهم في الأمر هو عدم تمكن سوسن من اللحاق بجميل... دائمًا ما تكون هناك عقبة ما بطريقهما.

(١١)

شهر كانون الثاني من العام ١٩٨٤م...

الكل في بيت أهلي في انتظار عودة عادل من مختبر مستشفى الراهبات الواقعة على بعد شارعين اثنين فقط منا، إنه ذهب لجلب نتيجة تحليل الحمل التابع لي...

أخيرًا حصل المراد، فأنا حامل بشهري الأول بعد طول انتظار دام أكثر من سنة وأربعة أشهر على عملية الإسقاط التي كنتُ قد تَعَرَّضتُ لها.. تابعتُ مع طبيبي الخاص؛ الدكتور/ سالم الحيدري صاحب مستشفى الحيدري المعروف، أخبرني أن وضع الجنين غير مستقر، ويجب أخذ الحيطة والحذر الشديدين... احتجتُ للمبيت في المستشفى عدة مرات، تنازلتُ عن عملي الذي أحبُّ لأتفرّغ للعمل المكتبي تلافيًّا للحركة الكثيرة، كل مَنْ حولي في العمل أعانني في الحصول على إجازات طويلة بعض الشيء لتوفير الراحة، وأنا في شهري السادس للحمل.

قررتْ سوسن الانتقال إلى موقع عمل آخر بعيدًا عن تندُّر الزملاء بالرغم من كل محاولاتي المتكرِّرة للحيلولة دون استمرار هذا المزاح.. انتقلتْ سوسن تاركةً فراغًا كبيرًا على كل الموظفين، فقد كانت بمثابة الأخت الصغيرة المحببة لقلوبنا جميعًا.. استمرتْ علاقتنا لنتواصل عبر الهاتف، كنتُ أتتبع أخبارها عن كثب، وبدورها تتبع أخبار حملي، وانقطاع الزيارات تقريبًا، فلكل منا ما يشغله.

حاول عادل وماما بكل صورة إبعاد أيَّة أخبار مزعجة أو مؤلمة عن الوصول إلى مسامعي قدر الإمكان، طرق سمعي خبر عن علاء ابن عمي مفاده.. أنه تمكن من عبور الحدود بنجاح واستقراره في إيران، وأيضًا بصورة غير شرعية لكن مرحلة الخطر والخوف من الملاحقة الحزبية والعسكرية قد زالت.. كانت هذه الأخبار مدعاة فرح لجميع أفراد العائلة وعلى وجه الخصوص للسيدة الوالدة.. هذا لا يعني انتهاء معاناتها، بل استجدتْ معاناةٌ جديدة ومن نوع آخر.. أين سيعيش؟.. من أين له المال الكافي لَسدِّ الرمق؟.. ماذا لو أَلَمَّ به مرض؟.. ماذا لو وقع بيد السلطات هناك؟، والكثير من الأسئلة التي تمر على ذهن أي منا... فكيف بفكر وأحاسيس أم ؟!.

الليل، وما أدراك ما الليل، ففيه الآلام تكثر وتزداد، وصلتْ آلامي ذروتها في الليلة الثانية والعشرين من تشرين الثاني ١٩٨٤م، وأنا أقضي ليلتي الثانية على التوالي في غرفة صغيرة بالقرب من صالة الولادة في مستشفى الحيدري، كنت بحالة ولادة متعسِّرة، وتحت تأثير البثدين تأخذني سِنَةٌ من النوم... أصحو لأجد نساء لم آلفُ وجوههن يقفن عند سريري هذه تدعو لي بصوتٍ عالٍ يسمعه كل مَنْ في الغرفة!.. الأخرى تُدلِّي مَسْبَحَةً بها صليب فوق رأسي وتستنجد بالسيدة العذراء!... أعود إلى ألمي الذي بتُّ أجزم بأنه حليفي إلى ما لا نهاية لشدَّته وعدم وصولي معه إلى حَلٍّ، فتأخذني نومة بسيطة مع وجود آلام، لأفتح عينيَّ على مجموعة أخرى من السيدات، كلُّهن تجمعن في غرفتي تاركات بناتهن اللاتي قد مَنَّ الله عليهن بالفرج والولادة، مُتبرِّعات بالتواجد مع ماما لشَدِّ أزرها في محنتها بتعسر

ولادتي، عند الساعة الرابعة فجرًا يوم ١٩٨٤/١١/٢٢م مَنَّ الله علي بالفرج والتسهيل ليقع نظري على طفلي الذي طال انتظاره.. أحببته، بل تعلَّق قلبي به!.. كما لم يحدث لي مع بسمان !.. أجهل السبب تمامًا.. أُرجع السبب في بعض الأحيان إلى نضوجي وكبر سني.. فبين بسمان وطفلي الثاني ست سنوات، أو لأنه كان يفتح عينيه وينظر لي على عكس بسمان وغالبية الأطفال في هذه اللحظة.. فالعيون المغمضة هي السمة السائدة، أو لسبب كنتُ أجهله حينها!.. المهم أن فؤادي تعلَّق به للوهلة الأولى.. أردتُ أن يبقى بقربي، لكنهم أبعدوه عني للانتهاء من تنظيفه ووضعه على الميزان، والتأكُّد من خلوه من أي تشوُّه واضح للعيان.. إلى غير ذلك... طبعتْ ماما عدَّة قُبل حانية على خدي وبللتْ وجنتيَّ بدموعها، كذلك فعل عادل بعد أن حضر بناءً على خبر زفّته ماما إليه عبر الهاتف، ارتعدتْ أطرافي من البرد كما لم أبرد من قبل، أحاطوني بعدد من المدافئ والأغطية الصوفية لم أشأ الاستسلام للنوم.. كنتُ بحاجة ماسة لضمِّه إليَّ.. طلبتُ من ماما أن ترسل بطلبه من غرفة الأطفال، لكنها رفضتْ لتدعني أرتاح ويرتاح هو كذلك، فقد عانى مثلما عانيتُ.

- إنه حقًّا لطفل جميل ويبدو عليه الذكاء، لتحرسه العذراء... قالت هذا وهي تضمه إليها مركِّزة نظرها على وجهه.. إنها مسئولة غرفة الأطفال (أستر)، وهذا اسمها وهي مَنْ حملتْ أطفال أختي حنان، وكذلك بسمان لحظة ولادتهم...

- إنكِ تقولين هذا الكلام لكل الأمهات لتشعرهن بالفرح وتبدّدين عنهنَّ التعب... وجَّهتْ ماما كلامها إلى أستر لتستشفَّ منها الحقيقة...
- أبدًا وحق الصليب، هذه الحقيقة القليل من الأطفال يولدون وهم يُركِّزون بنظرهم، أكاد أجزم بأنه يركِّز على وجهي... ضميِّه إليكِ يا عزيزتي، فهو بأمسَّ الحاجة إلى حنانكِ بعد كل هذا التعب الذي تعرَّض له.
ضممته إلى صدري... التفتتْ أستر إلى ماما وأخبرتها بأن صفرة عالية تكسو الرضيع، وهي قد اتصلت بطبيب الأطفال لمعاينته واتخاذ ما يلزم...
- لا تقلقي، فغالبية الأطفال يتعرّضون لهذا... أجابتها ماما بهدوء ولامبالاة.
- إن حالته تختلف عن كل الحالات!.. فإن الصفرة بدت عليه بعد ساعتين فقط من ولادته!، وهذا مؤشِّر على تباين بصنف الدم بين الأم والأب، وهذا وحسب خبرتي يتطلَّب وضعه في جهاز خاص لذلك لا يتوافر بمستشفانا، وهذا يحتِّم عليكم الإسراع والذهاب به إلى مستشفى العلوية القريب من هنا قبل حلول الظهر من هذا اليوم.

لم تمضِ أكثر من خمس دقائق حتى أخذوه مني!، فقد حضر طبيب الأطفال... تركتني ماما بعد أن حضرتْ أختي نهى لمرافقتي ليتسنى لماما الذهاب به مع عادل إلى مستشفى العلوية بعد أن ظهرتْ نتيجة تحليل دمه، وأفهموني بأنَّ الطفل سيوضع في جهاز لمدة ساعات ليتعافى وهذا شيء طبيعي... أخذوا مني عينة دم لتحليلها والتأكُّد من صنف دمي رغم تأكُّدي منه، وتأكُّدهم هم أيضًا إلا أن زيادة التأكِّيد لا

تضرُّ، مرَّت ساعة ونصف على وجود نهى معي... تركتني وغادرتْ إلى مكان أجهله لتأتي أختي حنان لتقوم على رعايتي...

- سألتها.. إلى أين ذهبتْ نهى؟.

- إلى الجامعة، فهي لا تستطيع التغيُّب كثيرًا.. وكيف لها التغيُّب وهي طالبة في كلية الطب بسنتها الأخيرة؟!.. وأنتِ تعلمين مدى جدَّيتها وقلقها وحرِّصها على دراستها.

أرادتْ حنان إبعاد حقيقة ما يجري من حولي... دخلتْ عليَ بعربتها الحاوية كل أنواع الإبر والأدوية والمطَّهرات، وصوت عجلات العربة يحدث صليلًا مع أرضيَّة الغرفة معلنة وجوب استيقاظي من النوم؛ لتناول المضادات الحيوية اللازمة...

ابتسمتْ لي ابتسامتها الرقيقة الحانية.. كملاك يرتدي الثوب الأبيض، يعلو رأسها وشاح أسود يتدلَّى على كتفيها، يضمُّ خصرها زنَّار أسود عريض، إنها "ماسير بشرى" الراهبة المحببة لقلبي، بادرتني بابتسامة ملفتة مستفسرة مني...

- كيف هو حال وليدنا الجديد يا بنيتي؟.. أرجو له الصحة...

- إنه بخير.

- الله سيأخذ بيده... إنكِ صابرة والله مع الصابرين!!!.. أنا فخورة بكِ يا ابنتي...

غادرتني بالابتسامة نفسها... لم أفهم حينها قصد "ماسير بشرى"... غادرتُ المستشفى بعد ثلاثة أيام متوجِّهة إلى بيت الأهل، وأنا كلُّي شوق لبسمان وأيضًا كلُّي فضول لسماع أيّ شيء عن حسَّان !!!، وهو الاسم الذي أطلقه عليه عادل بعد ما أرادوا اسم الوليد ليملأ حقل

الاسم في إضبارة المستشفى... وصلنا إلى بيت الأهل، خرج بسمان مستقبلًا لي إلى مرآب السيارة فرحًا، لا يكاد يصدِّق عودتي، أخذتُ بتقبيله وضمه إليَّ غامرةً إياه بحناني الذي طالما احتاجه واحتجته أنا، خامرني إحساس بنضوجه!.. أهو مَنْ كبر فعلًا أم وجود مولود جديد هو مَنْ جعلني أشعر بذلك؟!...

- أين النونو يا ماما؟.. ألم تجلبيه معكِ؟.. أخبرني خالاتي بأنه صار لي أخ!.. فأين هو؟.

قرأتُ اللهفة العارمة في عيون بسمان كان فرحًا وفخورًا بما حصل عليه، ولا أعرف.. ما شعوره الحقيقي؟، وماذا تعني له كلمة أخ؟...

- سيأتي بعدنا يا حبيبي... أجابه عادل وهو يحمله ويمطره بوابل من القُبلات...

- كيف له أن يقود سيارة وخالتي ريم تقول بأنَّ يده صغيرة؟!.. هل سيطول المقود؟...

إنها حقًّا براءة الأطفال... ضحك عادل وأفهمه بأننا مَنْ سيأتي به.

عرفتُ من أخواتي نهى وريم أن ماما وأختي حنان كانتا تتناوبان على المبيت مع حسان في مستشفى العلوية، كما كانتا تتناوبان على المبيت معي في مستشفى الحيدري..

- ومَنْ بقي لبابا وللقيام بمتطلباته؟... توجهتُ بالسؤال لريم...

- مثل ما تعرفين فإنه نشط والحمد لله ويحب توفير متطلباته بنفسه في كثير من الأحيان... أجابتني ريم مذكرة إياي بطبع بابا المعروف.

وأنا أنهض من الفراش مستعدَّة لتناول فطوري الذي تُعِدُّه لي نهى.. سمعتُ جَلَبَةً في الطابق الأسفل وخصوصًا عند المدخل، رفعتُ رأسي إلى الساعة المعلَّقة على الحائط خلف السرير؛ لأجدها تشير إلى الحادية عشرة ونصف صباحًا، ترى ما هذه الأصوات!!... المفروض أن غالبية مَنْ في الدار ذاهبٌ إلى دوامه، اختصرتْ ماما عليَّ طريق التساؤلات والاستنتاجات بدخولها إلى الغرفة حاملة معها رضيعًا لُفَّ بحذر وبعناية كبيرة بغطاء سميك تلافيًّا؛ لأي نسمة هواء باردة يمكن أن تمرَّ عليه!!... إنه حسان... ومَنْ غيره... ترى لِمَ لم يخبروني بنيَّتهم المبيَّتة مسبقًا؟!... قرأتْ ماما تساؤلات عيني! بفطرة الأم:

- أخيرًا... وكما ترين.. كل شيء على ما يرام، وكان بمقدورنا اليوم العمل على إخراج حسَّان من المستشفى بعد أن أكَّد لنا الدكتور/ حسان؛ المشرف على حالته؛ انتفاء الحاجة لبقائه في المستشفى وأن صحته جيدة وطبيعية مثله مثل أي رضيع عادي.

هرعتْ ريم لحمله بينما تسمرَّتْ نهى بمكانها لسبب لا أعرفه، أما أنا فلا أعرف كيف أتصرَّف فكانت الدهشة وعنصر المفاجأة متمكِّنة من حركتي.. تدخلتْ ماما لإنهاء حيرتي والتي كانت بادية على ملامحي:
- لميس حبيبتي، تقدَّمي واحمليه... (وهي تخطو نحوي بخطوات وئيدة)... إنه مَنْ أحببتِ من أول وهلة، ومعكِ الحق وكل الحق فإن الغرباء في المستشفى أحبوه وتعلَّقوا به.. ! فما بالك أنتِ.
وضعته بين يديَّ برفق وحذر شديدين مردّدة بعض آيات من القرآن الكريم... حملته وأنا أركز على عينيه وهما مفتوحتان يشع من

خلالهما نور أو هذا ما يبدو لي، لا أعرف لماذا رفعتُ عينيَّ لأرى ماما وهي تسيل على خديها دموع تتابع بعضها البعض، استغربتُ!... لكنها أجابتْ تساؤلي في الحال، وقالت:

- دموعكِ هي مَنْ حفزتْ دموعي على الانهمار.. إنه محبوب فعلًا.. له نظرة عين تعني الكثير، توحي بذكاء حاد، كان يحظى بمحبة واهتمام كل المحيطين بنا وبسريره، أكثر من كل المولودين حديثًا واللذين كانوا معه بنفس الردهة.. هو اكثرهم وزنًا، أكثرهم نشاطًا وأكثرهم شربًا للحليب.

- والآن وبعد ما انتهى كل شيء وقد مَنَّ الله علينا بسلامته، أحب أن أستمع لكل التفاصيل والتي لم أشأ سؤالكم حينها، كنتُ مدركة لخطورة الموقف لكني لم أرد إضافة قلقًا آخر على قلقكم لاعتبارات كثيرة... موجِّهة كلامي لماما وعادل...

- كيف لكِ أن تشعري بشيء أخفيناه عنكِ بشتى الوسائل، ولم يتفوه أحد منا ببنت شفه؟... سألتني ماما متعجِّبة...

- كل الممرضات، والعاملات كُنَّ يطيبن خاطري بسؤالهن عن وضع المولود، خاصة ماسير بشرى كلما دخلتْ لإعطائي الدواء، تردد نفس الكلمات، ما شاء الله على صبرك يا بنيتي!، فكلامهم لا يحتاج لتفسير أو استنتاج.

- كنا أنا وعادل متهيئين لوضع حسان تحت جهاز خاص بمرض اليرقان الولادي فور وصولنا إلى مستشفى العلوية القريب من مستشفى الحيدري؛ كما تعلمين... أخذتْ ماما تسترسل بالكلام.. استقبلنا طبيبٌ شابٌ نشطٌ متحمسٌ محبٌ لعمله، إنه الدكتور/ حسَّان..

عمد إلى سحب عيِّنة من دم حسَّان عن طريق القدم للوقوف على النسبة الحقيقية لليرقان، وقام بشرح الحالة لنا على أنها ليستْ من الحالات الاعتيادية!.. فظهوره خلال الساعات الأولى من الولادة يعني اضطرارنا إلى عملية تبديل دم !!...

- تبديل دم!!.. وما هي هذه العملية ؟... هتفتُ بها...

- كانت لنا ردة فعلك نفسها حينها أنا وعادل، طلب منا إحضار قنينة دم من صنف (أو سالب) على الفور وقبل منتصف نفس النهار...

- لكن أنتم تعرفون بأن صنفي هو (أو موجب) وهذا ما أكَّدوه لي رغم تأكدي المسبق بعد أن حلَّلوا دمي في مستشفى الحيدري للمرة الثانية.

- الكل يعرف ذلك... (قال عادل)... إلا أن الشيء الجديد الذي توضَّح لنا أن كل عمليات تبديل الدم تتم بهذا الصنف فقط، أول مكان تبادر لذهني هو مصرف الدم! إلا أن الطبيب قال لي ساخرًا ومتنهدًا في الوقت نفسه: أيُّ مصرف هذا يا أخي؟ فإن المصرف لم يعد يزود أي مواطن بالدم!.. إنهم يزودون جرحى الحرب فقط..!!.. إنها الحرب، ليس أمامكَ غير الأهل والأقارب من المتبرعين، والحاملين لهذا الصنف طبعًا، يجب عليَّ تذكيرك بأهمية حصولي على الدم قبل ساعتين من الآن!!.. وإن أي تأخير عن هذا الموعد ستكون له نتائج غير محمودة على حالة الدماغ للوليد... تجمد كل ركن بجسمي!.. إذا بيني وبين أن يعيش ولدي مع إعاقة عقلية دائمة... ساعتان!!.. أين أتوجَّه؟.. لفت بيَ الأرض مررتُ بكل الأماكن التي من شأنها تزويدي بقنينة دم... مررتُ بها وأنا متسمر بمكاني وعقلي هو مَنْ

يلف بي الأرض... توجهتُ إلى الجامعة... (قرأ عادل الاستغراب بعيني والدهشة الواضحة على ملامحي)... شق صوت ريم الصمت الذي ساد للحظات: كان الله بعونك يا عادل، لقد عانيتْ الكثير.
-... وصلتُ إلى الباحة الوسطية والتي تطل عليها شرفات الأقسام الداخلية.. ترجلتُ من السيارة.. أطلقتُ العنان لصوتي.. أردته أن يحلّق إلى أبعد ما يستطيع عله يُسمع مَنْ يسمع أحتاااااااج لمساعدة... كررت النداء، رافعًا رأسي، واضعًا كفيَ بالقرب من فمي لتوجيه الصوت وتركيزه، أطلَّتْ بعض الرءوس من الشرفات، مما شجَّعني على مواصلة النداء... (فرَّتْ دمعة باردة سالت بهدوء من إحدى عينيه)... أنا أستاذ في القسم المعماري لمَنْ لا يعرفني، أنا بحاجة لمساعدتكم، أحتاج لقنينة دم تسعف وليدي البالغ من العمر ساعتين... لينجدني مَنْ يحمل صنف (او سالب) وبأسرع وقت!... ما هي إلا دقائق قليلة وكان معي بالسيارة خمسة شبَّان، توجهتُ بهم إلى بيت الأهل ليتناولوا الفطور فهم بحاجة لهذه الوجبة، وأنا حتى لم أمهلهم لتناولها، فإن الوقت يداهمنا وبسرعة... ابتسمتْ ريم لسبب لا أعرفه... أكمل عادل ليقول: لقد قامت الرقيقة ريم بعمل وجبة إفطار دسمة نزولًا عند طلبي وبسرعة!... على غير عادة ريم... ضحك عادل وهو ينظر إليها، (الكل يعرف أن ريم بطيئة الحركة وهادئة جدًا لا يوجد ما يوجب الإسراع وهذا حسب رأيها طبعًا)... انفرجتْ أسارير عادل مع ابتسامة ريم... المفاجأة غير السارة؛ هي أن لا أحد من الشبان الخمسة يحمل صنف الدم المطلوب وهذا ما عرفناه بعد التحاليل التي خضعوا لها في المستشفى..! لَفَّ

اليأس نفسي، غُلِّقتْ الأبواب بوجهي.. ما عساني فاعل؟.. وما هي الجهة التي أتجّه صوبها؟.. توجهتُ بسؤالي إلى الدكتور حسَّان...

- ولهذا أطلقتم على ابننا اسم حسان؟.. توجهتُ بسؤالي إلى ماما وعادل بعد أن رنَّتْ كلمة عادل الأخيرة، وربطتُ بينها وبين ابني، وكذلك حاولتُ تغيير الموضوع بعد أن شعرتُ بالألم الذي انتاب عادل...

- هذا صحيح.. حيث إنه كان خير عون لنا بمحنتنا... أجابتْ ماما.. حيث وصلتْ فكرتي بتغيير الموضوع... فإن ماما لماحة بطبعها... إنه طبيب كفء حقًّا، عَوَّلَ على حمل إحدى أخواتك صنف (او) بعدما تأكد له أنك من حملة هذا الصنف، وقد أكدت لنا ماما هذا الأمر، وقالت أن نهى هي من تحمل هذا الصنف أيضًا إلا أنه موجب وليس سالب مثل ما هو مطلوب... قام الطبيب بالمغامرة والمراهنة على تقبل جسم حسان الدم الموجب فقط؛ لأن نهى قريبته.. استدعينا نهى على وجه السرعة وبعد القيام بِعِدَّة تحاليل لعيِّنة من دمها جاءت النتيجة مشجِّعة إلى حدّ ما...

- أو!.. هذا هو سبب خروج نهى المفاجئ بعد حضورها عندي لتبيت ليلتها معي في المستشفى.. لم أشأ السؤال حينها خوفًا من الإجابة... قلتُ هذا بصوت مسموع...

- استلقيتُ على سرير بجانب سرير حسان (قالت نهى).. كنتُ أتطّلع إليه، إنه يغط بنوم عميق.. سحبوا مني قنينة دم، طلبوا مني أن أعمد إلى تدفئتها!؛ ليتمكنوا من نقلها إلى جسمه الصغير...

- تدفئتها؟!، ولماذا؟... سألتها...

- هذه عملية متعارف عليها بمثل هذه الحالات.. أخذتُ الكيس ودثرته بعناية فائقة ببطانية صوفية.. قام الدكتور بفتح القارصة التي يسد بها سرة حسَّان...

- ما هذا؟!.. ألم تغلق سرته كباقي المواليد؟ (سألتها مندهشة)...

- نعم سُدت كبقية الأطفال إلا أنهم يعمدون لفتحها بالحالات الضرورية في مثل هذه الحالة، فإن عملية تبديل الدم تتم عن طريق السرة.. قمتُ بمساعدتهم وحسب طلب الطبيب المشرف على العملية، يسحبون عشرة ملليترات من دمي؛ ليضخُّوه إلى جسم حسان عبر السرة بعدما يكونوا قد سحبوا نفس الكمية من دمه.. وهكذا استمرتْ العملية لحين انتهاء الكمية، لم يغمض له جفن..!!.. إنه طفل حسَّاس...

- أكيد فإنه يتألم.. فكيف له النوم؟!... أخذتُ في البكاء على حاله...

- لا يا حبيبتي، ما تقولين غير صحيح.. لم يكن يتألم فلا وجود للألم بهذه المرحلة إلا أنه نبيه جدًا.. كان ينقل نظراته بين الطبيب وبيني..!!.. لكِ أن تتصوري هذا... مما جعل دموعي تنزل بسخاء، فإنه واجه الجانب المتعب من الحياة قبل أوانه... حتى إنه بعد ذلك كان يضُمُّ قدميه الصغيرة إلى جسمه كلما أرادوا سحب عيِّنة من دمه للوقوف على نسبة اليرقان بعد عملية تبديل الدم.. بدأ يعرف أنه سيتوجع فشَرَعَ يقاوم...

تدخلتْ ماما لتنهي الحديث حيث شعرتْ بثقله على مسامعنا جميعًا، وبالخصوص أنا:

ـ إنه الجميل حسان بين أيدينا، فلنحتفل بوجوده.. انظري ما أعدته ريم من ملابس جميلة قامتْ بخياطتها بنفسها... التفتتْ ماما إلى ريم، وطلبتْ منها إحضار بعض من ملابس حسَّان.

تعلَّق كلُّ أفراد العائلة بحسان ـ وهذا هو ديدن عائلتنا ـ فنحن نحب الأطفال حديثي الولادة، وكأننا نستقبل أول طفل في العائلة.. وهذا ما جرى مع كل أطفال حنان ومع بسمان إلا أن الوضع مع حسَّان كان مختلفًا، فإن ما تعرَّضْنا له من تجربة جديدة علينا.. جعل التعلُّق به مختلفًا، كما أن ذكاءه واستجابته لملاطفة الكبار كان مبكرًا ومتباينًا عن أقرانه.

بعد مرور حوالي عشرة أيام من ولادتي ووجودي في بيت الأهل... جاءت سوسن لزيارتي بمعيَّة ابنتها صابرين، وهي تحتضن دبًا أبيض كبيرًا ناعم الملمس، ورجلاه تخطُّ لتلامس الأرض، كانت مصرَّة على أن تضعه بالقرب من مهد حسان بنفسها.. شعرتُ بأن لسوسن ما تريد أن تخبرني به، كذلك شعر مَنْ معنا بالغرفة، سحبوا صابرين من يدها ليلاعبوها في غرفة أخرى ليخلو المكان لسوسن:
ـ إنكِ تودين إخباري بشيء، فخبِّري يا حبيبتي... قلتُ لها لأشعرها بالطمأنينة...
ـ هذا ما أحبه بكِ يا لميس، فإنكِ تفهميني ولا تضطرّيني لطلبه... كانتْ نظرات سوسن تنمُّ عن وجود خبر سعيد... التفتتْ يمنةً ويسرةً رغم خلو المكان، علتْ الابتسامة وجهها.. اقتربتْ مني هامسة:
ـ لا حاجة بي لتذكيرك بفشل كل المحاولات للسفر، والالتقاء مجددًا بجميل.

- هذا ما أنا متأكدة منه.. هاتِ ما عندك، فإن عينيك تحدِّثني بالكثير.
- أخيرًا.. اهتديتُ إلى السبيل الذي يوصلني إليه.. وأوَّد أخذ رأيكِ... خَفَّتْ الابتسامة بل تحولت إلى حيرة، هي تريد أن تخبرني.. إلا أنها تعرف ردّي مقَّدمًا.. هذا ما استشفَّيته من تبدل ملامح وجهها...
- يبدو لي بأنَّ الحلَّ ليس سليمًا إلى حد ما، وإلا لما احتجّتِ لرأيِّ.
- دائمًا تؤكِّدين لي أنكِ تقرأيني صحيح...(قالتها سوسن على عجل لتكمل ما عندها)... مثلما تعرفين فإننا وأقصد الشعب العراقي كله، ممنوع من السفر! فإننا في حالة حرب وهذا ما يشمل العراقيون فقط.
- بدأتُ أخاف من كلامك يا سوسن.. أكملي بالله عليكِ.
اعْتدَلَتْ بِجَلْسَتِها:
- أقصد أن المنع لا يشمل بقية الجنسيات... كانتْ تنتظر مني تكملة كلامها، وفهمه دون الحاجة لسماعه منها...
- هذا أكيد.. بلا أدنى شك.
- العراقية المرتبطة بغير العراقي... هَمْهَمَتْ بكلام ليس للسمع! بل لجعله مقدمة لكلام، يعني مَنْ تزوجتْ من مصري - كمثال - يحقُّ لها السفر!... تَوَقَفتْ لِتسمعَ مني ولِتِعْرِفَ ردَّة فعلي على هذا الجزء...
- والله يا سوسن بدأ الخوف يدبُّ إلى نفسي، إنها مقدمة لمجازفة ما.. هاتِ ما عندك.
- اختَصرتِ عليَّ الطريق... قالتها كمن نفض عنه عناء كبيرًا...
- مَنْ هو يا تُرى الزوج العربي البديل لجميل؟!.
- إنه موظف يعمل معي، وهو مصري الجنسية.

- وهذا أكيد.. مَنْ غيرهم!، فهم بالملايين، يملأون البلد من أقصاه إلى أقصاه، فهم وياللأسف بُدلاء شبَّاننا في كل الميادين، خيرة شبَّان البلد زُجَّوا في محرقة الحرب في جبهات القتال؛ ليستبدلوا وبكل سهولة بالمصريين، والظاهر أنهم أخذوا يزحفون إلى بيوتنا وغرف نومنا دون الاكتفاء بميادين العمل المختلفة... كانتْ المرارة تبدو واضحة على نبرة صوتي... ها هم احتلوا مكان الأزواج الشهداء بتشجيع من الحكومة، فمَنْ يرتبط بزوجة شهيد يُسلَّم مبلغًا من المال ليس بقليل مكافأة له، ويبدو الآن نحن على أعتاب استبدال الأزواج الأحياء أيضًا.. يا لسخرية القدر!.. شبَّاننا يسكنون القبور؛ ليأتي المرتزقة فيسكنون القلوب والدور.

- كفى يا لميس... ما فائدة كل هذا الكلام، أنتِ تعلمين وأنا أعلم بل الكل يعلم بأن الكلام لا يتجرَّأ على الخروج حتى إلى خارج هذه الغرفة..! بل يبقى يدور ليصطدم بالجدران ليعود إلى أذاننا من غير عودة؛ لنكن واقعيين.. ما فائدة الكلام الآن سوى قطع استرسالي بالكلام... قالتْ كلامها بنفاذ صبر واضح واستهجان...

- معكِ كل الحق.. أنا آسفة يا عزيزتي... أرجوكِ حاولي أن تعودي إلى ما كنتِ عليه من استرسال...

- إنه موظف معي.. شهم، غيور، تصوَّري بأنه هو مَنْ بادرني ليقترح عليَّ مثل هذا الحل!..

هممتُ بالكلام لكني توقفتُ خوفًا من ثورتها... أَكمَلَتْ :

- أنا حتى لم أطلب منه المساعدة.

- لكن الذي فاجأني يا سوسن هو معرفته بوضعك!!.. وأنتِ التي صممتِ على ترك العمل معنا لهذا السبب.

- هذا صحيح.. ألم أقل لكِ بأنه شهم!.. فقد لاحظ عدم وجود زوج يأتي لاصطحابي من العمل أو شيء من هذا القبيل، مثلما يحدث مع كل الموظفات المتزوجّات...

- سأحاول أن أُجمد كلَّ شكوكي ووساوسي؛ لأسمع منكِ إلى الآخر.

- بعد الركون إلى دفء شخصيته، وتأكُّدي من سلامة نيَّتهِ، وبأنه غير ثرثار، سردتُ له قصتي ومعاناتي مع القوانين والروتين السقيم الذي حرمني من العيش مع زوجي وبشكل طبيعي... عادتْ الابتسامة لوجهها وشاب صوتها الهدوء، وعدتُ أسمع سوسن التي أعرف.. طيِّبة ونقيَّة سريرة وتصدق كل ما تسمع!... قاطعتُها:

- وعلى أساس شهامته، فَتَحْتِ له قلبكِ...

- جاءني بعد أيام ليقترح عليَّ الحل الذي يوصلني إلى جميل والعيش سويًّا بعد فراق سنين، طلب مني الاتصال بجميل وطلب الطلاق منه!.. لا تستعجلي الكلام يا لميس قبل سماعك لي للآخر... هو حبر على ورق فقط، فبعد أن تنتهي شهور العِدَّة نعقِدُ قراننا... حبر على ورق أيضًا، وبهذا أكون زوجة رجل عربي يحقُّ لي السفر إلى خارج القطر وبكل سهولة!.. وبعد مغادرة البلد بسلام نعمل على فسخ العقد لأتجه إلى حبيبي وزوجي جميل!!.. كم هو شهم يا لميس!، أكَّد لي سلامة نيَّته، وهو يتحمَّل كل هذا العبء فقط لمساعدتي للخروج من محنتي.. أرجوكِ أن تفهميه كما أفهمه أنا.

- عزيزتي سوسن إلى متى تبقين طيبة القلب وتصدِّقين كل ما يُقال.

- آه.. بدأتِ تتكلمين مثل أبي.. تعِبْتُ من التوجيه والتنبيه... (طفرتْ دمعة أكاد أُحِسُّ سخونتها، ولها الحقُّ. أشفقتُ عليها وعلى حالها، وكم تمنيتُ لو استطعتُ مجاراتها). ولكن أنتِ أيضًا تشككين بنواياه.. ما مصلحته بترك البلد وترك عقد العمل في بغداد، ليعود بِخُفَّي حنين إلى بلده؟!... سألتْ وهي متأكِّدة من أن الرد سيكون بجانبها...
- هذا هو السؤال فعلًا، هنا يكمن بيت القصيد: لماذا عساه يقوم بكل هذه التضحية؟.. أليس هو مَنْ اختار ترك بلده وأهله على أساس الحصول على المال؟!، فجاء مَنْ يوصله إلى المال بطريقة أسهل وأجمل.
- أَكَّدتُ لكِ من البداية أنه شهم... أشاحتْ بوجهها صوب النافذة لتتفادى نظراتي.
- مهما تبلغ شهامته من مبلغ، لا تجعله يتخلى عن عمل يزوده بما يكفيه ويكفي أهله بل ويكفي لامتلاكه عقارات في بلده.
- إذًا ما هو الدافع برأيكِ لهذا؟!.
- دافع رجل شرقي بحت، فبعد أن تأكَّدَ له استحالة حصوله على مبتغاه بسهولة، عمد إلى طريق آخر.
- نفس كلام بابا؛ نفسه حرفيًّا!.. لقد ضقتُ ذرعًا بالمنطق، تعبتُ من النقاش أريد مَنْ يفهمني.. حتى أنتِ يا لميس!، تعبتُ من كل شيء.. أنا لا أطلب سوى حقي البسيط في الحياة فقط، أريد أن أعيش أنا وزوجي وابنتي مثل بقية العوائل، أنا لم أطلب القصور ولا السيارات الفارهة، أريد عائلتي ببنائها الصحيح!!.. أهذا كثيرعليَ يا لميس؟... انهمرتْ دموعها دون استئذان.

ـ أنا أقدِّر حالكِ يا عزيزتي، أكاد أشعر بناركِ تحرق قلبي.. فأنتِ صديقتي التي أعتزُّ بها.. بل أختي الصغيرة، عجزي عن مساعدتك يؤذيني ولكن لا أستطيع التغاضي عن النار التي تنوين رمي نفسكِ بها، ستُبدِّلين النار بنارٍ أَشدُّ حرارة.

ـ دعوني أُجرِبُ هذه النار لعلَّها تكون خلاصي.

ـ أودُّ أن أسألك.. هل بإمكانك الوقوف صامتة وأنت ترين صابرين ترمي بنفسها إلى النار دون علمها بأنها نار.

ـ أنتِ تعرفين الجواب مُسبقًا، فأنتِ أمٌّ قبل أن أكون أنا... قالتها وهي مستسلمة بالكامل...

ـ ذا هو موقفي بالضبط، قَدِّري موقفي، إنها نار تكوي قدم واطئها، اصبري.. رغم علمي بصعوبة هذا الطلب، لكني ومع كل الأسف لا أملك غير هذا الحل الصعب.

دخلتْ علينا صابرين باكية مشتكية وهي تصرخ: بسمان إنه بسمان.

اندهشتُ من حرقتها، ورغم علمي بأن بسمان طفل مسالم وغير عدائي إلا أنني قلتُ في نفسي أكيد ضربها... فسألتها:

ـ ما الذي يبكيكِ يا حلوتي؟.. أهو بسمان مَنْ أزعجكِ أم... أم...؟!...

ـ إنه هو... وهي تشير بإصبعها الصغير صوب بسمان وتفرك عينيها باليد الأخرى...

ـ ماذا عساه أن يفعل هذا البسمان غير المُهذَّب؟ هل ضربكِ؟ أم ماذا؟

ـ لِمَ كل هذا البكاء؟ هدئي من روعك... (قالتْ لها سوسن ضاحكة).. أجيبي ماما هيا أجيبي...

ـ إنه يقول أن النونو الجديد أخوه... وارتفع صوت بكائها...

- وما الغلط في ذلك يا صغيرتي؟... سألتها سوسن مستفهمة وضاحكة)...
- طبعًا غلط!...فهو أخي أنا.. أنا نونو كبيرة وهو نونو صغير أما بسمان فهو كبير جدًا، فكيف له وهو كبير.. أن يكون له أخ نونو؟!.. إنه يمنعني من حمله!.. أريد أن أسترجع الدبدوب، إذا لم يكن أخي ولا أستطيع حمله فلأحمل الدبدوب على الأقل.
كم هي حلوةٌ.. عفويَّة الأطفال!.

ودَّعتُ سوسن وأنا أَشِدُّ من أزرها، وأُذكِرها بعواقب الخطوة فيما لو اتخذتها، وأنا كلّي يقين من اقتناع سوسن بوجهة نظري، والتي هي أصلًا وجهة نظر والدها بل هي وجهة نظرها في قرارة نفسها، وما حملها على هذا التفكير سوى محاولة تفريغ لعواطفها؛ لتستطيع التواصل وتَحَمُل ما فُرِضَ عليها قسّرًا.

عدنا إلى البيت بعد مرور حوالي خمسة وعشرين يومًا، وهذه المرة ازداد عدد أفراد العائلة لنصبح أربعة أفراد بدلًا من ثلاثة، أنا متواجدة في البيت طوال الوقت بعد ما مُنحتْ إجازةً لمدة أربعين يومًا براتب كامل كونها إجازة وضع، كنتُ خلالها آخر استمتاع، فأنا أهوى العناية بالرُّضع، وكانت كل الظروف مواتية فعلًا لأستمتع بكل ساعة مع حسان.. إنَّه طفل جميل، يُقبِلُ على التهام رضعاته بكُلِّ نهم حتى أن وزنه ازداد بشكل ملحوظ، وهذا أيضًا هو مطلب طبيب الأطفال المشرف على وضعه الصحي، فقد أكَّد وجوب الاهتمام بتغذيته بعد عملية تبديل الدم.

(١٢)

بعد انتهاء أيام الإجازة.. قمتُ بزيارة لعملي والسلام على الزملاء، وتقديم طلب إجازة ثانية لمدة ستة أشهر بنصف راتب، وهي ما يُطلقُ عليها إجازة أمومة، وهي إجازة استحدثتْ أثناء الحرب... إن الحرب تدخلتْ في كل تفاصيل الحياة، وذلك لتشجيع الأمهات لزيادة الإنجاب وتعويض شبّاننا المقتولين في جبهات حروب غير مبرَّرة..!، فالأم تُنجِبُ وتربيّ والحرب تقتل؛ لتعود الأم تُنجبُ وتربيّ!!... فتسلِّم أولادها إلى أيَّة جهة هذه المرة؟!! الله أعلم بذلك فتستمر دورة الحياة... الأمَّهات تلِد.. تنجب.. تربيّ، فتسلم فلذات أكبادها؛ لتُصهر أجسادهم بنار الحرب وبعدها يكافئن بإجازة أمومة لمدة ستة أشهر بنصف راتب...!.. هكذا وبكل بساطة يُعوَّض الشابُّ برضيع.

حان موعد استحمام حسَّان اليومي عند الظهر، الجو بارد جدًا وهذا حال الطقس في بغداد في شهر شباط، لقد تخطَّى عمره الثلاثة أشهر، كنتُ أحمِّمه؛ ليستغرق بنوم عميق في فترة الظهيرة.. الحمّام داخل غرفتي وكذلك سريره فهو لا يزال صغيرًا ويحتاج لمتابعة ومراقبة أثناء الليل، أما بسمان فهو ينفرد بغرفته القريبة من غرفتنا، وقد اعتاد على المنام لوحده منذ أن كان عمره سنتين، وكذلك سأفعل مع حسان بمجرد بلوغه سنة أو أكثر بقليل... استغرق في نومٍ عميق كعادته؛ ليصحو بعد حوالي ساعتين، سمعتُ سعالًا غريبًا يطرق مسامعي ومصدره غرفتي!.. اتجَّهتُ لها لأجد حسَّان يسعل بصوت غريب لم أسمع مثله من قبل وصعوبة التنفس باديةً عليه!!... إن

المكان الذي نسكنه بعيد عن كل شيء... إضافة إلى أن السيارة الوحيدة، وهي سيارة (البيك أب) التي استعرناها من بابا؛ لتمشية الأمور.. كانتْ مع عادل، وهو لا يزال في المكتب الهندسي التابع للجامعة ولن يعود إلا بعد ساعتين... ما العمل.. وأنا أرى صغيري بحاجة ماسة لاستشارة طبيب؟.. تذكرتُ للتو أن طبيبة أطفال، وهي في الوقت نفسه أستاذة جامعية تسكن على بعد عدة أمتار منا، عليَّ التوجّه لدارها، وطلب العون... جاءتْ معي الطبيبة بكل رحابة صدر رغم ضيق وقتها، فهي عائدة للتو من المستشفى؛ لتستعد للذهاب لعيادتها الخاصة... طلبتْ مني التوجُّه وعلى الفور إلى مستشفى اليرموك، بعدما زودتني بورقة بخطِّ يدها وتوقيعها؛ ليسمحوا لي بالدخول الرسمي... اتصَّلتُ بعادل عن طريق المكتب الهندسي، وكذلك اتصَّلتُ بماما لتلاقينا هناك، الوقت يمرُّ بسرعة وسعال حسان، وحالته تتفاقم مع كل دقيقة تمرُّ... لم يسعفنا الحظ بمقابلة طبيب مختص، فلا وجود سوى لطبيب يؤدي إقامته الدورية، كل الأطباء المختصين يغادرون في مثل هذا الوقت، وكإجراء روتيني طُلِب منا التوجُّه إلى قسم الأشعة للوقوف على حالة حسان... مبنى قسم الأشعة يقع على بعد مسافة غير قليلة من مبنى الطوارئ الذي نحن فيه، لفَّنا البرد القارس ولفحنا تيار هواء بارد، وكان قلبي يتفطر حزنًا وقلقًا على حسان، وأنا ألفَّه ببطانية سميكة خوفًا من تعرُّضهِ لانتكاسة بسبب هذا البرد والدخول والخروج من وإلى البنايات المتفرقة، وهو بهذا الحال... بعد مرور حوالي ساعة ونصف..!!.. وصلنا إلى ردهة الأطفال بتوجيه من الطبيب بعد أن قرَّر وجوب

وضع حسان تحت جهاز الأكسجين فإنه يعاني من ضيق تنفس شديد على إثر إصابته بالتهاب قصبات حاد... خانتني شجاعتي، تخليتُ عن واجبي كأم وبسرعة..!.. انتظرتُ طويلًا خارج الردهة لأترك لعادل وماما مهمّة الاهتمام بحسان.. دخلتُ الردهة بعد حين... يا لحبيبي... يا لصغيري.. قاموا بحلق شعر رأسه... غرسوا إبرة بمقدمة رأسه لوصول مادة المُغذّي عن طريقها، يصرخ هو بصوت مكبوت خافت، ممدد فوق سرير فُرِّشَ بمفرش كان لونه في يوم من الأيام أبيض.. !.. كيس المخدّة أقذر من المفرش، اضطرتْ ماما لفرش بطانية حسان الصغيرة تحته تلافيًّا لملامسة جسم حسان لمفرشهم... أخذتُ أدور بنظري في كل ما حولي، فإذا بي أنتبه لوجود طفل صغير بجانب حسان وعلى السرير نفسه.. !!... أغلقتْ الممرضة كيس نايلون سميك يرتفع فوق السرير، وبذلك يكون حسان والطفل الآخر تحت الغطاء نفسه ليستنشقا الأكسجين سويًّا !.

- ما هذا.. ما هذا ؟.. أجادة أنتِ.. ما الذي تنوين فعله بالضبط؟!... وجهتُ كلامي للممرضة...

- ما بكِ يا سيدتي؟.. أنا أقوم بواجبي لا غير.

- وواجبك يدعوكِ لوضع طفلين بمرضين مختلفين تحت الجهاز نفسه؟!.. ألا تقدري خطورة الموقف ؟.. فسيصابان بمرضين بدلًا من مرض واحد لكل منهما.

- أنا أعرف منكِ هذه الأمور.. أتعلمينني ما يصح وما لا يصح... استشاطتْ غضبًا، وصرختْ بوجهي، وتسارعتْ حركة فكَّيها بطحن العلكة تحت أضراسها وامتلأتْ زاويتي فمها بلعاب كثيف... تفرَّستُ

وجهها، إنها سيدة لا تتجاوز الثلاثينيات من عمرها.. ممتلئة الجسم خاصة في منطقة الأرداف، ترتدي صدرية بيضاء أقل ما يقال عنها إنها قذرة، وضيقة تكاد أن تنفر أزرارها، ازدحمتْ بأصابعها خواتم مصنوعة من الذهب كبيرة الحجم خفيفة الوزن قبيحة التصميم.. أما الوجه!... فقد بالغتْ بطلائه بالمساحيق لتبدو بشرتها أقل سمرة من حقيقتها فتحوَّل لونها إلى الأسمر المُزرقّ، طلتْ حاجبيها بلون أسود وعلى ما أظن فهي استخدمتْ قلم التبرج نفسه لرسم كل من حاجبيها وتحديد لظلال فوق جفنيها، ورسمتْ حدود شفتيها، والأهم من ذلك كله اللون الأحمر الفاقع لتلوين الشفتين.. أما الشعر فقد عقصته إلى الخلف بطريقة فوضوية لتتدلى خصلات بأطوال مختلفة حول وجهها... استمرتْ بمضغ العلكة بسرعة دون ضم شفتيها ليظهر الجزء الأكبر منه!... وبطريقة استعراضية عمدتْ إلى رفع الغلاف البلاستيكي عن السرير لتؤكد عدم استفادة الأطفال من الأكسجين كعقاب لي... تداركتْ ماما الموقف وسحبتْ عملة نقدية من حقيبتها؛ لتضعه في جيب الممرضة وهي تخاطبها بكلمات ترضية...

- أنا أقوم بواجبي يا حاجة، وليس هناك مَنْ يقدر تعبي... موجهة سهام نظراتها الحادّة نحوي...

- إنها أم... وهي قلقة على طفلها فاعذريها... ولكن.. أليس بالإمكان العثور على غلاف جديد ليكون طفلنا بمفرده؟.. ليتكِ تحاولين البحث وسوف لا يضيع تعبكِ معي... فأنا أقدّرُ المساعدة ولا أغبن حقكِ إن شاء الله.

- إنها قليلة فعلًا يا حاجة.. هَدَّأ من روعها كلام ماما لها... فتكلمتْ بهدوء وشيءٍ من الأخلاق هذه المرة، وبعد تأكدها من ولوج العملة النقدية لجيبها بسلام.
حضر الطبيب ليتأكَّد من سلامة الإجراءات.. ترجيِّتهُ لعزل حسَّان بسرير بمفرده.. عاد إلينا بعد حوالي عشر دقائق بغلاف جديد، ثم قام بنزع السلوفين عنه أمامنا وقام بوضعه فوق سرير حسان بنفسه.. طلب مني مراقبة المُؤشِّر الخاص بقنينة الأكسجين وضرورة إبلاغ المعنيين قبل نفاذ الأكسجين بفترة معقولة وإلا سأُعرِّض طفلي للاختناق!!:
- خذي الموضوع على عاتقكِ فإن مَنْ حولكِ من الممرضات لا يعنييهم الأمر...!.. كوني حذرة، كذلك راقبي كمية السائل المُغذّي، واطلبي استبداله بجديد قبل نفاذ الكمية وإلا ستسمحين بدخول الهواء من خلال الإبرة، وهذا به خطورة على الطفل... الظاهر أن مَنْ يضطر لدخول مستشفى في بغداد يدخل في دورة تمريض إجبارية.
سألتُ الطبيب بتعجُّب:
- كيف تسنّى لك إيجاد غلافًا جديدًا في الوقت الذي تعذَّر ذلك على الممرضة ؟!.
- إنها توصلكم لحالة يأس فتبادرون بإعطائها المال مقابل واجبها الذي تتقاضى عنه راتبًا.
- ما هذه النفس الضعيفة؟!.. هذا ما وصل إليه الشعب العراقي..!.. أخيرًا.. بدأنا نتعامل بالرشوة حتى فيما يتعلق بحياة الناس؟... (قالت ماما مستنكرة).

- لا تلوميها يا خالة... (قال الدكتور). لو كنتِ تعرفين قِلّة ما تتقاضاه لعذرتِها.

- لكن هذا واجبها وهي تعرف ذلك مُقدَّمًا.

- هذا صحيح لكن الجوع كافر - مثل ما يقال - زوجها أُستُشهِدَ قبل عامين، وهي مسئولة الآن عن إعالة أربعة أطفال، والراتب الذي تتقاضاه لا يصمد معها لأكثر من عشرة أيام... الرشوة شيء مُستهجن حقًّا ووضيع.. لكن الحال هو هذا.. - ليكن الله بعون الجميع.

- أنتَ أيضًا تتقاضى راتبًا متواضعًا جدًا، ومع هذا لا يخطر ببالك بل وترفض التعامل بها.

- هذا صحيح يا خالة.. لكن ليطول الله بعمر والدي، مساعدته لي هي بمثابة السور الذي يحصنني، حتى بعد مرور ثلاث سنوات على تخرجي فهو لا زال ملزمًا بِمدِّي بما يكفيني.

جنَّ الليل بثقله، وأنا أجلس على طرف سرير حسان وأنقل نظري بين مقياس قنينة الأكسجين وكيس المغذي على حمَّالتهِ المعدنية، وذلك بعد مغادرة عادل وماما للمستشفى.. شعرتُ بثقل رأسي فوق عنقي، إنه يأبى أن يرتكز على عنقي من شدَّة النعاس، قضيتُ الليل وأنا بين مؤشِّر قنينة الأكسجين وقنينة المغذّي وإغماضة عيني غصبًا عني، لاحظتُ مؤشِّر الأكسجين ينبئني بقرب نفاذها.. أسرعتُ إلى المُعينة المسئولة عن الموضوع، وجدتها نائمة في غرفة صغيرة متوسدة يدها، ملتحفة ملابسها وهي تغط بنوم عميق أيقظتها بخجل، أخبرتها بنفاذ الأكسجين وضرورة إحضار قنينة جديدة!!... أجابتني دون رفع رأسها أو حتى فتح عينيها:

- كيف لكِ أن توقظيني...؟!.. ألم تجديني نائمة..؟!.. ألا يحقُّ لنا النوم قليلًا.. أم نحن لسنا من البشر...؟.. اذهبي عني الآن وسأوافيكِ عند الصباح!!... عادتْ لنومتها مقطبة جبينها.

- أنا مقَّدرة موقفك يا خالة، ولكن حياة ابني متوقفة على الأكسجين فساعديني أرجوكِ... قلتُ معتذرة منها على تطاولي والسماح لنفسي بإيقاظها...

- أنا مَنْ مسموح له الموت وابنكِ لا!... قالتها بعصبية وهي لا تزال نصف نائمة.

تركتها وأنا مذعورة، لا أعرف جهة أتوجّه لها، مشيتُ على غير هُدى.. أسعفني تفكيري باللجوء إلى غرفة الطبيبات الخفر لعلني أجد ضالتي هناك.. باب الغرفة مسدود، قرعته بخفّة... جاءني صوت:

- مَنْ هناك؟.

- أنا أمٌّ لطفل بحاجة لقنينة جديدة من الأكسجين ولا أحد يعينني.. أنا آسفة لكني محتارة...

فتحتْ الباب طبيبة شابة مرتدية لمئزرها الطبي.. رتَّبتْ من وضعها وشعرها، وقالتْ بكل دماثة خلق:

- اتبعيني يا سيدتي.. سنحاول أنا وأنتِ توفير واحدة... أنا كلي يقين بأن المعينة (أم كريم) لم تسعف طلبكِ، وهذا هو ديدنها أثناء الليل... إنهم يتعبون كثيرًا أثناء النهار فأعدادهم قليلة ونحن بشر لنا طاقات محدودة.

استبدلتْ القديمة بأخرى جديدة رغم ثقلها وربتتْ على كتفي وتركتني مبتسمة.

لاحتْ الخيوط الأولى من الفجر، بدأتْ الأمهات المرافقات لأطفالهن بالتحرك ودبَّتْ الحياة بالرُّدهة، منهن مَنْ استقرتْ فوطة الحمَّام على كتفها وتوجهتْ لغسل وجهها وبيدها فرشة أسنانها، الثانية أخذتْ بترتيب سريرها..

مسئولة التغذية دخلتْ إلى الردهة وعجلات عربتها تصدر صوتًا يوقظ الجميع وتصرخ بصوت عالٍ:

- هيَّا تعالين لاستلام وجباتكن دون تأخير.. أيتعين عليّ البقاء في ردهتكن طوال اليوم!. هيا دون إبطاء وإلا تركتكن اليوم دون فطور.

اجتمعت غالبية الأمهات إلى منضدة بمنتصف الردهة، وأخذن في تناول الفطور وكأنهن عائلة واحدة، تَجَمَعَهُنَّ صداقة من نوع ما، أخذن يتحدثن في كل ما يخطر على بال، وأنا لازلتُ عند سرير حسان لم أغادره، بادرتني إحداهن:

- كيف حال ابنكِ اليوم؟.. ملتفتة نحوي في وجود كمية من الطعام بفمها منعتها من تلفظ الكلمات بوضوح...

- أشعر إنه بخير والحمد لله، هناك تحسُّن عن يوم أمس.. أجبتُ بِتَحفُّظ، فأنا لا أعرفها...

- ليحفظه لكِ الله، كلنا هنا أخوات.. لا تترددي في طلب أي شيء، فلولا التعاون فيما بيننا لم أستطع تحمل الشهر الذي مَرَّ علي وأنا هنا.

- أتقولين شهر...؟!.. يا لها من مدة طويلة!.. كان الله بعونك... أحجمتُ عن الكلام عساها أن تفعل هي الأخرى، فأنا لا أجيد التَحَدُّث مع الغرباء بسهولة...

- أنا لا أجد صنف الدم المطلوب لابني.. قالتْ غير آبهة بسكوتي.. هو يحتاج لقنينة دم كل ثلاثة أيام تقريبًا..!، وبما أننا في حالة حرب فتوفير الدم شيء صعب جدًا، وليس لدينا المال لشرائه من السوق السوداء!... كادتْ أن تفرَّ دمعة من عينيها...

- السوق السوداء..!!!.. سألتها مستهجنة...

- ألم تسمعي بها!... قالت وهي متأكِّدة من كلامها... هنالك أناس يعتمدون بمعيشتهم على ما يتبرَّعون به من الدم أو على الأصح ما يبيعونه من دمائهم، فهم مجبرون؛ لأنهم لا يجدون ما يسِدُّ رَمَقَ أولادهم... أجابتني وهي مستنكرة عليَّ عدم معرفتي...

- أنا لم أسمع بذلك أبدًا، ويا ليتني لم أسمع به، أَوصل بنا الحال لذلك؟... تنهَّدتُ طويلًا متألمة على حال شعب حباه الله بالكثير من النِعَم...

- نعم يا أختي.. اليوم مطلوبٌ مني توفير قنينة دم لابني وإلا سينتهي كل شئ... لا يظهر على وجهها أي تعبير...

- عجبًا.. ما تقولين... أو تتمكَّنين من تلفُّظه بسهولة؟... سألتها مستغربة...

- وما بيدي أن أفعل؟، أنا هنا منذ شهر تقريبًا، وكل مَنْ يحمل الصنف المطلوب لولدي من أقاربنا وأصدقائنا قد تبرَّع مشكورًا.. لا أستطيع مطالبتهم بالمزيد، فلولاهم لفقدتُ ولدي منذ زمن... لم تتغيَّر معالم وجهها أيضًا...

- وما هو الصنف المطلوب؟... سألتها من باب الفضول لا غير...

- (أي موجب)...

تبادر لذهني في اللحظة ذاتها أن عادل من حملة هذا الصنف، تهلَّلتْ أساريري، لكني لم أتكلم ولم أَعِدُها بشيء، فلم يقم عادل بالتبرُّع سابقًا، وهو في الوقت نفسه يهاب منظر الدماء والجروح.. لكني متأكدة من شهامته وعدم بخله بدمه؛ ليعيش غيره.

حضر عادل بعد الظهر لإحضار بعض الطعام، فنفسي لا تطاوعني لتذوّقِ طعام المستشفى، وفي الوقت نفسه يحضر لنا الماء المغلي والمبرد لتحضير رضعات حسان، وبعض الغيارات الخاصة به وغيرها من المتطلبات.. فاتحته بموضوع تبرُّعه بالدم.. لم يتردَّد ولو لحظة... فقد عادتْ به ذاكرته إلى وقوفه بالحرم الجامعي طالبًا الدم لحسان.. رافعًا كم قميصه متهيِّئًا للسحب، مرددًا مع نفسه آية من الذكر الحكيم {وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً} مُتجِّهًا صوب مختبر الدم.. رافقتُه إلى هناك بعد أن طلبتُ من الأم مراقبة وضع حسان أثناء غيابي، فوافقتْ وبترحاب حتى دون أن تعرف شيئًا عن نيَّتنا، وما هي إلا دقائق حتى جاء إليها الطبيب وهي لا تزال بالقرب من سرير حسان؛ ليطلب منها تهيئة ابنها لضَخِّ الدم الجديد له... لم تُصدِّق ما سمعتْ لتسيل الدموع سخيَّة من عينيها مستفسرة عن المصدر... أجبتها: القنينة من دَمِّ زوجي عادل.

سألني عادل عن ليلتي في المستشفى...

- قضيتها بين مراقبتي لقنينة الأكسجين، ومستوى المغذِّي، وبين إبعاد القطة عن سرير حسان ومحاربتي لها.

- تلك القطة الكبيرة السوداء التي صادفتنا في غرفة الأشعة!... باديًا دهشته

- في غرفة الإنعاش؟!... أنا لا أتذكر أن رأيتْ قطة.. ولو رأيتْ لما وافقتُ على دخول ابني لهذه المستشفى.

- الخيار ليس بيدنا يا عزيزتي... أجابني عادل وهو يودُّ سماع ما حدث معي ليلة أمس...

- كانتْ هناك قطة كبيرة تحوم حول سرير حسان تارةً، وتذهب لتحوم حول سرير آخر... وهكذا جعلتْ النوم يجفو أجفاننا، وكانتْ هذه خدمة لا أنساها فزيارتها للرُّدهة كان عاملًا مساعدًا في بقائي متيقظة- شرُّ البلية ما يُضحك.

ما جرى في الليلة الأولى تكرَّرمعي لاثنتين حتى تماثل حسان للشفاء، وكان قرار الطبيب المشرف هو عدم احتياج حسان للأكسجين، وهذا لا يعني مغادرة المستشفى!.. إذ يتحتم علينا البقاء ليومين آخرين للتأكُّد من صحَّته... وهذا جعل مني سيدة اجتماعية إلى حدٍّ ما، فكنتُ أتجاذب أطراف الحديث مع هذه وأجيب عن أسئلة تلك على غير عادتي.

تداعتْ إلى مسامعنا أصوات حركة غير مألوفة..!.. الممرات تعجُّ بحركة كبيرة، أقدام تذهب وتجيء، توجيهات تصدر بحزم لكن مع كل هذا لا نفهم ما يدور لنتبيَّن سببًا لهذه الضجَّة على حين غفلة.. انشغلتْ رُّدهتنا بما يدور بالخارج، دخلتْ علينا معيِّنة بدينة ترتدي مئزرًا أزرق اللون نظيف!!.. نصف وزنها الزائد يكمن في أردافها، نصف حركتها هي حركة أردافها، فهذه الحركة تعطي انطباع الهمة والنشاط لكثرة تموُّجِها إلا أن الحقيقة غير ذلك.. زمجرت.. صرختْ:

- كل واحدة منكن تعمل على ترتيب سريرها.. ليس فقط السرير بل وما حول السرير.. وما تحته.. الهِّمة هيَّا.. ألم يصل صوتي بعد؟.. هلمو.. ما تنتظرن.. ؟!.

الهتاف الناري موجهًا لنا نحن المرافقات!... نعم لنا، وكأن واجبنا التنظيف بدلًا عنهن... لن أستجيب؛ قلتُ مع نفسي.

- سأعود بعد نصف ساعة لأرى الرُّدهة، وقد تحوَّلتْ إلى جنة... أكملتْ بكُلِّ جديَّة وأردافها تزداد اهتزازًا كلما صرختْ... سأتأكد من الوضع بنفسي والتقصير سوف يؤدي بصاحبته إلى الطرد من المستشفى هي وابنها ومهما كانتْ حالته.. أسمعتنَّ ما أقول؟.

- ما وراؤكِ يا أم كريم؟، ماذا جرى لكِ اليوم؟... تجرَّأتْ وسألتْ إحدانا...

حتى لم تلتفتْ هذه الأم كريم... جعلنا ننظر لبعضنا البعض مستغربات الأمر برُّمته.

- أين هي؟... أين هي؟...

صَمَّ آذاننا صوتٌ رجاليٌّ حاد طغى على كل الأصوات... دخل باحثًا تحت الأسِّرَّة عن شيءٍ ما... رافعًا عصًا ملوِّحًا بها لإخافة عدوٌّ مجهول... ألم تلمحها واحدة منكن ؟ سألنا دون رفع رأسه فهو لا يزال يحني جذعه الطويل النحيل؛ ليكون مستوى نظره محاذيًّا لأرضية الرُّدهة...

- أنتَ تبحث عن قِط.. أليس صحيحًا استنتاجي؟... قالتْ إحدى الأمهات وضحكة عالية أعقبتْ السؤال... هيا أخبرني يا أبو سمير علّي أستطيع مساعدتك للوصول لما تبحث عنه.

- أخاف عليكِ من شدة الذكاء... أجابها ساخرًا... أو غير القط هو ما نخاف وقوع عين السيد الوزير عليه؟.
- السيد الوزير؟!.. وهل سنحظى بلقاء سيادته؟. يا لنا من محظوظات إذًا!... أخذتْ كل واحدة تقول ما يحلو لها...
- لا وقت لدي لأضيِّعهُ في الكلام معكن.. ابحثن معي عن القطط.
- احفظن ألسنتكن بفمكن، ولا تتفوهّنَ بكلمة واحدة.. وإذا كان لا بد من الكلام فليكن المديح ولا غيره... زمجرَّتْ بنا أخرى، وتركتنا لتذهب للرٌّدهات المجاورة لإلقاء الفرمان السلطاني نفسه.

مرَّت ساعتان والمستشفى ومَنْ فيها في هياج حتى المرضى الراقدون قد أُهملوا أكثر مما هم مهملين أصلًا... أنا كنتُ لاهيَّة مع حسان حيث كان يصرخ.. يعاني من الطفح الجلدي مع كل اهتمامي بغياراته... كنتُ مستغرقة معه محاولة تهدئته بوضع بعض المراهم المهدئة إلى غير ذلك، تكاد دمعتي تنزل على خدي لشَدَّة إرهاقي وتعبي.. لأسمع صوتًا يقول لي:
- أمن الممكن أن أتحدث قليلًا مع المدام؟!..
أدهشني سماع هذه الكلمة الإنجليزية، فمَنْ عساه يكون صاحب الصوت؟.. رفعتُ رأسي لأرى مهرجانًا يقف بقربي!.. شخص يُشبكُ يديه على بطنه ينتظر مني الرد، أطباء وطبيبات، ممرضات، شخص يرسم الابتسامة على وجهه مفتعلًا الود والاهتمام على محيَّاه... وهذا بلا شك هو مدير المستشفى... هذا هو موكب السيد الوزير، كل منتسبي المستشفى كان وراء سيادته عدا السادة القطط لم يكونوا ضمن الموكب...

- كيف الحال يا مدام...؟... سأل بكل احترام ووقار منتظرًا جوابًا لسؤاله...
- على ما يرام... صمتُ، قلتُ كلماتي باقتضاب شديد ولا أعرف السبب...
- أُحِبُّ أن أعرف وأسأل عن الوضع في المستشفى، وكيف وجدتِه؟... وهو لا يزال يشبك يديه أمام بطنه مع القليل من الانحناء صوب السرير ليرى حسان...
- مع الأسف ليس بالمستوى المطلوب.
ساد الصمتُ وسكتَ الجميع وكأنَّ على رءوسهم الطير... مررتُ بنظري على الوجوه؛ لأرى اتساع الأحداق وتدلي الشفاه هما الصفتان اللتان اتصف بهما الكل...
- هل من الممكن أن توضِّحي وتوصلي رأيكِ بكل صراحة... قالها بنبرة المنتصر ومَنْ وقع على كنز...
في كل هذا حسان لم ينقطع عن البكاء عدا لحظات ودقائق معدودة...
- اعذرني سيادة الوزير، لكني أقول كلامي ليصلك بصدق عَلَهُ يكون مدخلًا مُنقِذًا لأرواح أطفالنا، وهو بالتأكيد السبب الذي من أجله شُيِّدَتْ هذه المستشفى... غياب النظافة، قِلَّة وتدني الخدمات، عدم توافر الأجهزة اللازمة وقِلَّتها، غياب ملحوظ لما يُسمى "ملائكة الرحمة" بمعناها الحقيقي، ولأكون منصفة ودقيقة فإن الأطباء هم العنصر الوحيد الجيد!...بل أكثر من جيد.
- كم من الوقت مضى على وجودك هنا ؟
- ثلاثة أيام.

- ثلاثة أيام فقط؟!؛ ليتولد لديكِ هذا الانطباع السيئ.
- ساعة واحدة فقط كافية، فالقصور بادٍ وواضح للعيان، لتتأكد سيادتك من أنه شيء مؤلم، كنتُ أتمنى لو أني استطعتُ أن أتكلم عكس ذلك لأكون سعيدة، الأطباء فقط مَنْ يقومون بمهامهم بل يتعدّون لمهام غيرهم، وأنا أشكر وأقّدِر لهم إخلاصهم.
- شكرًا لصراحتك، هذا هو المطلوب من كل مواطن مخلص.

شعرتُ بأنياب تُكشِّرُ في وجهي، وعيدٌ يتوجَّه لي في صمت، استدار الموكب بأسرع مما توقَّعتُ مغادرًا الرُّدهة.. لم يتوجه لغيري، قد يكون سيادته اكتفى بما سمع مني.

- ما الذي دهاكِ لتقولي كل ما قلتِ أمام الوزير؟!... (قالت إحداهن مندهشة ومعاتبة في الوقت نفسه).. ألم يحذروننا من مغبَّة الكلام السلبي، ألم تعرفي بالكارثة التي حلَّتْ بهم؛ لتأتي أنتِ وتصبِّي الزيت فوق النار، إنهم سيقومون بطردكِ وابنك لا محالة.
- اتركينا من العقاب الذي سيحل بي، وقولي ما هي الكارثة التي حلَّتْ بهم؟
- لقد حاولوا أن يجمعوا القطط كلها في مكان واحد، وهو المدخل الخلفي المهمل للمبنى؛ على أساس أن سيادته سيدخل من المدخل الأمامي الرئيسي، وهم زادوه رونقًا بوضع بعض النباتات؛ لتجميل المنظر إلا أنه أصرَّ على الدخول من الباب الخلفي، فهو على دراية كاملة بألاعيب المدراء، فهو كثيرًا ما عمل زيارات تفقُّدية للمستشفيات.. حاولوا إيهامه بفقدان المفتاح على أساس أن الباب غير مستعمل لفترة طويلة إلا أنه أصرَّ وبشدَّة، وتحت هذا الإصرار أذعن

المدير لطلبه... وأترك لكم تكملة المشهد المثير.. قطط جائعة.. محبوسة لعدَّة ساعات، ويُفتح الباب لها، وأترك لكم تخيُّل موقف السيد الوزير... عمَّ الضحك كل الرُّدهة.

غادرنا المستشفى بعد شفاء حسان بالكامل، لكنه أضرب عن الرضاعة تقريبًا، وأكيد السبب هو تعرضه للإجهاد من تواجده في مستشفى القطط.. عفوًا أقصد مستشفى الأطفال.
مرَّ يومان عليَّ وأنا أعاني من الإعياء لقلَّةِ النوم وعدم تمكني من الراحة؛ لأن حسان قد أصيب بإسهال شديد.

جاءتْ ماما ومعها نهى لزيارتي واللعب مع حسان، وما إن ذهبتْ نهى إلى سرير حسان حيث يستلقي هناك... صرختْ قائلة:
- ما هذا يا لميس؟.. ألم تلاحظي وضع حسان؟!، وهي تحمله لتريني ما حلَّ به.
- ما الغريب يا نهى؟.. وما بانتظاري بعد؟!... قلتُ وأنا كلّي قلق.
- إنه بحاجة ماسة لدخول مستشفى وبصورة فورية، الآن، الآن.. يا لميس قومي.
- أنتِ تمزحين معي.. أليس كذلك؟!، سألتها وأنا أهِمُّ بجمع ما يحتاجه هناك.
- إنه يعاني من جفاف بسبب الإسهال، فقدان السوائل من جسمه يجب أن يُعوَّض.. ألم تلحظي التغيُّر على بشرته؟.. قلَّة حركته؟.. شحوب وجهه، إنه يبدو كتمثال شمع.
أصابني الخوف والهلع..
- هل سأفقده يا نهى؟.. أصدقيني القول، هذا ما أخاف منه.

- ما تقولين يا لميس؟... هاجتْ ماما لسماعها كلماتي...
- إنه هاجس يراودني معه يا ماما، إن الله منحني إياه لأُفجَعَ به... تاهتْ بقية كلماتي مع بكائي.

قادتْ نهى السيارة باتجاه المستشفى نفسه...
- على الأغلب إنه أُصيب بجرثومة في أمعائه لقذارة المكان.
- إلا أنني عملتُ جاهدة وبمساعدة عادل بغلي قناني الرضاعة، وأيضًا غلي الماء وجلبه لي بقنينة الثرموس ما كنا نستطيع أكثر مما عملنا.
- هذا ليس ذنبكِ أنتِ وعادل، لكن المحيط كله غير ملائم.

بدأ بسمان يعتاد على وجود حسان، ويقدِّر فارق العمر بينهما (ست سنوات)، ولم ألحظ عليه الغيرة من أخيه، ومثلما سمعتُ من بعض الأمهات عن الغيرة بين الأخوة، إنه كان يُقدِّم له حتى ألعابه الشخصية المحببة لنفسه عن طيب خاطر، لم يستطعْ أن يستوعبَ أن حسَّان لا زال صغيرًا جدًا، فمن شدَّة فرحه بوجود أخ له.. جاءني ذات يوم وهو يحمل لعبته التي اشتراها قبل عدة سنوات من شيكاغو، وهي عبارة عن قرد أبيض ناعم الملمس قبيح الوجه!، والذي أصبح لصيقًا به في كل تحركاته وحتى أثناء خلوده للنوم.. يجب أن يكون محتضنًا ذلك القرد!.. قام يومًا بوضع ذلك القرد في سرير حسان ليساعده على النوم توقَّع وحسب براءته فرح حسان!!!... سألني:
- ماما، لماذا لا يحبني حسان مثل ما أنا أحبه؟!... قالها وعلامات خيبة الأمل تعلو وجهه...

- ما السبب وراء هذا التصوُّر يا حبيبي؟... أجبته وأنا مشفقة عليه...
- إنه لم يفرح عندما أعطيته لعبتي، إنها المفضَّلة لدي.. إنه جيمي يا ماما.. قردي العزيز... كادتْ أن تَفِرَّ دمعة من عينيه...
- إنه صغير يا حبيبي، هو لا يفهم أي شيء بعد، عندما يكبر سوف يلعب معك ويحتضن جيمي أيضًا مثل ما تفعل أنت، اصبر عليه وسوف يكون لك أخًا وصديقًا...
أجهل تمامًا إن كنتُ قد وُفِقْتُ في توصيل فكرتي أم لا..
أعادتني لعبة بسمان إلى الوقت الذي قمنا بشرائها.

(١٣)

كنا في مول كبير في شيكاغو يدعى (مارشل فيلد).. دخلنا فيه ولم نخرج إلا بعد ثلاث ساعات بعدما أعيانا التعب، اتجه بسمان حينها إلى محل متخصص في بيع الألعاب بمختلف أنواعها، إنقاد بخطواته إليه دون تفكير وكأنه مُنَوَمٌ مغناطيسيًّا!!.. حام حول معروضاته كالفراشة حين تحوم حول الأزهار، ولا أريد أن أقول كالحشرة تتجه نحو الضوء.. اختار قردًا أبيضَ ناعمًا إلا أنه قبيح الوجه!، له ذيل طويل وكثّ، ومنذ هذه اللحظة أصبحتْ هذه اللعبة لصيقة بسمان، يحملها على الدوام لا يستطيع الاسترخاء في فراشه دونها حتى أن غالبية صوره لتلك الحقبة الزمنية كانتْ كلها، وهويحتضن القرد العزيز!، ومما ركَّز ذكرى شراء هذا القرد في ذاكرتنا هو لقاؤنا لصديق قديم في هذا المول... سمعتُ صوت عادل، وهويُسلِّم بحرارة على شخص من الواضح أنه عراقي، كان من الواضح أيضًا أنه لم يلتقيه منذ فترة طويلة أو أنه لم يتوقع لقاءه بالمرة...

- لميس.. لميس.. التفتي إلينا؛ لتتفاجأي مثلي، رُبَّ صدفة خير من ألف ميعاد؛ كما يقولون... كانتْ نبرة صوته تحكي تَلهُّفه ودهشته، وحتى فرحته بلقائه لهذا الشخص...

التفتُ لأرى رجلًا وامرأة بمعيَّة عادل.. ركَّزتُ بصري بل ذاكرتي على هذين الوجهين لأستحضرهما، عادتْ بي ذاكرتي إلى بغداد منذ حوالي ثلاث سنوات خَلتْ...

- آه.. السيدة ليلى، والدكتور عصام!، أحقًّا ما أرى!... سلَّمتُ عليهما.

- منذ متى وأنتما هنا في شيكاغو؟ (قالت السيدة ليلى وهى بكامل دهشتها).

- تقريبًا أسبوعين... (أجبتُ).. نحن لا نعرف أنكما هنا.. أتعيشان هنا أم أنها مجرَّد زيارة؟!.

تبادلنا الأخبار عنهما وعنا لحوالي نصف ساعة وقوفًا في المكان نفسه، كانتْ غالبية أسئلتهم تدور حول بغداد وأهلها ووضعها، لم نفترق إلا بتثبيت موعد لقاء وجلسة بغدادية في بيتهما.

جاء الليل وتلقَّى عادل مكالمة من استعلامات الفندق بحضور الدكتور عصام وانتظاره لنا في صالة الفندق.

البيت جميل بتواضع.. كل شيء ينطق باللغة العربية، المفروشات أمريكية نُسقتْ بطريقة عربية المعروضات شرقية، مائدة الطعام أُعدَّتْ بعراقية صميمية، أهم جزء في البيت الحديقة!.. إنها صغيرة بشكل غريب إلا أنها غزيرة الخضرة، حرصا على إفراد مساحة صغيرة لزراعة أهم مفردات الحديقة العراقية شجرة النارنج، الرشاد تلك العشبة التي لا يخلو منها بيت عراقي. كان الدكتورعصام فرحًا بحديقته إلى أبعد الحدود. كيف لا؟! وحديقته في بغداد كانتْ تبكي وتشتكي قلة الخضرة. إن مساحتها أضعاف المساحة المتوافرة له الآن إلا أنها جدباء!. السبب وبكل بساطة أن مدخول الدكتور عصام وراتب زوجته لم يكن يكفي لهذه الكماليات! فهما مثلنا؛ ومثل الغالبية العظمى من ذوي الكفاءات؛ لم يتمكنا من إكمال بناء البيت إلا بعد الاستدانة من القاصي والداني ولم يتبقَ لهما ما يمكنهما من الاهتمام بالحديقة بجلب التربة النقية الصالحة للزراعة وشراء الأشجار.

سأله عادل عن عمله باهتمام...
- بوصولنا إلى هنا لم نكن نعرف ماذا عسانا أن نفعل؟، الأولوية كانتْ عندنا حينها الوصول إلى أرض الأحلام !.. كان توجُّهي بالطبع مُنصبًّا نحو اختصاصي العلمي الدقيق وتكملة أبحاثي التي بدأتْ في بغداد.. كيف لشخص حامل لشهادة الدكتوراه في الفيزياء النووية التفكير في عمل منفصل عن اختصاصه؟!.. لم تكن اللغة عائقًا لي...
- أكيد فأنتَ حائز على كل شهاداتك الأكاديمية من بريطانيا... أجاب عادل، ولسان حاله يقول: "وأنا مثلك" يحمله الزهو...
- راسلتُ الكثير من الجامعات والشركات ذوات الاختصاص داعمًا مراسلاتي بنسخٍ من شهاداتي وأبحاثي غير المكتملة.. لم يدم بي الانتظار كثيرًا، جاءني جواب من إحدى الجامعات المرموقة معززًا بموعد مقابلة قريب جدًا.. مما أدهشني حقًّا، وبعد لقاءات تعتبر قليلة وقياسية مقارنة بما هو معمول به هنا؛ انتسبتُ لهذه الجامعة، أفردوا لي قسمًا علميًّا يتضمن مختبرًا مزودًا بأحدث الأجهزة، كان بمعيتي أربعة مساعدين من نفس اختصاصي الأولي.. طلبتْ الجامعة مني المباشرة فورًا على أن أنكب على تكملة أبحاثي التي بدأتها في بغداد، ولم تسعفني الظروف لتكملتها والحصول على النتائج المرجوة منها، واستغلالها لصالح البلد...
توقف عن الكلام ونكاد نشعر بالمرارة التي ملأته..
- لا تصدق لو قلت لك بأن البيت الذي يجمعنا الآن هم مَنْ ساعدوني على امتلاكه!، وبالتقسيط المريح، وقد توفرتْ غالبية متطلباتنا وليس كلها بالطبع، وأنا الآن أسدد مبلغًا معلومًا شهريًّا للمصرف وقريبًا

سيكون المنزل ملكي بالكامل إن شاء الله... أنهى كلامه بتنهيدة طويلة غالبته...

- كف عن ذلك يا عصام... (قالتْ له ليلى).. إنكَ لم تفتأ تحِنُّ إلى بغداد، وتتمنى لو أن أبحاثك ونتائجها ساهمتْ في تقدم البلد!.. ليس بيدك ذلك.. عبثًا حاولتْ، تركتْ بريطانيا بعز تفوقك، عدتَ طائعًا راغبًا لبغداد، هم مَنْ جعلوكَ تشرف على التدريب الصيفي للطلاب!، وهذه مهمة مهندس صغير، لا عالم فيزياء نووية!.. هم مَنْ هدروا أربع سنوات بطولها ببناء منزل حتى أنه لم يكتمل.. حينها كنتَ تستطيع تكملة الكثير من البحوث ووضع النتائج بين أيديهم.. إنكَ تذكرنا دائمًا ما نحاول نسيانه.. أنا مَنْ تركتْ بلدها وأهلها.. عملي الذي أحب.. بيتي ومطبخي الذي حلمتُ ولأربع سنوات بالوقوف به وتحضير أشهى الأكلات العراقية والغربية، أنا الآن عاطلة عن العمل يا لميس!.. لم أتمكن من متابعة معادلتي لشهادتي لضعف لغتي، قبلتُ بمهمة ربة المنزل مجبرة لأرى أبحاث عصام وأحلامه صُبَّتْ على أرض الواقع... أخذتْ نبرة الحزن تتصاعد عند السيدة ليلى والجو بدأ يتوتر بينهما... أربع سنوات ونحن نبني منزلنا تحمَّلتُ مذلَّة الاستدانة من الأقارب والمعارف، وافقتُ على هجري كل شيء أحبه من أجل حصولك على المركز الذي تستحق لإيماني بقدرتك، تأتي الآن لتتحسر على كل ما فات...

- دعونا من الذكريات المؤلمة والحزينة، وعودوا بنا إلى الفندق فإن موعد نوم بسمان قد أزف... تدخلتُ لأنهي الموقف...

- ألستِ عراقية يا لميس؟... قالتْ ليلى ممازحة محاولة الخروج مما هي عليه... إننا لم نحتسِ الشاي العراقي بعد...

- أوه.. هذا شيء لا يمكن رفضه بل لا يمكن مقاومته، وأنتِ في أمريكا.. كل ما نحتسيه من الشاي هو شاي الأكياس!!.. إنه لا يمتْ بصلة للشاي العراقي... أجاب عادل بانفعال واندفاع نحو هذه الفقرة من الوليمة، وبالنسبة إليه فإنها أهم فقرة فهو معروف بحبه لشرب الشاي، وهذا شأن معظم العراقيين رجالًا ونساءً.
أتت لنا بكؤوس الشاي الأحمر الرائق...
- واو، وحتى الاستكان حاضر هنا!، وهو في الغالب شرقي المنشأ... إنه صنع روسي أو تركي ولهذه اللفظة بالذات قصة طريفة.. إن الشاي دخل للبلد مع دخول المستعمرالإنجليزي، فلم يكن هذا المشروب السحري معروفًا لدى الشعب!، وبعد ذلك تمسكوا به أيما تمسك، وتفننوا بطريقة تقديمه وأحبوا حتى أقداحه وعمدوا لاستيراد أقداحًا زجاجية صغيرة من تركيا، واحتمال أنها صنع روسي قادم لنا عن طريق تركيا، يقال أن الإنجليز سألوا عن تسمية لهذا القدح، فلم يصلوا لتسمية معينة فأطلقوا عليه هذه التسمية، وهي عبارة عن مقطعين باللغة الإنجليزية.. المقطع الأول (ايست)، وهي تعني الشرق، والمقطع الثاني (كان)، وهي تعني قدح أو ما شاكل ذلك.. وبهذا أصبح ايستكان.. هذا ما وصل إلينا... أتممتُ محاضرتي، وأنا فخورة لشعوري بأن المعلومة تصل لمسامعهم لأول مرة...
- على حد علمي أنكِ لستِ من محبي الشاي كثيرًا..! إلا أنكِ ومع هذا تحديثيننا بمعلومة جميلة ومفيدة... توجهتْ ليلى بحديثها نحوي...
- هذا صحيح أنا لستُ من محبيه على عكس عادل.

كانتْ ليلة جميلة بمعنى الكلمة استمتعنا كثيرًا، وأخرجتمونا من أجواء الفنادق إلى الأجواء العائلية الساحرة... قلنا هذا الكلام أنا وعادل تقريبًا مع بعض، فهي الحقيقة التي شعرنا بها.

إنني أتذكر هذه الليلة وكأنها ليلة أمس، فلا أتصور أنه قد مضى عليها حوالي أربع سنوات ونصف... أربع سنوات!!!... قلتُ مع نفسي متعجبة، إن السنين تجري بنا مسرعة.

خلدتُ لفراشي بعد تعب يوم طويل للتحضير لاحتفالية عيد ميلاد حسان الثانية، كانتْ ليلة حلوة حضرها الأهل والأصدقاء، وأهم فقرة بالحفلة كانتْ كيكة العيد إذ كانتْ على شكل الشخصية الكارتونية (بابا سنفور)، وقد أعجبتْ الكبار قبل الصغار.. إنها من عمل سيدة متخصصة في صنع الكيك على هذه الشاكلة، ويقع محلها في شارع المنصور، وأيضًا اللافت في هذه الحفلة هو غناء حسان أغنية للصغار دون التلعثم أو التلكؤ بكلماتها، فهو سابق لأقرانه في كل النواحي تقريبًا، لم يكن الجو باردًا قارس البرودة في مثل هذه الأيام من السنة وهذا الشيء الوحيد غير العادي!، وبقية الأشياء عادية الدوام.. الاهتمام بالأولاد، أكوام التراب أمام المنزل من جراء مباشرة شركة كورية إنشاء جسر أمام المنزل، وهذا ما يستدعي تنظيف البيت بصورة متقاربة، العطلات المستمرة والمتلاحقة لسيارة (الڤوكس ڤاكن) القديمة التي استطعنا شرائها، وإعادة سيارة (البيك أب) إلى بابا؛ لاستعمالها في نقل الأقمشة والملابس إلى الأسواق المحلية، سماع صفارات الإنذار ودوي الانفجارات الناجمة عن ارتطام صواريخ أرض أرض المتبادلة بين الطرفين.

رنَّ جرس البيت في وقت متأخر من الليل، وتوقف سيارات بابا وحمدي تعلوها المراتب والوسائد لتمضية ليلة أو أكثر عندنا هروبًا من ليلة ساخنة تكون قد بشرت بها القوات المسلحة الإيرانية عبر المذياع، فيلتجئ إلينا سكان وسط البلد لبعدنا عن المركز، وعدم شمولنا في الخرائط المتاحة لعساكر العدو.

انهمك عادل ككل مرة في نفس هذا الوقت من السنة بالامتحانات النهائية للطلبة، ووضع اللمسات الأخيرة على الأسئلة.. الوقوف لساعات طويلة بالمراسم المخصصة لمادة التصميم المعماري، والعمل على تقديم النقد والملاحظات لمشاريع الطلبة النهائية، والتي ستُقدم كمشروع أطروحة تخرُّج، يعمل عادل أيضًا من موقعه كمساعد رئيس قسم على دعوة عددًا من ذوي الاختصاص من جامعات أخرى، وحتى من دوائر الدولة للعمل كممتحنين خارجيين؛ لتقييم مستوى الطلاب، وهذا منسك دأبوا على العمل به في كل الأقسام المعمارية في البلد، وغالبًا ما يسافر عادل إلى محافظة أخرى؛ لأنه مدعو من قبل جامعة أخرى كممتحن خارجي..

هكذا هو بداية شهر حزيران من كل سنة، وأكيد إن نفسية عادل تتأثر سلبًا في هذا الوقت لحرصه على تهيئة كل ما يستلزم؛ لتتم هذه المرحلة على أكمل وجه، فالتوتر يطغى على بقية الأحاسيس.

الجو حار والرطوبة تجعل ملابسك تلتصق بجلدك؛ لتكون نسيجًا واحدًا، المراوح السقفية ليس لها مجال للتوقف لا نهارًا ولا ليلًا، درجات الحرارة تتعدى الأربعين في الظل، ولا نريد التطرق لما تصل إليه تحت الشمس!... الحمامات تكون محط الأنظار في جميع

البيوت فلها حصة الأسد من ساعات الاستخدام لمرافق البيت الأخرى، حل على عادل مبكرًا!، وهذا يعني قيادته لسيارة قديمة دون تبريد، في ساعات الذروة بالنسبة للزحام وارتفاع درجات الحرارة على حد سواء!، ولمسافة لا تقل عن خمس وعشرين ميل، وهي المسافة بين الجامعة والبيت... دخل إلي البيت بوجه أحمر تنعكس الحرارة من عنده إلى ما حوله، شفاه بيض قد تقَّرنتْ من شدة الحرارة والعطش، شعر التصق بجلدة رأسه لتعرقه الكثير، قميص مفتوح لثلاث أزرار على الأقل، تبدل لون القماش لتبلله بالعرق من جانب وبشيء من الماء يَعمد برشه على الملابس للتلطيف من حرارة نسيجها بين الحين والآخر من قنينة يحتفظ بها لهذا الغرض عادة، وقد التهب الماء بداخلها لكثرة تعرضها للشمس داخل السيارة، والتي تُركتْ لساعات طويلة في موقف السيارات، اشتاط غضبًا مني لمجرد وجودي في حمام غرفة النوم لتنظيفه.. فكيف لي أن أتوقع عودته قبل حوالي ساعتين عن موعده المعتاد..!؛ لأخلي له الحمَّام... بعد خروجه من الحمَّام.. عادتْ ملامحه المعروفة تشوبها عصبية لم يستطع تأثير الحمَّام إخفاءها، خاصة ميلان شاربه الكث إلى الجانب، وهي الصفة الأكيدة على حالته العصبية...

- هاتْ ما عندك يا عزيزي... بادرته بالكلام لتسهيل المهمَّة...

- لا شيء يستحق... أجاب باقتضاب واضح طلبًا لإعادة السؤال...

- بل عندك ما تخبرني به، تكلم.. هيا، ليس بي رغبة للتكهن.

- أنا سأقضي الصيف القادم بالمنطقة الشمالية للبلد... هذا ما أُخبرنا به اليوم...

- لتصطافوا هناك؟... والله فكرة جيدة... الجو هناك أبرد بكثير وإلا لِمَ سُميتْ بالمصايف... قاطعته ضاحكة كعادتي باستباق الأحداث، وأخذ نصف الكلام لأكمل النصف الآخر...

علا صوته قليلًا وتخلله الحزم ليسد علي طريق المزاح:

- إنه الجيش الشعبي يا لميس.. مهمة عسكرية.

- لكن وحسب معلوماتي إن الحرب تدور رحاها في شرق البلاد.. ولم يطرق مسامعي عن حرب في شمالها.

- نعم هناك حرب داخلية غير معلنة مع الأكراد... أضاف هذه المعلومة كتوضيح تمامًا مثلما يفعل مع طلابه... إن مهنته تتلبسه بالكامل.

- وهذا غير جديد.. (أجبتُ)... منذ كنتُ صغيرة وأنا أسمع بمناوشات هناك تفتر لفترة، ثم تعود وتتأجج لفترة أخرى.

الظاهر أن الوضع مختلف هذه المرة فتأثير الحرب بادي على البلد.

- هي حرب أهلية إذًا؟... استرسلتُ في كلامي...

- لا داعي للمسميات!.. الحكومة تطلق عليه اسم "تمرد"! من بعض الفصائل الكردية المسلحة... لم يكد أن يخفي ما بنفسه من توجس بل تخوف.

- هل ستقومون بتدريسهم الهندسة المعمارية!؛ لتلهيتهم عما هم بصدده.. (ممازحة إياه)... إنكم أساتذة أكاديميون مهنتكم التدريس، ما جدوى ذهابكم إلى هناك سوى إضاعة فرصة الراحة التي تحصلون عليها أثناء الصيف؛ لتستعيدوا قدرتكم على العمل مع ابتداء السنة القادمة.

- سوف نمنعهم من الزحف إلى بغداد... أكمل عادل، وكأنه لم يسمع أيَّة كلمة من كلامي...
- أيُّ زحف هذا؟!.. وأي كلام لا يخضع لأي منطق؟!... تمتمتُ مع نفسي...
- ومتى كانت القرارات المُتخذة تخضع للمنطق؟!.. إنها أوامر عسكرية صدرتْ وانتهى الأمر، بل إنهم هيَّأوا كل شيء حتى معسكر التدريب قد سُمي وحُدد، إنه معسكر النهروان المعروف، سنتدرب على حمل السلاح لنكن على استعداد للسفر بعدها.
- إن غالبيتكم لم ينخرط بالجيش أصلًا، فجُلكم قد دفع البدل النقدي أثناء تواجدكم خارج البلاد للدراسة..!، فما عساهم سيعملون إزاء ذلك؟!، وما هو نوع التدريب؟.

جاء الموعد المحدد لذهاب عادل وبقية الأساتذة والكثير من الطلبة إلى معسكر النهروان للتدريب على السلاح، بعدما أنهوا مهمتهم في الامتحانات والتصليح (النهروان ضاحية بعيدة عن بغداد)، أما بالنسبة لي ولبسمان فقد أخذنا بعضنا ورحلنا إلى بيت الأهل، فلا قابلية لي للسكن بمفردي خاصة وإن السادة اللصوص يتحينون فرص مثل هذه بخلو المنطقة من الرجال ليعبثوا بالدور وممتلكاتها.! وفعلًا بدأت تصل لمسامعنا بعض عمليات السطو والسرقات.

بعد حوالي ثلاثة أسابيع فقط من التدريب!... سافر عادل ورفاقه إلى المنطقة الشمالية، كانت تصلني رسائل جميلة من قبله يبعثها بيد أي شخص ينزل بإجازة لبغداد، كانت هذه الرسائل تعمل على طمأنتي

وتسليتي في الوقت نفسه... شعرتُ من خلالها بمعيتي له لكثرة الوصف والتفاصيل الحلوة...

(حبيبتي لميس.. أنا أكتب لكِ من الرابية التي أعيش بها مع زملائي.. الجو بارد حتى في النهار، الهواء عليل أشعر بنسماته تُسَلِّم علي وتهدئ من أعصابي، الموقع مرتفع عن سطح البحر بكثير، فإن المنطقة جبلية مثلما تعرفين، أشجار اللوز والجوز تحيط بنا من كل جانب، لا حاجة لنا لمروحة أو أي جهاز كهربائي لا لشيء فقط؛ لأن الكهرباء غير متوافرة هنا، المنطقة عبارة عن قرى متفرقة تعلو صخورًا وعرة، الحضارة والتطور بعيدة كل البعد عما نحن به، الجهاز الأكثر تطورًا الذي بحوزتنا هو جهاز المذياع الصغير، والذي يعمل على البطاريات الصغيرة، نستمع إلى الأخبار أثناء النهار.. وإلى السيدة أم كلثوم أثناء الليل رغم عدم تعلقي بأغانيها إلا أنني بدأتُ أنسجم مع كلماتها لكثرة سماعي لها نزولًا على رغبة الزملاء، وأيضًا لاشتياقي لكِ، الربية عبارة عن حفرة عريضة وعميقة رصفتْ حافاتها بالصخور، ومن فوقها المتاريس من أكياس من الرمل لحمايتنا لعدم اختراق الرصاص لها، الأثاث عبارة عن قدر ودلة لعمل القهوة وإبريق لعمل الشاي مصنوع من المعدن، كستْ سطحه مادة النيلج وتحوَّل إلى اللون الأسود من جراء وضعه على الجمر المتقد من إشعال الأخشاب الصلدة، لا يخلو سنتيمتر مربع منه من الثنيات والطعجات وكلما صببتُ الشاي منه تذكرتكِ، وتذكرت إبريق الشاي في بيتنا، توهجه ولمعانه!... كلنا ـ هنا ـ عبارة عن عائلة واحدة لا فرق بين طالب وأستاذ ولا لمدرس وبرفسور،

نتقاسم الواجبات بيننا بالتساوي، جلب الماء الصالح للشرب من مسافة بعيدة، تحضير وجبات الطعام والأهم الخفارات الليلية، إننا والأخوة الأكراد الأعداء!.. بمنتهى اللطف والصداقة نهارًا لنتحول إلى أعداء يتربص كل بالآخر ليلًا.. ليلة أمس مررنا بموقف طريف.. عند حوالي الساعة الثامنة والنصف مساءً توجه ثلاثة منا للنوم، ولا يغرنكِ لفظة توجه لا وجود لغرف نوم أو لأسِرَّة.. القصد من الكلمة أنه استسلم ثلاثة منا للنوم، وبقينا أنا واثنين من الرفاق بمهمة الخفارة الليلية، بعد حوالي ساعتين وصوت السيدة أم كلثوم يملأُ مسامعنا على الرغم من انخفاضه رصدنا حركة ما عن بعد ركَّزنا أنظارنا صوبها، كان شيءٌ ما أخذ يقترب شيئًا فشيئًا نحونا..!! صوبنا بنادقنا وجعلناها على أهبة الاستعداد، وعلى الرغم من أن صوت سحب الأقسام عاليًّا إلا أنه لم يعمل على استيقاظ أصحابنا النيام!.. الهدف يتقدم منا في تتابع، صرخ أحدنا سر الليل.. عَلَّه يكون أحد زملائنا ولا من مجيب، أخيرًا استيقظ الزملاء النيام وأخذوا مواقعهم وبنادقهم واستعدوا للدخول في معركة مرتقبة، استمر الهدف بالتقدم وتجاهلنا وتجاهل أسلحتنا النارية!. أصبح الآن بمرمى أسلحتنا ولا زلنا لا نود بفتح النار عليه إلا أن إصراره جعل من المؤكد أنه عدو، ويجب علينا التعامل مع الموقف.. صدر الأمر لنا من قِبل أحد الأساتذة، وهو الأمر على الربية بإطلاق النار... وهذه أول تجربة لي باستعمال سلاح حقيقي وبرصاص حي، إن الموقف حياة أو موت، أمطرنا العدو بوابل من الرصاص لحوالي دقيقة ونصف؛ لينتهي بنا الأمر لتوقفه عن الحركة بعدما أرديناه قتيلًا!.. لم نذهب صوبه

لاستطلاع الأمر والتبين من شخصيته فقد آثرنا التريث خوفًا من أن تكون سكون حركته فخًا نُصب لنا، قرر أحد الشبّان عدم الانتظار طويلًا، فقد حسم أمره بالتوجه نحو الهدف، مناظيرنا رُكِّزتْ باتجاه حركته!.. إنه يضحك... نعم.. فعلًا يضحك!.. أخشى أن أصابه ضحك هستيري إنه لو مرة يواجه شخصًا مقتولاً... بل وهو مساهم بقتله!... اتجه شخص آخر نحوه، أقفلا عائدين باتجاه الربية، وهما يضحكان معًا... إن الهدف ما هو إلا حمار صغير ضلَّ طريقه).

هكذا تمر الأيام عليهم، فهم يشغلون نفسهم أحيانًا بلعب الدمينو، وبعض من الطلبة يقوم بتقليد طريقة كلام أو حركات بعض الأساتذة بحضورهم لتمضية الوقت.

وصلتُ مقر عملي كالمعتاد مع دقات الساعة السابعة صباحًا، هناك مَنْ يشرب الشاي بالحليب، وهذا يتناول قدح ماء مثلج والأجواء رطبة باردة من جراء الهواء البارد المنبعث من مكيف الهواء، رميتُ بحقيبة يدي على أقرب كرسي، ورميتُ حالي أيضًا أمام جهاز المكيف؛ لأتنعم بالهواء البارد بل لأتزود منه قبل توجهي إلى موقع العمل، والوقوف تحت الشمس والتي تأخذ مكانها رويدًا رويدًا؛ لتتعامد على رءوسنا، جلب انتباهي شيء غير معتاد بحال الزملاء.! فلم تصدر عنهم أيَّة فكاهة أو تعليق اعتدنا سماعه قبل التوجه إلى مواقع العمل..!، إنهم جادُّون على غير عادتهم هذا اليوم، شعرتُ بنظرات غير مألوفة تنصب على وجهي كأنهم يستقرأون ملامحي:
- كيف كان يومك أمس يا لميس؟... سألتْ إحدى الزميلات...
- عادي، لا جديد يوم يشبه كل الأيام...

لم أنتبه لنوع السؤال وطريقة طرحه... انتبهتُ إلى زميل يرمق الزميلة التي سألتني بنظرة معاتبة أو مؤنبة.. شيء من هذا القبيل... هنا كان لزامًا عليّ أن أستفسر:

- مالكم؟... إنكم لستم بحالة طبيعية، وضعكم يدعوني للاستفسار... ما الغريب اليوم؟!

- لا شيء.. لا شيء... قالها ولم يكن متأكدًا من جوابه...

- بربكم أخبروني.. وجوهكم تكاد تنطق قبل ألسنتكم.

- اشربي الشاي بالحليب، أنتِ لا تحبينه باردًا.. هيا اشربي، فقد أتى به عبد الجليل منذ لحظات (عبد الجليل هو ساعي مصري الجنسية).

بدأتُ أشرب فعلًا بعد ما تبين لي صحة حدسي، إنهم يخفون عني شيئًا ما، لم أحملهم على الكلام.. فلأتنعم بالهواء البارد أولًا، وأنا على يقين من أنهم سيخبرونني من تلقاء أنفسهم..

بالفعل وما هي إلا دقائق قليلة حتى بادرني أحدهم بسؤال:

- ألم يزركِ أحدٌ في بيت أهلكِ ليلة أمس؟

تركتُ الشاي، هواء المكيف، مزاجي الرائق.. واستجمعتُ كل طاقتي وقلتُ بحزمٍ ملحوظ:

- مبروك لكم.. إن مقدماتكم أوصلتني بالضبط إلى ما تريدون أن أصل إليه. فلتبدأوا بالكلام إذًا، فأنا الآن على استعداد تام لتلقِّي الخبر.

- أيُّ خبر تقصدين؟!.. قال أحدهم ليخفي ما بدأ يظهر على وجوههم.

- الذي ترومون إخباري به.. بالتأكيد هو خبر غير سعيد، فهذا الاستنتاج لا يحتاج للكثير من الفطنة، هذا أولًا، وثانيًا: فالخبر يمسني أنا بالذات، وهو ليس عامًا، فليترفق بي أحدكم ويخبرني.

- ألم تسمعي عن نبأ حدوث هجوم أو ما شابه في شمال البلد؟... اكتفى أحد الزملاء بإلقاء الشقِّ الأول من الخبر؛ لإعطائي فرصة استيعابه، وأيضًا لالتقاط النفس لتلقِّي التكملة... صمتي كان هو جوابي، وإشارتي لتكملة الخبر...

- إن الهجوم حدث على إحدى رُبايا الأساتذة والطلاب... لا زال الصمت سيد الموقف بالنسبة لي... إنها إحدى الرُّبايا التابعة للجامعة التكنولوجية!... السكون لَفَّ الغرفة كلها...

- إنها ربية عادل؟... سألتُ بكل برود دون أي انفعال، أو حتى دون أن تتبدل ملامحي أو على الأقل هذا ما تصوَّرتُ...

- لا سمح الله... (هتفتْ صديقة لي)... كيف لنا أن نتأكد يا حبيبتي كل ما نعرف إنها ربية تابعة لأساتذة الجامعة التكنولوجية؟!.

طلبتُ من أحدهم، وبنفس البرود أو على الأصح بنفس الوجوم أن يوصلني إلى بيت أهلي، حتى دون التفكير بالاستئذان من المدير...

- ألم تجلبي سيارتكِ معكِ؟

- إنها معي.. لكني عاجزة عن القيادة.. اتركها هنا.

- سيقود أحدنا سيارتكِ والآخر يمشي خلفه بسيارة العمل، لا تشغلي تفكيركِ بالتفاصيل.

وصلتُ بيت الأهل، وماكان معي في العمل تكرر مع أهلي؛ النظرات الشاردة نفسها، نفس الحيرة البادية على ملامحهم، فالمشهد تكرر...

- منذ متى وأنتم تعرفون؟... حدا بي الفضول للسؤال...

- بعد ما غادرتِ المنزل ذاهبة لعملك، وكعادة والدتك تستمع إلى المذياع مع الإفطار.

اقترح عليَّ بابا الاتصال بالقسم المعماري بالجامعة، أكيد عندهم الخبر اليقين... اتصلتُ فورًا، وبدأتُ بالتعريف عن شخصيتي:
- أنا زوجة الأستاذ...
وقبل أن أكمل كلامي بادرتني السكرتيرة:
- سيدتي إن كنتِ تسألين عن الحادث الذي تعرض له أساتذتنا في الشمال؟!، فنحن سمعنا النشرة الإخبارية كما سمعتم.. نعم، أربعة من الأساتذة واثنان من الطلاب أُستشهدوا... وليتغمدهم الله برحمته.. إلا أننا لا نعرف مَنْ هم على وجه التحديد، وليكتب الله السلامة للباقيين.
- شكرًا.. شكرًا جزيلًا على اهتمامك، واهتمام المسئولين عندكم بالجامعة... قلتها بعصبية واضحة؛ لدهشتي من طريقة كلامها وردة فعلها... نعم المسئولون أنتم...
أغلقتُ الهاتف، وسمحتُ لنفسي بالضعف والبكاء فقد كتمته طويلًا.

جاءتْ أختي حنان في غير وقتها المعتاد عند الساعة الثالثة ظهرًا، وهو الموعد المعتاد لنهاية الدوام لكل الدوائر الحكومية...
- إني استأذنتُ من المسئول؛ لأكون بجانبك يا حبيبتي فقد توقعتُ وجودكِ هنا، كذلك استلمتُ مكالمة من ماما تطلب مني الاستئذان والتواجد معكِ، فقد أخبرتني بذهابها مع بابا؛ لقضاء بعض الأمور الضرورية.
- نهى حبيبتي، أرجوكِ أحضري لنا القهوة ليتسنّى لنا تدخين سيجارة قبل عودة بابا... طلبتْ حنان من نهى على وجه السرعة، فهي فرصة لنا لعدم تواجد بابا.. هذا هو المتعارف عندنا، فالبنت لا ترفع سيجارتها بيدها في حضور والدها مهما كبرتْ حتى مع علمه

المسبق بتدخينها، فهي علامة احترام من البنت للوالد، ولتبقى المقامات محفوظة...

ككل امرأة عراقية كان سلاحي البكاء، امتناعي عن تناول الطعام... كنا نتباحث عن السبل المتاحة لنا لنتبين ماهية الخبر... أخذتُ أفكر مع نفسي إن كان زوجي من المستشهدين ـ لا سمح الله ـ فتلك مصيبة بالتأكيد، وإن لم يكن منهم فهي أيضًا مصيبة..!.. أليستْ مصيبة أن يفقد البلد أربعة من أساتذته وعلمائه قضوا سنينًا طويلة في الدراسة والبحث للوصول لدرجة الأستاذية؛ ليُفقدوا بسبب قرار طائش من شخص طائش؟.. ما معنى رحيلهم؟.. وماذا شكَّل بالنسبة لربح وخسارة معركة؟!.. لم يقدموا ولم يؤخروا بالنسبة لحسم المعركة... إنها الخسارة بعينها.. ألم يفكر المسئول، ولو للحظة قبل أن يجر القلم والتوقيع على هكذا قرار اعتباطي!، وأين هم رجالات هذه المهمات؟ ممن مُنحوا الكثير من الامتيازات على هذا الأساس؟!.. ألم يُستثنوا من أبسط قوانين الحياة اليومية؟ عندما يضطر المواطن العراقي أن يقف في الطوابير الطويلة والمزعجة يوميًّا؛ للحصول على مفردات حياته اليومية البسيطة، كالحصول على طبقة بيض، أو دجاجة صغيرة بسعر معقول؛ ليسد بها رمق عياله... الطابور طويل، الشمس عمودية على رأسك، سحق الكرامة تمشي معك خطوة بخطوة للوصول لشباك المحل الذي ستستلم منه حاجتك، تغلبك سعادة غامرة وإحساس بالأنا الأعلى، وأنت تمسك بطبقة البيض؛ لتنسى حتى الساعتين اللتين صرفتهما للحصول عليها.. فيأتي وبكل سهولة شخص مرتديًا بزته العسكرية بكامل وقاره، رافعًا رأسه

عاليًّا؛ ليتقدَّم الجماهير الغفيرة المسحوقة، ويمارس إشباع غروره فيتصدر الناس وطابورهم الملتف حول نفسه؛ ليستوعبه قصر الرصيف، فيستلم المادة مباشرة فقط؛ لأنه عسكري!.. والبلد في حالة حرب!... كلها امتيازات، هو لا يمارس هذا التقدُّم في الجبهة، بل يفضل بقاءه قابعًا في آخر الصف هناك خوفًا من التعرُّض للمصير الذي يحتفظ به للجندي البسيط المسكين، بل بيده سحب أي جندي ممن حالفه الحظ واستطاع اقتطاع مبلغًا من المال من رزق عياله فقط؛ للمحافظة على روحه ليواصل إعالة عائلته، فيحظى بشرف خدمة الضابط المسئول بأي ميدان يراه مناسبًا، كتوصيل أولاد الضابط للمدارس، أو يشرف على عملية بناء الدار الجديدة الذي يقوم سيادة الضابط بتشيدها من الأموال التي يحصل عليها من هذا الجندي وأمثاله؛ ليزُجَّ بدلًا منه ممن لم يسعفه الحظ والإمكانية باستبدال الروح بالمال، وفوق كل هذا وذاك يزجُّون بأساتذة الجامعات؛ لمحرقة الحرب البلهاء الرعناء، إنها وضعية لا يمكن لتفكيري البسيط بتفسيرها سوى أنها جهل الحاكم، أو تطبيقه لخطة مدروسة يستوردها من خارج الحدود دون أن يكلف نفسه في تحليلها!... وما الداعي للتحليل ما دام يحتفظ في نهاية المطاف بمركزه في أعلى الهرم!... لله دَرُّك يا هذا الشعب.

دام الحال لمدة ثلاثة أيام بلياليها ولا خبر عن مصير زوجي الحبيب لم أذهب خلالها للدوام، لم يكلف نفسه أي شخص أو مسئول حزبي في الجامعة بالاتصال بالجهات المعنية لاستقاء أي خبر أو الإطلاع على أي شيء من شأنه الوصول إلى حقيقة الخبر وتفاصيله.

قُرِعَ جرس الباب في صباح اليوم الرابع، جاءتْ ريم لتخبرنا:
- هناك شخص غير معروف بالباب... يسأل عنكِ يا لميس.
- ألم يُعرِّف بنفسه على الأقل؟. سألتُها عَلِّي أتكهن بما يحمله من خبر
- فقط سألني عنك، وإن كنتِ موجودة أم لا.
أسرعتْ ماما قبلي إلى الباب، قاصدة سبقي للرجل حرصًا منها بأن تكون هي أول مَنْ تستلم الخبر؛ لتمتص ما به من ألم قبل الوصول به لمسامعي، هذا هو حال الأمهات... كانتْ حركتي أسرع منها فوصلنا سويًّا للباب...
- السيدة لميس زوجة الدكتور عادل؟... موجهًا كلامه لي، وكأنه سبق له التعرف بي، إلا أنني غائبة عن ذلك بالكامل...
- نعم.. أنا هي...
لاحظتُ حمله ظرفًا بيده:
- أتحمل لي من خبر عنه؟!.. أرجوك هات ما عندك...
أخذتْ نفسي بالهدوء والركون قليلًا بعدما أشبعتُ تقاسيم وجهه تحليلًا وتمحيصًا...
- نعم أبشري يا سيدتي... إنها رسالة بخط يده... بعثها معي، كتبها على عجل فقط؛ لتستلميها وتطمأني عليه، فكلنا سمعنا بخبر الهجوم على الربية المنكوبة واستشهاد زملائنا.
- إنه على قيد الحياة.. إنه بخير... هتفتُ بوجه الشاب.
- إني تركته يوم أمس، وهو بأتم الصحة، إنه أستاذي العزيز حقًّا، فهو يدرسني مادة التصميم المعماري.

تركتُ الشاب والرسالة ودخلتُ للبيت مهللة بالخبر السعيد، أزفه لأخواتي دون التفكير في أبسط قواعد الشكر والعرفان، أو حتى في قواعد الضيافة العربية... قامتْ ماما عني بهذا كله، شكرتْ الشاب ودعته لتناول فنجان قهوة أو شاي.. وما إلى ذلك.

حمدنا الله كثيرًا وترحمنا على الشهداء وتضرعنا لله ليلهم ذويهم الصبر والسلوان.

أخيرًا انتهت إجازة الصيف؛ إذا كان بالإمكان نعتها بكلمة إجازة، وعاد كلٌّ منا إلى حاله.

(١٤)

أثناء تواجد حمدي زوج حنان عندنا بالبيت، ومكوثه لعدة أيام خافيًا نفسه عن أعين رجالات الحزب والمنظمة الحزبية في منطقته، مضطرًا لملازمة بيت غير بيته، فإن العيون التي تبثها المنظمة تنشط أحيانًا للبحث عن أي رجل يتراوح عمره بين الثامنة عشر والستين؛ لزجه في صفوف ما يسمى "الجيش الشعبي" إذا كان مُستثنى لأي سبب من الانخراط في الجيش النظامي، لذلك ترى الرجال يتنقلون بين فترة وأخرى، والحلول ضيوفًا أعزاء على أقاربهم للتمويه.

خلال فترة وجود حمدي معنا.؛ اقترح علينا العمل على إعادة تنظيم وتخطيط حديقة منزلنا وعملنا سويًّا على ذلك، جلبنا أنواعًا من الطابوق ومادة الاسبست المخصص لتحديد المساحة الخضراء، والفصل بينها وبين منطقة ترابية تترك لغرس الأزهار الموسمية والدائمة، وبعض أشجار الحمضيات، وعلى الأخص شجرة النارنج والتي تكاد لا تخلو حديقة بغدادية منها، فهي تحمل ثمرة محببة لكل البغداديين، فمنها يستخرج عصير حامض المذاق غير حاد يُستعمل في السلطات الخضراء بل وكل أنواع السلطات، كذلك إضافته إلى كل أصناف المرق وهو الطبق الرئيس مع طبق الأرز اللذيذ، وهو ما يشكل مادة الغداء اليومية للعائلة العراقية، أما إذا أُضيف إليه السكر وقليل من الماء البارد للعصير المركز، فستحصل على قدح مشروب بارد ولذيذ يسد عطشك.. يعمل على تهدئة الأعصاب، هذه العملية

(تخطيط جديد للحديقة) أتتْ أُكلها بعد حوالي ثلاثة أشهر؛ لتصبح حديقتنا الأمامية مَحَطَّ أنظار الكثيرين، وتصبح جزءًا يكمل الكل، فجمال تصميم وتنفيذ البناء يواجِّه جمال تصميم وتنفيذ حديقة غاية في الروعة، وهذا بفضل ملاحقة رجال المنظمة الحزبية لحمدي.. وبذلك استحقوا الثناء والشكر.

عدنا لنلتقي في مستشفى الحيدري، وهذه المرة بسبب ولادة أختي حنان لمولود أسمته مصطفى، وقد تزامن هذا التاريخ تقريبًا مع تاريخ ميلادي أنا، وبعد سنتين من مولد ابني حسان، وبذلك حصل حسان على ابن خالة وصديق.

قرَّرتُ تقديم استقالتي من العمل... وذلك بعد عام واحد على ميلاد مصطفى أي عام ١٩٨٧م، والسبب وراء هذا القرار هو انتهاء أعمال البناء، وتسلم غالبية الشقق من قِبل مالكيها، ولم يبقَ لدينا من مسئولية تجاه العمارات سوى فترة سنة واحدة صيانة، وكنتُ أنا ضمن فريق الصيانة، إن جُلَّ أعمال الصيانة تتمحور حول أعمال الصحيات من حمامات ومطابخ، فكل نداء يأتينا للتبليغ عن خلل هو تسرُّب ماء من خلال أنابيب التصرِّيف الصحي من طابق معيِّن إلى الطابق الذي تحته، كان العمل في بدايته ممتعًا!... حيث بدأنا نتعرف على شاغلي الشقق، وتعرفنا على الكثير من فناني البلد، فقد وهبتهم الحكومة شقق متسامين على القوانين وعلى التسلسل الزمني في التسجيل، وهذا شيء مألوف لدى الحكومات التسلطية مثلهم مثل فرعون ونمرود! عندما حاجه نبي الله إبراهيم قال ربي يحي ويميت، قال أنا أُحي وأُميت!.

بعد مرور عدة أشهر على عملي ضمن فريق الصيانة بدأ الملل يتسرَّب لنفسي.. الحركة محدودة، مجتمع الدائرة تَحوَّل إلى مجتمع نسائي!... بعد انخراط المهندسين والفنيين في الجيش مع استمرار الحرب للسنة السابعة على التوالي (وبنجاحٍ ساحق)، ما يدور من نقاشٍ وكلامٍ بين النساء هو واحدٌ باختلاف الأزمان والأماكن... الأولاد ومشاكلهم، أصناف الطعام، مشاكلهن مع أزواجهن حتى لا أتجنى عليهن فهذا الحديث يدور بعد الانتهاء من مناقشات العمل، وهي غالبًا قليلة بسبب قلة العمل.

خدمتني الظروف في قبول استقالتي إذ لم يكن من المسموح تقديم استقالة لمَنْ عُينوا عن طريق قانون التعيين المركزي، والذي كان يُطَبَقُ من قِبل وزارة التخطيط بتوزيع خريجي الكليات والمعاهد على دوائر ومؤسسات الدولة دون الرجوع حتى إلى الخريجين أنفسهم،، فمن غير الممكن تقريرك لمصيرك في التوقف عن العمل وتقديم استقالة وقتما تشاء، ولكن صدور قانون جديد يسمح للموظفين بالاستقالة من العمل ضمن شروط أهمها الخدمة بدوائر الدولة لمدة لا تقل عن ضعف مدة الدراسة الجامعية.

قُبلتْ استقالتي بعد مد وجزر ومراجعات لها أول وليس لها آخر،١٩٨٧/٦/١م موعد لِطَيّ صفحة الوظيفة الحكومية والتي استمرتْ لستة أعوام بالتمام والكمال.

فكرة العمل الخاص.. أخذتْ تتمدد طولًا وعرضًا في مخيلتي لا تفارق تفكيري، وبعد تبلورها في ذهني أشبعتها مناقشة مع مَنْ حولي، فبعد عادل كان لحمدي وبابا التأثير الإيجابي بتوجيه

تفكيري.. كيف لا؟!، وهما ذوو الباع الطويل بمجال العمل الخاص، عرضنا البيت الصغير الملحق ببيتنا للبيع لتوفير جزءًا من المبلغ اللازم للبدء في الخطوة على وجهها الصحيح، ولما كان المبلغ المتوافر لدينا لا يسد تكاليف ما ننوي القيام به، ليس هذا فقط بل غياب الخبرة في هذا المجال، تم الركون لقرار مشاركة ماما لي.. بدأتُ على الفور بالبحث عن محل بمواصفات معينة وحسب توجيهات وإرشادات بابا، فقد حصلت على مبتغاي باستئجاري لمحل يقع في بناية جديدة وجميلة تُدعى "برج الكرادة" في منطقة الكرادة الشرقية، وهي منطقة حيوية تجاريًّا، يقع على بعد خطوات من مسكن الأهل وعلى بعد أميال من مسكني... لكن لنشأتي في منطقة الكرادة ومعرفتي بكلِّ شارع، ولكُلِّ مبنى في هذه المنطقة أثر إيجابي في اختيار المكان.

نصحني بابا بالنزول إلى العمل بثقل وعدم البدء من الصفر، وكان له ذلك.. ففي تاريخ ١٩٨٧/١١/٤م كان موعد افتتاح "بوتيك ديمة"، وهو اسم محل الملابس النسائية وما يتضمن من عطور وإكسسوارات... كانتْ حفلة افتتاح رائعة حضرها كل مَنْ توجهتْ له دعوة وأيضًا كل مَنْ مرَّ على سبيل المصادفة، وتحت إصرار حمدي بأن يكون يوم الافتتاح هو يوم عمل ومبيع بعدما كنتُ رافضة لهذه الفكرة، أردتُ أن يكون اليوم افتتاح اجتماعي وإعلاني فقط إلا أنه أصرَّ على فكرته.. الخوف تملكني، أنا لا أعرف أسعار السلع التي وضعها حمدي بكل حرفية، خجلة من تواجدي خلف الكاونتر والتعامل على أساس البائع والمشتري، كنا أنا وماما وأخواتي نعمد

لِسجلٍّ وُضعَ أمامنا للتعرف على الأسعار، أخذتْ ماما مكانها خلف الكاش مشين (حاسبة النقود)، فهي أدق من الجميع بهذا المجال وتوزعنا نحن لمساعدة الحاضرين ومجاملتهم، وتقديم ما وفرناه من معجنات وعصائر، انتهتْ الليلة على خير، اجتمعنا في بيت حمدي تلك الليلة للكلام والتحدث عن كل شاردة وواردة.

لم تتأثر حياتنا العائلية بهذه الخطوة بل على العكس، عمدتُ لتنظيم وقتي وقد ساعدني توقيت تواجدي بالبوتيك على ذلك، أصحو مع الأولاد صباحًا، وبعد تكملة متطلباتهم يكون واجب عادل توصيل بسمان لمدرسته وحسان لحضانته، أبقى أنا في البيت وأكون كأي ربة منزل أُعد الطعام وأقوم بأعمال التنظيف.. وما إلى ذلك، لتأتي الساعة العاشرة فأتحول إلى سيدة أعمال بكامل أناقتي وغالبًا ما أرتدي ملابس ضمن ما يعرض للبيع عندنا..! فهذا له تأثير كبير في الترويج للبضاعة، أصل لأجد ماما قد وصلتْ قبلي بقليل، وتكون قهوتنا جاهزة من قِبل مساعدة لنا واجبها فتح المحل قبلنا وتنظيفه وترتيب الملابس وجعلها تبدو بأبهى صورة... إنها تجربة جديدة بكل المقاييس.. لكنها حلوة ومثيرة، تتعامل مع الكثير من البشر على اختلاف نفسياتهم واختلاف قدراتهم الشرائية، لم تمضِ إلا عدة أشهر قليلة؛ ليصبح اسم (بوتيك ديمة) اسم معروف في مجاله، ساعدني على ذلك الكثير من معارف بابا من تجار الملابس المستوردة على توفير بضاعة جيدة وخاصة بمحلنا فقط، وبالطبع فإن فقرة انفراد محل ببعض القطع المستوردة وعدم توافرها لدى جميع المحلات، له تأثير نفسي كبير على السيدات اللواتي يرغبن عادةً بالتفرد بملبسهن

دون سواهن، السمعة الجيدة والوارد المعقول هما مؤشر على أننا نسير بالاتجاه الصحيح.

أصبح البوتيك ملاذًا لماما من الفراغ الذي بدأتْ تعانيه بسبب إحالتها على التقاعد مبكرًا، وهذا قرار اتخذته هي بنفسها، بعدما باءتْ كل محاولاتنا بالفشل لإثنائها عن اتخاذ هذه الخطوة... لا زالت بأوج عطائها ونشاطها وقدرتها على إدارة مدرستها على أكمل وجه، الآن كل منا نحن الأخوات الأربعة لها حياتها وبيتها مع زوجها وأولادها، هي مَنْ قضتْ خمسًا وعشرين سنة بنفس المدرسة رغم بعدها عن محل سكنها، لم تحاول الانتقال إلى أخرى لتعلقها بالمكان الذي واجهتْ ولأول مرة الطلبة؛ لتعطيهم مادة اللغة العربية رغم تخرجها في كلية الملكة عالية وتخصصها بمادة الكيمياء، !... كان لزامًا عليها التوجُّه إلى إحدى أقضية ونواحي مدينة بغداد للتدريس بمدارسها الثانوية، فاختارتْ البقاء في بغداد على أن تكون على ملاك مدرسة ابتدائية متواضعة المستوى وتدريس أي مادة تُطلب منها، وهذا بالطبع لعدم تقبل المجتمع في خمسينيات القرن الماضي لتوجه شابة لمكان تضطر للمبيت به، وفوق كل ذلك فهي متزوجة وأم لطفلتين!... أصرَّتْ ماما على إحالة نفسها على التقاعد؛ لسبب يتيم هو الضغط عليها باتجاه العمل الحزبي بعد ما اتُخذ قرار غريب بتحزيب كل القطاعات الدراسية والعسكرية على أنها قطاعات لها أهميتها القصوى بتوجيه النشئ لأفكار الحزب الحاكم، ناهيك عن أهمية القطاع العسكري، وفي ظل هذه الأجواء المعبئة حزبيًا اتخذتْ قرارها النهائي والذي لا رجعة به؛ لينتهي بمسيرتها العلمية

والإدارية وخبراتها التراكمية، فينتهي بها المطاف تقلب صفحات كتب التاريخ القديم والحديث بل كل ما يقع بين يديها من مادة للقراءة، تتنقل بين صفحاتهم عبر نظارتها التي علتْ وجهها كنتيجة حتمية لهذه الكتب السميكة بعدد صفحاتها وبمادتها.

أتنقل ببصري بين زخارف السقوف الثانوية بأقواسها المتسلسلة المتكررة بنمطية وطراز الدولة العباسية، رخام الأرضيات اللامع المشع، لوحات إلكترونية متدلية بكل أناقة من السقف تتغيَّر حروفها مُشَكِّلة كلمات جديدة كل لحظة وباللغتين العربية والإنجليزية معلنة عن مواعيد قيام ووصول رحلات، صالات لها أول وليس لها آخر قُسمتْ لقسمين: صالات استقبال وأخرى للمغادرة، عمال نظافة لا تتوقف أدوات التنظيف للحظة بأيديهم، ملامحهم تنم عن جنسياتهم الآسيوية، مسميات الصالات مستقاة من تاريخنا الواغل بالقدم، صالة عشتار، صالة بابل.. وغيرها الكثير، فالتاريخ عندنا لا يخذلك من ناحية التسميات لتعاقب الإمبراطوريات والدول الحضارية التي قامتْ خلاله لفترة تمتد لأكثر من ستة آلاف عام قبل التاريخ، هذا وغيره من مقاهي ومطاعم بدرجات سياحية متنوعة شَكَّلتْ في مُجملها ما يُطلق عليه الآن مطار صدام الدولي!... وكغيره من المنشآت التي اتُخذتْ لها هذه التسمية.. جسر صدام، قاعة صدام للألعاب الرياضية، مدينة صدام.. وغيرها الكثير والتي لا مجال لحصرها، وعلى رأس كل هذه المسميات يأتيك اسم عراق صدام وشعب صدام!!... لله درُّك يا شعب... صدام.

أُتيحتْ لنا هذه الفرصة الثمينة وهذا الشرف العظيم بزيارة المطار، حصول عادل وبعد سبعة أعوام من تاريخ آخر سفرة لنا على إيفاد من قِبل الجامعة إلى لندن، الرحلات من أرض هذا الصرح العظيم محدودة، ولسبب بسيط هو منع السفر المفروض على الشعب، وكانتْ رحلاته مقتصرة على الموفدين من مؤسسات الدولة وبالطبع أفراد العائلة الحاكمة وحاشيتها.

بعد إقلاع طائرة الخطوط الجوية العراقية، والتي تحمل على متنها عادل عدنا أدراجنا إلى المنزل والدهشة والانبهار مما رأيناه لازالتْ مسيطرة علينا أنا والأهل.

بعد يومين من سفر عادل وبالتحديد يوم ١٩٨٨/٨/٨م اجتمع عندنا بيت أهلي وبيت حنان وكنا نحتسي الشاي وما إليه من معجنات وكيك صُنعتْ منزليًّا لعدم توفرها بالمحلات لشحة السكر والطحين، كنتُ أصف مشاهداتي في المطار لحنان وحمدي اللذين لم يتسنَّ لهما التعرف على شيء اسمه المطار لسنين مضتْ ويأتيني التأكيد على ملاحظاتي من قِبل حمدي حيث سمع مثل هذا الكلام عن طريق بعض الأصدقاء.. أما بابا فيتجول بالحديقة إذ أنَّه من هواة الخضرة وتنسيق الحدائق، وأنا وحمدي نضطر للإجابة عن بعض استفساراته حول بعض الشجيرات والأزهار... أخذتْ الشمس بالغروب وبدأ الهواء الجاف بالترطب قليلًا بعدما أخذ بابا يرش الحديقة والأشجار بالكثير من الماء المتدفق عبر الأنبوب المطاطي، وكانتْ قوة المياه المتدفقة تشكل متعة مفتقدة من قِبل سكان الشطر الثاني من مدينة بغداد المسمى بالرُّصافة ومنهم أهلي لشحة المياه بصوبهم، فإن

مشاريع المياه والكهرباء الجديدة خصصتْ لصوب الكرخ فقط بسبب تمركز القصور الرئاسية ومنازل الحماية كلها بهذا الصوب.

جاء الظلام وبهذا الوقت تحلو جلسات السمر لانخفاض درجات الحرارة بعض الشيء مما يسمح بالتمتع بالمساحات الخارجية للمنازل والاستغناء عن الغرف المكيفة، تعالتْ أصوات إطلاق رصاص كثيف مجهولة المصدر... ما هي إلا دقائق معدودة حتى بدأنا نرى حركة الإطلاقات تتقاطع بالسماء القريبة وفوق رءوسنا بالتحديد، هتف كل من بابا وحمدي بضرورة الدخول إلى داخل المنزل، وكان أول مَنْ توجَّهَ وحتى قبل صدور الأوامر من قِبَل بابا هم الأطفال... لا نعرف سببًا لهذا المهرجان المباغت!... لا وجود لطائرة حربية في كبد السماء، لا صوت انفلاقات لصواريخ أرض أرض التي اعتدنا على سماعها وتمييز صوت ارتطامها بالأرض، وكعادتها توجَّهتْ ماما صوب التلفاز علها تتبين الخبر... هَتَفَتْ بأعلى صوتها إنه المذيع فلان ابن فلان... وهذا يعني إعلانه عن نبأ هجوم...

تسمرنا أمام الشاشة وقوفًا وصوت الإطلاقات تزداد حدة وكثافة ودون انقطاع... إنه يعلن عن توقف الحرب!! باتفاق بين الطرفين... استغراب، وجوم، فرحة، أمل، خيبة أمل، استهجان.. في مجملها شكلتْ حالة كل مَنْ بالغرفة.

- إننا ربحنا... لقد انتصرنا... جاءنا صوت علي بن حنان بكل سذاجة وبراءة وعفوية؛ والأهم بمنطق معقول، فإن الحرب لا تقم إلا وفي نهايتها خاسر وغالب!.. إلا في حالتنا لم نكن لا خاسرين ولا

غالبين... عدنا أدراجنا وتضحيات ثماني سنوات ذهبتْ أدراج الرياح عدنا إلى الطارمة المسقفة؛ لنرى الكم الهائل من الإطلاقات، علاوة على ذلك فقد اختلط صوت الرصاص بصوت أبواق السيارات، والتي ما فتأتْ تدوي في الشوارع، أجواء غريبة هذه التي نعيشها...

- إنها حرب عمياء، جوفاء... نطق بابا بهاتين الكلمتين، وهو ينفث دخان سيجارته والتي استعارها من حمدي فهو لا يدخن! إلا بمثل هذه الحالات الغريبة والعصيبة... نطق بهما وهو يتنهد آسفًا على ثماني سنوات على نار مستعرة هوجاء... عدنا نشحذ الموافقة على العودة إلى بنود اتفاقية الجزائر؟! ألم تكن قائمة أصلًا؟!... إنني أرثي الآن والآن فقط حال الأمهات الثكالى والآرامل. فلا عزاء لهن اليوم.
- ماهي اتفاقية الجزائر يا بابا؟... (سألتْ ريم)... أنا أسمع بهذا المصطلح إلا أنني أجهله.
- إنها اتفاقية أُبرمتْ عام ١٩٧٥م بين العراق وإيران في مدينة الجزائر لترسيم الحدود الإقليمية المتنازع عليها بين البلدين حُدد بموجبها كل شيء.. من حدود برية ومياه إقليمية إلى غير ذلك، وكانت هي السبيل لتهدئة الأمور، وها نحن نعود إلى بنودها بعد انقضاء كل هذه الأعوام دون أن نربح شبرًا واحدًا زيادة على ما جاء فيها.
- إذًا ما فائدة حربنا؟ وما هو سبب توقفنا الآن عنها؟.. أين المنطق؟ أين العقل؟... أكملتْ ريم استفسارها موجهة الكلام لبابا...
- إن كل ما مرَّ بنا مؤخرًا لا منطق له.. فَلِمَ تبحثين الآن عن منطق؟! أجابتها ماما وهي تمد يدها لتناول كوب الشاي وقد بدتْ عليها

أمارات عدم تقبل طعمه لشدة برودته بعدما تركته في خضم هذه المتغيرات المتلاحقة.

- وهذا الكم الهائل من الإطلاقات.. لأي سبب يُطلق؟... جاء دوري في السؤال...

- من كل مكان إعلانًا للفرحة!... أنا بحاجة لفنجان قهوة عله يساعد على تصفية ذهني... طلب مني بابا...

- أكيد حبيبي، ولكن بعد أن تعلمني ما وجه الربط بين الفرحة وإطلاق الأعيرة النارية.. فشتان ما بينهما!.

- دائمًا ما تسبغ الحكومات على الشعوب موروثاتها، وهذا موروث خاص بالجزء الغربي من البلاد، ولم يكن له نصيب في بغداد، وهذا ما بدأ يسود على كل المجتمع في الآونة الأخيرة، في هذا الجزء من البلد وعدد قليل من بعض المحافظات الأخرى، تُطلق الأعيرة النارية في المناسبات المفرحة؛ كالأعراس، وفي المناسبات الحزينة كأن يُشيع شاب أو رجل دين معروف إلى مثواه الأخير.

اتصل بي عادل هاتفيًّا بعد عدة أيام من ذلك اليوم مستفسرًا عن حالنا بعد سماعه لأخبار توقف الحرب، أعلمني أنه قد رفض عرض عمل جاءه من المكتب الهندسي الذي كان يشتغل به سنين تواجده في بريطانيا، وبعد تخرجه تحديدًا قبل مغادرته بريطانيا وعودته للبلد إثر تطبيق قانون الكفاءات... قال:

- أنا رفضته أصلًا ودون مشاورتك بالأمر.

- حسنًا فعلتْ، هذا هو الصواب فالحرب انتهتْ وأكيد ستبدأ مرحلة جديدة، فالبلد سيقدم على مرحلة بناء وتعمير وسيكون لاختصاصك حصة الأسد... أجبته...

- هذا هو نفس جوابي، على الرغم من عدم تطابقه مع رأي المدير هنا.

تَوجَّهنا بعد أسبوعين إلى المطار لاستقبال عادل وهذه المرة بمعيَّة بيت أهلي وبيت حنان وبيت عصام أخو عادل، واستقر الرأي على تناول العشاء بأحد مطاعم الدرجة الأولى في المطار للتغيير وإشعار أولادنا بأجواء السفر والمطارات ومشاهدة الطائرات أثناء إقلاعها وهبوطها خاصة وأن المطعم يحتل الطابق العلوي من بناية المطار، ويطل بصورة مباشرة على أحد المدارج... اتصلتُ بحركة الطائرات في المطار لأعرف التوقيت الصحيح لهبوط طائرة عادل...
- سيدتي لقد هبطتْ الطائرة بالفعل الآن... جاءني صوت موظفة المطار؛ ليجعلني أصطحب الأولاد مسرعة قبل بقية أفراد العائلة الكبيرة على أن يلحقوا بي هناك... لم يكن عادل بالانتظار لحسن الحظ، فإنَّ الإجراءات تأخذ وقتًا طويلًا نسبيًا.. هذا بالطبع ما اعتقدته، وبحركة لا شعورية نظرتُ إلى اللوحة الإلكترونية لأتأكد من هبوط الطائرة!.. إلا أني وجدتها تشير إلى التأخر عن الموعد المحدد!.. إذًا ما الذي حدا بموظفة حركة الطائرات لتجيبني بهبوطها!. عاودتُ السؤال من المكتب المخصص بالحركة؛ ليأتيني الرد مغايرًا بالكامل، فهم يتوقعون تأخرها لحدود ساعة على الأقل... وصل كل من بيت بابا وحمدي وعصام بكامل تعدادهم،، انشغل

الجميع بتفقد المنشأ الجميل، تناولنا القهوة والشاي بأحد المقاهي... مرَّت ساعة.. وثانية.. وسادسة... ولا من مجيب على استفساراتنا، حتى إن القلق بدأ يدب في نفسي إلا أني أحاول التغلب عليه وعدم سماع إنذاراته المتلاحقة بحدوث ما لم يكن بالحسبان، انتهتْ معاناة الأولاد من الجوع الذي أخذ منهم مأخذًا كبيرًا، إلى معاناة مغالبتهم للنعاس، فقد أوشك منتصف الليل يسري نحونا، ومع هذا لم ننثني عن عزمنا بتناول العشاء مع عادل في مطعم المطار... وكان لنا هذا عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل بالتمام والكمال، عرفنا وعبر إذاعة (يقولون) بأن السيدة الأولى احتاجتْ لبعض المشتريات من عاصمة الضباب، ولم يكن بمقدور طاقم الطائرة الإقلاع لحين وصول المشتريات المطلوبة عن طريق أحد موظفي السفارة العراقية هناك.

حدثني عادل عن مناقشته للعرض المعروض عليه مع مدير المكتب، وكيف حاول المدير إقناع عادل بوجهة نظره.. القائلة "بأن من مصلحته تقبل العرض والبقاء وتهيئة كل ما من شأنه إسعاد العائلة وتوفير الشقة اللازمة وغيرها من المتطلبات"... إلا أن عادل أبى وبشدة المقترح بناءً على أساسات كثيرة من ضمنها.. منع السفر القائم في البلد، وعدم قدرة العائلة على اللحاق به، وتجربة صديقتي سوسن قائمة أمام عينيه، إضافة إلى أن المؤشرات تنحو نحو التقدم والازدهار وبدء المشاريع العمرانية، والدور الذي سيلعبه عادل بناءً على تخصصه.. وعبثًا حاول المدير إقناعه بوجهة نظره المعاكسة تمامًا لوجهة نظر عادل!... إلا أننا لا نزال نحتكم للمنطق.

توجهنا مع عادل للمرة الثانية إلى المطار لسفره إلى باريس هذه المرة بعد أن أُعيد ترشيحه من قِبل مجلس القسم لإيفاد كان قد اعتذر عنه وتنازل لأحد الزملاء به، قبل حوالي سنة ونصف، بناءً على رفضي وقد كان هذا اتفاق مبرم بيننا عند أول زواجنا على ألا يسافر أي منا دون الآخر... إلا أنني تراجعتُ عن القرار بعد تأنيبي من قِبل كل أفراد العائلة على موقفي ذاك، وحرمان عادل من تجربة جامعية هو في أمس الحاجة إليها مثله مثل كل مَنْ يعمل بالتدريس الجامعي، وحاجته الماسة لتجديد معلوماته وأفكاره حول طرق التدريس وإلى الوقوف على آخر مستجدات الأبحاث العلمية، وقد سنحتْ له الفرصة مرة ثانية فلم أتردد في تشجيعه على الذهاب تحت عنوان "مجبرًا أخاك لا بطل" وعلى أساس موافقتي التي تمتْ قبل حوالي ثمانية أشهر من الآن، والتي على أساسها سافر إلى لندن مسبقًا.

اتخذنا القرار الحازم ببيع المنزل!... إنها خطوة غريبة إلا أنها أصبحتْ ضرورية.. فإن تباعد أماكن العمل ودوام الأولاد، بيت أهلي، بيت أهل عادل.. الحقيقة كل هذه الأماكن قريبة من بعضها البعض إلا أن البعيد هو البيت، أنهكتنا طول المسافات، ولم يعد يوفر لنا البيت سوى موضع رأسنا عند النوم، تنازلنا عن أحلامنا وذكرياتنا، كل زاوية من زوايا البيت صُممتْ؛ لتؤدي وظيفتها وحسب حاجتنا، أربع سنوات من العمل المضني والترقب والقلق والاستدانة كلها ذهبتْ أدراج الرياح، فإن بعد المكان الذي أُختير وبعناية فائقة وبذات المنطق المعمول به في بلد قُلب به قاع الهرم؛ ليصبح قمته اتخذنا القرار!.

وُفقنا لشراء بيت آخر.. البيت قديم.. تصميمه يعلمك بوقت تصميمه، ففي بغداد يتصفُ كل عقد من الزمان بصبغة تصميمية معينة تستطيع من لمحة صغيرة التكهن بالفترة الزمنية التي بُني خلالها أي بيت، مرحلة الستينيات تختلف عن حقبة السبعينيات لتختلف بدورها عن الثمانينيات، وهكذا. أهم ما يميز هذا البيت الحديقة الكبيرة الغنَّاء، والتي تطرح ثمارًا مختلفة طوال السنة... وكذلك موقعه الذي يتوسط أكثر مناطق بغداد أهمية، مثل: الكرادة والمنصور، تفنن عادل في إضفاء لمساته الجميلة الخاصة به على البيت ليشعرنا بالتآلف معه، واحدة من هذه اللمسات كانتْ بناء منطقة خاصة للشواء، موقد ناري بطبقات ثلاث مقاعد ومناضد حجرية استخدم لتغليفها الحجر الذي يُرصف به جوانب السكك الحديد على أساس توفره أمام منزلنا حيث إنه يقع على جادة سكة الحديد، إضافة إلى بناء مكتبة في غرفة الجلوس من الحجر أيضًا لتستوعب جزءًا قليلًا من كتبه فكانتْ غاية في الروعة والجمال من الناحية التصميمية والخدمية.

إن مواجهة البيت لسكة القطار، والذي يمر بنا بطريقه بين بغداد والبصرة ذهابًا وإيابًا ولأكثر من مرة يوميًا، جعلنا نفكر مليًا قبل الإقدام على شرائه، فإن ما يحدثه مرور قطار قديم يعود لفترة الخمسينيات أو على أحسن تقدير لستينيات القرن المنصرم، فإن ما يحدثه من جلبة وضوضاء تقض مضجعك بكل تأكيد... توجهتُ بسؤالي إلى صاحب المنزل قبل شرائه:

- كم مرة يمر القطار من هنا يوميًا؟.

- مرات عديدة، لا مجال لعدها، أنا حتى لا أعرف مواعيدها حتى إن بعضها يكون في منتصف الليل على ما أعرف!...(قالها ضاحكًا

عارفًا لقصدي)... أنا لا أخفيكِ قلقتُ نفس قلقك عند إقدامي على شراء هذا المنزل قبل ست عشرة سنة أو أكثر بقليل، فأنا كاتب ومترجم وأنشد الهدوء وغالبًا ما أكتب نصوصي في الحديقة، ولكن بمجرد مرور أقل من شهر على تواجدي بالبيت بتُ لا أشعر بذهابه أو إيابه... وكان ما قال الرجل بالضبط، شعرنا بالراحة على أكمل وجه، أخذنا نسمع صوت الجرس ونعرف رنته الطويلة المماثلة لتغريد طيور، بعدما فقدنا هذا الإحساس بالبيت (القديم الجديد)، فلا يصل إلينا الضيوف فيقرعوا جرس الباب لبعده عن المدينة.

وفقنا الله بشراء سيارة جديدة (ڤولكس ڤاكن) صنعتْ في البرازيل أطلقتها إلى الشارع العراقي الشركة العامة للسيارات، فهي تعمل منذ الثمانينيات على منح الفرصة لأي شخص يحمل إجازة سوق.. مرَّ عليها أكثر من سنتين بالتسجيل على سيارة بعدما تحصل الشركة منه على مبلغ يعادل ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار أمريكي تُشكِّل مقدمة لسعر سيارة لا يعرف نوعها ولا لونها ولا منشأها ولا تاريخ استلامها!... على أن يسلمهم بقية المبلغ، والذي يقارب المبلغ المدفوع كمقدمة أو أكثر عند استلامه لها ومنهم من اضطر للانتظار لأكثر من ثماني سنوات!. فرفدوا الشارع العراقي بكل ما هو متدني من أنواع السيارات، إلا ما سُلمتْ إلى الضباط ونوابهم... المهم حصولنا على سيارة جديدة بسعر يفوق ضعفين سعرها عند استلامها من قبل مالكها الأول... اصطبغ الشارع بالبرازيلي، وهو ما أصبح يُطلق على هذه السيارة، وحينها أخذ الشبان يتندرون بطرائف تصف سوء أدائها وكثرتها.. منها ما تقول: (انتبه الشارع مبرزل) ـ فالحمد لله تبرزلنا مع المتبرزلين... فحشرٌ مع الناس عيد.

(١٥)

اليوم ١٩٩٠/٨/٢م..

الحرُّ شديد والرطوبة عالية، تشعر أن الطقس يشعرك بالاختناق منذ الصباح الباكر... وهذا شيء مألوف بمثل هذا الوقت من السنة، الشمس عملتْ عملها حتى مع الأشجار فخضرتها مصفرة لا وجود للونٍ أخضر في الحديقة؛ لأن لا وجود لأي نوع من الأزهار والورود، فهي لا تستطيع مقاومة درجات الحرارة على هذا النحو من الارتفاع ولشدة أشعة الشمس، شجيرة الصبار هي الوحيدة التي تشمخ من بين زميلاتها... حتى أجهزة التكييف تعاني بهذا الشهر فهي تعمل دون راحة، البعض منا يستعين بكمية من الثلج بعد أن تكون سيدة المنزل جهزتْ قناني من البلاستيك معبئة بالماء؛ لتصبح ثلجًا في اليوم التالي وعلى عدد أفراد العائلة؛ ليستعين بها في التغلب على حرارة الماء الجاري في الحنفية عند الاستحمام، إن اعتماد الشعب العراقي على خزانات المياه المعدنية الموضوعة على سطح المنزل وتعرضه للشمس اللاهبة طوال النهار يجعل منه مرجلًا لا خزانًا، وهم مجبرون على الاعتماد على الخزانات لشحة المياه، فإن قِدَمَ مشاريع المياه وتَهرُّئها، وعدم إقامة سدود وخزانات جعل مواطن بلاد ما بين النهرين بلا ماء.

مع ما سبق من معاناة، طلب منا الأولاد الهروب وتمضية النهار في مسبح النادي وتناول الغداء هناك، رحبنا بالفكرة وجهزتُ ما يلزم عادل والأولاد للسباحة على أن نلتقي بمطعم النادي بعدما يكتفون من

السباحة وأكتفي أنا من التمتع بالنظر إلى الأنواع النادرة من نباتات الظل واقتناء البعض منها في معرض النباتات والطيور التابع للنادي.
أخذتُ أتأكد من الأقفال الخاصة بمنافذ البيت والتأكد من إغلاقي منفذ الغاز في المطبخ، وإطفاء كل أجهزة التكييف إلى غير ذلك بعدما استقل عادل والأولاد السيارة في انتظاري، سمعتُ رنة الهاتف، قررتُ عدم الإجابة عليه، لكن مع إصراره على الرن، تراجعتُ عن قراري ورفعتُ سماعته...
- هلو لميس. كيف حالك حبيبتي؟.. وكيف هو حال عادل والأولاد؟...
إنه صوت ماما وطريقتها بالكلام عندما يكون وراءها ما تخبر به...
- الكل بخير والحمد لله.. وكيف هو بابا؟.
إنه في البيت.. فهو لم يذهب اليوم إلى عمله.. قرر البقاء.
- هل ألم به عارض - لا سمح الله - فليس من عادته البقاء في البيت؟.. بدأتُ أقلق يا ماما...
هنا سمعتُ صوت منبه السيارة يطلقه عادل بمعنى.. أين أنتِ؟.. أكيد الحر أخذ منهم مأخذًا...
- لا إن بابا بخير والحمد لله إلا أنه فضَل البقاء بالبيت!.. ألم تستمعوا للأخبار يا لميس؟...
- مالنا وللأخبار في بداية النهار.. ماما حبيبتي أنا لا أستطيع التأخر أكثر من ذلك، فإن عادل والأولاد في السيارة منذ بدء المكالمة والحر شديد بالخارج عليَ إنهاء المكالمة الآن مع كل الأسف على أن أكلمك حين عودتنا، فقد طلب منا الأولاد الذهاب بهم إلى النادي للسباحة.

- أنا أُفضل عدم ذهابكم إلى أي مكان والبقاء في البيت هذا اليوم!.. خبري عادل واطلبي منه العدول عن الخروج.
- ما وراءك يا ماما؟.. ما الخبر؟.. أكيد ألمَّ مكروهٌ بحبيبي بابا.. أليس كذلك؟.. سأطلب من عادل التوجُّه إليكم حالًا.
- إن والدك بألف خير يا لميس.. لكن استمعنا إلى الأخبار فعرفنا بقيام انقلاب عسكري في الكويت... سكتتْ لبرهة لتصلها دهشتي أو أي رد فعل آخر...
- انقلاب في الكويت؟!.. وما شأننا بالكويت...؟!.. الكويت لأهل الكويت.
- لميس حبيبتي إن الكويت جارة لنا.. وما يصيبها يصيبنا.
- منذ متى ونحن نتأثر بما حولنا ؟!.. دعكِ من قلقكِ المعهود يا ماما، الأولاد وعادل ينتظرون في السيارة، وهم الآن يعانون من الحر بالخارج، وأنا أتكلم معكِ هنا في الظل على الأقل.
- لميس اسمعي مني، أعطيني عادل لأتكلم معه وأنتِ بدوركِ حاولي إقناع الأولاد بالعدول عن فكرة الخروج، على الأقل هذا اليوم لحين استبيان الوضع، أنا لا أستطيع التوضيح أكثر فافهمي ما أعنيه يا بنيتي.
- حاضر ماما لكِ هذا، أنا أفهمكِ جيدًا على الرغم من جهلي بالموضوع، ولكن سنعدل عن الخروج ونستمع للأخبار.
- هذا هو التصرف الصحيح... مع السلامة.

بعد الاستماع للأخبار عرفنا أن الكويت غَيَّرت حكومتها وهم يناشدون حكومة العراق لمساعدتهم في استتباب الوضع عندهم

عرضوا على شاشة التلفاز شخصًا يرتدي الزي الكويتي يدَّعي أنه مُنفِّذ الانقلاب، وهو بحاجة لمساعدة الأشقاء في العراق!... حسب قوله

توالت الأخبار... وتسارعتْ الأحداث... هناك حلقة مفقودة بسلسلة الأخبار المعلنة، الشخص الذي قام بالانقلاب شخص صغير بالسن، مهزوز، لا ينطبق ادعاؤه على مظهره!... لمَ الاستعانة بنا بالذات.. لم نكن في أيَّة فترة على وفاق معهم..! ليطلبون من أي جارة أخرى.. أين دول الخليج على سبيل المثال مما يحدث... هناك ما يُطبخ في الخفاء كل ما قيل مبهم ولا تفسير منطقي له... قال عادل وهو لم يغادر شاشة التلفاز:

ـ أوافقك الرأي، ولكن.. ما الذي يمكن أن يكون قد حدث فعلًا؟... سألته بحيرة.

ـ أنا لا أستطيع التكهن، لكن حتمًا سينجلي الموقف بعد حين، أنا الآن متأكد من شيء واحد: أن لحكومتنا يدًّا بالموضوع... قالها بعد أن أخفض رأسه وصوته.. وهذه حركة اعتاد العراقيون عليها عند الكلام عن الحكومة.. إذًا أتصل بأحدهم...

اقترح عادل بأن نستطلع الخبر بمكالمة أحدهم هاتفيًّا

ـ عبر الهاتف!... مستحيل ومن أين لي ولغيري هذه الجرأة.. أنسيتَ إنهم يتنصتون على غالبية المكالمات، وأن الهواتف المنزلية مراقبة بشكل دائم!... أجبتُ عادل.

توالتْ الأخبار.. وحالة من الترقب تلف الجميع، كل الأخبار هي إعادة لما سبق وأُعلن... ترك عادل التلفاز وتوجه صوب المذياع، وهو النافذة الوحيدة التي نطل من خلالها على العالم، استمع عادل لعدة محطات عالمية غربية.. منها ما تبث باللغة العربية، ومنها باللغة الإنجليزية؛ ليأتينا بالحصاد الصحيح...

جيشنا معزز بالدبابات قد غزا الكويت... حاكم الكويت استقل طائرته الخاصة وغادر البلد... وجهته السعودية... مهزلة بكل الاعتبارات... وما الذي دفع حاكمنا باتجاه مثل هذه المغامرة...؟! لم يمضِ سوى سنتين على انتهاء حربنا مع إيران لندخل بحرب أخرى..!.. لم تنسَ الأمهات أولادهن الذين أُستشهدوا بعد... لم نعرف مصير أبنائنا الذين فقدوا، أولادنا الذين أُسروا، ما مصير اقتصادنا؟!، عملتنا لم تستعِد عافيتها وقيمتها بعد.. الدينار العراقي الذي كان يعادل ثلاثة دولارات وأكثر أصبح الآن الدولار يساوي عشرة دنانير في السوق السوداء، والتي لم تكن موجودة عندنا أصلًا... زاد وعاد عادل وخاض بكل المجالات وهو يكلم نفسه أو كما يظهر يكلمني أنا، يضرب كفيه ببعضهما.. ما هذا الجنون؟!.. رددها أكثر من مرة...

- هل يتصور حاكمنا الفذ أن الدول الغربية ستتركه يفعل ما يشتهي؟!.. هل ستنسى مصالحها في المنطقة؟!.. يا لخيبة الحكام العرب! حاكم يفر من أول ساعة ليترك شعبه لمصير مجهول.. هل يتوقع بأن ستقوم له قائمة بعد هذا الجبن والمهانة؟! سابقًا كان حامل اللواء يحرص على ثباته بالمعركة حتى لو تعرَّض لما تعرَّض؛ ليعطي العزيمة لجيشه، هل اقتدى الحاكم هناك ببطولات أجدادنا بالمعارك؟. إلى أين تجري بنا الأمور؟!.. كل هذه التساؤلات

يطرحها عادل، وهو يروح ويجيء، يذرع البيت من أوله لآخره حسرة على الحال، وعلى الوضع الذي نحن به.

تعبأ الجو خلال أيام، بدأتْ حكومات العالم تحاول إيجاد مخرج ما، تعالتْ المطالبات بخروج الجيش العراقي من الكويت، مؤتمرات تُعقد، قرارات تُتخذ، زيارات لمسئولين كبار حول العالم لبلدنا، اقتراحات، إجراءات.. توالتْ الأسابيع والأشهر والوضع ينزلق نحو هاوية سحيقة ليس لها قرار، والمواطن العراقي هو مَنْ يدفع الثمن بالطبع.. شحَّتْ المواد الغذائية وتضاعفتْ أسعارها في حال توفرها، حُمِّل كاهلُ المواطن العراقي أعباءً كثيرة، حُمِّل أوزار رعونة وسفاهة حكامه!... الكل توجه صوب الأسواق لتخزين ما يمكن تخزينه من مواد أولية كالرز، الزيت، الطحين، الشاي، وحبوب جافة، حتى المناديل الورقية تحسبًا، وكل ما يدخل ضمن المواد الاستهلاكية لأي عائلة.. وُزعتْ علينا بطاقات نحصل بموجبها على كمية من الطحين أو الخبز وحسب اختيارالعائلة، منهم مَنْ اختار الطحين ليُصنع حسب احتياج العائلة، ومنهم مَنْ اختار الخبز الجاهز ونحن من بينهم، كنا نصلي الفجر، نترك الأولاد نيامًا ونتوجَّه أنا وعادل إلى أقرب مخبز والظلام لم ينقشع بعد، نصطف في طابور طويل مستسلمين، والهدوء يلف المكان، النعاس مسيطر على الواقفين.. بعد مرور حوالي خمس وأربعين دقيقة يسيطر الملل والتعب على الواقفين... فتبدأ الأصوات في الارتفاع ضجرًا، حتى الأحاديث تنتهي، يأتينا من بعيد مَنْ يرتدون اللون الخاكي.. نعم إنهم حماية دور السادة الوزراء، فإن المخبز يقع قبالة مجمع دور السادة الوزراء، يتسرب نحونا حمايتهم من أكشاكهم الواقعة أمام منازل

الوزراء، يدبون نحونا كدبيب النمل للحصول على خبز الصباح لفطورهم، ضاربين بعرض الحائط مشاعر الناس بتقدمهم الطابور واستلام ما يحلو لهم من الأرغفة، فترتفع أصوات الاحتجاجات... هذا مَنْ يرفع صوته ويديه مؤشرًا صوب أفراد الحماية.. لماذا لا يقفون بالطابور مثلنا؟!.. ما الذي يُميّزهم عنا؟!... هناك علامات في وجوههم، أو يمكن أن يكون عنده توصية من الوزير، ليس فقط من الوزير بل من رب العزة... يقول آخر.. تختلط أصوات الاحتجاجات، وهذا ما يزيد الحال سوءًا حيث يعمد صاحب المخبز للصراخ هو الآخر؛ ليترك هو وعماله العمل داخلًا بنقاشات ومهاترات، فترتفع أصوات النسوة مطالبة بفض النزاع؛ ليعود العمل إلى سابقه ونحصل على مبتغانا، فنعود لمنازلنا... إنه المهرجان الصباحي اليومي، هذا المشهد يتكرر يوميًا ولا جديد سوى حجم الرغيف ولونه، فإنهما يتناسبان عكسيًا مع عدد الأيام، كل يوم يقل حجم وبياض الرغيف مع هذه المعاناة اليومية...

نصحتني إحدى الجارات باستلام الطحين بدلًا من الخبز، على أن نعطيه لامرأة تمتهن العجن والخبز.. بدأنا رحلة جديدة، نذهب بالطحين وقت الضحى فتعطينا موعدًا بعد الظهر لاستلام الخبز، وهذا فعلًا أسهل من الطابور الصباحي، غالبًا يكون الخبز جاهزًا وأحيانًا قليلة نضطر للعودة مرة ثالثة، شعرنا ببعض الارتياح، إلا أنه بدأ موضوع جديد وأيضًا حول مادة الخبز، فتلك الخبازة تسرق من كمية الطحين لصالحها فتعطيك بدل ثمانية أرغفة لكل كيلو جرام طحين، كأن تعطيك سبعة أو حتى ستة والحجة هي سوء نوعية الطحين، وهذا لا يساعدها بِمدِّه، تغيَّر لون الطحين فتستلم خبزك وقد

ازرورق لونه والجواب جاهز لاستفسارك، إن نوعية الطحين لهذا الشهر رديئة جدًا بشهادة الجميع... نعاني للحصول على أبسط وأهم مفردة في غذائنا اليومي ومن هذه النماذج كثير... فنوعية الشاي له حديث آخر في وقت احتساء شاي المساء، وعند تواجد ضيف ما في المنزل فللشاي أهميته المعروفة ومكانته المحترمة لدى العراقيين.

كل هذا متزامن مع تصاعد الأحداث على الصعيد السياسي، أخبار عن تحركات دبلوماسية مكوكية لإقناع حاكمنا بالانسحاب من الكويت، أنباء عن وصول حاملة طائرات إلى مياه الخليج العربي، زيارة الأمين العام للأمم المتحدة لبغداد على أمل حصوله على وعد بالتراجع عن قرار ضم الكويت إلى العراق واعتبارها المحافظة رقم التاسعة عشر، وصول فيالق جرارة من جيوش الاثنين وثلاثين دولة والتي ستساهم بحربها ضد العراق.. اتساع رقعة القاعدة الجوية الأمريكية على أرض قطر.

ارتفاع صوت النرد على طاولته مع ارتفاع صوت أحجاره، وهي عادة متأصلة عند الرجال عند لعبهم للعبة طاولة الزهر يتزامن مع ارتفاع صوت بابا وعادل وحمدي أثناء لعبهم ومناقشتهم لمستجدات الساحة، يترتب عليه ارتفاع صوتنا نحن ـ النساء ـ بمناقشة أحداث المسلسل العربي الفلاني، وكيف خنع البطل في نهاية إحدى حلقاته ورضخ لمتطلبات البطلة صاحبة الحظ الكبير؟.. كل هذا يستدعي ارتفاع أصوات أولادنا أثناء لعبهم في ورق اللعب.

استطعتُ الحصول على عدد من بدلات السهرة الجميلة، ومن النوع الراقي عن طريق قريبة لي تسكن لندن، استعدادًا لمناسبة رأس السنة

الميلادية ألف وتسعمائة وواحد وتسعين،وهذا موسم نستعد له كل عام بنفس الوقت فإنه موسم الاحتفالات واحتياج السيدات لكل ما هو جديد بعالم الأزياء.. هي غالية الثمن فعلًا فإنها مختارة من بيوتات الأزياء ذات السمعة العالمية، علاوة على أن محلنا ينفرد بها وما لهذه النقطة من تأثير نفسي عالي لدى السيدات، وهو شيء معروف وبديهي، تسلل القلق والحذر لنفسي هذه السنة.. كيف لا؟! فإن الموعد النهائي للمهلة التي أعطيتْ لحاكمنا للانسحاب من الكويت؛ لتجنبه ضربة عسكرية مدمرة كانتْ تنتهي بدخول منتصف الليل من ليلة السادس عشر من شهر كانون الثاني للعام ١٩٩١م!... أي بعد أسبوعين فقط من أعياد الميلاد المجيد ورأس السنة، كان القرار صعبًا والرهان على الروح المعنوية للشعب العراقي وحبه للمناسبات والسهرات وتَمسُّكه بالظهور في أبهى صورة أثناء حضوره لحفلة بمناسبة معينة والتسابق على لبس أجمل ما يملك حتى لو كلفه أكثر مما يملك... كان الإقبال على بدلات السهرة هذه المرة أكثر بكثير من سابقاتها!... بعدما أخبرتهم بوصولها، نفذتْ البضاعة بسرعة عجيبة، كانتْ كل سيدة تخرج من غرفة القياس، وهي مرتدية لبدلة ما توافق ذوقها وقياسها، تخرج لتريها لشريكها على أن يبدي رأيه بمظهرها، تردد مع نفسها عبارات ودون أن يُطلب منها التوضيح... يجب أن أرتدي فستان جميل، أجمل ما ارتديتُ بعمري!... فمن يعرف قد يكون هذا هو آخر فستان سهرة أرتديه في عمري.

دقتْ الساعة المعلقة على أحد جدران المحل معلنة الساعة التاسعة ليلًا، وهي تدق كل يوم بنفس الوقت لتُعيِّنَ لنا موعد إغلاقنا المحل...

إلا أن هذه المرة دقاتها تعلن لنا أنها آخر دقات نستمع لها في العام الحالي.. إنها ليلة رأس السنة، وقد بيعتْ اليوم آخر قطعة لدينا وكان مقاسها صغيرًا جدًا وكنا لا نتوقع بيعها لصغر قياسها إلا أنها بيعتْ والحمد لله، غَصَّتْ شوارع الكرادة داخل والتي يقع محلنا على شارعها الرئيس، غَصّت بالسيارات ولم تعد السيارات قادرة على المسير فعمد الكثير لإطفاء محركاتها، التواجد الكثيف لأفراد شرطة المرور وأصوات صفاراتهم التي لا تفتأ بالتصفير تأمر هذه السيارة بالتوقف وتلك بالمسير، وهو يرتدي ملابسه الشتوية الثقيلة علها تقيه درجات الحرارة المتدنية إلى الصفر أحيانًا كثيرة، أصوات الأغاني التي تصدح بها مسجلات السيارات تتداخل على آذاننا.. فمنها العراقي، ومنها العربي، وقليلٌ منها الغربي، الكثير من مستقلي هذه السيارات يُلقي بنصف جذعه خارج السيارة من خلال نافذتها، وهو حامل لطبلة أو دف أو أحد الآلات الموسيقية الخفيفة، وهذا كله يصدر من شريحة من المجتمع مَنْ ليس له مكان معين يحتفل بهذه المناسبة، وهم بغالبيتهم من الذكور؛ لأن كل النوادي والمطاعم تشترط مبدأ الحضور العائلي، فمَنْ لا يسعفه الحظ، يحتفل بالدوران في شوارع العاصمة، كل هذا الكرنفال يمرُّ أمامنا أنا وعادل ونحن نذهب إلى بيت الأهل بعد إغلاقنا للمحل مشيًا على الأقدام متعمدين إيقاف سيارتنا بهذه الليلة بالذات في بيت الأهل تحاشيًّا للقيادة بمثل هذه الظروف، ليست السيارة هي الوحيدة في بيت الأهل، وإنما أولادنا أيضًا متواجدين هناك منذ المساء يعملون مع أولاد حنان على تحضير ألعاب وهدايا لإحياء هذه الليلة؛ لنحتفل نحن ـ الأخوات

الأربعة ـ مع أزواجنا وأولادنا محيطين بماما وبابا بعدما خلا المنزل عليهم بزواج نهى وريم.

تحضيرات واستعدادات ما قبل الحرب أصبحتْ هي الشغل الشاغل لنا، التأكد من توفير كل ما نحتاج إليه من مؤن، مصادر الطاقة حتى بنزين السيارات، تحضير النفط وتوفيره بكميات كبيرة مخافة استهداف محطات توليد الكهرباء، وُضعتْ الأشرطة اللاصقة على النوافذ لعدم تناثر الزجاج جراء العصف.. قمتُ بجمع كل الأوراق الثبوتية والهويات الشخصية وكل المستندات المهمة في حقيبة بمكان معروف يسهل الوصول إليه تحت أي ظرف، كذلك جهَّزتُ حقيبة يدوية تحوي ما أملك من حلي ذهبية قَلَّتْ أو كَثُرتْ فهي ملكيتي، هذه التحضيرات كانتْ السمة الغالبة في كل بيت عراقي الكل ينبه الكل، البعض فضل مغادرة بغداد والتوجه إلى محافظات أو أقضية بعيدة وآمنة قدر الإمكان، بغداد هي العاصمة وبها مركز الحضارة والمنشآت الحكومية والقصور الرئاسية والسفارات، فكل ما بها يشكِّل أهدافًا أكيدة لنيران أسلحة دول التحالف، إن العاصمة في بلدان العالم الثالث هي مركز البلد تختص بكل ما هو حكومي؛ لذلك تنفرد عن أخواتها بقية المحافظات باهتمام كبير، ويكون نصيبها من مشاريع الإعمار والمباني السياحية الأكبر، وما يكون لها لا يكون لغيرها؛ لذلك ما يكون لها من استهداف لا يكون لغيرها... قام البعض بالتوجه إلى بعض الأقارب والأصدقاء من سكان المحافظات الجنوبية بالذات، فهي مهمشة ولم توليها الحكومة أي اهتمام يُذكر؛ لأنه يعتبرها معقل المعارضة السياسية إن صح التعبير، وبذلك خلتْ

من ما يُطلق عليه منشآت حيوية، إضافة لاحتواء قسم منها على مراقد الآئمة من أحفاد الرسول الأعظم، والبشر كل البشر بفطرته وسريرته التي جبله الله عليها يكون أقرب ما يكون لخالقه وقت الشدائد، فتكون دور العبادة ملاذًا لروحه ونفسه، تشعر وأنت تزور إحدى المحافظات الجنوبية، وكأن آلة الزمن عادتْ بك إلى ما قبل خمسين عامًا مضتْ، لحنق الحكومة عليها وإهمالها...

أخذتْ بعض العوائل ومنهم أهلي بالتوجه إلى هناك واستئجار بيتًا صغيرًا قرب مرقد أو مسجد، والعمل على تأثيثه بكل ما هو بسيط ومفيد بالتعاون مع عائلة قريبة لنا، عبثًا حاولتْ ماما إقناعي بالذهاب معهم، لم نقتنع بفكرة مغادرة البيت خاصة وأن البيت الذي يرومون الذهاب إليه بيت صغير وقديم، وهو على طراز البيت البغدادي والذي يتكون من باحة وسطية ليس لها سقف تستطيع وأنت بها أن ترى نجوم السماء بوضوح، تحيط بها غرف صغيرة غالبًا ما يتكون من طابقين لتكون باحة البيت مركزًا له، خالي من أي نوع من أنواع التحضر إذا أردتْ الوصف، فلا سخان ليسخن الماء في هذا الشتاء القارس، جدران المطبخ خالية من البلاط الأبيض اللامع ليظهر الطابوق الأصفر وقد تحوَّل لونه لبني قاتم بفعل الزمن والدهون المستعملة في الطبخ، لا وجود لما يسمى (كاونترات) أو حوض لغسيل الصحون، يتوسط الحوش الداخلي أو الباحة حوض حجري مزود بحنفية مرتفعة يُستخدم لكل الاستخدامات المنزلية.. غسل الصحون، غسل الملابس وبالطبع فلا وجود لغسالة ملابس أو غسالة صحون، فكنتُ أرى التعب المستمر ماثلًا أمام عيني، فيما لو ذهبتُ

لهناك إضافة إلى أن الامتحانات النصفية للسنة على الأبواب وبسمان في الصف السابع وحسان في الصف الأول، وهما لا زالا مستمرين على التوجُّه لمدارسهم بانتظام، وأننا بطبيعة الحال حريصون على مستقبلهم العلمي، وكان هذا محل استهزاء من الكثيرين بزعمهم أن المدارس سوف تتعطل بالتأكيد... الهاتف لا يفتأ يرنُّ، وهي مكالمات من الأهل والأصدقاء معظمها تدور حول تحضيرات الحرب ليُذكِّر بعضنا البعض بالضروريات.

اليوم ١٩٩١/١/١٦م... هو آخر يوم بالمهلة التي أعطيتْ من قِبل قوات التحالف، وقد اكتملتْ التهيئات العسكرية بكل أنواعها حتى الوساطات الدولية والرامية لإنهاء الأزمة دبلوماسيًّا قد أُستنفذتْ.. جنَّ الليل بظلامه، وأنا لا أزال غير مصدقة بأن حربًا ستقوم، توجَّه كلٌّ منا للنوم بفراشه وقد تناسينا الحرب، وما ينتظرنا من مصير.

- هل أنا أحلم...؟!.. أم ماذا...؟!.. ما هذه الأصوات التي تطال أُذناي.. إنها أصوات حركة فوق سطح الدار، إنه لص لامحالة، صوت أقدامه تتحرك رواحًا ومجيئًا محاولًا إيجاد منفذ لدخول الدار... اعتدلتُ جالسة بمكاني ولا أزال مغمضة العينين، لا أعرف الوقت على وجه التحديد، لا أستطيع تقدير كم من الوقت نمتْ!... والأصوات لازالتْ مستمرة، وأنا كلي يقين بأن اللص سيتمكن من الدخول بين لحظة وأخرى، فتحتُ عينيَّ قليلًا لأرى عيني رجل تُحدَّق بوجهي وتنظر إلي بتركيز... أكيد إنه يحاول معرفة إن كنتُ نائمة أم صاحية، أطلقّتُ العِنانَ لصرخة أردتها جرس إنذار لكل مَنْ في البيت، امتدتْ يد لتضغط يدي بشدة محاولة إسكاتي، تملكني

الفزع ومع هذا رفعتُ عيني لأتبين وجهه... إنه عادل ولا أحد غيره!... فقد سمع ما سمعتْ، تلاقتْ نظراتنا، مستفسرًا أحدنا من الآخر، تَيَقَنْا أنه قصف جوي... نعم إنه قصف، إنها الحرب...

قمتُ واقفة بكل قامتي فوق السرير واندفعتُ كالبرق نحو غرفة الأولاد وكذلك اتجه عادل نحوها، لا يزالا نائمين إلا أن بسمان رفع عينيه نحونا والظاهر أنه كان صاحيًا إلا أنه آثر الإغماض، أمسك عادل بيديه واتجاها صوب غرفة الجلوس فإنها خالية من الشبابيك، حملتُ حسان ولا أدري لحد يومنا هذا.. كيف استطعتُ حمله؟.. ومن أين جاءتني القوة؟، اتجهتُ به باتجاه عادل وبسمان، وهو لا يزال يغط بنومه غير آبه لما يجري حولنا إلا أن كل ما في بسمان يحدث عن رعبه من صوت القصف وأصوات الانفجارات والانفلاقات، احتويته بين ذراعي لأُهدئ من روعِه كان الظلام حالكًا من حولنا إلا أننا وصلنا وبكل سرعة نحو غرفة الجلوس دون التعثر بأي شيء ودون إبطاء...

- أين وضعتِ حزمة الشموع يا لميس..؟... هتف بي عادل رافعًا صوته وكأن عدم رؤيته ما حوله أفقده حاسة السمع.

- إنها في المخزن.

- أي مخزن هذا؟ لا يكون جوابك مبهمًا بالله عليكِ.

- العائد للمطبخ ولا وجود لمخزن آخر داخل المنزل... تذكرتُ الحالة التي نحن عليها ولا مجال للتصحيح أو الاستغراب، فأكملتُ مباشرة: إنها على أول طبقة من طبقات المخزن في أقصى الجهة اليمنى، بمجرد ما تمتد يدك صوب المكان الذي وصفتْ سيكون

بإمكانك تناولها، كذلك توجد علبة كبريت بقربها بل ملاصقة لها، أتصور أنني كنتُ موفقة لأكون محددة ودقيقة... قلتُ مع نفسي.
عاد عادل بعد لحظات، ويظهر أن شمعة وكبريت في يده وصلني هذا الإحساس من جراء صوت احتكاك عود الكبريت بعلبته، وهذا يعني محاولة إيقاد العود لإنارة الشمعة، تَعذَّر عليَّ رؤية ما بيد عادل لشدة الظلام تكررتْ محاولة إشعال عود الكبريت أكثر من مرة دون أن نرى نورًا يأتينا من شمعة... حاول كثيرًا عادل إلا أنها أبت وبإصرار، كلما قَرَّب النار من الشمعة لا تشتعل...

- من أين اشتريتِ هذه الشموع...؟!.. بربك أخبريني... صاح عادل بعصبية واضحة وبنفاذ صبر... أنا متأكد أنها من النوع الردئ... أبخلتِ بشراء نوعية أفضل لتوفير دريهمات يا لميس...؟!... هذا ما يجيدونه تُجَّارنا الأفاضل بالضبط بمثل هذه المواقف استيراد كل ما هو ردئ لتمتلئ جيوبهم أكثر وأكثر.
- ابقَ أنتَ مع الأولاد، وسأذهب أنا لأجلب غيرها علَّها تستجيب... قلتُ لعادل دون التعقيب على ما قال.
- احذري أرجوكِ.. فإن الظلام حالك... قالها عادل وهو متوتر جدًا.
- لا تخشى عليَّ، فأنا أستطيع تدبر أمري وتلمس طريقي.

رجعتُ ومعي شمعة أخرى، والبيت يهتز تحت وطأة القصف الشديد، وما إن قَربّتُ عود الثقاب من فتيلة الشمعة أُنيرت الغرفة وكأن الذي أنارها مصباح عالي الواطية، فقد انتشر وهجها لمساحة كبيرة أو هذا ما شعرنا به لشدة الظلام، وبحركة عفوية وتلقائية نظرتُ إلى الشمعة التي أحضرها عادل لأستطلع سبب رفْضَها الاشتعال، أخذتُ

أضحك قليلًا، ليزداد ضحكي كلما أعدتُ النظر إليها حتى أخذ مني الضحك مأخذًا حتى دمعتْ عيناي... سألني عادل عن سبب نوبة الضحك التي تملكتني... وأنا لا أستطيع التحكم بضحكتي ولا أقدر على الجواب...

- هنيئًا لكِ هذه الأعصاب وهذا المزاج في ظل هذه الظروف... قالها عادل بعصبية شديدة واستهجان...

- ضغطتُ على نفسي لأتكلم: إن الشمعة التي عاندتْ دونك ولم تلبّي طلبك ما هي إلا عصارة معجون حلاقة!... قلتُ جملتي بصوت مخنوق لشدة ضحكي... ضحك عادل كثيرًا وكذلك بسمان، مد عادل يده صوب ما تصوره شمعة فتأكَّد...

استمر القصف الجوي واستمرتْ معه نيران مقاوماتنا الأرضية، والأرض ترزخ تحت نيرهما حتى الخيوط الأولى للفجر، رنَّ التليفون خلال هذه الفترة لعدة مرات، كانتْ الاتصالات من الأهل والأقارب وبعض الأصدقاء للاطمئنان علينا والتأكد من سلامتنا وكذلك فعلنا، انتهتْ الوجبة الأولى من القصف... هدأ كل شيء، وكأن الحياة عادتْ طبيعية، تناولنا الإفطار وبكل ثقة هيَّأتُ بسمان للذهاب للمدرسة.. كيف لا؟، والامتحانات الشفوية قد بدأتْ منذ يوم أمس إلا أننا لم ندع حسَّان يلتحقُ بالدوام، وصلنا للمدرسة... لا وجود لطلاب يتجمهرون عند المدخل كعادتهم كل يوم... لم يعمل هذا المنظر على ثنينا عن مواصلة دربنا باتجاه المدرسة، دخلنا مع بسمان غرفة الإدارة للاستفسار من السيدة المديرة حول الوضع، فوجدنا الهيئة التدريسية متواجدة بأغلبها ليؤكدوا لأهالي الطلاب بأن

الامتحانات ستتوقف حاليًا وحتى إشعار آخر ليس من المعلوم متى... حتى يصلهم شيء عن طريق وزارة التربية والتعليم... عدنا أدراجنا، وكل شيء طبيعي عدا رنات التليفون هي غير الطبيعية... فلا يفتأ الهاتف بالرن كل دقيقة تقريبًا، البعض يعلمنا عن الأماكن المستهدفة بقصف الليلة المنصرمة، البعض يتناقش حول القصف ونوعيته ومصدر انطلاقه، تأثر عادل جدًا لسماعه عن بنايات معينة استهدفتْ بالقصف، وبدأ يذكر ويشرح عن مكانتها الهندسية، وتاريخ إنشائها ومن المعماريين المعروفين هو الذي قام بتصميمها، والأسى يحز بنفسه، وقد بان عليه الحزن والأسى.

رنَّ الهاتف، وهذه المرة النداء من شقيق عادل الصغير...

- كيف الحال؟... جاء صوته مرتعشًا...

- الحمد لله مازلنا بخير لحد الآن على الأقل... أجابه عادل...

- الوالد قد تدهورتْ حالته الصحية.

- واو.. وما هذا الخبر الجديد؟... أجاب عادل بمزاح...

- أحببتُ أن أُخبرك لكي تتدبر أمورك.

- لا بأس.. لا بأس، فأنا سأتدبر الأمور وحسب اتفاقنا... لا تقلق على العائلة اطمأن.

أنهى عادل المكالمة، وهو يبتسم... إن أخي يُنَفِّذ ما سبق واتفقنا عليه قبل عدة أيام...

- ليؤكد لك قيام الحرب.. أليس كذلك؟... هذا الاتفاق الذي أُبرم بينكما في بيتنا؟!... سألتُ عادل باستغراب...

- نعم إنه هو بعينه...

لقد اتفق عادل مع أخيه قبل أيام وهو يشغل منصب حساس بالدولة، وهذا يعني بأن تأكيد خبر قيام الحرب سيكون هو أول من يعلم به، وأن الشفرة هي (إن صحة والدهم تدهورتْ) للتمويه عبر الهاتف، فيبادر عادل بالتوجُّه لعائلة أخيه والذهاب بهم وبنا لمكان أكثر أمانًا.

بالأمس أردتَ إشعال معجون الحلاقة، واليوم يخبرنا أخوك بأن الحرب ستقوم بعد أن قامتْ بالفعل، فما الذي يجري بالضبط؟.

- هذا سؤال وجيه بالفعل يا لميس، فإن مكالمته جاءتْ متأخرة قليلًا؛ بل كثيرًا؛ فبعد الليلة الليلاء التي مرَّت بنا أمس لم يبقَ شخص لا يعرف بقيامها..(ضحك عادل بحيرة)... هلمي يا لميس بأخذ ما تريدين، وما تحتاجين إلى هناك، دون إبطاء رجاءً، فالوقت ليس بصالحنا.

- إلى هناك؟.. ماذا تقصد يا عادل؟... أنا لا أبرح مكاني هذا، ولستُ على استعداد للبهدلة، وهل سيتزعزع ثباتك بعد أول ليلة؟!...(أجبته وأنا رافضة ترك بيتي تحت أي ظرف)... أرجوك عادل دعنا نبقى هنا ونواجه ما كتب الله لنا...

- لا تفكري بنفسك فقط بل فكري بأولادنا، فإن بسمان لم يتسنَّ له النوم والذعر يسيطر عليه، ما ذنبهما ليقاسيا ما قاسا ليلة أمس؟!... سنذهب إلى بيت الأهل في كربلاء بعد أن نمر ببيت أخي لاصطحاب عائلته، وهذا كله تأخير فلا تزيدي التأخير علينا... لقد اتصلتُ بعائلة أخي لكن دون جواب لانشغال الخط ولا أعرف السبب على وجه التحديد.

لم يأخذ التحضير مني وقتًا طويلًا فإن كل التحضيرات مُعَّدة قبل أيام.

وما إن هممنا بركوب السيارة حتى بادرتنا موجة جديدة من القصف والملفت للنظر أن صوت صفارة الإنذار يبدأ بعد عدة دقائق من بدأ القصف!.. وبعد أن تكون الطائرات المقاتلة قد حجبتْ نور الشمس عنا، الظاهر أن التوقيت المحلي عندنا متأخر عن التوقيت العالمي، فهذه مكالمة أخ عادل وهذه الصفارة كلها متأخرة عن الواقع.

لقد انتابتْ حسان رعشة شديدة، أهي بسبب الخوف أم البرد أم الاثنان معًا؟.. لكنه يثير الشفقة والقلق... ضممته بين يدي وقد حملته رغم طول سيقانه وثقل وزنه إلا أنني حملته فإنه في حالة حرجة، الذعر بادٍ بوضوح في عيون بسمان...

- تأخرنا كثيرًا، كان علينا الخروج قبل هذا الوقت بكثير... قال عادل بحدة، فهو مَنْ يتحمل مسئولية عائلتين، وهو خلف مقود السيارة وقد أنهى حشر جميع ما نحتاج في صندوق السيارة...
- أعاودتِ الاتصال بزوجة أخي؟؛ لتكون متهيئة كي لا يدركنا الوقت فالطريق طويل من هنا إلى كربلاء فهو يستغرق حوالي ساعة ونصف في الحالات الاعتيادية ناهيكِ عن هذه الحالة.
- حاولتُ مرارًا إلا أن خطها مشغول على الدوام... أكيد باتصال مباشر ومستمر مع أهلها.
- أرجو ألا تجعلنا نتأخر أكثر من ذلك هي الأخرى.

كانتْ الأغطية والفرش فوق سقوف السيارات هي السمة الغالبة على كل السيارات المحاذية لنا في الشارع، السيارات تكاد تكون ملتصقة ببعضها البعض لشدة الزحام، لا ترى مسارات متوازية بل متداخلة دون أدنى نظام، وهذا كافٍ بأن يجعلك تعي خطورة الموقف فالكل

يحاول حشر نفسه بأي منفذ، ومهما كان صغير ليتقدم ولو لخطوة باتجاه ما يقصده من طريق حتى الأرصفة والأكتاف الترابية للطريق لم تسلم من عجلات السيارات، ليس الطريق هو وحده مَنْ حُمل أكثر من طاقته، وإنما السيارات أيضًا فقد حُشِر بها الأفراد والأغراض حتى تستطيع أن تشعر بثقلها وانخفاضها وقربها من الشارع بما لا يسمح لها بالمشي بصورة طبيعية، كل ما هو عراقي مُحمَّلٌ بأكثر من طاقته!.

توقفنا عن المسير تقريبًا لشدة الزحام وغالبية السيارات عمدتْ إلى إطفاء محركاتها حرصًا على الوقود فلا أحد يتكهن بما ستستغرقه رحلته للوصول لهدفه، خيَّمتْ فوق رءوسنا طائرة سمتية تُحلِق على ارتفاع منخفض جدًا بحيث نستطيع مشاهدة الشخص الذي يقبع خلف الرشاش ومراقبة حركاته وقد تعمد الإطلاق بعشوائية وعدائية ملفتة، على صوت صراخ وبكاء الأطفال وتمتمة النساء بذكر الله وصوت الرجال مستهجينين العملية، ومحاولين فتح الطريق بتوجيه السيارات للمرور من أي منفذ للتقليل من الاختناقات المرورية الحاصلة.

بعد مرور أكثر من خمس وأربعين دقيقة وصلنا لبيت أخ عادل، وهو لا يستغرق أكثر من عشر دقائق في الحالات الاعتيادية، لنجد العائلة على أهبة الاستعداد للمغادرة ولكن قد قرَّ قرارهم بالذهاب مع أهلها إلى مزرعتهم، فتوجهنا مباشرة للطريق المؤدي لكربلاء، وقد كان الزحام على أوجهِ بهذا الطريق والغارات تتكرر وتتنوع الطائرات والسمتيات بطرز متنوعة، وقد أُرفدنا بكل ما هو جديد بعالم الطيران الحربي... بعد حوالي ثلاث ساعات ونصف شارفنا على الوصول،

وقبل دخول المدينة.. وقبل أن تلوح لنا المآذن الذهبية العالية والتي تمتاز بها المدينة... سألتُ عادل:

- هل عنوان البيت معك؟.

- بالتأكيد.. فليس من طبعي النسيان.

تُهنا بدهاليز المنطقة القديمة، والشوارع الضيقة والتي لا تسمح إلا بمرور سيارة واحدة، مررنا بالبيوت الصغيرة المصممة على الطراز القديم، مع غياب لمادة الكونكريت ببنائها واقتصارها على الطابوق ومادة الجص، شرفاتها التقليدية المصنوعة من الخشب، تستطيع أن تتأكد من سير الحياة الطبيعية هنا!... الهدوء يلف المكان، الناس يمشون على رسلهم منهم مَنْ يتبضع حتى المقاهي غَصَّتْ بزائريها، فقد غابتْ عنها ملامح الحرب.

استطعنا أن نصل للبيت المطلوب بعد التوقف لعدة مرات والاستفسار من المارة عن العنوان المقصود، فغياب الترقيم في تسلسل معلوم يجبرك على السؤال للاستدلال على العنوان...

- كيف يتسنى لساعي البريد بالقيام بمهمته هنا مع هذه العشوائية؟... سألتُ عادل...

- إن كل سعاة البريد هنا هم من سُكَّان المنطقة والذين نشأوا وقضوا حياتهم في نفس المكان.

- أين نحن يا بابا؟... سأل بسمان باستغراب... أنا لا أرى مطاعم للهمبرجر هنا... من أين سنأكل لو أردنا الخروج والتنزه؟!. وأين هي البنايات الحلوة والعالية؟.

- هذا هو حال كل المناطق الجنوبية يا ولدي مهملة منذ خمس وعشرين سنة.. هنا لا وجود لمطاعم الهمبرجر، ولكن هنا مطاعم كثيرة للكباب اللذيذ والذي لا تجد له مثيلًا في بغداد.
- أنا لا أريد الكباب... أنت تعرف أني أحب الهمبرجر... (وكأنه أهم ما لديه بالحياة)...

وصلنا إلى البيت المنشود، وأخذنا في إفراغ حمولة السيارة المسكينة، البيت يعج بأعداد غفيرة من الناس كلهم من الأقارب الذين لم نتوقَّع وجودهم هنا، كانتْ من بين مَنْ تواجدوا الخالة أم علاء ومعها إحدى بناتها الثلاث، وقد قامتْ ماما بإفراد غرفة لهما فإن ابنة عمي قد وضعتْ طفلها الرضيع قبل ثلاثة أيام بالتحديد، وقد أجبرها الطاقم الطبي في مستشفى الولادة على مغادرتها للمكان فإنهم ليسوا على استعداد لتحمل مسئولية الأمهات والرضع، فتحاملتْ المسكينة على نفسها واجتازتْ الطريق الطويل للوصول إلى هنا...

الأجواء حميمية للغاية هنا، تبعث على الراحة والمرح في الوقت نفسه، فهنا لا وجود لأصوات القصف أو الصفارات مما يجعلهم يشعرون إلى حد كبير بأجواء الرحلات العائلية، الليل جميل وبارد جدًا وقد توزع الحاضرون إلى مجموعات تفترش كل واحدة منها زاوية من زوايا الصالة الرئيسية، كل منهم منشغل بلعبة معينة تلائم أعمارهم، وفي مثل هكذا أجواء تحلو معها تناول المشروبات الساخنة بكل أنواعها وعلى رأسها طبعًا الشاي بالإضافة للقهوة والنسكافية والهوت چوكلتْ للأطفال، كل هذا يقع على عاتق الشابات وهذا معناه مغادرتنا للغرفة المدفأة خارجين نحو باحة الدار، والتي

تخلو من السقف فالجو بارد والماء الجاري بالحنفية أبرد، وبما أن عدد الأقداح محدود وقليل نسبيًا بالقياس لعدد الأفراد، فيترتب علينا ومع كل وجبة غسلها لنقدم بها نوعًا آخر من المشروبات، وهذا يعني الانحناء فوق الحوض الموجود في منتصف الباحة والمنخفض جدًا عن قامتنا ورفع إحدى القدمين فوقه وترك الأخرى مثبتة على الأرض، وهذا الوضع المتعب للظهر علينا أن نمد يدنا تحت ماء يكاد يوخزنا من البرد كأنه رءوس الدبابيس، وبمثل نفس الوضع نضطر لغسل أشياء أخرى أثناء النهار، مثل: بعض قطع الملابس، وكذلك الصحون المستعملة بكل وجبات الأكل والتي زادتْ أعدادها هي الأخرى عن العدد المتعارف عليه وهي ثلاث وجبات، فإن التواجد في البيت دون شغل معين يشغل الرجال والأطفال جعل الطعام هو شغلهم الشاغل لتزداد الأعباء علينا، صحيح أن الأعمال قُسِّمتْ بيننا وبين السيدات الأكبر منا سنًا،، يقع على عاتقهنَّ طبخ الطعام، ويقع على عاتقنا غسل وتقطيع الخضروات والتنظيف، وهذا كله يستدعي دخول أيدينا وتعرُّضها للماء بصورة مستمرة... حتى الأطفال المساكين لم يسلموا من التعرض للماء البارد، وعلى الرغم من قيام الأمهات بتسخين كمية من الماء إلا أنه في كثير من الأحيان يشح بمنتصف المُهّمة مما يجعل الأم تكملها بالماء البارد؛ ليرتفع أثناءها صراخ الأطفال من ناحية وصراخ الرجال من ناحية أخرى مستهجنين ومستغربين قساوة قلب الأم!... وهم لا يفتأون يصفون قطع الدومينو لإعادة اللعب مرة أخرى.

إن عائلة أختي حنان تشغلُ بيتًا قريبًا من بيتنا يعود لأهل حمدي، وقد التم الجميع الأخوان والأخوات وعوائلهم به، وكثيرًا ما كنا نعمل

على زيارتهم، وكذلك هم... صعدتُ إلى الطابق العلوي لأتفقد ابنة عمي وطفلها، وأمارس هوايتي المفضلة بحمل الأطفال الرُّضع والاستئناس بصوتهم وحمحمتهم، إلا أن الخالة أم علاء قطعتْ علي متعتي لحاجتها لسرد آخر أخبار علاء، فبادرتها بالسؤال:

- خالتي العزيزة ألاحظ وجود خبر سعيد يختبئ بين ترددات صوتك، وأنا بأشد الحاجة لسماعه.

- تهللتْ أساريرها، وقالتْ: إن علاء رُزِقَ ببنت هي باكورة زواجه.

- آه.. ألف مبروك لكِ ولنا هذا الخبر السعيد، أصبحتِ جدة من ابنك هذه المرة، لكِ الحق وهنيئًا لكِ هذه الحفيدة الجديدة... ما اسمها؟...

- نور.. لقد أسمياها نور... وتكاد الفرحة تنط من عينيها...

- ليجعل الله كل أيامها نورًا.

- أراد علاء وزوجته فاطمة اسمًا لابنتهما لا يتغير بين اللفظ العربي والإنجليزي، وكما تعرفين فإن الشعب الاسترالي يتحدث الإنجليزية ويصعب عليهم لفظ بعض الحروف العربية.

- وهل هم مرتاحون بوجودهم هناك؟.

- كيف لا؟ يا بنيتي، الذي عانى الهروب تلو الهروب ومن بغداد حتى السليمانية وبعدها إيران؛ ليتنقل عبر دول كثيرة وعلى مدى سنوات وكلها بصورة غير شرعية، فيصل بعد كل هذا العناء إلى أستراليا، ويستقر ويعمل ويتزوج فهو لاجئ شرعي يحقُّ له ما يحق لابن البلد، وزوجته هي الأخرى لاجئة تدرس إدارة الأعمال؛ ليتوج كل هذا بمقدم ابنة جميلة، يقولون إن عينيها خضروان كلون عيون أبيها.

الواضح أن هذه النقطة شكلتْ لدى الخالة أم علاء أهمية قصوى...

- أكملتْ: أفبعد هذا كله وكل النِعم التي حباه الله بها لا يكون مرتاحًا.

- الحمد لله إنها كلها بركات دعائكِ له ورضاكِ عنه، ليكمل الله فرحتك بلقائه عن قريب.
- ليسمع منكِ الله يا حبيبتي. فلم يبقَ لدي مطلب سوى رؤيته وعائلته.

مرَّ علينا حوالي أسبوعين، وكل شيء هادئ وآمن، والأجواء مسلية، توجه خلالها الرجال إلى بغداد للوقوف على حالة بغداد والاطمئنان على المنازل وجلب ما ينقص عندنا من مؤن وغيرها، ومثل ما توقعنا فإن محطات توليد الكهرباء قد تعرَّضتْ لأضرار كبيرة من جراء استهدافها ولأكثر من مرة، وتعرَّضَتْ مخزونات مجمدات المنازل للتلف.

تعرضتُ إلى نزلة شعبية حادة من جراء المجهود العضلي الذي لم أعتد عليه، وكان من جملة الأقارب المصاحبة لنا ابن خالي وهو طبيب قديم، وقد تسلح بالكثير من العقاقير الضرورية إلا أنها لم تفلح مع سوء حالتي، قررتُ على إثرها العودة لبغداد رغم إلحاح الجميع بالتريث والعدول عن قراري، حاولتُ فعلًا الاستمرار وعلى هذا المنوال من طريقة المعيشة البدائية إلا أنني عجزتُ، ولم أستطع المقاومة أكثر فقدرتي قد انهارت تمامًا... وبعد عودتنا بيومين عرفتُ بأن عائلة أختي حنان قد عادتْ إلى بيتهم في بغداد كذلك ولنفس السبب تقريبًا، فَضَّل عادل الذهاب إليهم والبقاء معهم؛ لأن منطقتنا غير آمنة بالمرة، فوجود مجمع دور الوزراء على بعد خطوات منا، قرب برج الاتصالات، وجود محطة لتوليد الكهرباء غير بعيد عنا، دائرة للمخابرات.. كلها أهداف لغارات دول التحالف، وقد اطلعنا على لافتة سوداء كبيرة تنعي ثلاثة عشر فردًا من عائلة واحدة قضوا

بسقوط أحد الصواريخ فوق منزلهم مباشرة، هذا وغيره كان سببًا كافيًا لقرار عادل بمغادرة المنزل.

في بيت حمدي كل شيء محسوب له حساب دقيق، فهذه هي شخصية حمدي.. حتى الظلام أُكتسح بما يسمى (لوكس)، وهو قنديل يعمل بالنفط الأبيض يغذي فتيلة تتوهج بشدة مالئة المكان بضياء أبيض مريح للأعصاب، وقد وفر عددًا منه في كل أرجاء المنزل وعمل على تعليقه بسقف الغرفة لينتشر وهجه بكل أنحائها.. حتى عملية تحضير الخبز اللازم حولناها لمتعة أنا وحنان، فكنا نحضر العجين من الليل ونتركه؛ ليختمر فيكون جاهزًا عند الصباح، ونقوم بخبزه على المدفأة النفطية ونتمتع بمراقبة الرغيف وكيفية انتفاخه ونضوجه، لم نكتفِ بعمل الخبز فقط بل تعدَّى لحشوه بالجبن والقليل من الطماطم ورشة زعتر، فيكون رغيفًا غنيًا ولذيذًا نتناوله مع الشاي الساخن، وكثيرًا ما نكون خلف المدفأة عند بدء الغارات الليلية، فيطلب منا عادل وحمدي الكف عن الخبز وإطفاء المدافئ لئلا تكون أهدافًا للطائرات؛ لأننا نعمل في الطارمة الخارجية لكثرة الدخان المنبعث من عملية الخبز... أصوات مقدمي النشرات الإخبارية لا تنقطع من محطات الراديو، لتتداخل أحيانًا وتتقاطع عندما يكون حمدي وعادل يستمعان لمحطتين مختلفتين، ألعاب الورق، المنوبلي، الشطرنج لا تكاد تنقطع عند الأولاد؛ لنشارك معهم أنا وحنان أحيانًا كثيرة مع توفير أنواعًا من المُكسّرات والحَب وغيرها من المأكولات الخفيفة، والتي يُطلق عليها عند العراقيين (النمنمات)، فلا وجود لملل وخوف مع كل هذه الأجواء، حتى أننا تجاوزنا مرحلة الركون داخل الغرف أثناء الغارة بل تعدتْ للتوجُّه

لسطح المنزل لمراقبة الصاروخ عابرًا لرءوسنا متتبعين مساره، حتى أننا نميز بين نوع وآخر، حتى الطائرات فهذه الطائرة الشبح وتلك (اف ١٦) وغيرها وغيرها... وبذلك بددنا مخاوفنا.

أخذتْ مصادر الطاقة تنضب لعدم توافر الكهرباء فكل البدائل تقريبًا تعمل على النفط الأبيض، تدفئتنا، إنارتنا، خبزنا، حتى عملية الاستحمام تتم بواسطة تسخين الماء بوضع قدرٍ كبيرٍ فوق مدفأة نفطية داخل الحمَّام بصورة مستمرة، وبمجرد غليانه يدخل أحدنا ليستحم على أن تتكرر العملية وبالتسلسل لتشمل كل الموجودين وخلال يومين ليعود أول مَنْ استحم قبل يومين فيستحم وهكذا، ومَنْ لا يسنح له ظرفه بالاستحمام بموعده المحدد يكون عليه انتظار موعده بالدورة الجديدة!... وجهنا أولادنا لمراقبة مرور بائع النفط والذي يمر كفارس بعربة خشبية يجرها حصان كبير السن وأحيانًا كثيرة يُستبدل بحمار لارتفاع سعر الحصان، يقوم البائع بإعطاء إشارة باتتْ معروفة للجميع بالضرب بقضيب حديدي على صحن حديدي هو الآخر محدثًا رنَّة معينة خاصة بمادة النفط؛ لأن رنَّة أخرى مغايرة يُفهم منها أنه بائع أسطوانات الغاز اللازمة لتشغيل الطباخ الغازي... سمعنا صراخ أولادنا والركض باتجاه واحد، فهمنا من خلاله أن بائع النفط يمرُّ بشارعنا، إنها فرحة لا تضاهيها فرحة وإن كانتْ فرحة العيد... إنه النفط... اصطف أصحاب البيوت أو بالأحرى ما تبقى من أصحاب البيوت.. مع ما يتوفر لديهم من براميل بكل الأحجام والمقاسات، مستغلين مرور عربة النفط بخزانها الصغير نسبيًا، فإن كنت من أصحاب الحظوظ الكبيرة، وصل إليك البائع مع خزان يحتكم على كمية لا بأس بها، وكثيرًا ما ينتهي

المهرجان وأنت خالي الوفاض، تنتظر نصيبك من المهرجان التالي، صحيح إنه العجب العُجاب، ففي بلد النفط مفقود النفط.

عاد الأهل من كربلاء هم أيضًا، فإن بابا شعر بالضجر والقلق علينا فقرر العودة وكذلك عاد جميع مَنْ كانوا معهم، الأقدار تخطط لك وأنت خالي الذهن، وكل قناعتك بأنك أنت مَنْ تخطط حياتك.. إن أقدارك تدفعك باتجاه عمل ما أو التراجع عنه.. مرضي وقراري العودة إلى بغداد حدا بالجميع بعد ذلك إلى العودة.

جاءتنا الأخبار بعد أيام قلائل من عودتي وبعد يوم واحد فقط من عودة الباقين، أنه قد حدث ما لم يكن بالحسبان، وما لم يخطر على بال ففي ظل حاكم يحكم بالحديد والنار، وفي ظل أجواء الحرب وما آل إليه المناخ السياسي، والغياب الواضح والقصور في أداء الجيش والحكومة، فلا وجود لدفاع، من أي نوع يمكن أن يسمى دفاعًا عسكريًا، غياب تام لطائراتنا المقاتلة.. أين هم طيارونا والذين من أجلهم تنازلنا عن أحلامنا بعيش رغيد، أوبالأحرى قُرر عنا التنازل؟.. أين هم رجال اللواء المدرع العاشر؟ الذين ما إن تذكرهم يعمر قلبك الاطمئنان على مستقبل البلد العسكري، فهم رجال المهمات الصعبة، الويل والثبور لمَنْ يفكر مجرد التفكير بمنازلتهم، تمرُّ أيام الحرب ولا ذكر لهم ولا لأفعالهم ولا لردة فعل نسمع عنها عبر خبر بإسقاط طائرات للعدو، أو أي نوع من أنواع المقاومة.

في ظل هذا الإحباط انتفض الشعب في المحافظات الجنوبية على أمل إسقاط الحكومة عسكريًا لسقوطها السياسي، انتفض شبَّان هذه المحافظات بوجه التعسف والقرارات الفردية، والتي أوصلتْ البلاد

إلى حافة هاوية سحيقة لا قرار لها، إنه شيء خيالي حقًّا... مَنْ هم أولئك الشجعان الذين تجرأوا ووقفوا بصدور مفتوحة أمام نيران التسلط والجبروت؟ التي لا تتردد ولو للحظة بتوجيه نيرانها صوب قلوب فتية أنهك نبضها الحروب المتتالية، لم يُكتب لهذه القلوب النبض بحب ابنة الجيران أو ابنة العم؛ لتستقر رصاصة صغيرة زهيدة الثمن في أحد هذه القلوب الصغيرة؛ لتجبرها على التوقف عن النبض؛ ليبدأ قلب الأم المكلومة بالتسارع والاضطراب.

بدأتْ أنباء الانتفاضة تصل لمسامعنا، وبتسارع عجيب وعلى وشك سقوط الحكومة المركزية حتى في بغداد بعد أن استجاب مواطني بعض مناطق بغداد.

وفي ليلة، وبعدما قررنا العودة إلى بيتنا والذي يقع قبالة سكة الحديد الموصلة بين بغداد والبصرة مرورًا بالكثير من المحافظات الجنوبية وفي ليلة اكتستْ بالعتمة كسابقاتها من الليالي، جاءنا صوت القطار يهدر بسكون الليل، يشقُّ هذا السكون صوت لإطلاقات أعيرة نارية كثيفة! تُطلق من بنادق (كلاشنكوف)، لم نستطع فهم ما يجري ويدور بالخارج، وأول ما تبادر إلى أذهاننا وكان برفقتنا عائلة أخي عادل.. إنهم رجال الانتفاضة، خامرنا فرح أمل الخلاص!... انسحب عادل بهدوء نحو الباب الرئيسي ليستطلع الأمر.. عاد إلينا وهو يقول:
- لقد وصلوا.. بفرحة عارمة واضحة بجلاء في نبرة صوته، وإن ما يسقط من شعاع الفانوس النفطي على جهة من وجهه تستطيع أن تخبرنا وتؤكد لنا ما بان من نبرة صوته...
- تعني رجال الانتفاضة؟... سأله ماهر مستفسرًا...

- مَنْ غيرهم؟! إنهم يقفون على أبواب القاطرات على طول القطار يرفعون بنادقهم باتجاه السماء يطلقون الأعيرة فرحةً بالنصر والتغلب على الطغمة الحاكمة.

وبمجرد تفوهه بهذا المقطع من الكلام أخفض صوته...

سارعنا إلى الراديو نقلب بين محطاته الإخبارية العالمية علَّنا نسمع ما نود سماعه من أخبار، بعد التنقلات الكثيرة بين المحطات المختلفة لنسمع من الجميع فنستشف في نهاية المطاف الخبر الصحيح، فهمنا ما لم نكن نريد فهمه... وبعد أيام معدودة عرفنا بأن قوات التحالف سمحتْ لحاكمنا باستعمال الطائرات الحربية والدبابات لسحق الانتفاضة، نعم وجَّه طائراته ودباباته نحو أبناء شعبه ولم يوجِّهها للعدو.

بدأنا نسمع بمسميات مختلفة أُطلقتْ على الانتفاضة.. تمرُّد، غوغاء، صفحة الغدر والخيانة... زوروا الحقائق تمامًا مثلما فعل كل الطغاة بتزوير التاريخ، بمجرد تبديل اسم الانتفاضة إلى الغوغاء بُدِّل المعنى تمامًا وحُرِّف عن حقيقته، وبمنأى عن المسميات استطاع واأسفاه وبسهولة أن يحصد ويزهق أرواحهم الطاهرة، بل وعمد للتنكيل بمناطقهم وبأهلهم، فقُتل مَنْ قُتل وشُرِّد مَنْ حالفه الحظ واستطاع الهروب، قُصفتْ منازلهم بقساوة، حتى ضريح حفيد رسول الله وسيد الشهداء، والذي أشاد به العظماء من الرجال أمثال: غاندي وبرنادشو وغيرهم الكثير، لم ينجُ حتى ضريح لشهيد وهو صرح تاريخي ومَعْلَم سياحي جبار يتهافتْ عليه الزائرون من كل البلدان وحتى من غير المسلمين، فهم يأتون للوقوف على إبداعات المعماري والفني والحرفي الماهر من المحليين وغير المحليين.. حتى هذا الصرح

التراثي والسياحي لم يسلم من قاذفات الهاون بدك معالمه دون رحمة!... هل رحم الأحياء ليرحم الأموات؟!... كل مَنْ تلتقي معه فلا حديث له سوى حديث الفجيعة والنكبة التي حلَّتْ بتلك المناطق ومن ضمنها كربلاء... كيف قُتل الناس بالشوارع، ملاحقة من قُدِر لهم البقاء على قيد الحياة أينما حاولوا الفرار بأرواحهم وأرواح أطفالهم؟.. ساقوا الشبَّان من منازلهم لجهة مجهولة، لم يسمحوا للجرحى بدخول المستشفى الوحيد بالمدينة وأُجبرتْ الطواقم الطبية المتواجدة بعلاج جرحى المنظمات الحزبية فقط بعدما سيطر الجيش والحزب على هذا المستشفى.. الجثث بالعشرات تملأ شوارع المدينة، الجرحى يتلوون من الألم بلا معين، أثبتوا وبالدليل القاطع أنهم بحقٍّ أحفاد التتر المغول.
فكَّرتُ مع نفسي واسترجعتُ ذلك القرار المفاجئ وإصراري على ترك كربلاء والعودة لبغداد، لواجهنا نفس المصير من قتل أو زحف مع الآلاف الزاحفة باتجاه دول الجوار مستجيرين بهم ولا مجير لهم.

عشرات القصص المأساوية وصلتْ لأسماعنا ولو بعد عدة سنوات من حصولها، لتواجدنا في بغداد فكنا بمنأى عن سماعها في حينها، وهذه واحدة من القصص المؤثرة والتي طرقتْ مسامعي بعد حين... واحدة من هذه العوائل كانتْ مجتمعة مع عائلة أخرى وهي عائلة أخت الزوجة، مثلما تجمعنا نحن وعائلة حنان وكانت في إحدى المحافظات الجنوبية، وبدخول الأزمة ودخول الجيش العراقي لقمع الانتفاضة، والتي حدثتْ في شهر شعبان ولذلك سميتْ الانتفاضة الشعبانية، اقتحم أفراد الجيش المنازل وتعدوا على الأهالي واقتادوهم للشوارع غير آبهين لخوف الأطفال وذعر الأمهات، حدثتْ جلبة

كبيرة في الشوارع، دبابات وطائرات تحلِّق بارتفاعات منخفضة، رشق لإطلاقات نارية عشوائي، عوائل تتجه إلى حيث لا تعرف هذا يتجه نحو الشمال وآخر نحو الجنوب وفي خضم هذه الظروف كانتْ الأم مع أولادها الأربعة تُمسك بهم بعدما أجبروا على الخروج من المنزل بمعية خالتهم وأولادها، حدث ما لم يكن بالحسبان... فمع الخوف والجلبة الكبيرة في الشارع انقسمتْ العائلة على نفسها وبلحظة قصيرة بعمر الزمن طويلة على الأم، وإذا بإحدى ابنتيها والبالغة خمس سنوات من العمر أُفلتتْ من قبضتها!. شعرتْ بيد تمتد لابنتها وتسحبها بعيدًا عنها!.. سُحبتْ الأم بفعل الأمواج البشرية الزاحفة باتجاه معين لتغيب طفلتها عن ناظريها.. صرختْ مستغيثة، ولا من أحد يسمع صرختها فالأصوات المحيطة بها كانتْ أعلى من أن تُسمع صرختها.. لطمتْ خديها، بكتْ، حاولتْ الرجوع إلا أن زخم الحركة المحيطة بها دفعتْ بها إلى الاتجاه المعاكس، خارتْ قواها إلا أن خوفها على أولادها الثلاثة الباقيين أن يُسحقوا تحت الأقدام الزاحفة والأصوات الهادرة جعلها تتقوى على نفسها للحفاظ على مَنْ تبقى لها... سارتْ أيامًا وليالي وهي على ما هي عليه من حزن وألم مع بقية مَنْ سار باتجاه بلد مجاور، وقفوا على حدوده لمدة لا يعلم بها إلا الله، تكاثرتْ أعدادهم، زادتْ معاناتهم، شكلتْ حالتهم ظاهرة لا يمكن تجاهلها، ويجب التعامل معها خاصة بعد تدخل بعض المنظمات الإنسانية الدولية، ليُنشأ لهم مخيَّم في صحراء تلك الدولة الجارة؛ لتكشر عن أنيابها وتسقيهم العلقم، فقد اتخذتْ لهم مكان بمنتصف الصحراء حيث الأفاعي والعقارب أصحابهم، وهجير الرَّمضأ سقوفهم وحماتهم من الجنود لصوصهم.. تقطعتْ بهم السبل،

لكن رمال الصحراء وجفافها خجلتْ من إصرارهم وإقبالهم على الحياة وأبتْ إلا أن تتحول إلى واحة كبيرة خضراء، عملوا على رفد حياتهم المهمشة بكل ما هو حي، زوجوا فيما بينهم شبَّانهم بشاباتهم، زرعوا أرضهم بما وصلتْ أيديهم إليه من بذور، انطبقتْ عليهم.. مقولة الشاعر الذي يقول: "إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر".. لم تيأس الأم المسكينة من العمل حثيثًا؛ لمعرفة مصير طفلتها التي تاهت عنها، سنين وهي لا تفتأ تسأل وتتبع أي خبر، حتى تيقنتْ من الخبر الذي وصلتْ إليه (ولا أقول وصل إليها) فإن طفلتها مع خالتها في العراق!... وكانت يد خالتها هي تلك اليد التي سحبتها بعد ما حال عدد من قوات الجيش بين الطفلة ووالدتها فخافتْ الخالة على مصير مظلم بانتظار الطفلة، فيما لو تاهتْ عن الاثنتين الأم والخالة... حاولتْ الخالة بكل ما تأتى لها من شجاعة وصوت أن تخبر أختها بنفس اللحظة؛ لتطمئنها إلا أن حالة الهرج والمرج حالتْ دون ذلك.

عاد كل شيء في البلد إلى ما كان عليه... توقفتْ الحرب، انقطعتْ الغارات، سكتتْ المدافع والصواريخ، اللافتات السوداء مزقها الهواء، فتحتْ المدارس أبوابها بعد توقف ليس بالقليل، توافد الطلاب بأعداد قليلة... منهم مَنْ لم يعد بعد إلى البلد وفضَّل التريث والبقاء في دول الجوار، ومنهم مَنْ لا يزال الخوف متملكًا قلوب ذويهم.

(١٦)

شيء ما انكسر بداخلنا!... لم نعد مثلما كنا، أينما تتوجه تصدمك البنايات المدمرة من جراء القصف، بيوت بأكملها أصبحتْ خرابًا، حتى مَنْ سَلِمَ من البنايات من الدمار الكامل ولا زالتْ عامرة بساكنيها لم تسلم من آثار الحرب، ثقوب كبيرة وعديدة تخترق الجدران، فطور وتشققات تراها بوضوح على الواجهات، لم يعد لون البيوت كما كان سابقًا، فلون البارود امتص نقاوة اللون وتركه أدكن، قاتمًا، كئيبًا، تهشَّم زجاج النوافذ السمة الغالبة لكل المباني، وهنا تذكرتُ الممثل العظيم (جارلي جابلن) في أحد أفلامه، وهو يدفع بصبي صغير وبحركة الفيلم السريعة المعهودة لأفلام هذا الممثل، يرمي بحجر على شبابيك المنازل فيأتي هو ويقوم بتصليحه؛ ليحصل على أجر يسد جزءًا من متطلباته الحياتية، لو عاش معنا اليوم لما تعمد تهشيم النوافذ فكل شيء معد وجاهز لصاحب هذه المهنة... هل يجوز يا ترى أن يكون "جارلي جابلن" هو مَنْ وراء هذه الحرب؟!.. إنه الاحتمال الأقوى وراء قيام هذه الحرب!... ألم يعد من الغريب علينا أن نتحير ونفكر طويلًا لإيجاد سبب مقنع وراء حروبنا.

نعم انتهتْ الحرب!... لتبدأ حرب جديدة من نوع آخر أشرس من سابقتها... هي حربنا مع القوت اليومي، فقد فُرض علينا حصار دولي بموجب قرار للأمم المتحدة، كذلك ضُرب طوق أمني حول المنطقة الشمالية من البلد لحماية الأكراد من بطش الحكومة المركزية في بغداد بسبب طول معاناته وما تعرَّض وما تعرَّضوا له.

قبل نهاية الحرب مع إيران، وحيث المنطقة الشمالية محاذية لإيران تخوف الحاكم من تزايد قوة تمرُّد الشعب الكردي، فقرر إنهاء هذه الصفحة المرعبة له ولحكمه فقد شعر بالهلع من تنامي الصوت الكردي، وكل مَنْ يشعر بالهلع يندفع إلى أعمال لا تمتْ للمنطق بصلة، فقد عيَّن ابن عمه وهو شخص أُمي لم يكمل حتى الدراسة المتوسطة!... ومثله الكثير في مواقع حساسة بحكومتنا (الموقرة) عَيَّنَهُ مسئولًا حزبيًّا وعسكريًّا عن المنطقة الشمالية، ومنحه صلاحيات غير محددة ومطلقة باتخاذ أي قرار يراه مناسبًا؛ لقمع ما أسموه التمرد الكردي.. كان هذا في شهر شباط من عام ١٩٨٨م، خططوا وبكل جدية وبكل ما تأتى لهم من قسوة مدعومة بكل أنواع الأسلحة، عملوا على إطفاء جذوة الحرية التي راودتْ الشعب الكردي، نفذوا حملة عسكرية على عدة مراحل وبفترات زمنية متعاقبة، أطلقوا عليها اسم "حملة الأنفال" كان الهدف منها تبديل دمغرافية المنطقة، وذلك بالإبعاد القسري لآلاف العوائل من بيوتهم وإجبارهم على التوجُّه إلى جنوب البلاد...

ويحضرني في هذا السياق منظر أتذكره دائمًا كنتُ قد رأيته مرة، ونحن نقوم بزيارة العتبات المقدسة في كربلاء، وقبل الوصول إلى هناك طلب بابا منا التوقف قليلًا وزيارة معْلَمًا دينيًا وتاريخيًا قديمًا جدًا وقد أهمل بشكل ملحوظ، وهو مقام نبي الله ذو الكفل، استغربنا وجود عائلة تسكن هذا المكان المتهالك من القدم، ومما لفتَ انتباهنا هو الزي الكردي الذي ترتديه السيدة ومن الواضح أنهم يقيمون بهذا المكان منذ مدة!.. وعند خروجنا من المكان توجهنا بالسؤال إلى

الرجال؛ لمعرفة ماهية ما رأينا من غرابة، جاءنا الجواب إنهم إحدى ضحايا حملة الأنفال!... ليزيدوا غرابتنا غرابة... أقدموا أيضًا على تشجيع الكثير من العوائل العربية على السكن في المناطق الكردية بمنحهم قطعًا سكنية ومبلغًا من المال لمساعدتهم على البناء هناك، وكان من ضمن هؤلاء الأشخاص شخص نعرفه تمام المعرفة استفاد من هذه المنح؛ ليكمل بناء داره في كركوك بالتحديد، ويعمل على استئجارها لعائلة أخرى والاستفادة من المال، ولم يذهب بعائلته لهناك رغم أن السجل المدني التابع لهم قد نُقل إلى دائرة الجنسية بكركوك، والهدف وراء كل هذه العملية هو زيادة نسبة العرب هناك.. قبضوا على الآلاف من الشبَّان الكردي وساقوهم لمكان مجهول، ولم يعثر عليهم أبدًا حتى بعد فترة طويلة، تمامًا كما فعل مع شبَّان المنطقة الجنوبية!... دمروا حوالي ألفين قرية عن بكرة أبيها وحرق المزارع، سد مسارات المياه المستعملة بسقي المزارع، وبعد كل هذا توجوا مملكة القسوة والكراهية بأقدامهم وبدم بارد على قصف مدينة بالأسلحة الكيمياوية، وقتل ما لا يقل عن خمسة آلاف شخصًا مدنيًا في منطقة حلبچة!.. بينهم بالتأكيد الأطفال والنساء والشيوخ دون استثناء.. ناهيك عن الآثار التي تترتَّب على خلفية استعمال الأسلحة الكيمياوية من آثار طويلة الأمد على الحرث والنسل، دخل بفعلته هذه التاريخ من أبوابه السود القذرة؛ ليكون هو أول حاكم يقدم على استعمال هذا النوع من الأسلحة وضد شعبه!..
إن هذه الحملة بدأتْ بشهر شباط لتنتهي بشهر كانون الأول من العام نفسه، لذلك تم اتخاذ القرار الدولي بتحريم تحليق الطائرات شمال

خط اثنان وثلاثين لحماية الشعب هناك، وبذلك تقلص نفوذ الحكومة المركزية هناك، فَطُويتْ صفحة الألم والمعاناة لتبدأ صفحة العمل على بناء وتطوير المنطقة.. تمرُّ الأيام والأشهر تنصرم، ورائحة الأزمة تفوح من كل مفاصل الحياة في البلد، لم يعد أي شيء إلى سابق عهده، بدءًا من الرغيف مرورًا بالدينار وصولًا لنفسية الفرد.

• • • •

شهر حزيران من عام ١٩٩١م...
تصميم بيتنا في منطقة القادسية كتصميم جُلّ بيوت بغداد في تلك الفترة الزمنية، وهي سبعينيات القرن الماضي، فإن مرآب السيارة مع الحديقة يحتلان واجهة المنزل لتطل عليهما صالة المنزل الرئيسية والمدخل المؤدي للدار، ومن خلال فكرة تصميمية اتخذتْ من مقولة "سحقًا للراحة والخصوصية" جعلتُ غرفة النوم الرئيسية تطل على مرآب السيارة فتفتح شبابيكها على المرآب!.. وبهذه الغرفة كان نومنا؛ لنشعر بكل ما يحدث بالشارع من مرور القطار، لغط الناس وهم يمرون من أمام البيت، حركة السيارات، صوت بائع الخضروات إلى صوت زميله بائع السمك، وكذلك رنَّة بائع أسطوانات الغاز وغيرهم الكثير.

كانتْ سيارتنا تقف في المرآب مقابل شباك غرفة النوم، اتجهتُ لها بعد أن أكملنا تحضيراتنا للخروج على أن نترك الأولاد في بيت أهلي.. فأذهب أنا إلى البوتيك ومعي ماما، وعادل إلى الجامعة.. وأنا أنظف زجاج السيارة سمعتُ طرقًا على زجاج غرفة النوم من

الداخل، التفتُ ناحية الصوت لأرى عادل بحالة غير طبيعية، وهو ينقر بمفتاح معه على النافذة محاولًا لفت انتباهي، تركتُ ما بيدي وركضتُ مسرعةً إلى داخل المنزل باتجاه غرفة النوم، رأيتُ عادل يشد بيده على صدره، مؤشرًا بيديه باتجاه مبردة الهواء طالبًا مني توفير الهواء الكافي، فهو غير قادر على التنفس!.. محاولًا بذات الوقت فك ربطة عنقه وأزرار القميص... قمتُ بفتح الشبابيك ومبردة الهواء فإن الجو بالغرفة خانق فعلًا، الحر شديد والهواء جاف، أخذ عادل يتلوى من ألم يبدو أنه شديد في منطقة صدره، قمتُ بدلًا عنه بفتح ربطة عنقه وأزرار القميص لعدم قدرته على ذلك، وما إن مددتُ يدي على قميصه حتى تفاجأتْ بتبلله بشكل كبير، وكذلك كانتْ جبهته وذراعيه فقد غطاها البلل!، عرق كثيف وبارد جدًا... شحب لون وجهه استمر على ما هو عليه لدقائق، شعر بعدها بالتحسُّن، قمتُ باستبدال القميص المبلل بآخر، قام مسرعًا متجهًا صوب السيارة فقد تأخر عن الجامعة وعن امتحانات الطلاب!.. حاولتُ جاهدة أن أثنيه عن عزمه للالتحاق بدوامه والذهاب بدلًا عنه إلى المستشفى أو أن أطلب له طبيبًا للوقوف على حالته إلا أنه رفض أي مقترح من شأنه التأخر عن الامتحانات النهائية... أوصلته للجامعة وأكملتُ طريقي إلى بيت أهلي واصطحبتُ ماما معي متوجهين إلى البوتيك... حدثتُ ماما حول ما تعرَّض له عادل صباح اليوم، أنَّبتني كثيرًا على مجاراتي له وتركه يذهب للدوام دون عرضه على الطبيب... دخل علينا زبون فتوقفنا عن الكلام، توجه نحونا، وقال:

- السيدة لميس؟... مستفسرًا عني بكل احترام وجدية تبدو على كل ملامحه.

- نعم أنا لميس.. تفضل سيدي.. ومَنْ حضرتك؟

- أنا أستاذ زميل للدكتور عادل.. عرِّف نفسه متوجِّسًا...

- أهلًا وسهلًا.. أي خدمة أستطيع تقديمها لك... إلا أنني بدأتُ أتهيأ لسماع خبر ما فكل شيء فيه يخبر عن حدوث شيء ما.

- أنا جئتُ لأخبرك بأن الدكتور قد تعرَّض لألم حاد بصدره مما استدعى نقله إلى المستشفى.

- أتقول مستشفى...؟!... سألته متلهفة لسماع تكملة الخبر...

- لا تقلقي يا سيدتي فحالته مستقرة، وهو الآن في غرفة الإنعاش.

- إنه يقول في غرفة الإنعاش يا ماما!.. عادل الآن في غرفة الإنعاش... وهذا يعني خطورة الحالة التي هو بها.

- لا تبالغي يا سيدتي إنه بخير.. أترغبين باصطحابك إلى هناك؟... بعدما لاحظ حركتي العصبية، وأنا أسحب حقيبة يدي من الجارور وأخرج منها مفتاح السيارة بصدد الخروج.

- سأذهب بسيارتي بعد أن تخبرني حضرتك باسم المستشفى.

- إنه في مستشفى ابن النفيس.. طبعًا الخاصة بأمراض القلب... أتوقع معرفتكِ لها... أجاب وهو متأكد من معرفتي لها فلا وجود لمستشفى آخر، إنها الوحيدة في كل قاطع الرُّصافة متخصصة في أمراض القلب والشرايين...

- أنا أعرفها أكيد، شاكرة لك مجهودك.

- أتمنى له السلامة، وأرجو أن تكوني حذرة أثناء السياقة، فحالتك النفسية مُتعبة والشوارع مزدحمة في مثل هذا الوقت، أكيد ستصحبينها يا سيدتي... التفتَ صوب ماما موجِّهًا لها بالكلام...

- لا تقلق أنا معها، نشكر لك موقفك... أجابته ماما بكل احترام.

وصلنا إلى المستشفى وبعد السؤال وصلنا صالة الإنعاش، ولكن وبالطبع مُنعنا من الدخول، إنه القانون المُتَّبع.. سألتُ عن دكتورة معينة هي صديقة وزميلة الدراسة لأختي نهى تعمل في هذا المستشفى، أردتُ أن أقف على حقيقة الوضع الصحي لعادل، طمأنتني عن حالته وأكدتْ لي أنه تحت إشراف مباشر من قِبل أحد أفضل الأطباء الاختصاصيين بالقلب والشرايين على صعيد البلد، وهو الدكتور/ جعفر الكويتي... ومَنْ لم يسمع بهذا الاسم المدوي.

- وما تشخيصه لحالة عادل؟... سألتها ماما...

- إنها ذبحة صدرية غير مستقرة يا خالة... أجابتْ الدكتورة...

- اسمحي لي بالدخول عليه ولو لدقيقة، ولن أنطق بكلمة واحدة أعاهدك على ذلك.. فقط ليعرف بأني بقُربه.

- هذا ليس من صلاحياتي كما تعلمين يا لميس، ولكن سأحاول الحصول لكِ على إذن من الطبيب المشرف، فأنا أعمل بمعيته... أجابتني الدكتورة وهي متأكدة بأنها ستحصل على الإذن بالدخول عليه.

- أقدِّر لكِ هذا يا عزيزتي.

إنهم يوصلون صدر عادل بعدة أجهزة.. أسلاك بألوان عديدة ومختلفة ترتبط بأجهزة ثُبِّتتْ على لوحة مُعلّقة على الجدار خلف السرير، كلها تعمل لمراقبة أداءعمل القلب والضغط وغيرها لا أعرف كنهها... لم يكن نائمًا؛ لذا مددتُ يدي لألمس يده بهدوء، ابتسم لي، وما إن هَمَّ بالكلام حتى بادرته بإشارة برأسي أفهمته بأن الكلام ممنوع عليه وعلي فاستجاب... عملتُ جاهدة لأُظهر قوتي وصلابتي ونجحتُ... فإن منظره يبعث على الحزن والخوف والقلق.

رقد ليلتين متتاليتين وبعدها خرج ليعود للبيت على أن يلازم السرير لمدة أربعين يومًا لا يبرحه إلا لقضاء الحاجة فقط، وكذلك أنا لم أبرح البيت ولا حتى للتسوق، فإن الأهل التزموا هذا الجانب، لم يخلُ الدار من الزوّار، فعملتُ على تنسيق دخولهم عليه مع الحرص على تذكيرهم بقلة الكلام خوفًا من الرد عليهم، حمدًا لله فإن الكل كان متفهمًا لمطلبي فهو مطلب طبيبه المشرف، حتى أن الكثير منهم اكتفى بالبقاء بصالة الضيوف وعدم الدخول عليه في غرفته، إنهم هنا فقط ليؤدوا واجب عيادة المريض المفروضة دينيًا واجتماعيًا، إنها أيام صعبة حقًّا، وضعتُ بجانبه جرسًا معدنيًا يدويًا كنا قد جلبناه برحلة شهر العسل كتذكار من أحد البلدان التي زرناها، فيسهل عليه الطلب ورائي حين احتياجه لأي شيء، فإن المسافة بين غرفة النوم والمطبخ كبيرة جدًا، أو حين تواجدي مع الزوار بغرفة الضيوف.

من ضمن الزوار الذين حضروا لزيارته صديقتي سوسن.. نعم لقد كنا نتواصل عبر الهاتف بعد أن عادتْ الهواتف للخدمة بعد تعرُّضها للقصف الجوي أثناء الحرب، كان الهم والتعب هما الصفتان الحليفتان لوجهها، وغادرته الابتسامة الحلوة والتي كانتْ ملازمة لوجهها الطفولي... كيف لا؟ وقد مرَّت ما يقارب العشر سنوات على مغادرة جميل البلد!.. ياه إنها الأشهر والسنين التي تمرُّ كدولاب ليس له توقف، عشر سنوات تمرُّ وكلها معاناة ومحاولات مُضنية للتغلب على قَدَرٍ كُتبَ له أن يستمر..!، فكانتْ نهايته الطلاق الرسمي فهو الحل الأخير والمنطقي لحالتهما المتأرجحة عبر السنين.. لم أشأ أن أسألها: لماذا لم يعد للبلد بعد انتهاء الحروب؟؛ لأني أعرف جواب

سؤالي، فإن حكمًا بالإعدام غيابيًا صدر بحقه وبحق كل مَنْ كان بنفس موقفه!... وبذلك أُسدل الستار على قصة حب بدتْ سريعًا وانتهتْ سريعًا، فليس كل المسرحيات تنتهي بلقاء البطل بالبطلة والعيش بسعادة... وما أكثر مثل هذه النهايات الدرامية في بلد قدره الحروب.

• • • •

عادة ما تُبرَمُ اتفاقيات مختلفة الأهداف بين البلدان... أبرمتْ وزارة التعليم العالي والبحث العلمي اتفاقية مع مثيلتها في الجزائر، وهو اتفاق تعاون مشترك بين البلدين، فقد كانتْ الجزائر بحاجة لأساتذة جامعيين يدرِّسون باللغة العربية، وبلدنا وكعادته دائم العطاء للجيران والأصدقاء.. عملًا بحديث الرسول الأعظم (جارك ثم جارك)، وأكيد بعد أن يكتفي أهلك!...قررتْ الوزارة أن تبعث بخمس وسبعين أستاذًا على سبيل الإعارة من عموم القطر، وهذا يعني أن يحصل الأستاذ على راتبه من قِبل الجانب الجزائري فقط، وبذلك تتخلص الوزارة (الموقرة) من رواتب عددًا لا يُستهان به من ذوي الكفاءات، والتي بذلتْ الكثير بحينها لإغرائهم بالرجوع إلى البلد إبان السبعينيات!... أما طريقة اختيار مَنْ ستبعث بهم فهي الأدهى والأمر بالموضوع، فقد أبرقتْ الوزارة تعليماتها لرؤساء الجامعات والأقسام بترشيح الأساتذة على أساس كفاءتهم.. درجتهم العلمية.. عدد ما قدَّموه من بحوث خلال مسيرتهم التعليمية.. عدد كتب الشكر التي حصل عليها.. إخلاصه بعمله.. التزامه بالدوام... خلاصة القول إنهم نخبة

من حملة درجة الأستاذية... ولأكن منصفة فإن الدولة تعلم حقَّ اليقين أن كل الأساتذة كانوا يتمنون السفر للخلاص من الوضع المتردي للبلد هذا أولًا، وعدم مقدرتها على توفير العيش الكريم والمستوى اللائق بهم هذا ثانيًا وبما أن هذه الإعارة كانتْ تُعتبر بمثابة تكريم فمن العدل أن يحصل عليها مَنْ أعطى أكثر.. وفي مثل معادلة صعبة كهذه خسرتْ الدولة خمسًا وسبعين شخصًا من خيرة أساتذتها، كان عادل من ضمنهم، فقد كانتْ منحة وهبة من الله لنا... فإن الوضع الصحي لعادل بأمس الحاجة للتغيير والابتعاد عن كل ما يندرج تحت مسمى معاناة... بتوفير متطلبات الحياة ضمن راتب محدود لا يليق أن يتقاضاه أبسط عامل في أيَّة دولة جارة... ولا نتجرأ المقارنة بأيَّة دولة متقدمة... استلمنا الأمر الوزاري القاضي بالسفر بشهر تشرين الثاني عام ١٩٩١م دون تحديد اليوم.

احتفلنا بعيد ميلاد حسان والمصادف ١٩٩١/١١/٢٢م قبل موعده ليكون احتفالًا مشتركًا مع عيد ميلاد كل من ابنة خالته حنان وزوجة عمه ماهر، فكلهم مولودون بشهر تشرين الثاني، كان احتفالًا صغيرًا عائليًا حميمًا، كنا نغني على أنغام الأورك التي تنساب من مفاتيح الآلة والأنامل الذهبية لعلي ابن أختي حنان، وهو طالب بكلية طب بغداد علم نفسه العزف دون معلم مختص... أُخبرنا بموعد السفر فهو يوم ١٩٩١/١١/٢٣م من مطار الأردن باتجاه مطار الجزائر!... لا عجب فإن مطارنا معطل بسبب منع الطيران منه وإليه بموجب قرار أُممي، كان يترتب على هذا القرار سفر أي مواطن عراقي إلى الأردن برًا وبعدها يتوجه إلى أي مكان بالعالم بعد أن يكون قد حصل

على التأشيرة، والتي هي بمثابة ضرب من ضروب الخيال لأي عراقي... فإنه غير مُرَحَّب به ولا بجوازهِ، صحيح أن قرارًا دوليًا صدر بعدم منع السفر على الشعب لكنه مُنع بطريقة أخرى!.. ليكون الله بعون هذا الشعب.

أنهينا تحضيراتنا لرحلة طويلة بكل المقاييس... أربع عشرة ساعة هي طول مدة السفر برًا من بغداد إلى عمان... سنتان إلى ثلاث سنوات هي مدة الإعارة... لذا فإنها رحلة طويلة بكل المقاييس... أهم خطوة من خطوات التحضيرات هي تصديق الشهادات الدراسية للأولاد، تخزين الأثاث في غرفة واحدة ليتسنى لحمدي من بعدنا العمل على تأجير المنزل؛ للحصول على شيء من المال لسد ما بذمتنا من ديون وإن كانت بسيطة، هذا من ناحية والمحافظة على الدار من عبث العابثين فيما لو تُركتْ الدار فارغة، حزم أمتعتنا الكثيرة!.. فنحن متوجهون لمجهول... فلم نسمع من أي طرف حول الحياة هناك، كل هذه المهام أتممناها خلال أسبوع واحد فقط ولم نستطع إنجازه لولا مساعدة الأهل والأصدقاء والوقوف لجانبنا بكل ما نحتاج ودون أن نطلب، وفي مثل هذه الظروف العصيبة ودائمًا ما أصاب بنزلة شعبية شديدة، وفوق كل هذه الظروف المتعبة كانتْ السعادة بادية علينا... أهم ما جعلنا نشعر بالسعادة هو توجهنا إلى مكتب الجوازات وسماعنا لصوت الختم وهو ينزل على الجواز.. مشيرًا لانتهاء معاملة تسمح لنا بالسفر.. وهو صوت لم ننعم بالاستماع إليه والاستئناس بنغمته منذ عشر سنوات... مرَّ بذهني كل ما من شأنه تسهيل طريق السفر البري مع طفلين وبالتأكيد نوع

الطعام... إنها الشطائر لا محالة.. لكن السؤال يكمن بماهية الشطيرة التي ممكن لها أن تُؤكل حتى وهي باردة؟.. فكان الجواب هو بعض الأجبان والدجاج المسلوق... حضرتني هنا الأغنية المعروفة لمطربنا المشهور فاضل عواد (تريد مني التفاح ومنين أجيب التفاح) فيا ترى من أين لي بالدجاج!.. فهو يعد من الكماليات الآن... الظاهر أن هذا الأسبوع هو أسبوع الحظ لنا.. مثل ما تتحدث به الأبراج على أنها تقول يوم الحظ ولا تقول أسبوع الحظ.. منحونا دجاجتين مجمدتين ضمن مفردات البطاقة التموينية لهذا الشهر فقط، وهي منحة من سيادته... تحننا منه على شعبه... فالشكر كل الشكر على مكرمته والتي لا تُقدر بثمن.

(١٧)

الساعة التاسعة مساءً.. والبيت يغصُّ بالمودعين والذين يفترشون الأرض والسلالم لخلو البيت من الأثاث، ونحن بانتظار سيارة (جي ام سي)، وهي المتداولة عندنا الآن لغرض السفر من بغداد إلى عمان، وقد بدأتْ نوبة البكاء منذ عدة ساعات تنتابنا نحن الأخوات الأربع وماما بسبب الفراق الطويل الذي ينتظرنا... كلما التقتْ عيني بعين ماما تنزل دموعي دون استئذان، كيف لا؟ وهذه هي المرة الأولى التي سنفترق لمدة طويلة.

وصلتْ السيارة في موعدها المتوقع تقريبًا، وكانت تقل عائلة الدكتور ماجد، وهو زميل لعادل في نفس الجامعة، حزم عادل وبمساعدة الموجودين وسائق السيارة أمتعتنا على ظهر السيارة، ولم يطاوع بسمان أباه بحزم مضرب التنس الخاص به فوق السيارة لمعزته به، فهو يتدرب على هذه اللعبة منذ أكثر من ثلاث سنوات بعد تشجيعي له على محبة اللعبة، وقد اضطررنا للطلب من صديق بجلب مضربًا خاصًا بالأطفال خفيف الوزن من الأردن لافتقار البلد لهذه الأنواع من المضارب... إن مَنْ يعتبر الدجاج مكرمة لا يستحق التفكير ولمجرد التفكير بممارسة ألعاب النخبة... احتفظ بمضربه معه داخل السيارة، عملتْ أختي حنان بتهيئة جرة من الماء لتدلقها خلف السيارة التي تقلنا إلى عمان، وهذه عادة قديمة جرَّتْ للاعتقاد بأن سكب الماء خلف المسافر يعيده لبلده.. لا يتطلب مني الكثير من الذكاء والفراسة العربية لمعرفة أن السيدة الموجودة بالسيارة قد

عانتْ ما عانيته من ألم الفراق!.. فقد كانتْ عيناها متورمتين واحمرَّتْ أرنبة أنفها، وهي زاهدة عن الكلام مكتفية بإلقاء التحية وتبادل جمل التعارف الجامدة، اتجهتْ كل منا بنظرها باتجاه الشارع من خلال النافذة القريبة منها، وكانتْ حالة الرجال مختلفة تمامًا فهم زملاء وعلى معرفة مسبقًا، وكان حديثهم يدور حول المستمسكات والأوراق الرسمية المتوقع احتياجنا لها وتذكير أحدهما الآخر بها ليلتزموا بعدها الصمت، فإن ما مرّوا به خلال الأيام الأخيرة من تعب قد أعياهما.

مرَّت حوالي ثلاث ساعات على بدء الرحلة، وسائقنا يعبّ الطريق عبًّا بسرعة تُقدَّر حوالي مائة وأربعين كيلومترًا بالساعة...

ـ أنا أشعر بالجوع يا ماما... قال حسان...

ـ وأنا أيضًا... قالها بهدوء بسمان خجلًا...

اقترب أحد أولاد العائلة الثانية من أمه وهمس بأذنها كلمات غير مسموعة إلا أنها مفهومة فهو جائع أيضًا...

أخرجنا ما أحضرنا من شطائر، مدتْ السيدة يدها بشطيرة باتجاه بسمان، وقالتْ:

ـ تفضل حبيبي.. خذ مني، لا تخجل... خفضتْ صوتها قليلًا خوفًا من سماع السائق لها، وقالتْ بسخرية واضحة: خذ يا حبيبي إنها شطائر المكرمة... وابتسمتْ...

ارتفع صوت زوجي بضحكة سرعان ما كبتها خوفًا من السائق هو الآخر، مما اضطر زوجها للتكلم بجدية مبالغ بها لإيهام السائق:

- إنها مبادرة كريمة حقًّا من قِبله، فإنه يفكر عنا بما هو مطلوب... نِعم الحاكم هو.
أجادتْ الحكومة في تكميم الأفواه... زرعتْ الخوف والشك بنفس كل مواطن ومن أي مواطن.

وصلنا الجزائر العاصمة بعدما أمضينا ليلتين في عمان لتقلنا طائرة استؤجرت خصيصًا لنقلنا إلى الجزائر نزلنا على أرض المطار والمفاجأة الكبيرة كانتْ أن السفير العراقي ووفد من السفارة كان باستقبالنا!... شيء لم نتوقع حدوثه، فنادرًا ما يهتم أعضاء من سفارتنا بمواطنيهم!... فأحسسنا بأهميتنا، فالقناعة المترسخة في نفوس العراقيين أن سفاراتنا حول العالم لا تبالي بمواطنيها وكأن مصالح المواطنين هي آخر اهتماماتهم!... وهذا متأتٍّ من تجارب كثيرة ومواقف خطيرة يكون بها المواطن العراقي أحوج ما يكون لتدخل السفارة إلا أنه لا حياة لمن تنادي، الحقُّ يُقال بأن السفير كان يتمتع بشخصية ودودة ومجاملة حتى أنه علق على حمل بسمان لمضربه مبتشا، وبعد تجاذب الحديث مع بسمان عرفنا أن أحد أولاد أخوته هو زميل لبسمان بنفس المدرسة ويتدرب على لعبة التنس على يد نفس المدرب في نادي الصيد.

حال وصولنا وبعد استراحة قليلة دعا السيد السفير الأساتذة لاجتماع سريع...
- إنكم هنا بمهمة رسمية... مساعدة الجامعات الجزائرية الفتية هي الهدف من وجودكم، سيتم توزيعكم على الولايات المختلفة، وحسب حاجة الجانب الجزائري لسد الشواغر باختصاصاتكم المختلفة، أود

منكم الإذعان لتوزيعهم تؤثرون مصالحهم على مصالحكم، الشيء الأكيد أن عوائلكم ترغب العيش بالمدن الساحلية الجميلة، الكل هنا ليس برحلة كلنا نؤدي واجبًا تجاه بلدنا!... أعود وأكرر أنتم بمهمة رسمية

كان هذا ملخص ما دار بالاجتماع.. أصبح الآن سبب استقبال السفير لنا واضحًا وجليًا!...لم يخطر بباله مصلحة العائلة وتوفر المدارس الجيدة لأولادنا ولا المستوى المعيشي ونوع السكن فإنها آخر همه كنا نحن وثلاث عوائل أخر مَنْ تبقّى في العاصمة.

الكل اتجه إلى الولايات التي تم توزيعهم عليها بالتتابع، قضينا وقتًا ممتعًا في الفندق الأنيق بولاية تيبانا، وهي ولاية ساحلية جميلة جدًا، لم ننسَ أن نستفسر من العمال والقائمين على إدارة الفندق عن ولاية اسمها "بسكرة" وهي الولاية التي سنرحل إليها، كان الجواب واحدًا:

- آه.. بسكرة.. بسكرة مليحة... حتاكلو الدغل وتشوفو الجمل!!... إنهم متفقون على أننا سنأكل التمر ونشاهد الجمل... هي صفات لصحراء لا محالة، إنهم متفقون أيضًا على أنها بوابة الصحراء.

حضرتْ إلى الفندق حافلة كبيرة قديمة متهالكة لتقلنا إلى بسكرة بلد الدغل والجمل... والكتاب بائن من عنوانه فنوعية الحافلة خير دليل، سبق وأن لاحظنا أناقة وحداثة الحافلات التي حضرتْ لتقل زملائنا إلى مقرات عملهم، كدستْ حقائبنا معنا على المقاعد الخلفية للحافلة، بدأتْ الرحلة، حاولتُ مع الأولاد وعادل إدخال البهجة في نفوسنا تسليمًا بواقع ليس بيدنا تغييره، فَمرَّتْ الست ساعات الأولى بمرح.

أخذ الظلام يتسلل على حساب نهارنا وكذلك على حساب نفسيتنا..! ومعها بدأتْ سيدة كردية منحدرة مع شلالات المنطقة الشمالية سكنتْ مدينة البصرة لزواجها من أستاذ جامعي من البصرة وعانتْ قلة الخضرة وشحة المياه وغياب منظر الجبال بقممها البيضاء وعلقتْ أحلامها الخضراء الندية على الجزائر... وها هي تتوجه إلى الصحراء ولغياب الشلالات التي تندي أيامها عمدتْ إلى دموعها لتندي وجهها تنسكب غزيرة دون انقطاع.. لا وجود لنباتات ولا لزهور بما يسمى حديقة في بيتي في البصرة، التفتْ إلي وهي تخبرني، ماء شحيح حتى مياه الشرب نوفره بشرائه من محطة لتعبئة الوقود كان الابن الكبير لحاكمنا وراء هذا المشروع المربح... فكيف لي أن أسقي مزروعاتي... الشمس الحارقة هي الأخرى تساهم باستحالة نموها... وها أنا الآن أذهب إلى بصرة أخرى!... حتى المفتاح الدولي للهاتف هو نفسه (٠٤) هو مفتاح البصرة وهو بعينه مفتاح بسكرة!... حتى التسمية قريبة من بعضهما البعض.

- القصور كل القصور على زوجك... فكان حريًا به ان يُشيّد لكِ حدائق معلقة أخرى... محاولةً إضحاكها والخروج بها من حزنها إن الإنارة المنبعثة من بعيد أكيد هي أنوار مدينة بسكرة... نقول مع نفسنا معللين النفس بالآمال نرقبها... ننتظر بفارغ الصبرحتى نصل بالقرب منها ونتعداها!.. لِنُمنِّي أنفسنا بأنوار جديدة تلوح بالأفق... كلها تمر ولا وصول لمدينتنا.

أخذ البرد منا مأخذًا، الكثير من زجاج النوافذ مهشم... أين أنت يا چارلي چابلن!...تلحفنا بما امتدت أيدينا لتصله من حقائبنا، كيف لا؟

والشهر هو شهر كانون الأول بكل برودته علاوة على اتجاهنا وزحفنا نحو صحراء بكل ما بها من برودة شتاءً، أعيانا التعب والإرهاق حتى فارق الكرى أعيننا.

وصلنا إلى بسكرة واتجهنا إلى مجمع سكني خصصتْ لنا به شقق مسبقًا، إن المُجمّع لطيف بعض الشيء، تستقبلك بعض الأشجار، أول ما واجهناه هو غياب المصاعد... شققنا الأربع تحتل الطابق الثالث والأخير... فكان حمل الحقائب إلى الشقة يشكل عبئًا آخرَ فوق أعبائنا، كنا نهمس بالكلام لأنا وصلنا المُجمَّع عند الساعة الخامسة فجرًا، وهذا يعني أن الناس نيام فلنحترم نومهم.

دخلنا الشقة بمعية شخص مسئول من طرف الجامعة، إنها كبيرة إلى حد معقول وجيدة وشديدة البرودة طلبتُ من المسئول تشغيل نظام التدفئة؛ لجهلنا طريقة تشغيله... لا يوجد شيء بهذه التسمية... غياب السجَّاد... غياب سخان الماء... كلها أعطتْ الحقَّ لحسان بالتمرُّد ورفض غسل يديه ووجهه من تراب الطريق ووعثه، خطرتْ ببالي فكرة جهنمية للحد من برودة المكان، أشعلتُ الفرن في المطبخ وتركتُ باب الفرن مفتوحًا؛ لتتسرب الحرارة لبقية البيت عَلَّنا نستطيع النوم.. كل ما بالموضوع مُحبط، خاصة وأننا عانينا الأمرَّين خلال العشر سنوات المنصرمة، وكان يحدونا الأمل بالراحة والسكينة.

يقع المجمع السكني على بعد حوالي أربعين دقيقة مشيًا على الأقدام من مركز المدينة، أقول سيرًا على الأقدام لكونها الواسطة الوحيدة المتوافرة للانتقال من وإلى مركز المدينة... فسلسلة اللائات

مستمرة!... لا وجود لباصات نقل عمومي أو خاص.. لا وجود لسيارات أجرة صغيرة أو ما يسمى (تاكسي) الدراجة النارية الصغيرة فرنسية الصنع الواسطة الوحيدة والسيارات الخاصة... كان المنظر جديدًا علينا أن نرى دراجة نارية صغيرة وقديمة الصنع وصوت محركها عبارة عن أزيز يخترق الأذن يستقل هذه الدراجة رجل مسن وخلفه زوجته التي لا تقل عنه سنًا، هم لا يرتدون السروال الجينز والقميص مثلًا إنهم يرتدون الزي الجزائري الشعبي الذي هو عبارة عن جلباب عريض وطويل غالبًا ما يكون أبيض اللون والأبيض المائل إلى الصفرة ملحق به قلنسوة كبيرة تتدلى خلف العنق، مصنوع من الصوف الخشن ليقيهم البرد الشديد، يُطلقُ على هذا الملبس (البرنوس)، وهو واحد للرجال والنساء على حد سواء، غالبًا ما تكون السيدة بدينة.. وهذه الدراجة النارية المسكينة ترزخ تحت وطأة ثقل أجسادهم، ولك أن تتخيَّل المنظر.

أنهينا مرحلة تسجيل الأولاد بالمدارس، وكان هذا في منتصف شهر كانون الأول، وإن الفصل الدراسي كان قد بدأ منذ شهر آب... وأن الامتحانات النصفية قاربتْ على البداية، ومع هذا كنا حريصين على اجتياز هذه الصعوبة بإلحاق الأولاد كل بمرحلته لعدم التعرض لخسارة سنة دراسية من مسيرتهم العلمية، كان مع حسان ولدان من إحدى العوائل الأربعة بنفس مرحلته وسُجِّلوا بنفس المدرسة؛ لأنها الوحيدة، أما بسمان فمعه ولد وأخته من عائلة أخرى، النظام المُتبع عندهم في الدوام هو النظام الفرنسي القديم، صحيح أن اللغة المعتمدة هي العربية، إلا أن لهجتهم الدارجة هي عبارة عن لغة فرنسية

مطعمة بكلمات عربية وبلفظ صعب جدًا يصعب علينا فهمه... كان الدوام مُقسمًا إلى فترتين صباحية ومسائية، تبدأ الأولى عند الساعة الثامنة صباحًا لتنتهي عند الثانية عشر ظهرًا، أما الفترة المسائية فتبدأ عند الساعة الثانية ظهرًا لتنتهي عند الخامسة مساءً، وهذا يعني أن نغادر البيت حوالي الساعة السابعة صباحًا وعندما تكون الشمس لم تشرق بعد، ودرجات الحرارة منخفضة ما دون الصفر المئوي، لنسير معهم لمدة تتراوح بين ثلاثة أرباع الساعة مشيًا على الأقدام؛ لنصل بهم مع قرع الجرس تقريبًا فنعود راجعين إلى البيت، فنصل عند التاسعة تقريبًا.. نعود مغادرين البيت الساعة الحادية عشر للعودة بهم لتمضية استراحة الغداء ونكرر العملية الشاقة لتكملة الدوام بفترته المسائية... وهكذا كل يوم نبدأ من الساعة السابعة لننتهي عند السادسة مساءً... عمدنا لتقسيم المهمة بين الآباء والأمهات لتخفيف العبء، وما يزيد مشقَّة هذه المهمَّة الشاقَّة أصلًا هو نوعية الطريق الذي نسلكه، حيث إن الجزء المخصص لمسير المركبات مُعبّد وجيد إلا أن أكتافه أو ما نطلق عليه الرصيف شيء آخر، إنه غير معبد ولا مرصوف بأيَّة مادة، طريق ترابي عملتْ عليه الأمطار بوجود صخور مختلفة الأحجام مخلوطة بحصى فتركته ممشى غير صالح للمشي.. حيث إن الصخور تعمل عملها بالأقدام لتعود إلى البيت وأقدامك متورمة، إلا أن الناس كانوا بغاية الإنسانية والرحمة... أحبونا بالله وبالإنسانية وبجنسيتنا العراقية... إنهم مُمتنين للشعب العراقي الذي ساندهم أثناء حربهم ضد الاستعمار الفرنسي... وفوق هذا كانوا يفخرون (بشعب صدام) الذي قال لا للأمريكان... وهذا حسب اعتقادهم البسيط الساذج وعدم اطلاعهم

على بواطن الحقيقة!... حتى أننا تفاجأنا بتعليقهم لصور كبيرة في محلات البقالة ومحلات الجزارين عبارة عن جسم رامبو رُكِّب عليه رأس صدام!... لهذا ولذاك فهم يُحبوننا ويحترموننا، فكانوا يتمنون مساعدتنا بأيَّة طريقة، إنهم يقفون بمنتصف الطريق ليقلونا معهم إلى مركز المدينة، وهم فرحون لتأتي هذه الفرصة لهم، كنا نركب مع أيَّة سيارة تقف لنا صغيرة كانت أو كبيرة، وكثيرًا منها تكون سيارات حمل محمَّلة ببضاعة، فنحشر أنفسنا مع البضاعة فقط؛ لنصل بالأولاد للمدارس بأقل جهد ممكن وفوق هذا فإن السيارة تقينا البرد.

عاد حسان إلى البيت يومًا وهو مضرب عن الاستمرار بالدوام!... تستطيع أن تعرف بنظرة خاطفة لعينيه قدر الحزن والبكاء والاشمئزاز الذي يسكنه، على أنه طفل متمرَّد وعنيد وصاحب رأي على صغر سنه... حاولنا تهدئته قدر الإمكان والولوج لنفسه وعقله بكثير من التأني والمداهنة معلنين له عن موافقتنا لقراره!... توصلنا إلى سبب قراره ألا وهو طريقة معاملة المعلمات للطلاب، إنها معاملة سيئة وشديدة وبها الكثير من القسوة... لم يكن العقاب المُتَّبع عقابًا تربويًا، إنه عقاب جسدي ونفسي... أخبرنا أن طالبة لم تحضر واجبها اليومي لهذا اليوم؛ فما كان للمعلمة إلا أن أمسكتْ بجدائل البنت، أمسكتها بكل قوة بعد أن لفتها على يديها عدة لفّات شدَّتها بقوة لتترك رأسها يرتطم بالسبورة كيفما اتفق وحيثما اتفق... أما الأولاد فنصيبهم عصا غليظة تهوي بها على أجسادهم الغضة فتترك أثرًا واضحًا... دارتْ الدنيا بنا ونحن نستمع لكلام حسان وهو يبكي وهو يحدثنا، تأكدنا من صحة كلامه بسؤالنا بقية الأولاد، تأكد لنا بأنه لم يتعرَّض لذلك إلا أنه يخشى من تعرُّضه في المستقبل وأنه يهاب ذلك

المنظر... توجَّه عادل إلى مدير المدرسة ليطلعه على ما يحدث داخل الحصة التدريسية، المفاجأة كانتْ أن المدير على إطلاع بكل ما يجري!... بل يؤيد هذا السلوك الشاذ على أن الطالب يجب أن يتربى على قوانين المدرسة، وبذلك ينتظم بدوامه وبتحضيره الواجبات.

اليوم هو الجمعة.. يوم عطلة، هو الموعد الأسبوعي للحمَّام أو لنقُلْ الموعد الأسبوعي للعذاب، نسكن الطابق الثالث والأخير ولذلك لا يصل الماء إلينا أبدًا أثناء اليوم، نصيبنا من الماء ما بين الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وحتى السادسة فجرًا، حيث يكون الناس من سكان الطوابق السفلى قد ناموا ولا حاجة لهم بالماء، نستيقظ أنا وعادل عند الساعة الرابعة فجرًا ونعمل على تسخين الماء، بملء دلو مطَّاطي بالماء وندلي به ما يسمى (كويل كهربائي) يُستعمل عادة لتسخين قدحًا من الماء لعمل شاي أو قهوة، ننتظر حتى غليان الماء داخل الدلو وهذا بالطبع يأخذ منا حوالي نصف ساعة، نسحب بسمان من فراشه وهو بعز نومه والجو بارد جدًا نضعه بالحمَّام مع كل التحضيرات اللازمة لهذه المهمَّة، أغسل لبسمان وعادل يصبُّ الماء قليلًا وبصورة مستمرة على بدنه لتدفئته وأنهي مهمتي بسرعة فائقة، يعود بسمان لفراشه، نكرر العملية مع حسان بعد نصف ساعة بالقليل، بعد تجهيز الوجبة الجديدة من الماء الساخن، ليأتي دورنا بالتتابع، نصل لنهاية المطاف وانتهاء مراسيم الغسل الأسبوعي بحدود السادسة والنصف صباحًا ونكون محظوظين إن أنهينا المهمَّة والماء لم ينقطع بعد.

بعد شهرين من المعاناة والكثير من الجهود الحثيثة والسفر إلى العاصمة عدة مرَّات لمقابلة المسئولين بالوزارة هناك.. تمكنا من الانتقال إلى مدينة ساحلية جميلة هي ثاني مدينة بعد العاصمة هي مدينة وهران، كل شيء مختلف في هذه المدينة الساحرة، البحر الأبيض المتوسط هو شاطئها الخلاب حباه الله بجمال طبيعي أخاذ، جبالها غاباتها، مبانيها التي شُيِّدت على الطراز الفرنسي، شوارعها المرصوفة بالطابوق وأيضًا على طريقة الشوارع الفرنسية، محلاتها التجارية الجميلة، وفوق هذا وذاك وجود عوائل عراقية كثيرة سكنتْ المدينة منذ سنوات فكانوا لنا خير عون، متنفسنا الكبير بالذهاب معهم لرحلات شواء وغير ذلك.

كثيرًا ما كنا نتجول على الساحل لنراقب البواخر الراسية فهي مرفأ كبير، يأخذك المنظر إلى حيث لا مكان وإلى حيث لا زمان، فتقف اللحظة عندك وتطول ناسيًا ما يدور حولك، حتى أنني لا أكاد أحس بمَنْ حولي لا أسمع لهم صوتًا، يملأ أذني صوت الأمواج تعلو بقربها من الشاطئ وتنخفض ببعدها عنه، شيء غريب أن لا ترى الجانب الثاني، أين الأبنية والتي من المفترض أنها تحتل الجانب الثاني من المدينة...؟! لا أثر لأشجار!... أين الجسور المقامة لتسهيل التنقل إلى الجانب الآخر؟...هل هجر الناس ذاك الجانب...؟! صوت الموج يطربني... يحتل عقلي..! ذلك النسيم الدافئ ببرودة لذيذة ومُحبَّبة يلامس جفني، يجبره على النزول بهدوء؛ ليغطي عينيَّ فأستريح، أبحر بعيدًا دون الوصول إلى مرفأ، الوصول يُمحى من قاموس لغتي، شراعي مترعٌ حيث النسيم... أعود من رحلتي مستيقظة على

صوت أحد المارين ينادي على ابنته بصوت مرتفع، أسأل عادل عن سبب تلاشي الجانب الثاني...

- إنكِ يا حبيبتي ابنة بغداد... ابنة دجلة... ومهما عظُم دجلة إلا أنه يبقى نهرًا... أما الآن فأنتِ أمام بحر.. والفرق شاسع وكبير.

آثار الراحة النفسية من وجودنا بوهران بدأتْ تظهر على ملامح وجهنا، ابتسامتنا، الأولاد فرحوا بمدارسهم الجديدة بحدائقها الكبيرة وأزهارها المتفتحة طوال السنة، الأشجار المثمرة طول العام إنها نباتات حوض البحر الأبيض المتوسط، إن نظام الدوام هو ذاته الفرق هو قرب المدارس من شقتنا.. لم تبقَ أي عائلة هناك في بسكرة، فكلنا رفض الانتقال بشكل مفرد!... الكل اتخذ قرارًا إما انتقال الجميع أو بقاء الجميع، كانت وهران هي نصيبنا مع عائلة أخرى، ومدينة (سيدي بالعباس) نصيب العائلتين الأخرتين، وهي مدينة صغيرة، وجميلة أيضًا إلا أنها لا ترقى لمستوى وهران، تبعد حوالي خمسين دقيقة عنا.. كنا نتبادل الزيارات فيما بيننا نبيت عندهم ويبيتون عندنا لأيام قليلة مستغلين العطل الرسمية والأعياد... ذهبنا لزيارتهم كالمعتاد للترفيه وتبادل الحديث وأخبار الرواتب ومقارنتها مع بقية الأساتذة من جنسيات ثانية، والأهم من ذلك تبادل الأخبار حول العراق وما آل الوضع إليه هناك والتطورات السياسية على الساحة العربية وهو الحديث الذي يبدأون وينهون الكلام به...

- أسمعتم ما حدث مؤخرًا في بغداد...؟!... سأل صاحب الدار... إنه سابقة لم نَعْتدْ على مثلها... شيء خطير ما حدث...

- تقصد إعدام التجّار...؟... سأل ضيف آخر...

- أكيد.. وهل هناك غيره؟!... بربك قل لي، ما هو السبب وراء إعدام ثماني وثلاثين تاجرًا بمحاكمة صورية...

- تمهلوا قليلًا... قال عادل... عن ماذا تتحدثون...؟!.. فأنا لم أستمع إلى الأخبار منذ أسبوع تقريبًا؛ لانشغالي ببعض الأمور الحياتية.

- لقد اقترفوا جريمة وأقدموا على تنفيذ حكم الإعدام بحقِّ تجار جَلَّهم من المعروفين على صعيد السوق المحلية... إجابه صاحب المنزل... إنهم عمدوا إلى أحد أكبر أسواق الجملة في بغداد بصباح يوم تموزي حار جدًا، فألقوا القبض على تجار من قلب السوق وهم متواجدون كعادتهم في محلاتهم، اقتادوهم أمام مرأى ومسمع مَنْ في السوق من أصحاب محال تحارية وزبائن، اقتادوهم كأي مجرم وهم يكيلون لهم القدح والسباب وأحيانًا الركلات، متوجهين بهم إلى المجهول كالمعتاد فهذه هي طريقة رجال الأمن والمخابرات المعروفة بمعاملة المواطنين.. لقد تمتْ محاكمتهم وتنفيذ الحكم بهم خلال يومين أو أكثر بقليل، أما الخطوة التي يندى لها جبين الإنسانية هي مطالبة السلطات ذوي المعدومين بثمن الطلقة التي أُعدم بها أولادهم!... ناهيك عن منعهم من إقامة مجالس العزاء لهم...

أخيرًا ولسبب أجهله قررتُ إقحام نفسي بالمناقشة!... حيث الأهوال التي تناهتْ لمسامعي:

- مَنْ هم يا ترى أولئك التجار...؟.. سألتُ... أهم تجار معروفون لهم باع بالتجارة أم هم مستجدون في المهنة؟...

- إنهم خليط من الصنفين... جاءني الجواب من أحد الحضور... ففيهم الأسماء اللامعة بعالم التجارة والصناعة على حد سواء، مثل:

الأخوان (فلان الفلاني) كذلك (فلان آل فلان).. وغيرهم ممن أعرف وغيرهم ممن لا أعرف شخصيًا.

طرق الاسم الأول مسامعي سقط على أذني كأنه مطارق نزلتْ على دماغي فآلمني سماعه... إنهما أخوان لأعز صديقاتي... التفتُ إلى عادل وكأني أريد أن أتأكد من الاسم أو للتأكد من سماعه الاسم هو الآخر...

- أأنت متأكد من الاسم...؟!... توجهتُ بسؤالي لمَنْ أجابني قبل قليل.

- أنا.. أكيد طبعًا... بعدما لاحظ الحزن والدهشة وعدم التصديق بذات الوقت.

- يا لتعاسة صديقتي!... ويا لتعاسة والدتها الخالة العزيزة اللطيفة الوديعة!... ترى ما الذي حلَّ بها بعد هذه المصيبة؟، فإني أرثي لحالها.

- أتعرفينهم إلى هذا الحد... ولديها الاثنان قضوا بساعة واحدة؟... سألني أحدهم...

لم أستطع الجواب لشدة حزني... أجبتهم:

- إنها الخالة العزيزة مثال الأم الحنون، المسالمة، أمرها لله.. كانتْ أمنيتها أن يعود ابنها إلى الوطن بعد غياب سنين؛ لتزوجه وتفرح به وبعروسه، وتكحل عينيها برؤيته صباحًا مساءً... عندما غادرنا العراق لم يكنْ هو قد عاد إلى القطر بعد.. أو بالأحرى لم يكنْ موافقًا رأي والدته حينها، فمن المؤكد أنه عاد ليرضيها.. عاد ليواجه قدره... تكلمتُ مع نفسي... لم يبقَ بُدٌّ من الاتصال بهم لتعزيتهم على مصابهم الجلل... وجهتُ الكلام لعادل...

- شيء أكيد... بل هذا أقل ما يمكن فعله... أجابني عادل وهو حزين أيضًا.

- قاطعنا صاحب الدار: ليس من الصحيح اتخاذ هذه الخطوة!.. عندما تمنع الدولة إقامة مجلس عزاء، فهذا يعني حنقها على الشخص بل اعتبرته خائنًا للبلد، فلا أنصح من ناحيتي بإجراء الاتصال، علاوة على أن الشيء الأكيد هو مراقبة هاتف منزلهم، اكتفوا بالدعاء لهم بالصبر والسلوان، إنهم سيقدّرون ذلك لعلمهم بدواخل الأمور.

لم يتغيَّر ببغداد سوى النفوس.. البنايات، الشوارع، المحال التجارية؛ كلها لم تتطور، بل تخلَّفتْ بفعل الزمن وبفعل الإهمال، تستطيع أن تشم رائحة تزكم أنفك عند المرور بأغلبية شوارع المدينة؛ لتدنِّي الخدمات وقِدَم منظومة المجاري بها، أما النفوس فهي من تأثرتْ بصورة جلية تبعث على الاستهجان، أصبح حبُّ الذات هو الحبُّ الأكثر رواجًا، حبُّ المال متربِّع على عرش قلوب الشبَّان والشابات... هُمِّشتْ بعض العادات والتقاليد الجيد منها، قفزتْ الأنانية لتحتل مراتب متقدِّمة من نفسية البشر هناك، سرقة المال العام هو سمة وزراء ومسئولي البلد... إعطاء الرشوة هي هدية يداعي بها صغار الموظفين وإلا توضع معاملتك بالدرج الأسفل لمكتبه!... نقض العهد اتخذ تسمية جديدة هي الشطارة... حلَّ الدمار الشامل في النفوس وهو ذو فعل أخطر بكثير من أسلحة الدمار الشامل، تكوَّنتْ طبقة جديدة يطلقون عليهم الحيتان لابتلاعهم، وسيطرتهم على الأسواق والتجارة والصناعة.

ذهبتُ لزيارة (البوتيك).. اه.. ما أجمل العمل به... ارتقيتُ السلالم الأربعة، والتي تصل بين مستوى الشارع والبناية التي يقع ضمنها (البوتيك)... وقفتُ مقابلة الواجهة الزجاجية، أنظر بتمعن إلى الملابس المعروضة.. طريقة عرضها، أحدق بـ(المانيكانات) إنها نفسها.. لم يعملوا على تغييرها أو تجديدها، إن ما ترتديه الآن هي ملابس صنع محلي، كل شيء بهذه الملابس يخبرك بأنه محلي... أين الملابس الأنيقة بألوانها وتصاميمها التي تحاكي خطوط الموضة العالمية تلك الملابس التي كانتْ مقصد الزبونات عندنا؟... استرجعتُ النداء الذي من خلاله أخبرتني أختي وأنا بالجزائر بقرار الحكومة بمنع التعامل مع السلع المستوردة... صار (البوتيك) أقدم مما تركته عليه، شعرتُ وكأنني تركته لسنوات طويلة وليس أقل من سنتين... حتى الإنارة أصبحتْ خافتة، الجدران البيض صارت رمادية... أسطحها الخشنة والتي اختارها عادل لجمالية الديكور الداخلي، مخلَّفات البارود ومخلَّفات العواصف الترابية المتكررة التي هبَّتْ على البلد كستْ الجدران بلون الحرب، أما الواجهة الأمامية والتي تتضمن لوحة كهربائية كبيرة تحمل الاسم والتي حرصنا حينها على كتابتها بطريقة فنية رائعة كُتبتْ باللونين الأصفر والأزرق وهما لون الديكور الداخلي والخارجي أصبحتْ قاتمة بعدما كانتْ مشعة وبراقة تجذب الناظر إليها من بعيد، انطفأت الكثير من مصابيحها الكهربائية تحت الأحرف والتراب الأحمر غطى سطح اللوحة لتواجه اللوحة نفس المصير المترب لكل لوحات المحلات في بغداد، صار الاسم غير قابل للقراءة، خُيِّل لي وأنا أحدق بها وكأنها

من مخلفات الحرب العالمية الأولى... أحستْ ماما بكل ما جال بخاطري، وأنا أقلب نظري بين كل زوايا البوتيك منزعجة ومهمومة... أشارتْ إلى العاملة الموجودة قربنا لعمل القهوة...

- إنها أيام يا ماما... كنا دائمًا ما نحتسي القهوة بمثل هذا الوقت هنا، وها نحن نعود لنحتسيها اليوم وبعد سنتين...

- أشعر بما تشعرين يا حبيبتي... بادرتني ماما.. لكن الأشياء تبدلتْ وبسرعة، والأحداث تلاحقتْ علينا وكان وقعها أسرع من قابليتنا لمجاراتها.

- أنا أفهم ذلك تمامًا... أجبتها... أهم ما في الموضوع أننا جميعنا بخير والباقي لا يهم.

حَضرَ فنجان القهوة، أشعلتُ سيجارتي، بدأتْ ماما باستذكار ما حدث...

- في يوم عادي جدًا وأنا متواجدة هنا مع العاملة، إذ دخل علينا رجل، كل ما به يُوحي بأنه موظف حكومي.. ملابسه، نظراته، ما يحمله من أوراق كثيرة يقلب فيها بين يديه، محاولته سبغ الوقار والجدية على حركاته، سلمني ورقة بعدما تأكد بأنني صاحبة المحل.. طلب مني التوقيع، وبعدما اطَّلعتُ على مضمونها، كان على عَجَلَةٍ من أمره، عليه أن يسلم كل ما عنده من أوامر تبليغ إلى المحلات المجاورة.. إن التبليغ الذي استلمته للتو، عبارة عن أمر حكومي ينص على الاستغناء عن كل ماهو مستورد من بضاعة حفاظًا على اقتصاد الدولة والاكتفاء بما هو محلي؛ لتوفير العملة الصعبة.. إلى هنا وكل شيء منطقي... وسوف تقوم وحدات ميدانية متابعة مراحل

التخلص من البضاعة المستوردة لفترة زمنية حدّدها الأمر بأسبوع واحد فقط... ولم تخلُ لهجة الكتاب من عبارات التهديد والوعيد، والتي صارتْ مألوفة لدينا.
- يجب أن تتخلصوا منها خلال أسبوع!.. هذا وفهمناه على الرغم من صعوبة فهمه وتصديقه... أما التهديد فلأي سبب؟.. سألتُ مندهشة...
- ستقوم لجان بتفتيش بيوت أصحاب المحلات بعد هذه الفترة.. فكل مَنْ أخفى بضاعة في بيته يُعرِّض نفسه للمسائلة القانونية.. واللبيب تكفيه الإشارة، بطبيعة الحال المسائلة القانونية تعني ضمنًا الإعدام.
- الإعدام؟!... سألتُ متعجبة...
- يبدو أن غيابك عن البلد أنساكِ أولياته... أجابتني ماما.

افترشتْ البضاعة الأرصفة أمام المحلات... وهذا ينطبق على كل أنواع البضاعة من ملابس إلى عطور، أدوات منزلية، أثاث، أدوات كهربائية، وبأسعار زهيدة جدًا فقط ليتخلص التاجر منها، لم يكن باستطاعة المواطن اقتناء الكثير رغم رخص ثمنه.. فإن القوة الشرائية للمواطن متدهورة بسبب قلة الرواتب والأجور، رَغم أنهم ابتاعو ما يحتاجون وما لا يحتاجون إلا أن لكل شيء حد، كان البيع باليومين الأوليين جيد جدًا إلا أنه فتر بعدها، كنتُ عازمة أن أضع ما تبقى من ملابس في حاويات القمامة... بعدما تبرَّعنا بالجزء الأكبر منها لدور الأيتام وبعض العوائل المحتاجة، استعنتُ بأخواتك لمساعدتي هذا عدا عن استئجار شبَّان؛ ليناودا بالبضاعة على الأرصفة وهذا ما فعله أصحاب المحلات الأخرى.

- إن كلامك يُؤلمني.. أشعر بتأنيب الضمير.. تركتُ على عاتقك كل هذا وسافرتُ.
- وهل كان يدور بِخُلدْ أحد ما سيجري؟!.. لا تهتمي بنيتي، فكل شيء انتهى، وها أنا أقصه عليكِ الآن مع فنجان القهوة.. احتجنا لفترة طويلة لامتصاص الصدمة وتعويض الخسارة المادية الكبيرة... فدائمًا وفي هذا البلد تكون القرارات ارتجالية وغير مدروسة وتصبُّ غالبيتها عكس مصلحة المواطن.

ابتعدتُ عن الموضوع المؤلم.. فسألتُ ماما عن غيره أشد ألمًا..
- كثيرًا ما تبادر لذهني، وأنا هناك لكني أنسى أن أضمنه إحدى رسائلي إليكِ.
- اسألي.. الظاهر اليوم عندنا حصة تاريخ... ضحكتْ ماما...
- ما هو مصير سمير؟.. لم يخبرني أحد منكم عنه شيئًا!.
- أي سمير هذا يا لميس؟... غارتْ ذاكرتي في بطون التاريخ يبدو لي ابن الحاجة سعاد ابنة عمتي.. ذلك الشاب الذي اقتادوه من الكلية قبل أكثر من عشرة أعوام وحسب ذاكرتي... اه.. تذكرتْ إننا نسينا الموضوع برمته، فقد مضى على الحادثة زمن طويل.
- لا خبر عنه إطلاقًا؟... يا لحسرة والديه إنه شاب لطيف ومرح كان يهوى كرة القدم مما جعله يهمل بعض التزاماته الدراسية، علاوة على إعراضه عن الالتزام بالنواحي الدينية من صلاة وغيرها، أذكر مرارًا كلام أمه سعاد وتوبيخها على عدم التزامه بالصلاة.. فتقول: "مَنْ لا يلتزم بصلاته لا يستطيع الالتزام بأي شيء بعدها".

- ومع هذا اتهموه بانتمائه إلى حزب ديني محظور.. تصوري سمير ينتمي لحزب ديني.. إنه أبعد ما يكون عن الدين... قالتْ ماما وهي تهز رأسها أسفًا على شبابه... هناك من رفع بحقِّه شكوى كيدية أو ما يسمى تقرير بسبب مصاحبته لشاب يتردد على المساجد لأداء فريضة الصلاة فيها وهذه جريمة... ما بعدها جريمة، قصد والده حينها كل المخافر والسجون بما فيها التابعة لدائرة الأمن والمخابرات، ولم يحصل على نتيجة تُذكر.

- وكيف هي الآن الحاجة سعاد بعد هذا الابتلاء؟.

- سافرتْ إلى ابنتها الكبيرة وهي التي تسكن النمسا لتستقر هناك.. فهي لم تعد قادرة على البقاء بنفس البيت وغرفته خالية منه.. وكذلك فعل كل إخوانه وأخواته.

- إن ما جرى على الأمهات العراقيات يصعب تصديقه ويصعب احتماله... أجبتُ بزفرة علتْ صدري.

- إن قرار عادل بعدم مصاحبتكم بزيارتكم هذه لنا، ما هو إلا أصح قرار اتَّخذه نظرًا لظروف البلد الراهنة... قالتْ ماما محاولةً تبديل الموضوع... الحقُّ كل الحقِّ معه بمخاوفه إنها مُبرَّرة فِعلًا.

- أتعتقدين ذلك؟!.. أنا أخالفكم الرأي، فكيف لهم عدم السماح له بمغادرة البلد ثانية وهم مَنْ أعاروه إلى الجامعات الجزائرية؟!... حتى أن مدة الإعارة لم تنتهِ بعد.

- بل أوشكتْ على الانتهاء... أجابتني ماما.. إن الإعارة كانت لسنتين قابلة للتجديد لسنة فقط، وها نحن بالعطلة للسنة الدراسية الثانية.

- إلا أننا لم نكمل سنتين تقويميتن بعد... أجبتها...

- وإن الإعارة لا تحسب بالسنين التقويمية، بل بالسنين الدراسية... أجابتْ وهي واثقة من جوابها.. كيف لا؟ وهي تربوية محنكة ولمدة خمس وعشرين عامًا... أكملتْ: وليس بالضرورة بمكان أن تُجدد لسنة قادمة وحسب ظروف البلد واحتياجهم للأساتذة.

- لم يكن هذا هو قرار عادل بمفرده... بل هو قرار كل زملائه من الأساتذة... السيدات والأطفال هم فقط مَنْ جاءوا إلى العراق للزيارة.

(١٨)

كل العراقيين الساكنين في مدينة وهران أجمعوا على التزام الحذر والحيطة بأقصى الحدود... التوقُّف عن الرحلات وخاصة إلى الغابات.. وكذلك كل الأماكن البعيدة عن مركز المدينة، تنازلنا عن الرحلة المحببة لنفسي أنا بالذات وهي اعتلاء قمة الجبل... ليس بتسلُّقه طبعًا وإنما ركوب (التل فريك) فإن قمة الجبل أُدرِجَ ضمن المواقع الخطرة، والمقررة من قِبل العوائل العراقية القديمة خاصة لمعرفتهم بدواخل الأمور لاحتكاكهم الطويل والتعرف على نفسية ابن البلد، كل هذه الإجراءات أدتْ إلى تمكن الملل والضجر من نفسيتنا... فكل ما كان يسري عن أنفسنا، يريح من أعصابنا، يعطي الفرصة لأعيننا بالذهاب إلى بعيد.. أبعد من جدران الشقة الصغيرة التي تحاصرنا، إن شبح الاعتداء الجسدي أو على الأصح التعرُّض للتصفية الجسدية يطارد الجميع... هذا كله عشش في مخيلتنا بعد أن تناهى لمسمعنا حادث خطف أستاذ عراقي وابنته الشابة من قِبل المجاميع المسلحة والتي انتشرتْ أعمالها من ذبح وتنكيل لقرى بأكملها في شرق البلاد، وبصورة أقل في غربه... بعد انتهاء عملية الاقتراع التي تمتْ عام١٩٩٢م، ومن نتائجها بطبيعة الحال فوز مجموعة وخسارة الأخرى. إلا أن خسارة المجموعة الأولى لا يعني لها التسليم بهذه النتائج، فقامتْ؛ وهذا ما سمعناه بطبيعة الحال إلى التزوير والفوز على حساب الفائز الفعلي!... فما كان من الفائز الفعلي إلا الانتقام بعد أن انضمَ إليه أفراد ما يسمى القاعدة في بلاد

المغرب... لم يتطاولوا على الأستاذ العراقي بأي نوع من أنواع الأذى.. بل على العكس أطلقوا سراح الابنة، وبعثوا برسالة إلينا عبره مفادها، إنهم يكنون كل الاحترام والتبجيل لنا ولن ينسوا ما حيوا مساندة الجيش العراقي لهم إبان مقارعتهم الاستعمار الفرنسي حينها... إلا أن الأساتذة الآن يقومون بدعم الحكومة من خلال تدريسهم في الجامعات الحكومية مما يعزز من أداء الحكومة الحالية والباطلة بزعمهم، لذا ترتب على الأساتذة الانسحاب من أعمالهم وترك البلد لتفادي التعرض للقصاص الذي ينتظرهم إذا ما أصروا على البقاء، وقد أَعذر َمَنْ أنذر، إن الحياة تلفظنا.

حملتُ حقيبتي الصغيرة وتركتُ الشقة بمعيَّة عادل بعد توديعي لبسمان وحسان وطلبتُ منهم الدعاء لي بالسلامة، فقد كان اليوم هو الموعد المحدد لولادتي بطفلي الثالث، والذي حملتُ به في وهران... كانتْ فترة الحمل فترة مراجعات ومتابعات لمختبرات تحليل الدم الواقع منها في وهران والتوجُّه عبر الطائرة إلى المختبرات المتواجدة في العاصمة، وعلى حد سواء أرادوا الوقوف على سبب احتياج حسان إلى عملية تبديل الدم حين ولادته، فهذا سوف يتكرر معي بولادتي هذه على أكثر الاحتمالات، فقد كنا نعيش حالة من القلق الكبير أنا وعادل بسبب هذا الموضوع... كل نتائج التحليلات كانت تؤكد على عدم تعرُّضي والجنين إلى ما تعرَّضنا له مع حسان!... إلا أختي نهى، كانتْ تؤكد لي في كل رسالة وعبر كل نداء على تحضير أنفسنا إلى عملية تبديل الدم في حال حمل الجنين لصنف دم عادل أما إذا حمل لصنف دمي فلا حاجة لذلك... استجابتْ

طبيبتي الخاصة لمخاوفي، فقامتْ بتحري وتحضير كل ما هو لازم لعملية التبديل وحسب ما هو متوافر في المدينة، نزلتْ على رغبتي وعدم الإنصات لنصيحتها بالتوجُّه إلى فرنسا لألد هناك تَحَسُّبًا، فإن إمكانيات وهران محدودة بهذا المجال... لمَنْ أترك أولادي وأسافر إلى فرنسا ؟!.. وكيف لي الاستغناء عن الجالية العراقية هنا مع غياب وجود ماما إلى جانبي؟!.

استعد خمسة أشخاص بعد إجراء التحليلات المختبرية اللازمة للتأكد من صنف دمهم، وهو المطلوب لمثل هذا الغرض، فعدنا لتوفير صنف (أو نكتف)، تأكدوا من حملهم لهذا الصنف وخلوهم من الأمراض السارية والمعدية وخلوهم بصورة خاصة من مرض نقص المناعة، والذي كان منتشرًا إلى حد ما هناك، طلبوا منهم التواجد بالمدينة خلال الفترة المتوقعة لولادتي، كان لزامًا علي الولادة بمستشفى حكومي لخلو مثل هذه الخدمات من المستشفيات الأهلية، استعدتْ الجالية العراقية بنسائها إلى جانبي وجانب الأولاد، ورجالها بجانب عادل للشد من أزره ومساعدته بكل ما يَطلب منه حينها، كل هذه الطواقم الطبية وفرَّق الطوارئ المتمثلة في أفراد الجالية لا تغنيني عن تواجد العزيزة ماما بهذا الوقت بالذات.

أُدخلْتُ إلى غرفة نظيفة بسريرين، وفرحتُ لخلو السرير الثاني، فدائمًا ما أكون منطويَّة على نفسي وأحبُّ العزلة في الأماكن العامة، كانتْ معي صديقتي وجارتي السيدة منال، وهي عراقية متزوجة من جزائري قبل حوالي عشرين عامًا، عدا عن بنتين لعائلة جزائرية صديقة.. كانتا تدرسان الطب.

مرَّ النهار وأنا بهذه الغرفة محاولين العمل على ولادتي بصورة طبيعية.
- الحالة مستعصيَّة، والولادة بهذا اليوم مستحيلة... هذا ما نقلته إلينا إحدى الممرضات نقلًا عن لسان الطبيبة... يتحتم علينا نقلها إلى الطابق السفلي.
- ماذا يعني هذا الطابق؟... سأل عادل والذي يتواجد معي منذ بداية النهار رافضًا تركي...
- إنه طابق خاص بالولادات.. أما هنا فهو الطابق الخاص لما بعد الولادة... إلا أن طلب طبيبتها بوضعها هنا هو ما جعلنا نصبر على بقائها هنا عَلَّها تلد بالسلامة، وينتهي كل شيء إلا أن الوقت طال وهي على ما هي عليه منذ أول دخولها.

نزلتُ بعد أن أخذتْ معنوياتي في الهبوط، وكآبتي تعلو... أدخلوني إلى رُّدهة بثماني أسرَّة؛ كلها مشغولة!.. حتى أرضيَّة الرُّدهة أُفترشتْ منِ قِبَل مريضات بحالة يرثى لها من التوجُّع والآلام الشديدة وأنا أنظر إليهن... رفعتُ بصري صوب عادل مستفسرة... أومأ لي برأسه أن اصبري.. غادر عادل مسرعًا فالمكان غير مناسب لبقائه.

أُستبدلتْ صديقتي وجارتي بعد أن أجهدها الوقوف طوال اليوم بصديقة عراقية قريبة من نفسي هي الأخرى... كل مَنْ بالرُّدهة عدا المريضات يغادر... نزل على مسامعنا فرمان صدر من ممرضة مقطبة الجبين يبدو أنها سجانة بسجن نساء أكثر ما هي ممرضة!... أخذتْ كل المرافقات بالانسحاب إلى خارج الرُّدهة تباعًا، غير أن صديقتي تصرَّفتْ وكأنها غير مشمولة بهذا النداء، توجَّهتْ صوبها

الممرضة لتعيد فرمانها وبنفس الطريقة، حاولتْ صديقتي استمالة عطفها إلا أنها مُصِرَّة!... أذعنتْ أخيرًا بإخلاء سبيلها بمسئولية بقائها وتعرُّضها للمسائلة في حال زيارة مدير المستشفى فقبلتْ صديقتي.

جثا الليل بثقلهِ في مثل هذه الحالات، وبعد هدوء الألم قليلًا طلبتْ مني صديقتي الرِّضوخ لإغفاءة ولو قصيرة، قبلتْ بعد إصراري على استلقائها هي الأخرى وتشاطر السرير فهي متعبة أكثر مني، استسلمنا لإغفاءة قصيرة... لا أعرف.. كيف شعرتُ وأنا مغمضة العينين، بأن هناك عين تنظر لي... بل على الأصح تحدق وتحملِّق بعيني... إنها قريبة مني جدًا، حتى أنني شعرتُ بِنَفَس دافئ وظلمة شديدة تخيِّم على وجهي، فتحتُ عيني وأنا مفزوعة، أطلقتُ العنان لصرخة مدوية ملأتْ المكان ماماااااا... ساند استغاثتي صوت صديقتي هي الأخرى صارخة ماماااااااا... إن رأسًا بشعر قصير أشعَّث وكثيف يهوي بالقرب مني، حاولتُ جاهدةً استذكار واستطلاع قسمات هذا الوجه، فتذكرتُ في لحظة خاطفة أن هذا الوجه يعود لممرضة من الطابق العلوي... سألتها صديقتي بذعر اختلط بضحك غير طبيعي:

- ما الذي أتى بكِ في مثل هذا الوقت؟.. وما هو مرادك؟.

- أردتُ الاطمئنان على العراقية، لأعرف هل ولدت أم بعد؟... أجابتْ الممرضة مذعورة هي الأخرى...

ضَحِكتْ صديقتي طويلًا وأجابتْ بصوت متقطع لشدة الضحك.:

- لو نظرتِ إلى حجم البطن لعرفتِ الجواب.. أما نظركِ لوجهها فلا أتصوَّر أنه يعطيكِ الجواب.
ضحكنا بكل ما أُتينا من قابلية على الضحك حتى أني نسيتُ معه آلامي وأوجاعي والتي عادتْ لي بمجرد فتح عيني.

مرَّت ثلاثة أيام وأنا على نفس الحال، اتخذ الطبيب قرار إجراء عملية قيصرية تبعًا لحالة الجنين بعد تعبه طوال هذه الأيام... حضرتْ معي في غرفة العمليات طبيبتي الخاصة ليس لغرض تشجيعي أو شيء من هذا القبيل، بل لاستقبال المولود لتكون صرخة الحياة بالنسبة له هي صرخة شكة إبرة التحليل؛ لتتعرف على وضعه إذا كان بحاجة لتبديل دم أم لا، فتهبَّ به في سيارة الإسعاف المتوقفة على باب المستشفى لإجراء ما يلزم إجراؤه وعلى وجه السرعة، بدأ كادر التخدير بمهامه، وبنفس الوقت تهيأ الطبيب الجراح مع مساعديه لبدء العملية، صرختُ عاليًا صرخة استغاثة فقد أخذ مبضع الجراح يوغل بشق بطني قبل أن يمضي التخدير بجسدي!... صرخ طبيب التخدير موبخًا إياهم... كل هذا يجري علي وأنا لوحدي حتى أن عادل لم يحضر فإن وقت الزيارة لم يبدأ بعد وهذا يعني عدم تمكُّن عادل من المجيء والاطلاع على القرار السريع الذي أُتخذ بإجراء العملية، ولهذا كانتْ معنوياتي منخفضة وفوق هذا كله أُبضع وأنا صاحية...
- نعم.. إنه بحاجة لتبديل الدم!.

استقلتْ سيارة الإسعاف، هناك خلف السيارة رتل من سيارات رجال الجالية وبصحبتهم عادل، إنه حزين ومهموم، لا يكاد يعرف إلى أي

مكان يتوجَّه.. يتوجَّه إلى مستشفى الأطفال للوقوف على عملية التبديل.. إلى مستشفى الولادة والتي أرقد بها وأنا لا أزال تحت تأثير المخدر فالعملية القيصرية لم تنتهي بعد بالنسبة لي.. ام إلى الشقة ليُطمئَن الأولاد...؟!.. وجهته الأكيدة هي مستشفى الأطفال.

إن موقف السيدات العراقيات وأفراد العائلة الجزائرية لا يوصف، أكون مجحفة بحقهم لو قلتُ إنه مشرف! فهو أكثر بكثير، إن الإنسانية بمعناها العريض تجسدتْ بهم وبمساندتهم لي، بدأتُ أستفيق من إغمائة المخدر والصورة أمامي غير واضحة... الشيء الواضح فقط هو التفاف حشد من النساء حولي، شفاههم لا تتوقف عن الحمد والبسملة والدعاء، الابتسامة مرسومة على وجوههن، والشفقة تملأ أعينهم على وحدتي وغربتي وأنا لا أفتأ أردد كلمة ماما... كل واحدة منهن تفهم تمامًا إحساسي واحتياجي لأمي.

أول كلمة نطقتُ بها بعد أن استعدتُ إحساسي بالمكان والزمان هي سؤالي عن المولود:

- هي بنت أليس كذلك... سألتُ رغم تأكيد جهاز السونار وبكل زيارة دورية لطبيبتي على أنه ولد... لكن إحساسي يحدثني أنها بنت، أردتُ مَنْ تفرحني وتقول نعم إنها بنت.

- إنه ولد يا لميس وأنتِ تعرفين بذلك منذ شهور.. الحمد لله على سلامتك وسلامته.. إنه زين.. أليس هو هذا الاسم الذي تم اختياره من أربعتكم... أجابتني إحداهن...

- الحمد لله على كل حال... أهو تام الخلقة...؟.. هل يحتاج لتبديل دم؟.

- إنه تام الخلقة يا عزيزتي وهو على خير ما يرام... أجابت الأخرى.

- إذًا أين هو ؟.. لِمَ لم ينمْ بالسرير المعَّد له بقربي حسب لوائح المستشفى هنا؟.

- طبيبتك أصرَّتْ على وضعه تحت المراقبة لعدة أيام تحسبًا لا أكثر.

- خير ما فعلتْ.. المهم سلامته.

إحدى السيدات أبتْ إلا أن ترافقني ولو ليلتي الأولى وأيضًا على مسئوليتها الخاصة، لم يغمض لها جفن.. بل لم تحاول حتى الجلوس على كرسي بالقرب مني، أشعر بحنانها يتسرَّب لي من خلال أناملها الرقيقة، وهي ترِّبتُ على أكتافي مرة، لتمرَّ على يدي مدلكة إياها... رجلي وقَدميَّ كان لها النصيب الأكبر.. لم تدع المجال لي حتى لطلب المساعدة، أنام أنا وهي واقفة... لم تدع النعاس يتغلب عليها ولو للحظة فهي منشغلة طوال الوقت بعملية المساج لتريحني مما يصاحب المخدر العام من تيبس في الأوصال، أغنتني عن الأم والأخت بحق.

أمضيتُ عشرة أيام في المستشفى، وهذه هي المدة المقررة لمَنْ أُجريتْ لها العملية القيصرية، لم أرَ خلالها زين إلا مرة واحدة وبعد أسبوع من الولادة، حيث أتتْ به إلي صديقتي منال، وهي التي تحملتْ مسئوليته بعد خروجه من مستشفى الأطفال.. حرصتْ كل سيدات الجالية على زيارتي يوميًا بوقت الزيارة المحدد، عدا ذلك كنتُ أمضي الوقت بمفردي طلبوا مني التمشي كل يوم، ويجب علي فعل ذلك ليس التزامًا باللوائح أو حرصًا على صحتي بل لأذهب إلى الحمَّام لعدم توافره في الغرفة... إنه مجمع لحمَّامات يقع على مسافة بعيدة نسبيًا عن غرفتي، وبذلك يتوجب علي المشي حتى وصولي

لهناك... ممر طويل يتوسط صفين من غرف المريضات، كل غرفة تحتوي سريرين تمامًا كغرفتي، بجانب كل سريريوضع مهد للمولود لتقوم الأم برعايته شخصيًا، الأم دون مرافق فيقع على عاتقها وهي بحالتها هذه الاهتمام بوليدها... اجتذبني منظر غريب، هنالك واحدة من الغرف بسرير واحد فقط، لا وجود لمهد بجانبه!.. بل يتواجد هذا المهد وقت الزيارات فقط، عبثًا حاولتُ استنتاج ما هي هذه الغرفة!.. أخيرًا قررتُ أن أسأل إحدى الممرضات عنها... قالتْ إن السيدة التي ترقد بهذه الغرفة مختلة عقليًا... اغتصِبتْ من قِبَل مجهول أو هكذا كان يُروّج، حملتْ ووضعتْ في مستشفانا، إنها بحالة عقلية متردية.. ولهذا منعنا الطفل من أن يكون بقربها فإننا لا نضمن ردود أفعالها ولذلك ترين أنها مقيدة طول الوقت بسلاسل حديدية لسريرها... كلما مررتُ بالقرب من غرفتها يتملكني أسى شديد عليها، إنها شابة لطيفة الوجه لا ذنب لها بكل ما حدث... يهجرني النوم أثناء الليل، إنه طويل.. أنام وأصحو بنفس المكان، نافذة غرفتي تقابل سطح مبنى من المباني المحيطة بالمستشفى، لا أدري.. ما هو دار أم مبنى حكومي؟ غصن شجرة بأوراق كثيفة ينحني ليلامس سطح المبنى، سور السطح المبني بالطابوق الأصفر استحال لونه إلى البني لإهماله وعدم تجديد طلائه، ثلاث أو اربع طابوقات هن فقط مَنْ حافظتْ على لونها المشرق..! بفعل هذا الغصن، الجدار كله صار لونه بُنِّيًّا وهذه الطابوقات بقتْ لتحكي قصة زمن جميل شُيِّدَ خلاله هذا المبنى، صوت الاحتكاك يتكرر بنغمة هي ذاتها طوال الوقت، قلما تتغيَّر بتغيُّر سرعة الريح، يقض مضجعي هذا الصوت، أدفن رأسي

بوسادتي إلا أنه يُصرُّ باختراق أُذني، لون سور السطح لا يتغيَّر، أكداس من الأثاث القديم كُدستْ فوق بعضها البعض لا تتغيَّر، لم يزهر الغصن ولا يجف، والصوت هو الصوت، السرير إلى جانبي مهجور بمفرشه الأبيض، مهدان فارغان... مستغرقة أنا مع الجدار والغصن، سمعتُ وكأن أُكرة باب الغرفة تتحرك فتحدث أزيزًا يشقُّ علي استغراقي، استدرتُ ناحية الباب بحركة تلقائية، إن أُكرة الباب تتحرك لتدور حول محورها!.. أوه إنه الفجر قد لاح، وهذا هو موعد حقني بالإبرة اليومية، وباستدارة بسيطة صوب الشباك تأكد لي بأن الليل لا زال لم ينقشع!.. لا صوت لعربة الممرضة والتي عادة ما تحدث ضجيجًا!.. لكني مع هذا انتظرتُ ظهور الممرضة بلباسها الأبيض النظيف وبوجهها المتجهم!.. تسبقها عربتها المحملة بكل أنواع الأدوية والحقن وسوائل بألوان مختلفة خصصتْ للتعقيم، صفير عجلاتها الذي يسبق دخول العربة والممرضة... أخيرًا فتحتْ الباب دخلتْ الممرضة بحركة ثقيلة هذا اليوم على عكس نشاطها وحركتها الرشيقة المعتادة، لا ترتدي الأبيض. رفعتُ بصري لأتبين ملامح وجهها... إنها هي.. هي وليست غيرها... أنا معها بمفردي... تلاقتْ نظراتي نظرتها الشاردة.. هي تنظر صوبي لكنها لا تنظر لي!.. تركِّز بصرها صوب لا صوب.. شعرها المنكوش بكل الاتجاهات!. هي واقفة متسلطة على سريري وأنا ممددة لا حول لي ولا قوة!.. إنها السيدة المجنونة غير مكبلة..!.. هي!.. وأنا وهي وجهًا لوجه... لم أعد أشعر بأطرافي، عاجزة أنا عن تحريكها... حتى وإن استطعتْ تحريكها.. فما الفائدة ؟ لا جرس بقربي لأضربه،

عجزتْ عن الوصول لغايتها المنشودة، تبحث بزوايا الغرفة عن شيء يدور بدماغها، استجمعتُ ما تبقى لي من شيء اسمه شجاعة وأطرقتُ بنظري كي لا أثيرها.. أغمضتُ عيني مع احتفاظي بزاوية نظر لمتابعة تحركاتها، تلوتُ ما أحفظ من آيات القرآن وابتهلتُ إلى الله لينهي الموقف على خير، اقتربتْ من المهد بخطى ثابتة ومدَّتْ يدها إليه!... إلا أنها لم تجد ضالتها عندي، فأنا مثلها لم أحظَ برؤيته بعد!... وبنفس الهدوء والثبات اللذين دخلتْ بهما خرجتْ تنفستُ نفسًا عميقًا... شكرتُ الله وأثنيتُ عليه واستغرقتُ بنوم عميق لا أدري كيف غالبني.

قصصتُ ما حل بي أثناء الليل على الممرضة وأنا ممتعضة جدًا... أجابتْ ببرود شديد: نعم.. نعم، هذا صحيح فإن الممرضة المسئولة عنها فاتها أن تعيد قيودها أثناء الليل عندما احتاجتْ الذهاب إلى الحمَّام.. إننا نتعب كثيرًا، إنها مهنة مجهدة حقًّا، استدارتْ لتعود من حيث أتتْ.

عينان مفتوحتان تميلان إلى اللون الرصاصي الفاتح، بشرة بيضاء نقية تكاد ترى العروق تحتها، ملامح صغيرة وناعمة شعر بني فاتح، ضممته لقلبي وليس لصدري، تبلَّلتْ جبهته الصغيرة بدموعي، حاولتْ السيدات حولي تبسيط اللقاء، هذا اللقاء المرتقب منذ ثمانية أيام من ولادتي، أصرَّتْ جارتي العزيزة على جلبه لي لمعرفتها بشعوري وأنا لم أرَ ابني بعد، أرسم ملامح وجهه من خلال وصفهم لي، عزَّ عليها أن تضمه على مدى أسبوع إلى حضنها ويتمتع بمقدمه

كل أفراد عائلتها وأنا لم أحظَ بنظرة منه، استمر اللقاء الحميم على مدى ساعة هي مدة الزيارة المُصرَّح بها يوميًا.

حضرعادل لزيارتي اليومية كالمعتاد بمعيَّة أحد الأصدقاء... لقد عانى عادل الأمرَّين هذه الأيام.. أشاد الصديق بجهود عادل، فقد وزع جهده ووقته بين ثلاثة اتجاهات، أنتِ والأولاد والمولود الجميل، كان ما يملكه من حنان يكفي لتوزيعه، كان حقًّا مثال الزوج والأب الصابر خاصة وهو يتابع عملية تبديل الدم الأولى والثانية مرورًا بايام صعبة يرى بها شبح التبديل الثالث على الابواب.. لله درُّك يا صديقي... ساد صمت رهيب، لاذ عادل بالصمت والحيرة تسيطر على ملامحه، لم أشأ أن أعقب على ما سمعتْ للتو، فهذا به إحراج لي ولعادل وأيضًا كل الصديقات وكل مَنْ حضر لزيارتي طوال الأيام المنصرِّمة، إن خوفهم وشفقتهم علي هو ما أسكتهن، تألمتُ مع نفسي، أشفقتُ على ذلك الأب الذي تعرَّض لمرتين وليس لمرة واحدة لمثل هذا الموقف الذي لا يحسد عليه.

استقلينا السيارة بطريقنا إلى البيت... بعد حوالي ثلاثة عشر يومًا.. أخرج لأرى النور.. أتابع حركة السير، رائحة عوادم السيارات تزكم أنفي، أشدُّ على جرحي كلما اظطر عادل المرور فوق حفرة صغرتْ أو كبرتْ في الشارع، فإن جرحي لم يندمل بعد، فرحتي غمرتني.. أنستني قراري بالاطلاع على المبنى المقابل للمستشفى، ذلك المنظر الذي شغلني الليالي الطوال، كل همي انصب على ملاقاة الأولاد والعودة لبيتي، عند مدخل العمارة كان لبعض رجال من الجالية موعد مع الحيرة... فكيف لمثلي ارتقاء سلالم ليس لها نهاية للوصول

إلى الطابق الثالث حيث تقع شقتنا، أحضروا لي كرسيًا، أجلسني عادل عليه وحملني بمساعدة أحدهم، التعب والجهد، المزاح والقهقهات، تنبيه أحدهم للآخر وتذكير بالعتبة المكسورة، استراحة عند الوصول لبداية الطابق الثاني، تكرار لما مرَّ بنا أثناء صعودنا سلالم الطابق الأول حتى وصولنا أخيرًا أمام باب الشقة... لم يدع بسمان وحسان لي المجال للوقوف حتى أسلم عليهما، بادراني بالسلام والقبلات الحارة والعناق...

- أين النونو يا ماما؟!... سألني حسان على وشك البكاء... لم تأتوا به من عند الخالة منال... هذا ما أراد عقبة... (عقبة) هو الابن الأصغر لجارتي منال، وهو بنفس عمر حسان.. لقد أخبرني يوم أمس بأن أمه طلبتْ منكِ بقاء زين عندهم لغاية ثلاث أيام أخرى حتى تستريحي... انهمرتْ الدموع سخية على خديه وهو يحدثني بكل حزن...

- أنا سأنزل إلى بيتهم وأخبر الخالة منال بطلبكِ لزين، فمن غير المعقول أن يكون لي أخ صغير لم ألعب معه بل إن عقبة هو مَنْ يلعب معه... وتحت إصرار حسان ومعه بسمان حضر زين الدار.

(١٩)

في شهر أيلول من عام ١٩٩٤م، وحين أصبح عمر زين حوالي شهرين، قررنا أنا وعادل مغادرة الجزائر فإن الأوضاع مستمرة في التدهور عزَّز قرارنا هذا زيارة خاطفة قمنا بها إلى ليبيا للوقوف على الوضع هناك، ومناقشته مع بعض الزملاء ممن سبقونا بقرار مغادرة الجزائر والعمل في ليبيا، طلب مني عادل أن أذهب أنا والأولاد إلى بغداد، وهو يتجه إلى ليبيا على أن يتريث في المغادرة لحين حصوله على مستحقاته المادية المتراكمة كالعادة وبيع السيارة وما إلى ذلك.

قضينا يومين في عمان، اتفقتُ مع عائلة شخص مسئول في وزارة الخارجية العراقية أنهى مهمته الرسمية في الجزائر عائدًا إلى بغداد.. اتفقتُ على أن أكون بمعيتهم في الباص الكبير والذي سيقلنا لبغداد، كانتْ الهدايا التي حملتها معي للأهل هي عبارة عن أكياس من الشيكولاتة، والكثير من علب الحلويات، الجبن الأصفر المطبوخ، والهدية الأكثر غرابة هي كمية كبيرة من الخبز الأبيض... أرغفة لا تعد ولا تحصى... وفوق كل هذا شوال من الطحين الأبيض وهذا بالطبع بمساعدة من معي في الباص... فإن الشخص المسئول لا يتعرَّض لتفتيش الجمارك في المنطقة الحدودية، وكنتُ بذلك محملة بهدايا ثمينة إلى الأهل والأقارب.

نحن في بغداد وعادل في ليبيا، انتظم الأولاد في دراستهم، بعد أن استعنتُ بالكثير من المعارف للتوسُّط لدى مديرات مدارس معروفة بارتفاع مستواها العلمي والاجتماعي، فحظينا بهذه المدارس..

الحصار الاقتصادي ذلك الأخطبوط الكبير الذي مدَّ أذرعه لتطال كل مناحي الحياة، تأثيره المباشر بادي في كل شيء، الحياة اليومية للفرد ولائمه وطريقة استقبال الضيوف.. الولائم أخذتْ بالانحسار، فاقتصرتْ على المناسبات محددة الموعد مسبقًا أو مناسبات الأفراح والأتراح، كل بيت عراقي تقريبًا يحوي مجمدة كبيرة؛ لتخزين ما لذ وطاب من المأكولات؛ لتكون ربة البيت على أهبة الاستعداد لمد موائد الغداء والعشاء لأي زائر وفي أي وقت وهذه إحدى العادات المُسلَّم بها في المجتمع العراقي، أما الآن فقد اقتصرتْ هذه المجمدات على اللحوم والخبز بصورة رئيسية.. حتى تقديم الشاي العراقي المهيل مع (الكليجة) أو المعجنات، اتخذتْ شكلًا آخر، اقتصر الشاي على قدح صغير واحد لقلة الشاي الجيد وارتفاع أسعاره في الأسواق وندرة السكر، أما المعجنات فتحوَّل لونها جميعًا وبدون استثناء إلى اللون البني، وذلك تبعًا لنوع الطحين الرديء الموزع ضمن البطاقة التموينية، فوق هذا وذاك عمدتْ الأمهات إلى تدريب البنات صغيرات السن على رفع صحن المعجنات من أمام الضيف بمجرد أخذه لواحدة... وكانتْ هذه الطريقة يعاب عليها سابقًا، فمن الكرم العربي الأصيل هو ترك الصحن أمام الضيف؛ ليتناول ما يشاء وقت ما يشاء، أما المعجنات والكيك نفسه وطريقة صنعه والمواد الأولية الداخلة في صنعه، أيضًا تبدلتْ، أصبح لزامًا على ربة البيت إيجاد بدائل للسكر؛ لتصبح كيكة التمر هي سيدة المائدة، المرطبات الضرورية مع حر بغداد صارتْ تُصنع منزليًّا، فقد أغلقتْ محلات المرطبات والمعجنات أبوابها، كذلك انعدمتْ المشروبات الغازية محلية الصنع منها والمستورد.

الاتصالات بيني وبين عادل استمرتْ عبر البريد؛ لتستغرق كل رسالة ما بين خمسة عشر يومًا وعشرين يومًا، أما المكالمات الهاتفية فكانتْ قليلة لصعوبتها، فإن كل البدالات قد استهدفتْ أثناء الحرب ولم يعاد تصليحها بصورة جذرية وإنما أُعيدتْ إلى الخدمة على ما هي عليه ليكون أداؤها أشبه بعدمه.

استقر عادل هناك وتقاسم سكنًا بسيطًا يقع ضمن حدود الجامعة واستأنس بوجود عدد من الزملاء من الذين يشاركونه نفس السكن... كنا أنا والأولاد بحاجة ماسة لوجود عادل معنا، فإنها حالة غير عادية عدم وجود الأب وخاصة أب مثل عادل، إن أكثر مَنْ تأثر بغياب عادل هو حسان، ليس فقط لتعلقه به بل إنه قاسى من الغربة بوجوده بين أهله في العراق!...وهذا يقع على عاتق الفترة الزمنية الطويلة التي ابتعد خلالها حسان عن العائلة الكبيرة، لم يشعر بانتمائه إليها، كان لا يتقبل التوجيه الصادر له من قِبل الجد والجدة أو الخالات وغيرهم، اعتقد أن مَنْ يحقُّ له التوجيه هو الأم والأب فقط، وجد صعوبة بالتأقلم مع محيطه الجديد، فآثر الانفراد بأفكاره وعدم تقاسمها حتى معي، ونفس الشيء ينطبق على محيط الدراسة، لم يتخذ صديقًا أو حتى زميل يرتاح إليه، تشابكتْ اللهجات والأجواء والأفكار عليه فكان الانعزال هو السبيل الوحيد لاستمرار الحياة رغم إحساسه بحب مَنْ حولنا من الأهل وشعوره الواضح وتأكده من أنه يحظى بمكانة في قلوبهم خاصة مكانته في قلب خالته نهى، فهي تشعر بدمها يسري في عروقه منذ الساعات الأولى لولادته، فقد تَعلَّقتْ به كثيرًا إنه يعني لها أكثر من مجرد ابن أخت وحسب، إنه جزءٌ منها وهي جزءٌ منه.

استمرتْ الأشهر على نفس الحال ولا جديد يذكر، حتى طلب عادل مني اللحاق به في ليبيا فلم يعد قادرًا على تمضية الوقت بمفرده وبدون عائلته تحيط به؛ ليشعر باكتمال آدميته.

تركتُ العراق.. ومعه تركتْ جزءًا مني... كانت المصلحة تقتضي ترك بسمان في بغداد... إنه يعمل على التحضير لأهم سنة بعمره، وهي سنة السادس الثانوي، وهذه سنة لها أهميتها بحياة أي طالب.. كيف مع طالب مُجِدٍّ وملتزم مثل بسمان؟، التحضير لهذه السنة يبدأ منذ الصيف، باختيار أساتذة أكفاء يتمتعون بسمعة مميزة على صعيد الدروس الخصوصية لمرحلة السادس ثانوي، والدروس الخصوصية أصبحتْ ظاهرة ملازمة لهذه المرحلة، فما من طالب أو طالبة أن يستغني عنها.. مهمل كان أم شاطر، متمكن أو معدم الحال، فإن ما يتقاضاه المدرس من راتب لا يتعدى العشر دولارات شهريًا جعل المدرس لاهيًّا عن التدريس لانشغاله بإعداد ميزانية كفء تمتد براتبه إلى خمسة عشر يومًا بدلًا من عشرة... استقر الرأي الجماعي على بقاء بسمان مع جده وجدته في بغداد، وبذلك تأكَّدتُ بل أذعنتُ للأقدار التي تعمدتْ شطر العائلة بكل زمان ومكان.

الشقة جميلة وحديثة تحتل الطابق الرابع والأخير في بناية كل شاغليها من أساتذة الجامعات من الليبيين ممن أكمل دراساته العليا في أمريكا، تعرَّفتُ على سيدات العمارة بزيارتهم لي؛ لوصولي من بغداد، تعرَّفتُ على عاداتهم وتقاليدهم، تعرَّفتُ على أكلاتهم وتعرَّفوا على أكلاتي؛ لمشاطرتنا الطبخات في أيام وليالي رمضان الجميلة، تقاسمنا عملية غسل وتنظيف المساحات المشتركة بالعمارة، فلا

وجود لمهنة بواب العمارة هناك، اتفقوا على البدء بعملية التنظيف الساعة الثالثة من بعد ظهيرة كل يوم ثلاثاء في الأسبوع، فأبدأ أنا وجارتي في الشقة المقابلة لي بسكب الماء المخلوط بسوائل التنظيف وبعض العطور، وغسل المساحة المشتركة بين الشقتين والسلم المؤدي إلى الطابق الذي يلينا، فتستلم سيدتان من الطابق الثالث المهمَّة بعدنا فنكون أنا وجارتي أنهينا الشطر الخاص بنا، وهكذا حتى تكتمل المهمَّة.

شقتنا مكونة من مدخل متوسط الحجم وإلى الشمال منه توجد غرفة صغيرة إلى حد ما، مربعة الشكل فرِّشتْ بسجادة لتحيط بها مراتب إسفنجية بسُمك عشرين سنتيمترًا تقريبًا غُلِّفتْ بقماش سميك من (القطيفة المزركشة)، زودتْ بمساند من نفس المادة الإسفنجية ونفس التغليف، هذا الفرش يحيط بكل أضلاع الغرفة، هذا النوع من الجلسة الأرضية يطلق عليها (كعميز)، وهذه كلمة بلغتهم الدارجة تعني الجلوس على الأرض، وهذا هو فقط ما يتضمنه تأثيث هذه الغرفة والمسمَّاة (المربوعة)، وهي مخصصة لزيارة الرجال من الغرباء، واحتسائهم للشاي الأخضر غالبًا مع الحلويات المعَّدة منزليًّا... هذه الحلويات هي نفس الحلويات التي تعَّد في أيام الأعياد الدينية، فهي عبارة عن سبعة إلى عشرة أنواع يجب تحضيرها بكل عيد عند عائلة ولا فرق بين غني وفقير في إعدادها سوى بعض المكونات مرتفعة الثمن والتي تتضمنها حلويات العائلات الغنية، تحضر بأحجام صغيرة جدًا، تُقدَّم في صحون جميلة صغيرة الحجم تتسع لعدد قليل من هذه الحلويات وتُقدَّم هذه الأنواع السبعة أو أكثر أو أقل بقليل مع إبريق الشاي الأخضر مع ورق النعناع عادة وحتى مع

الشاي الأحمر في بعض الأحيان، الذي يُقدَّم بأقداح صغيرة طُلِيَّتْ بألوان جميلة من بينها اللون الذهبي، وهو اللون المشترك بكل أنواع الأقداح.

بعد حوالي عام من وصولنا.. عملنا جاهدين على مجيء بسمان إلينا بعد أن أكمل مهمته بنجاح مبهر؛ ليلتحق بكلية طب الأسنان وهوالاختصاص الذي أحبَّه دونًا عن حقول الطب المختلفة، لم يكن فرحًا بهذه الخطوة.. فقد ارتاح بحياته في بغداد، وهو الشخص الوحيد في منزل الجد والجدة يلتقي ببقية الأهل، وأهم ما في الموضوع شلّة الأصحاب المقربين والمحبَّبين ليس له فقط بل حتى لجدته وخالاته، فهم أصحاب بمعنى الكلمة وهم يرافقونه منذ المدرسة الابتدائية حتى أننا وذووهم ارتبطنا بعلاقة الصداقة نفسها، ومع كل هذا أذعن بسمان لطلبنا والتحق بنا في ليبيا.

درس بسمان في كلية طب الأسنان، حسان يواصل دراسته في إحدى الثانويات المعروفة هناك، ومسيرته الدراسية جيدة غير أنه مختلف عما كان عليه بسمان، إنه مجد لكن ليس إلى الحد الذي يتفوق على أقرانه، وأخيرًا زين في رياض الأطفال.

في نهاية السنة الثالثة لوجودنا في ليبيا استطاع عادل ممارسة مهنته كمهندس معماري مع شركة بناء كورية بالإضافة إلى التدريس في الجامعة، بعدها تفرَّغ للعمل في الشركة ليترك عمله في الجامعة الأمور المادية تحسنتْ بشكل واضح، الحياة الاجتماعية منسابة وتوطدتْ العلاقة مع بعض العوائل الليبية وطبعًا مع العوائل العراقية إلا أن الغربة تبقى تُخيِّم بثقلها على مجرى الحياة اليومية.. تبقى

الاتصالات بالأهل عبر الهاتف وفي كثير من الأوقات تكون صعبة بالنظر للوضع الآخذ بالتردي في بغداد، متابعة الأخبار على الساحة السياسية زادنا اليومي، لم يُعلن عن انتهاء العمليات العسكرية بعد؛ ليأتي يوم من أيام سنة ١٩٩٨م، فتُقصف أهداف معينة في بغداد!... لا خبر عن الأهل يصل لمسامعنا.. الاتصالات توقفتْ بصورة كاملة، غالبية أعضاء الجالية متواجدة في دائرة البريد محاولة الاتصال بذويها هناك، لم يفلح أحد منا بسماع ما يبعث الطمأنينة في نفسه، كل العاملين في طرابلس ومن شتى بقاع الأرض ومن مختلف الجنسيات كان يدخل إلى كابينة الهاتف في دائرة البريد، فيهاتف مَنْ يحلو له ويخرج، صورته المنعكسة من البوابة الزجاجية لكابينة الهاتف تنقل لنا ابتسامته، غضبه، قلقه، مشاعره يتبادلها مع مَنْ يتواجد في الطرف الثاني من الهاتف.. إلا العراقيين، أول جملة تتناهى لمسامعه حال إعطاء الرقم المطلوب للموظف.. بغداد...؟.. أنا آسف... فلا فائدة تُرجى من انتظارك، فإن كل المحاولات هذه اليومين باءتْ بالفشل. يا لتعاستنا! يا لحظنا العاثر!. حتى الاتصال بات بعيد المنال.

أمضيتُ أربع سنوات بالتمام والكمال وأنا في طرابلس.. تسرَّبتْ مني كل شحنات الحب الكامنة في قلبي.. تسرَّبتْ من بين يدي كل مقومات الصبر، لفني الحنين إلى بغداد ولمَنْ في بغداد.. لم أعد قادرة على البعد أكثر.. يهوى قلبي لملاقاة أحبتي هناك، حنين يشدني، يتقاذفني لمرتع طفولتي وصباي حتى مع وجود عائلة أختي ريم في ليبيا وفي مدينة تبعد حوالي الساعتين، تبادل الزيارات معها كل خميس لم تطفئْ جذوة الشوق في نفسي، وخاصة بعد أن اتخذتْ أختي ريم قرارها بالعودة مع أطفالها إلى بغداد.

رائحة القهوة تنعشني، رشفها عند الساعة الرابعة فجرًا، دخان أربع سجائر ينفذ في جو غرفة في الطابق العلوي والكل نيام.. نحن الأخوات الأربع قد التم شملنا مجددًا في بيت الأهل، أسرِّد ويسرِّدون لي أحداث أربعة أعوام كان نصيبنا خلالها الفراق، لم يعكر علينا خلوتنا وصحبتنا الآن شيء ولا حتى النعاس، ليالي طوال بتٌّ مسهدة في مخدعي في طرابلس، أتخيَّل وأتصوَّر هذه الأجواء، هذه الساعات التي تمر دون أن نشعر بدوران عقارب الساعة خلالها، وأنا بصحبة أخواتي في بيت الأهل بعد أن انسحب الأزواج عارفين بحاجتنا لهذه الساعات، انسحب منها أيضًا والدنا، أبناؤنا باستسلامهم لنوم عميق، لم يبقَ بصحبتنا سوى فناجين القهوة التركية والتي ما إن تفرَّغ حتى تُمتلأ مجددًا.

قررتُ البقاء في بيت الأهل ولمدة سنة لحين تجهيز منزلنا في منطقة القادسية بعد أن يكون المستئجر قد غادر، وهي فرصة كي أتأقلم على الأجواء التي غبنا عنها أربع سنوات بكل تغيُّراتها المتسارعة نحو الماضي!.. لم أستطع استيعاب شكل الشارع وما آل إليه.. من عتمة تلفه؛ بغياب النور من أعمدة النور..! تصدع أرصفته، افتراش البائعين المتجولين ما تبقى من الأرصفة وعرض بضاعتهم فوق صناديق الكارتون المقلوبة رأسًا على عقب، أسرَّة حديدية خفيفة النقل اتخذتْ منصات لعرض السلع، الأدوات الكهربائية المعروضة جُلُّها مُستعمل... بعد أن دفعتْ الحاجة المادية بالكثير من العوائل لبيعها، الزهريات المصنوعة من أرقى أنواع الكريستال لم تعد من مقتنيات العائلة البغدادية متوسطة الحال، فإن اقتناءها اقتصر على

عِلية القوم من تجار الحروب، تلك الطبقة التي تظهر في كل البلدان التي تعرَّضتْ للحروب لتثرى على حساب طبقات المجتمع المكوِّنة لمجتمع ما، أما ما يلفتْ النظر بحقّ هو وجود بائع يتكرر وجوده بعد كل عشرة بائعين تقريبًا... هو بائع القناديل والفوانيس النفطية وكل مستلزماتها وأدواتها الاحتياطية من (زجاجات رديئة الصنع، وخيوط منسوجة تسمى فتيلة)، خزان النفط الصغير، وهو أحد الأجزاء المهمة للفانوس... ولا يخطر ببالك أنه فانوس علاء الدين السحري... إنه ما كان يُستعمل في ثلاثينيات القرن الماضي قبل أن يخرج علينا السيد (أديسون) بمصباحه واختراعه الذي أنار العالم...

ومن الأشياء التي شدَّتني في الشارع البغدادي هو العربات التي تجرها الدواب.. فهي تسير جنبًا إلى جنب مع السيارات وأحيانًا كثيرة مع المشاة فوق الرصيف، فيجذبك صوت حوافر الدابة على الأرض وأيضًا صوت راكبها منبهًا إياك بلفظة تكاد تكون مشتركة بين كل قادة هذه الأنواع من المركبات، رافعًا صوته (بالك)، أي: خذ الحذر وانتبه لما وراءك من دابة تسير بطريق ليس مخصصًا لها على الإطلاق... السيارات التي تسير في الشارع متهالكة.. ينبعث منها الدخان الأسود، منظرها يبعث على الرثاء لحالها.. فلم يدر بخلد مصنعها من الشركات بأنها ستبقى بالخدمة طوال هذه السنوات، ومع قطع غيار أكثرها صُنع محليًّا في شارع مشهور ببغداد يطلق عليه (شارع الشيخ عمر) الخاص بتصليح وترقيع كل أنواع السيارات، الشيء المشترك في غالبية السيارات هو تعرُّضها لحوادث التصادم، مع تعمد عدم تصليحها وطلائها لعدة أسباب من بينها.. عدم جذبها للصوص... وتوفير مبلغ التصليح لجيب مالكها...

كانتْ أختي نهى تحدثنا عن الحالات المرضية المتردية وحالات السرطانات المتقدَّمة وقتلها للأطفال قبل الكبار، حالات التشوُّهات الخلقية، والتي لم يسبق لها أن شاهدتها سوى في الكتب الطبية المعتمدة منذ سنين، كل شيء في البلد تأثر سلبًا حتى الأجنة في بطون أمهاتها بل حتى الأجنة في عالم الذر، ومما زاد الطين بله شحة وغياب الأدوية لشمولها في الحظر، إلا ما هو أنكى من تأثير الأسلحة وشحة الأدوية، تعمد المسئولون في وزارة الصحة وبتوجيه من الجهات العليا على إتلاف الكثير منها... ليس لانتهاء صلاحيتها مثل ما هو معمول في كل العالم... لكن في محاولة لتضليل الرأي العام والمنظمات الإنسانية والتي غالبًا ما تزور القطر للوقوف على الحالة عن قرب وإعطاء صورة ضبابية لما يجري، هدفها الحصول على موافقة مجلس الأمن بتسلم جزءًا من عائدات النفط والمخصصة لشراء الأدوية من قِبل لجان تعمل تحت إشراف المجلس، لتتسلمها الحكومة وتعمل على شراء الأدوية بنفسها والتصرُّف كما يحلو لها... قسم كبير من هذه الأدوية تعدم إما بالحرق أو حتى برميها إلى نهر دجلة لتقليل المغص وحالات الإسهال لدى أسماكنا العزيزة...! أما القسم الأهم فيتم تداوله بين التجار وحيتان السوق ليصل لأيدي الباعة المتجولين والمفترشين الأرصفة في كل المناطق السكنية، وهي عرضة لأشعة الشمس الحارقة منذ الصباح حتى زوال الشمس ونزول المغيب، فتباع بأسعار مضاعفة يضطر أهالي المرضى لبيع ما تبقى لهم من أثاث المنزل لشراء علبة واحدة لدواء مرض عضال ابتلي أحبُّ الناس وأعزَّهم لقلوبهم.

حدثتني صديقة لي هامسةً بأذني، وهي تعمل كمهندسة كيمياوية بإحدى منشآت الدولة، يؤرقها ما ترى، يؤنبها ضميرها على السكوت عن الأخبار عن ممارسات لا إنسانية، إنها تسأل نفسها دائمًا... إذا أرادتْ إخبار المسئولين عن هذه التجاوزات فمَنْ يقترف هذه الممارسات!.. هم المسئولون أنفسهم!... أتتجاوزهم فتخبر أفراد الحكومة؟، فإن مَنْ يعطي الأوامر على اقترافها هي ذاتها الحكومة!.. كانتْ صديقتي تعمل ضمن مجموعة في تشغيل وحدات تصفية المياه الثقيلة الضخمة في إحدى مناطق بغداد، إن المضخة تم تنصيبها منذ سنوات طويلة وطويلة، وهي تعمل بأقصى طاقتها مع بعض أعمال الصيانة الخجولة.. ومع تقادم العمر والعمل المستمر وقلة الصيانة أخذتْ تتلكأ بعملها، ضرب موعد للجنة تفتيش لزيارة موقع المضخة، وقبل الموعد بأيام قام المسئولون عن تشغيلها... ليس كما تفكر ويفكر كل إنسان رشيد... قاموا بتوقيفها عن العمل ليس لإقناع اللجنة بضرورة إنشاء غيرها أو القيام بعملية تجميل للمضخة العجوز؛ لتحسين وضعها والتقليل من فعل قساوة الزمن الطويل على هذه العجوز الشمطاء، بل محاولة ساذجة لرفع الحصار، وبتوقفها وُجهتْ المياه الثقيلة إلى نهر دجلة!.. ليكون منبعًا جديدًا له... مسكين أنت يا دجلة يا مَنْ تغزل بك شاعرنا الكبير الجواهري، وقال: "يا دجلة الخير يا أم البساتين".

أمضيتُ سنة في بيت الأهل وكذلك أختي ريم، فهي وأولادها في بيت الأهل حيث إن زوجها هو الآخر في ليبيا... عملتُ على تهيئة بيتنا وبعدما تركناه لعدة سنوات، اختلفتْ متطلباتنا الآن، فإن مَنْ كانوا

أطفالًا بالأمس صاروا شبَّانًا اليوم، ومن غير المنطقي تقاسمهم لغرفة واحدة، فلكل منهم مرحلة ومتطلبات مختلفة.. بسمان الآن طالب في المرحلة الثالثة من كلية طب الأسنان، أما حسان ففي الصف الخامس ثانوي، وزين في رياض الأطفال... كنا بحاجة ماسة إلى وجود عادل معنا إلا أن العقل يملي علينا تحمل بعده عنا لتوفير متطلبات الحياة إضافة إلى تعذر عودته للبلد في مثل هذا الحال، لم يعد عادل قادرًا على العودة إلى التدريس بالجامعة مع كل التغيرات التي طرأتْ على الحياة الجامعية الجديدة، فإن القيم والاعتبارات التي اعتاد عليها عادل أصبحتْ في مهب الريح، علاقة الطالب بالأستاذ اختلفتْ، تقبل الأستاذ مجبرًا الدروس الخصوصية بما لا يقبله العقل والمنطق كل هذه الأمور لا تلائم عادل، حتى وإن سلَّمنا جدلًا بقبوله ما يجري، فإن ما يستلمه زملاؤه من راتب لا يسد مستلزمات يوم واحد!.. إن ما يتقاضاه الأستاذ الجامعي الآن يُعد مهانة!.. إن ما يعادل الخمس والعشرون دولارًا شهريًا لا يمكن وصفها غير مهانة، أما لو فكرنا باشتغاله كمهندس معماري وهذا جانب مظلم آخر من الجوانب المظلمة الكثيرة في حياة البلد، فإن الحركة العمرانية الآن مقتصرة فقط على ما يسمى القصور الرئاسية التابعة لحاكمنا وأفراد أسرته على وجه الخصوص، فلا يوجد معها موطئ قدم لعادل آثرنا بقاءه في ليبيا تماشيًا مع ما يمليه علينا العقل، غاضين النظر عما تمليه علينا مشاعرنا.

اليوم هو الثامن والعشرون من شهر نيسان... وهذا تاريخ أُجبرنا على تذكره كل عام... هو ليس ذكرى لميلاد أحد الأولاد ولا حتى عيد زواجنا مثلًا... إنه ذكرى ميلاد القائد..!.. إذ هو ليس كأحد الأيام وليس كباقي أعياد الميلاد، إنه كرنفال احتفالي صاخب بكل ما تحمل الكلمة من معنى، متجددة هي مظاهر الاحتفاء به، الكثير من طلاب المدارس ورياض الأطفال في كل المحافظات يتدرَّبون على أداء لوحات فنية بحضرة المُحتفى به، قالب الحلوى (كيكة الميلاد) هي حديث الناس كل سنة.. إبداع المصمم والمنفذ، قياساتها، كلها تؤهلها لتندرج في كتاب (كنز للأرقام القياسية)، ما يرتديه من أزياء غريبة، طريقة دخوله القاعة.. تارةً يدخل بعربة أشبه ما تكون عربة الجميلة (سندريلا).. تارةً يعتلي صهوة جواد عربي أبيض اللون.. وغيرها الكثير، كل هذا وذاك مقبول لدينا.. إلا أن من غير المقبول بمكان عدم مشاركة الأطفال والطلاب بقطع من قالب الحلوى الفاخر المعروض أمام أعينهم المفتقدة له في حياتهم العادية.

عادتْ ابنتي من الروضة ككل الأيام، وكعادتي أيضًا وكأي أم أن أعمد إلى فتح حقيبتها المدرسية فأخلصها من بقايا الطعام، وبعض من قطاط الأقلام الملونة إلى غير ذلك، وأنا منهمكة في تنظيف الحقيبة وإذا بي بقشر موز!... أنا لم أبعث معها الموز!.. لعدم توافره بالأسواق ولغلاء ثمنه فيما لو توافر!... خاطبتُ نفسي... قالتْ صديقتي، وهي تحدثني عن موقف آثار شجونها وحملها على البكاء على حال طفلتها، وهو حال كل الأطفال في بلد النفط والثراء... ناديتُ ابنتي لأسألها عن مصدر هذا القشر؟... أجابتْ بعفوية شديدة:

- إن إحدى زميلاتي في الروضة حضرتْ اليوم ومعها موزة كبيرة صفراء، فأعجبتني واشتهيتُ قضمة منه، سألتها أن تعطيني قطعة صغيرة لأتذوقها رفضتْ... عرَّضتُ عليها كل ما أحضرتُ من طعامٍ مقابل قضمة؛ فأبتْ... انتظرتُ حتى انتهتْ من أكلها للموزة، أسرعتُ فأخذتُ القشر قبل أن ترميه في سلة المهملات لأشم رائحته على أقل تقدير!، واحتفظتُ بالقشر في حقيبتي كي تعم الرائحة بها.

جعلني هذا الكلام من ابنتي أن ألف كل أسواق بغداد للحصول على الموز وبأي ثمن، حتى لو كلفني هذا إكمال بقية الشهر بالاستدانة، حصلتُ عليه أخيرًا جلبتها لابنتي فاستمتعتْ وتلذذتْ بكل قضمة، أجبرتها على أكلها في البيت حفاظًا على مشاعر بقية الأطفال ممن يتعذَّر على ذويهم توفيره.

ذهبتُ لدائرة البريد في منطقة العلوية القريبة من دار أهلي لاستلام طرد قام عادل بإرساله إلينا، وكان غالبًا ما يرسل إلينا بالطرود وعلى فترات متقاربة، اضطررتُ للبقاء في مبنى البريد لحوالي ساعتين بانتظار موظف الجمارك؛ ليكتمل النصاب اللازم توافره بعملية التسليم.. فهو واحد من ثلاثة موظفين، الأول من دائرة البريد، الثاني من دائرة الأمن، وموظف الجمارك.. حضر أخيرًا، قاموا بفتح الصندوق لتفتيشه.. اتسعتْ أعينهم.. ازدادتْ ضربات قلوبهم.. احتارتْ عقولهم... لوجود ممنوعات... هي ليست متفجرات طبعًا.. ولا مخدرات.. إنها حلويات؛ مصاصات وحتى علكة!... صرخ موظف الأمن: ممنووووووع... أقفل عائدًا للجلوس في مكانه.. تحيرتُ أنا الأخرى من هذه الممنوووووع، خاطبتُ نفسي: علها

تدخل في صنع الصواريخ عابرة القارات؟! أم لربما تساعد في صنع القنبلة الذرية...

- اعذريني سيدتي إن الطرد يحوي ممنوعات!... قال بشي من التهذيب موظف البريد.. ليس بوسعنا تسليمها لكِ.. هذا ليس من صلاحياتنا...

- استهجنتُ الفكرة، وقلتُ له: ماذا تقصد؟!.. ما هو الممنوع حلويات الأطفال!...

- إننا بحصار أم نسيتِ ذلك..؟!... قال موظف البريد ملتفتًا إلى موظفي الأمن والجمارك...

- الحصار...؟!.. مَنْ الجهة التي فرضتْ الحصار يا ترى؟!... أجبتُ بسخرية واضحة...

- دول التحالف طبعًا.. وهذا شيء معروف للكل.. أم أنتِ بعيدة عن ذلك؟... أجابني الموظف بسخرية أكبر من سخريتي تشوبها بعض الصرامة...

- نعم إنهم دول التحالف طبعًا.. لكن مَنْ يمنع أطفالي من تناول الحلويات الآن ليس دول التحالف بل أنتم!... أجبتُ بشدة غير آبهة بمَنْ حولي...

- أرجو أن تكوني مدركة لما تقولين... أجاب موظف الجمارك محذرًا إياي...

- المشكلة هي أنني مدركة تمامًا لما أقول، وإلا ما دخل دول التحالف الآن.. أنا مواطنة عراقية أقف في دائرة بريد عراقية وأمامي موظفون عراقيون ومَنْ بعث بهذه الأشياء أب عراقي؛ ليتناولها أطفاله العراقيون.. إنكم بهذا المنع تساندونهم بإيذاء وحرمان أطفالنا.

- أنا لا أفقه كثيرًا مما تقولين... أجابني الموظف بخبث.. كل ما أعرف هو عدم السماح لهذه الممنوعات بدخول البلد...
- إنها دخلتْ فعلًا، وإذا لم أستلمها فهذا يعني لي شيئًا واحدًا.. إلا أنني أحجمتُ عن تكملة كلامي، فشجاعتي لم ترقَ لأكثر من هذا المستوى.. كَمَلتُ الكلام بعد سماعي لصوتي الثائر وقلتُ: هذا يعني أن أطفالي سيُحرمون منها كما هم محرومون من والدهم الغائب عنهم، ولا أتصوَّر بأن قلبك الرحيم يقبل بحرمانهم مرتين.. تخيَّل أن أطفالي وأطفالك يتقاسمون هذه الحلوى ويفرحون بها...
- والحصار يا سيدتي؟... قالها بصوت هادئ ورصين، وهو يفكر بالصفقة التي حارب من أجلها...
- إنه ظالم يا سيدي... أنا أعرف... ولكن ما ذنب أولادي وأولادك؟... إنها دخلتْ البلد ومن غير المعقول رميها في الحاوية وكسر قلب الأطفال، وسأطلب من زوجي عدم إرسال الحلوى مجددًا...
- لا داعي لإثارة حزن الرجل وهو في غربته.. دعيه يفرح بإرسالها.

(٢٠)

رنَّ جرس الباب.. كم انتظرنا رنته.. تسابق الأولاد لفتح الباب ومثلهم فعلتُ أنا... إن مَنْ يضرب جرس الباب هو مَنْ ننتظر لسنتين.. إنه عادل.. فسحقًّا للمنطق.. وسحقًّا للعقل... ولتحيا العاطفة... فما قيمة العيش ونحن مفترقون، ما قيمة لقمة العيش معجونة بدموعنا شوقًا له، ما قيمة النوم على فراش وثير يستلقي بجانبي زين ينتفض بنومه اشتياقًا واحتياجًا لوالده، ما قيمة توصيلي لحسان بسيارة (بي ام دبل يو) فارهة، ومنعي بسمان من قيادتها وهو الشاب خوفًا عليه من عملية تسليب تطاله، هذه السيارة التي جلبها لنا عادل بزيارته إلينا قبل حوالي العام، تعمد على اختيار ما أهوى (بي ام دبل يو) حديثة موديل ١٩٩٠م.. نعم.. نعم أنا مدركة لما أقول إن تاريخ صنعها يعود لاثنتي عشرة سنة مضتْ، لكن عندما تُعتبر سيارة تويوتا كرونا موديل ١٩٨٠م هبة السماء لمالكها في سنة ٢٠٠٢م تصبح سيارتي مثارًا للحسد ومحط أنظار الجميع.. هذا ما وصل إليه اقتصاد بلد الحروب...

عودة عادل إلينا هي هبة السماء بحق.. الآن والآن فقط تكاملنا؛ لنصبح عائلة.

في هذه السنة وبشهر تموز تحديدًا.. كان بسمان على موعد سعيد بحياته، وكذلك نحن، إنه تخرَّج في كلية طب الأسنان وأصبح طبيبًا يمارس عمله ضمن ما يعرف بقانون التدرُّج الطبي، وهو المسيرة التدريبية لكل خريجي المجموعة الطبية، إنها تستغرق من ثلاث

سنوات إلى أربع سنوات، يتنقل خلالها الطبيب عبر مستشفيات البلد الواقع منها في مراكز المحافظات مرورًا بالأقضية والنواحي، إنه قانون معمول به منذ زمن بعيد، إنها فترة تدريب حقيقية للخريج، وفي نفس الوقت استفادة البلد بمدنها وأقضيتها من خدمة الطبيب، كان نصيب بسمان هو محافظة البصرة بجنوب العراق والتي تبعد حوالي أربعمائة كيلومترًا عن بغداد في مستشفى المحافظة... كان لوجود عائلة صديقة امتدتْ صداقتنا بهم من أيام الخدمة بالجزائر، وهي من العوائل المحبَّبة لقلوبنا، وهي ذات السيدة التي آلتْ على نفسها الاستراحة أو حتى الجلوس قرب سريري أثناء ولادتي لزين... كان لوجودهم في البصرة فهم من سكانها الأثر الطيب على وجود بسمان هناك، لم يكن تخرُّج بسمان والتحاقه بالوظيفة هو الحدث الوحيد لهذه السنة... بل الطفرة العلمية والتقنية التي عاشها البلد بعدما تكرَّم الحزب والثورة بربطنا بمنظومة الإنترنت العالمية.. لتشترك بهذه المنظومة يترتب عليك السعي والمثابرة ومتابعة الدائرة المختصة لعدة مرات، ودفع مبلغ ليس بالهين فتصبح بذلك أحد مستخدمي أقدم منظومة عرِّفتْ بهذا المجال.. وأبطئها على الإطلاق، هذا بالإضافة لمحدوديتها، فكان لزامًا علينا القبول والإذعان بل والخنوع لمواقع تم اختيارها مسبقًا من قبل دائرة المخابرات، ومع ذلك كنا فرحين بل ممتنين، ومن بين التطور العلمي الذي حظينا به أخيرًا هو السماح للهواتف المتنقلة أو ما يسمى بالهواتف اللاسلكية بعيدة المدى... لإكمال عمل الهاتف الأرضي، وبالطبع لا يخلو أي قرار حكومي لصالح الفرد من كلمة ممنوع... فقد مُنعتْ بعض الأنواع من الهواتف اللاسلكية من الاستعمال لتداخل ذبذباتها مع

بعض ذبذبات هواتف الشرطة حسب ما علمنا، وهذا النوع بالذات ما جلبه عادل معه بطلب من حسان، فعلى الرغم من كثير من المراجعات والمتابعات لم يُسمح لنا باستخدامه.. أكثر مَنْ حزن على هذا المنع هو حسان، فقد كان يتطلع كمَنْ مثله بالعمر إلى استخدام أحدث الأجهزة، إلى التفاخر بمنتخب بلده لكرة القدم ونتائجه المبهرة على الصعيد العربي والدولي، كان بحاجة ماسة إلى ما يثبت به صدق ما نخبره به عما كان عليه بلدنا قبل التخلُّف الذي مُنينا به جراء الحروب والسياسات غير الحكيمة...

أصاب التخلُّف كل مفاصل الحياة ومن بينها المنتخب،، لقد احتل الترتيب الأخير ضمن الترتيب العربي كنتائج، وكتجهيزات واستعدادات، معسكرات تدريبية تكاد تكون معدومة، الطاقم التدريبي المحلي والذي ينطبق عليه ما ينطبق على البلد من عدم محاكاة للتقدُّم في مجاله، والأدهى والأمرّ في كل ذلك ما يتعرض إليه أفراد المنتخب من إهانات وعقوبات نفسية وجسدية ما أنزل الله بها من سلطان على يد مَنْ يعتلي الهرم الرياضي في البلد!.. ومَنْ له الحق بهذا المنصب غير ابن الحاكم...؟!.. فحتى رياضتنا محكومة بالحديد والنار، كان حسان بحاجة لقدوة يتخذها منارًا لسلوكه وتصرُّفاته.

لم يتسنَّ لحسان اجتياز عقبة السادس ثانوي، إنه حتى لم يحضر الامتحانات النهائية، صعُّب علينا امتصاص غضبنا في بداية الأمر إلا أن الإذعان للأمر الواقع فضيلة.

استمر عادل بالبحث المكثف عن عمل دون جدوى أو نتيجة تُذكر ومع كل هذا لم يرضخ لمقترحات الكثيرين من حولنا بالعودة إلى التدريس بالجامعة.

(٢١)

عادتْ طبول الحرب تقرَع بطبلات آذاننا، وهل اعتادتْ آذاننا سماع غيرها، بدأت أزمة جديدة تلفُّ الأجواء هي أزمة ما يسمى لجان التفتيش، هذه اللجان التي تبحث في كل بلد عن أسلحة دمار شامل.. لم يقم هذا البلد باختراعها أو تصميم مصانعها، إن هذه الأنواع من الأسلحة المتطورة في الفتك والتدمير هي حِكرٌ على دول بعينها ويُعاقب مَنْ يسعى لامتلاكها دونهم! ـ إنه قانون حكم القوي على الضعيف ـ ليبقى القوي قويًا والضعيف أضعف، وهذا قانون التوازن في الطبيعة!... لجان تجوب البلد تُفتح لها كل الأبواب المؤصدة، حتى مخدع الحاكم لم يسلم من التفتيش..! كلما فُتحتَ لهم باب بعيد أصرُّوا على فتح الأبعد، وهذا ما جلبه علينا تبختر ورعونة الحاكم عبر استعراضاته العسكرية المتكررة والتلويح باستخدام ما تم عرضه بمناسبة وأخرى.

بات لِزامًا علينا تخزين المواد الغذائية وأتصوَّر بوضوح عدم حاجتي لإعادة الخطوات اللازم المرور بها للتحضير للحرب لكثرة ما كررتْ عبر هذه السطور... فقط ما زاد علينا هذه المرة احتياطات فرضتها امتلاكنا للتكنولوجيا الحديثة... كان لِزامًا علينا تغليف الحواسيب بورق الألمنيوم الخفيف لتفادي تعطلها فيما لو طبقتْ دول التحالف ما تلوح به من إطلاق قنبلة إلكترونية تعمل على تعطيل عمل كل الحواسيب صغيرها وكبيرها بل وإتلاف خلاياها بالكامل، هذا الخبر تناهى لمسامعنا عبر وكالة (يقولون) ذائعة الصيت،

ولكن.. مَنْ يدري احتمالية أن يكون من وراء هذا الخبر تاجر قام باستيراد الكثير من ورق الألمنيوم ولم يحظَ بتسويقه بصورة سريعة والحرب على الأبواب...؟!، فلا مزاج لربة البيت لتغليف المشويات للمحافظة على طراوتها، والتجارة غالبيتها شطارة!.. المهم غلفنا حواسيبنا وبقى همنا على حاسبة سيارتنا!، وكأننا ضمنا بقاءنا على قيد الحياة وبقي علينا الاهتمام بحياة حواسيبنا.

إن ما حدثتكم عنه من دخول بعض التكنولوجيا الحديثة لمجتمعنا إلا أنه أَبقي على تنصيب منظومة الستالايت للمنازل ضمن الممنوعات بل ضمن المحرمات، وسن قانونًا رادعًا بالحكم على صاحب المنزل الذي يُظبط متلبسًا بتنصيب هذه المنظومة بالسجن لمدة ستة أشهر ومصادرة المنظومة؛ لفرض تعتيم إعلامي على الشعب!.. لم يردع هذا القرار بعض مَنْ امتلكوا الشجاعة والذين كانتْ القنوات الفضائية ومشاهدة برامج التلفاز كل حياتهم، أقدموا على إخفاء جهاز الاستقبال بأماكن محصنة ومقفولٍ عليها في بيتهم، تحسبًا للفتْ نظر أحد الزوار أو حتى الأطفال الذين لا يعون خطورة الأمر، فيفشي بالسر حتى دون علمه، أما بالنسبة للصحن فقاموا بتثبيته على قاعدة متحركة يمكن لهم أن يخفوها تحت شجرة في حديقة المنزل أو تحت أي غطاء فوق السطح، فإن السمتيات اتخذتْ من العثور على الصحون فوق سطوح المنازل عملًا بديلًا لها عن العمل العسكري الموجه ضد العدو، والذي افتقدناه في معارك عام ١٩٩٠م.

إن التصريحات النارية الصادرة عن الحكومة كانت هي مادة السهرة التي تسلي وتحلي ليالينا.. كثيرةً هي الليالي التي تندمج بها نشرتنا

الأخبار، أقصد نشرة الثامنة مساءً والعاشرة منه، لنقل صورة وكلام الحاكم وهو يفكر بصوت عالٍ مع نفسه.. المظهر الذي يبدو عليه هو مناقشة القيادات العسكرية والحزبية حول الموقف الراهن.. لكن حقيقة الأمر هو مناقشة أفكاره مع نفسه.. فلا لأحد من القيادات إبداء رأي حول الأفكار المطروحة ليس فقط الرأي المخالف بل وحتى المؤيد كي لا يخطف شيئًا من الأضواء، أو أن يشغل بعض الدقائق من السيد الرئيس وهو يتوعد الأعداء بتلقينهم درسًا من دروس الخطط العسكرية... وكيف سيتواجهون بأعداد من أفراد قواتنا الباسلة تخرج لهم من باطن الأرض بكامل عدتهم وعتادهم، فيشعلون الأرض جحيمًا تحت أقدامهم!، فيلعنون الساعة التي فكروا بها في منازلتنا!؛ ليخيَّل للسامع أن الحرب ستدور رحاها في زمن القعقاع ذلك القائد العسكري، والذي يكن له كل الاحترام والتبجيل كان لِزامًا علينا الاستماع إلى ساعتين أو أكثر لهذه التصرِّيحات الهزلية!.. تبدأ عند الساعة الثامنة بعدما يلقي على مسامعنا أحد المذيعين موجزًا عن زيارات السيد الرئيس، ليعقب بعدها ويقول الجملة المعهودة والتي باتت تُستعمل من قِبل المواطنين للتندر بطول الكلام.. وإليكم التسجيل الكامل.. حتى نعمد لإطفاء التلفاز لأننا لسنا بحاجة لسماع كلام لا يمتْ للواقع بأيَّة صلة عدا أنه مكرر ومستهلك.

كان نصيبنا دائمًا من المواعيد ليس المواعيد الغرامية أو الرومانسية لكن مواعيد نهائية لبدء الضرَّبات الجوية العسكرية؛ لتمطر السماء علينا حِممًا ونارًا، هي تلك المهلة الممنوحة لسيادته على أمل العدول عن مواقفه المتشنجة والاستعراضية، والسماح للجان التفتيش للقيام

بأعمالها المناطة بها، كذلك عرضوا عليه التنحي والنزول من قمة الهرم السياسي في البلد واختيار أي دولة بالعالم؛ لتمنحه اللجوء السياسي والذي يضمن له الاحتفاظ بماء الوجه مع كامل أرصدته فلكية الأرقام والمنتشرة عبر دول العالم والعيش بسلام وترك البلد يختار مصيره، إن أعضاء دول التحالف كلهم على يقين بأنه سوف يختار البقاء والدخول في حرب غير متكافئة معلومة النتيجة مسبقًا، إنه يطبق سياسة الأرض المحروقة بكل حذافيرها، خلال هذه الفترة.

ومن ضمن التحضيرات للحرب اتجهنا أنا وعادل؛ لتصرِّيف ما تبقى معنا من دولارات كانتْ بحوزة عادل، وصل تدهور الدينار العراقي ذروته.. أصبح الآن الدولار يساوي ثلاثة آلاف دينار عراقي.. إنها كارثة اقتصادية لم يسبق لها مثيل، وبعملية حسابية بسيطة توصلنا إلى حقيقة مرة مرارة العلقم لا يمكن لأي محب لبلده تقبلها والتغاضي عنها، فبتسلمه لسدة الحكم عام ١٩٧٩م كان سعر صرف الدينار العراقي هو ثلاثة دولارات وأكثر بقليل.. أما الآن فإن الدولار يساوي ثلاثة آلاف دينار، وهذا يعني تدهور العملة لعشرة آلاف مرة!!.. الشكر كل الشكر للقيادة الحكيمة.

وصلنا إلى قناعة أكيدة بأن المعارك ستدور رحاها في الشوارع.. وقد تولدتْ هذه القناعة قبل انتهاء المهلة المحددة بحوالي ثلاثة أسابيع تزيد أو تنقص حيث إنني استيقظتُ صباح يوم على أصوات آليات حفر وما إلى ذلك، أزحتُ الستار السميك عن شباك غرفتي لأتبين مصدر الصوت، فرأيتُ أُناسًا يعملون بكل همة ونشاط على هذه الآليات لعمل حفرة أمام المنزل قريب من السكة الحديد أدهشني

المنظر وأفرحني لاعتقادي الساذج أنهم يعملون على غرس أشجار وتنظيف المكان بعدما أصبح مكبًّا للقمامة عند تأخر سيارة الأزبال عن الوصول للمنطقة وهذا ما يحدث كثيرًا، وما إن استدرتُ، إذا بالهاتف يرنُّ.. أسرعتُ صوبه...

- صباح الخير يا لميس، أخشى أن تكونوا نائمين... جاءني صوت جارة لي تسكن نفس الشارع وعلى بعد مئتين متر تقريبًا، وهي قريبة لي بذات الوقت...

- صباح الخير.. أنا صاحية اطمئني... فقد صحوتُ على صوت آليات الحفر المزعج... الظاهر إنهم اتخذوا قرارًا بتجميل المنطقة والاهتمام بنظافتها أخيرًا.

- إنهم يحفرون الخنادق!.. عن أي نظافة تتحدثين...؟! هم لم يهتموا بالتنظيف أيام السلم، فهل سيهتمون أوقات الحرب؟!... أجابتني جارتي مستهزئة من تفكيري وحانقة بنفس الوقت... اتصلتُ بكِ لأتأكد من أن الشارع على طوله سيتحول لمنطقة عسكرية ـ إن شاء الله ـ وهذا يعني أننا سنتابع المعارك من خلال نوافذنا.

- أنتِ على حق، بالأمس أيضًا لاحظنا وجود حفر كبيرة محاطة بالمتاريس الكثيرة عند مدخل جسر الجادرية (الجسر المؤدي إلى منطقتنا) وهذه الحفر الكبيرة مُلئتْ بمادة النفط الأسود وقد أُعدتْ لإشعالها لتكوين دخانًا أسود كثيف لتغطية سماء المنطقة والحيلولة دون تلمس طياري دول التحالف لأهدافهم العسكرية!... هم سيحاربوننا بطائرات الأواكس والشبح والقاذفات الذكية ونحن نحارب عبر دخان النفط الأسود!.. إنها فعلًا معارك متكافئة!.

الانتظار شيء صعب بكل الاحوال.. فكيف بنا ونحن بانتظار سماع صوت صفارة غير غريبة علينا؟!.. أصبح صوتها معروفًا ومألوفًا على مسامعنا لكثرة ما ترددتْ موجاتها الصوتية المرعبة عبر سنين الحروب، إن صوتها مرعب حتى أكثر من صوت القصف، لم نستطع تكوين علاقة صداقة مع صوتها رغم تكراره.. كيف لنا ذلك؟، فإن صوتها نذير خراب ودمار وزهق أرواح لا ذنب لها سوى أنها وُلدتْ على تراب وطن تمكن من رقاب أبنائه حاكمٌ عالج مرضه النفسي وأشبع نقصه بالتسلط على مصير شعب أقل ما يّقال عنه.. إنه شعبٌ عريق.

بعد التأكد من التحضيرات اللازمة للموقف وأهمها وجود شمعة بداخل الغرفة لعدم التعرُّض لمطب آخر على غرار ما تعرَّضنا له أثناء الحرب الأخيرة... ذهبنا للنوم في الغرَّف الآمنة المعَّدة مسبقًا، بدأنا بطرح مواضيع ما قبل النوم بعيدًا عما ننتظر... فهي الليلة الموافقة لانتهاء المهلة٢٠٠٣/٣/٢٠م غلبنا النعاس واستسلمنا لإغفاءة هادئة متناسين ما ينتظرنا.

فتحتُ عيني وأنا لا أستطيع التكهن بالوقت إلا أنه من المؤكد بعد منتصف الليل، تنير عتمة الغرفة أربعة أزواج من العيون فُتحتْ على أقصاها، فتصبح مع عيني خمسة أزواج من العيون المفتوحة.. المذعورة، والمستفسرة مع علمها المسبق بجواب سؤالها، سمعتُ ضربات قلبي بوضوح مشوبة بشعور مُرّ هو شعور الخيبة؛ لأنني وببساطة كنتُ أُراهن على عدم وقوع الحرب على الرغم من كل المؤشرات الواضحة، حاولتُ وبكل ما أملك من عزيمة وثبات تهدئة

الأولاد، لكن محاولاتي ذهبتْ أدراج الرياح، حسان يرتعد من الخوف إلا أنه يحاول إخفاء ما ينتابه؛ ليظهر لنا عكس ما يضمر على أساس أنه شاب والخوف ليس من شيم الشباب!، أما بسمان فإنه رجل وهو متزن ومؤمن ويحاول التوكل على الله قدر المستطاع، كيف لا؟ إن الخوف يُولد مع الإنسان والخوف على النفس والروح من بديهيات البشر، أما عن زين فإن مشاعره خليط بين الترقب، الخوف من مجهول لم يألفه ولم يمر به سابقًا، انتظاره لشيء لا يعي كنهه وكأنه يتابع فيلم رعب... تدخل عادل حاملًا مهمَّة الأب في مثل تلك المواقف، وطلب منا بصوت هادئ ورزين التوجُّه لخالقنا بالدعاء والصلاة والابتهال؛ لنسلم مما هو قادمٌ نحونا...
القصف كان شديدًا للغاية، أصوات القذائف تهز دواخلنا وأنفسنا كما تهز بيتنا..! الأرض من تحتنا ترتعدُ كلما ارتطمتْ ما تقذفه علينا الطائرات من حمولة مميتة مع الأرض..! كل شيء كان عنيفًا كما لم نواجه من قبل وعبر الحروب السابقة، إنهم يقذفون بشرر كالقصر... يوجهون قذائفهم نحو العديد من الأهداف في وقت واحد، موجات الغارات وأصوات الطائرات تداخل في مسامعنا ليس لها نهاية، لم نحتج معها لإيقاد شمعة.. فإن وميضها أغنانا عن ذلك، أجبرنا على التزامنا للصمت وحبس أنفاسنا وخفض رءوسنا دون قصد، لم تعطنا المجال حتى للتفوُّه بكلمة فيما بيننا.

بعد حوالي ساعة ونصف أو ساعتين هدأتْ قليلًا حدة القصف دون أن تنتهي، تذكرتُ اختراع اسمه الراديو، توجهتُ له وأدرته على محطة راديو بغداد تلقائيًا للاطلاع على ما يجري!.. كانتْ كوكب

الشرق أم كلثوم تصدح بصوتها العذب (هذه ليلتي وحلم حياتي)!.. إنهم يعملون على تطبيق مقولة "الأغنية المناسبة في الوقت المناسب"!.. أيُعقل ذلك؟.. أين هم من الحدث؟.. أم أن الحدث بمعزل عنهم إنهم حتى لا يتجرَّأون على إذاعة خبر بدء الحرب دون أن يتسلموا أمرًا بذلك!.. أدرتُ الموجة على الإذاعات الإخبارية العالمية علها تأثرتْ بالأحداث قبلنا جاءني صوت رئيس الوزراء البريطاني (السيد توني بلير) موجهًا خطابًا إلى الشعب العراقي!.. هو يوجُّه خطابه لنا وحكومتنا تريح أعصابنا ببث أغنية أم كلثوم.

علتْ حدة القصف مجددًا، شعرنا وكأن سقف الغرفة يهوي على رءوسنا.. رنَّ الهاتف، وكان جلبه إلى داخل الغرفة من ضمن التحضيرات، لم يفزعنا صوته ورنته بعد منتصف الليل ككل المرات، بل إن رنته تأخرتْ بعض الشيء...
- أهلًا بك.. لا تخف.. إننا لا نزال على قيد الحياة لحد هذه اللحظة على الأقل... قال عادل باستهزاء محدثًا لفرد من العائلة كما هو واضح.

توالتْ المكالمات الهاتفية، ما إن نضع السماعة حتى يعاود الرن وكأن رحى المعارك تدور في بيتنا، الكل يريد الاطمئنان علينا، وهذا بالفعل فإن وقوع مجمع دور الوزراء على بعد خطوات من بيتنا إضافة لوجود أحد دوائر المخابرات العامة، دائرة اتصالات المأمون ببرجها العالي، قصر من قصور الرئاسة، كلها أهداف عسكرية استراتيجية، كلها استهدفتْ الليلة، استسلم زين لنوم عميق!.. بسمان وحسان مستلقين بفراشهم يحتمون بأغطيتهم من القصف!...أما أنا

وعادل فكنا نقلب محطات الراديو بحثًا عن الأخبار، رغم تكرار خبر بدء الحرب على بغداد وإطلاق الصواريخ العابرة للقارات من منصاتها في بعض دول الخليج، وانطلاق أنواع الطائرات من على ظهر حاملة الطائرات الراسية بمياه الخليج، أقول على الرغم من تكرر نفس الخبر إلا أننا واصلنا الاستماع للمحطات المختلفة ومن ضمنها الخبر الأهم المذاع عبر محطتنا المحلية عبر صوت السيدة أم كلثوم إن هذه هي ليلتي وحلم حياتي!، وعبر المحطات الدولية التي تعلن بدء الحرب على العراق!.. تنقلنا بين المحطات وبين مدارة لنفسية الأولاد بإظهار الصبر والتوكل على الله، وبقراءة ما حفظته من سور القرآن الكريم، أجد نفسي أكرر آية معينة دون إكمال السورة والوصول إلى نهايتها لتشتتْ أفكاري مخلوطًا به الخوف والتوجُّس.

انجلى الليل ونحن على هذه الحالة.. ارتفع النهار، وبعدما تناولنا وجبة الفطور وبكل شهية!، وكأن الذي ينزل علينا ما هو ببارود وإنما حبات لؤلؤ تتهادى علينا من السماء!.. أو حبات بَرَد صغيرة تدغدغ مشاعر فلاح انتظر نزولها طويلًا، لا أعرف سببًا لهذا الهدوء الذي خيَّم على الجميع!...أهو إيمان بالله وبالقدر المكتوب الذي يصيبنا ما دام الله كتبه علينا؟!.. أو اعتياد خلايا عقولنا على مثل هذه الترددات الصوتية، ولا عجب فهذه هي الحرب الثالثة التي نشهدها.

اتصل بنا حمدي وأخبرنا بالمواقع التي اُستهدفتْ ليلة أمس وصباح اليوم، إن المنشآت المحيطة بنا كلها كانت لها النصيب الأكبر من الغارات والقصف الجوي العنيف على أن الأهم هو مصير المنازل

المحيطة بها فقد أصبحتْ ترابًا!... لقد انهارتْ على مَنْ فيها؛ لتكون قبرًا جماعيًّا لعدد لا يستهان به من الأشخاص بعد أن اجتمعتْ عدة عوائل تجمعهم القرابة مفضلين العيش أو الموت معًا، مثلما اجتمع بيت أهلي وبيت أختي نهى في بيت أختي حنان لِيهوّن الأمر عليهم جميعًا وخاصة على الأطفال حيث إنهم يقضون الوقت بالتسلي ببعض الألعاب والتحدث وإلقاء الفكاهات لاهين عما يجري حولهم من أحداث وأخبار مروعة.

عبثًا حاولنا إقناع عادل بالانضمام إليهم خاصة بسمان وحسان اللذين فضلا تلك الأجواء المسليَّة في بيت خالتهما على أجواء الترَّقب والحذر في بيتنا إلا أن عادل سمح لهما بالمبيت تباعًا هناك للترويح عنهم على أن نبقى أنا وهو في بيتنا.

تلك الأجواء ينعم بها بيت أختي حنان هي ما جعلتْ حمدي وزوج أختي نهى يذهبان في جولات تفقدية للكثير من المناطق السكنية المحيطة بهم وبمجرد انقضاء الليل؛ ليقفوا على مخلفات القصف الثقيل لليلة المنقضية.. إن أكثر شخص يعاني الخوف من القصف وبصورة ملفتة للنظر هي أختي نهى، وهذا يعود لحادثة قد تعرَّضتْ لها خلال إحدى الحروب التي تعرَّض لها البلد وما أكثرها، صحيح بأن حرب الخليج لعام ١٩٩١م قد انتهتْ نظريًّا لكن عمليًّا إنها مستمرة ومفتوحة، والقصف الجوي كلما ارتأتْ دول التحالف مناسبة لذلك!... ففي عام ١٩٩٤م قُصفتْ بغداد وليسقط أحد الصواريخ الموجهة والذي ضلَّ طريقه وهدفه لسبب مجهول، فقد هوى على بيت يقع قبالة بيت أختي نهى وعلى بعد عدة أمتار فقط، وأترككم مع

وصف شيق ومفصل لما حلَّ تلك الليلة وما جرى وعلى لسان شاهد عيان هو أختي نهى:

- ذهبنا لننام ككل ليلة أنا ومحمد زوجي وابنتي وعمرها إذ ذاك أربع سنوات تقريبًا، شيء عادي أن يتوجه الإنسان للنوم ليلًا... أتذكر أني فتحتُ عيني في وقت لا أستطيع تحديده، أهو نهار أم ليل؟! بالتأكيد لم يكن نهارًا لسبب بسيط هو عدم قدرتي على النظر لأي شيء من حولي، إن الظلام كان حالكًا، بحيث كنتُ أحاول أن أرى يدي فلم أستطع، الإحساس عندي بالوقت معدوم، في الحقيقة كل حواسي معطلة، لا أعي ما حولي، لا أرى، لا أسمع، شعرتُ بأُذني فارغة غير قادرة على تمييز أي صوت، فراغ رهيب يلفني، استجمعتُ أفكاري وذكرياتي محاولة التعرف على المكان أو الزمان، تبادر إلى ذهني سؤال: هل أنا في الدنيا أم في الآخرة ؟! لم يسبق لي أن شعرتُ بالفراغ يحيط بي من كل الزوايا، قررتُ مع نفسي أن أحاول الكلام عَلِّي أسمع صوتي، فرددتُ وبصوت مبحوح:

محمد، محمد!..

تناهى إلى مسامعي أخيرًا صوت مبحوح آخر يقول: نهى أأنتِ معي هنا؟! نحن في الآخرة؟!.. لقد جمعنا الله في الآخرة كما جمعنا في الدنيا.

- طلبتُ منه أن نحاول أن نمد أيدينا ونلوح بها في كل الاتجاهات، فهل يا ترى ستلتقيان...؟

- أنا مددتها بالفعل يا نهى، فِلمَ لم تمدّي يدكِ أنتِ؟.. قال محمد بنفس الصوت المبحوح.

ـ أنا مددتها، أنت مَنْ لا يمدها.

ـ أنا أحاول بالفعل، أنتِ مَنْ لا يحاول يا نهى.. أجابني بيأس، هذا يؤكد نحن بالآخرة...

مرَّ علينا وقت لا أستطيع تقديره ونحن نجهل بالكامل ما حلَّ بنا، قفزتْ لذاكرتنا وفي وقت واحد بأننا تعرَّضنا لقصف أو ما شابه ذلك، الظلام الدامس والهدوء المطبق يلفنا، حاولتُ القيام من السرير لأتلمس طريقي إلى ابنتي وأنا أتهجس، يغمرني خوف يعصر قلبي، فأين يا ترى صوت ابنتي ؟!.. هل يُعقل أنها لا زالتْ نائمة ولم تصحَ بعد كل هذا؟! هي ثوانٍ حتى أصل لسريرها ولكن خليط الأفكار يتزاحم برأسي، وكالعائدة في مثل هذه المواقف فإن التنبوءات التعيسة تتصدر كل التكهنات، وصلتُ لسريرها، وقد تأكدتُ من وصولي له لأني أمسكتُ فروًا ناعم الملمس إنها لعبتها التي تنام معها عادة!... مددتُ يدي لتطول أي جزء من جسم ابنتي، شعرتُ بيدي تمرُّ على لحم آدمي طري، ينبض بالحياة، تأكدتُ من سلامتها من أي جرح... حمدًا لله، تركتها مستغرقة بنومها، شعرتُ بسائل حار لزج بين أصابع قدمي، وشعرتُ كذلك بأجسام باردة مدببة تفرِّش الأرض، إنه الزجاج، أكيد إنه الزجاج.. عرفتُ بأني أُصبتُ بجروح في قدمي لملامستي للزجاج، تفاجأتُ من تمكني مشاهدة باب الغرفة لأول مرة!.. إنه زوجي استطاع أن يصل إلى التورش لايت والذي يتسلح به عادة بجانب رأسه، هذا ما يفعله كل أفراد الشعب العراقي، إنها خبرة الحروب.. الأرض مفروشة بشظايا الزجاج، أنا وزوجي نسير حفاة والدماء تسيل من أقدامنا حتى دون أن نشعر بألم من أي نوع.

- انظري يا نهى... هتف زوجي... مكيف الهواء على وشك السقوط في أيَّة لحظة... يا الله شيء مرعب حقًّا، المكيف خُلِعَ من الجدار لشدة القصف وكاد يقتلنا بسقوطه على السرير ونحن نيام لولا لطف الله بنا...

كل زجاج الشقة قد تهشم!... تمزقتْ الستائر بالكامل، باب شرفة المطبخ ساقط على الأرض، هالني المنظر، سمعتُ صوت زوجي ينادي من غرفة النوم: نهى... تعالي إلى هنا وانظري...

هرعتُ إلى مصدر الصوت... إنه متسمر أمام أحد جدران الغرفة دون كلام أو حراك، يركِّز نظره صوب فتحة كبيرة فيه..

- ما هذه الفتحة يا محمد...؟! وكيف حدثت..؟!.. سألته والدهشة ممزوجة بالخوف تنط من صوتي.

- إنها شظية صاروخ على أكثر الاحتمالات قد اخترقتْ الجدار لتعمل عملها.

- أنا لا أتحمل البقاء بهذا المكان أكثر من ذلك... البيت قد دُمرَّ عن بكرة أبيه... فلنخرج من هنا يا محمد.. هيا بنا.

- البرد شديد بالخارج... اعتني أنتِ بابنتنا، دثريها بما تصل يدكِ له، وأنا سأُحاول العثور على مفاتيح السيارة مع هذه الفوضى ومع هذا الرُّكام.

رفعتُ نبأ من سريرها، استيقظتْ وطلبتْ مني أن أفتح المصابيح فالظلام دامس...

- أي مصابيح هذه التي يمكنني فتحها!.. قلتُ مع نفسي...

- أنا لا أرى شيئًا يا ماما، أنا خائفة، افتحي النور... طلبتْ مني ذلك بفزع وأخذتْ بالبكاء...

- إن القوة الكهربائية مقطوعة يا حبيبتي، سيحاول بابا أن يضوي المكان عن طريق التورش لايت... قلتها محاولة تهدئتها...

استطاع زوجي العثور على المفاتيح، إنه يضعها دائمًا في جيب سترة معينة في الخزانة.. بدأ ضوء التورش لايت يخبو، أنا أحتفظ بعدد من البطاريات في مجمدة الثلاجة... تعذر علي الوصول لها فإن الخراب الذي حلَّ بالمطبخ جعل مهمتي في الوصول إلى الثلاجة شيئًا مستحيلًا.. تلمسنا دربنا بحذر فالظلام يزحف إلينا أسرع من حركتنا، إننا نتجه صوب السلالم، إلى الطابق الأرضي لنصل إلى الشارع، كان هذا هو الهدف الذي نسعى إليه، إن مصير السلالم مجهول بالنسبة لنا بعد ما حدث... تناهى إلى مسامعنا أصوات بعض الأشخاص ممن يسكنون في الشقة المقابلة، كثير من الأصوات لا نستطيع تمييزها، صراخ الأطفال يتعالى كلما تقدمنا باتجاه السُلَّم، أشخاص ينادون أحد أفراد العائلة بذعر واضح، كل ذلك جعلنا نعي فداحة ما نحن به، الكل يحمل ما ينير له الدرب، فهذه تحمل شمعة موقدة تحاول الإبقاء عليها متقدة، آخر يحمل مصباحًا يدويًا صغيرًا، تبددتْ الظلمة بحق، واصلنا دربنا إلى الشارع مع بقية السكان والكل يساعد الكل ويحمد الله على السلامة ونيته التوجُّه إلى بيت ذويه أو أي أقارب يسكنون بالقرب منه، اختلفتْ الأصوات في الشارع عما كنا نسمع في العمارة... أضوية وإشارات سيارات الشرطة والإسعاف وحتى سيارات الإطفاء تزاحمتْ في الشارع كلهم يحاول

إنقاذ خمسة أشخاص باتوا تحت رُّكام منزلهم المدمر بالكامل... إنهم جيراني، أتبادل معهم تحية الصباح نتبادل زيارات وإن اقتصرتْ على المناسبات إلا أنني أعرفهم حتى ليلة أمس... فقد ألقيتُ على السيدة التحية المعتادة: تصبحين على خير!... لترد بتلقائية بالجواب البديهي: وأنتِ من أهله... إنهم الآن عبارة عن جثث هامدة... أو يجوز غير هامدة...

- لا وجود للسيارة يا نهى... قال محمد بشيء من الحزن...

- أين ذهبتْ يا ترى؟! سألته وأنا أتوقع الجواب.

- ذهبتْ إلى حيث يجب أن تكون... فإنها الآن عبارة عن قطعة فنية توضع في معارض الفن الحديث التابعة للمدرسة البوهيمية.

لا مجال للتأثر أو الانزعاج أو حتى التحسر... فإن المشهد أفدح من أن نتأثر.

اتجهنا إلى بيت أهل زوجي وهو عمي لأخي، فهم يسكنون غير بعيد عنا، سرنا حفاة ننتعل دماءنا المتجلطة، يلفنا برد الشتاء القارس ولا نكاد نتأثر به لشدة تأثرنا بما جرى لنا، عدنا بعد يومين للوقوف على حال البيت والمنطقة، كان المشهد كارثيًا بكل المقاييس... كان لهذا الحدث التأثير الكبير على نهى، أخذتْ ترتعب من كل صوت مرتفع حتى وإن كان صوتًا مألوفًا، لا تتحمل سماع كلام يدور عن حرب وقذائف وضحايا... كيف لا؟ وهي مَنْ واجهتْ ذلك، سيطر عليها الخوف وهي الطبيبة الشجاعة والمتمكنة من مهنتها!.. لهذا ولغيره أصرَّتْ أختي حنان على تمضية أيام الحرب الأولى بمعيَّة بيت نهى؛ للتخفيف من وطأتها على الجميع وبالذات على نهى، حتى أنهم

أجبروها على الصعود لسطح الدار أثناء الغارات ومتابعة المقاتلات ومناقشة مصدر الصاروخ ووجهته ونوعه، وقد أتت أُكلها هذه المواجهة الساخنة، فقد خفتْ حدة الخوف لديها وأخذتْ تتأقلم مع مفردات الحرب وأصواتها.

أصداء وأخبار معارك تدور رحاها في جنوب البلاد، معارك تدور بين قوات غربية وأهالي تلك المناطق بأسلحتهم الخفيفة، لا وجود لقوات حكومية أو أفراد من الجيش النظامي أو حتى قطعات لما يسمى بالجيش الشعبي!... كلها توارتْ عن الأنظار وقت الحاجة، أين تلك الأعداد الكبيرة ممن انخرطوا بسلك الجيش ووحدات خاصة تلقتْ أحدث وأفضل التدريبات والأسلحة!.. أُعدتْ لتكون السور المنيع مع أصعب المعارك!.. اقتطعوا من لقمتنا اليومية لإعدادهم لمثل هذه الأيام!... أين هم مَنْ جُعنا لنشبعهم...؟! أين أسطورة اللواء المدرع العاشر...؟! تركوا مواقعهم أم لم يتواجدوا بها أصلًا..؟! تركوها خوفًا على حياتهم أم طمعًا بالدنيا وزبرجدها..؟! أو لربما لعدم ثقتهم بعقيدة حُشرتْ حشرًا بأدمغتهم وبوجدانهم..؟! أيًّا كان السبب فالحقيقة الوحيدة الموجودة على أرض الواقع أنهم تسرَّبوا مثلما يتسرَّب الماء من سلة خوص...

استطاع الأهالي المقاومة والثبات لمدة خمسة عشر يومًا!... على أنهم لم يستطعوا الثبات لأكثر من ذلك ولا غرابة، فإن التفوق في كل شيء كان من نصيب قوات التحالف، المعارك البرية الطاحنة مستمرة باتجاه قلب العاصمة العراقية بغداد، نصيبنا في ذلك الخوف والترَّقب والاستماع لمحطات الراديو وبعض مشاهد قصيرة تُنقل لنا

عبر فضائية وحيدة استطاعتْ بث برامجها الخاصة بالحرب لتصل إلى المشاهد العراقي، كنا نتابعها لمدة ساعة واحدة في اليوم من خلال تليفزيون صغير استطعنا ربطه على جهاز عاكسة صغيرة بعدما انقطع التيار الكهربائي مع بداية الغارات واستهداف محطات الكهرباء المتهالكة أصلًا.

وصلتْ قوات التحالف إلى المطار!.. أي مطار...؟ مطار العاصمة الوحيد... دارتْ معارك طاحنة حسب ما سمعنا، أطلَّ علينا السيد وزير الإعلام العراقي ـ بوجهه الصبوح، وهدوئه الذي عهدناه ـ يطمئن الشعب العراقي بأن الموقف تحت السيطرة بل والغلبة لقوات جيشنا (الباسل) والخزي والعار للمرتزقة والهوان (للعلوج)، وقد نجح السيد الوزير بخطابه الموجه لنا وبانتقائه لمفردات شغلتنا عن المعارك الدائرة بالمطار؛ لنتجه إلى معارك مع متوفر لنا من معاجم للاطلاع على معاني المفردات وخاصة مفردة (العلوج)، على أن أخبار المحطات العالمية تخالف أخباره، وبالطبع ودون تردد نصدق ما نسمع من خلال القنوات العالمية ولا غرابة في ذلك؛ لكثرة ما سمعنا من أكاذيب كانتْ تنزلق على ألسِنة المسئولين كما تنزلق الأفعى من جحرها، عقدنا مجلسنا الحربي اليومي عند باب الدار بعضوية جارنا اللصيق لنا؛ لمناقشة الوضع الراهن...
ـ دبابات التحالف قريبة منا بل وأقرب مما تتوقعون!... قالتْ الجارة.
ـ إنهم عند سايلو الحبوب على بعد عدة كيلومترات من هنا!... أكد زوجها.

- انظر إلى سكة القطار!... طلب الزوج من عادل منبهًا إياه لظاهرة ملفتة للنظر...

اتجهنا بنظرنا للسكة.. ملابس عسكرية.. أحذية عسكرية (بساطيل)، بيريات، الزي العسكري بأكمله وبأعداد ليستْ بالقليلة ملقى بها على مد بصرنا بمحاذاة السكة، إنه منظر مخيب للآمال، بل ومخزي... مرَّ بنا مجموعة شبَّان متقاربين في الأعمار وفي الأطوال والأوزان بل وحتى في الملبس، لا تستر أجسادهم سوى الفانيلة الداخلية وسروال رياضي خفيف، حفاة الأقدام، يحثون السير، يتجهون قدمًا نحو وجهة متفق عليها مسبقًا مثلما يبدو عليهم، ونحن منبهرون بما نرى وآراؤنا تتقاطع عن ماهيتهم، مرَّ بنا سرب آخر وبنفس الحالة السابقة!... استوقفهم عادل مخاطبًا إياهم:

- الله يساعدكم يا شباب.. مَنْ أنتم..؟ ومن أي وجهة أتيتم؟، وهل صحيح ما نسمع عن اقتراب دبابات التحالف؟

- مرحبًا يا عم... أجابوا مع استمرارهم بالمسير: الدبابات أقرب مما تتوقع... إنها فوق جسر الجادرية... الأفضل لكم الدخول إلى منازلكم لتأمنوا على حياتكم...

- مَنْ أنتم على وجه التحديد...؟، فأنتم لستم أول مجموعة تمرُّ بنا، وبنفس القيافة والمظهر...

لم يجبْ أحد منهم على سؤال عادل، استمروا بمسيرهم حتى تواروا عن الأنظار.

- إنهم جنود، بل وحتى ضباط برتب ليست عالية.. ألم تلاحظ ذلك يا أبو بسمان!... قال جارنا متأكدًا من جوابه...

- هذا مستحيل... أجاب عادل، ما الذي يأتي بهم في هذه الساعة والمعارك تدور هناك على قدم وساق؟...

- إنهم فارون لا محالة... أكمل جارنا: والكل في مثل هذه الظروف يتحولون إلى چنرالات عسكرية، وأزيدك من الشعر بيتًا إنهم أفراد اللواء المدرع العاشر!... هذا واضح جدًا...

- اللواء المدرع العاشر!.. غير معقول... أجاب عادل، إنهم أبطال معاركنا كلها... كيف لهم الفرار من المعركة...؟! المعركة الصعبة اختصاصهم، هم رجال المهمَّات الصعبة.. مثل ما يقولون، اعذرني يا جارِ فكلامك غير معقول وغير منطقي.

- لك الحق بكل ما تقول.. أجابه جارنا... لكنها وللأسف الحقيقة، فعندما لا يؤمن الجندي بقضيته وعندما يتأكد من خلو ساحة المعركة من القائد، وعندما يتحول القائد إلى نعامة تخبِّئ رأسها، حينئذ يحقُّ للجندي أن يفر، أنا متأكد مما أقول، ليس لأني على إدراك بواقع العسكرية، بل لأني على إطلاع مسبق... إن ابن أخي واحد ممن نتكلم عنهم الآن، فقد أخبرني ذلك قبل قيام الحرب.

- ومن أين له التكهن بما سيحدث وحتى قبل وقوع الحرب؟!... استهجن عادل قول جارنا...

- هو وزملاؤه كانوا على يقين بما سيحدث وبما ستكون عليه مواقف كبار الجيش وعِلية القوم من خلال نوع التحضيرات ونوع النقاشات التي كانتْ تدور تحسبًا للمعركة!.. وقد اتفقوا على التَحسُّب لمثل هذا اليوم المشين بتاريخ الجيش العراقي!.. فقد ارتدى كل منهم سروالًا رياضيًا تحت ملابسه العسكرية في حال حاجتهم للفرار والتخلص من زيهم العسكري!... وهذا ما ترى بأم عينيك.

- لم يواجه جيش الإتلاف أي مقاومة من أي نوع!.. مثلما حدث بجنوب البلاد!.. العاصمة سُلِّمتْ يا أخي، إنهم تسرَّبوا كتسرُّب الماء عبر الرِّمال المتحركة، لقد أوهمونا بأننا نقف على أرض صلبة والواقع مختلف تمامًا.

(٢٢)

قُرب المساء طلبتُ من الأولاد القيام بمحاولة؛ لتشغيل التلفاز الصغير، للاطلاع على الموقف عبر الفضائية الوحيدة والتي نستطيع استلام ترددها، كانتْ تبث لنا من مكان نجهله تدعى قناة العالم... لم نستطع تصديق أعيننا.. هل ما نتابع هو حقيقة أم خيال.. أم هو فبركة إعلامية...؟! إن دبابة أمريكية ضخمة تجثو بثقلها على ساحة في وسط بغداد، إنها الساحة التي كانت يشمخ في وسطها نصب الجندي المجهول القديم!، وهو النصب الذي يحتل مكانة مرموقة في ذاكرة البغداديين حيث أقيم بانتهاء الملكية وتحوُّل البلد إلى النظام الجمهوري، كانت أكاليل الزهور تقبع عند قدم الجندي المجهول كلما زار البلد قائد سياسي أو رئيس حكومة، كانتْ المساحات الخضراء تحفُّ بالمكان مع الكثير من الورود والأزهار التي غرستْ وفق نسق معين وجميل إضافة إلى المقاعد الخشبية والتي تسمى (المصطبات) تنتشر في المكان، فترى العوائل وقد اتخذتْ منه مكانًا للنزهة، أما اليوم ورغم خلو الساحة من نصب الجندي المجهول وبعدما تم تهديم هذا النصب والذي احتل مكانة مرموقة في قلوب البغداديين لسنوات، أقيم نصب كبير وبتصميم جميل على الضفة الثانية من نهر دجلة وأصبح لِزامًا على مَنْ يريد زيارة المكان المرور بسلسلة من الإجراءات الأمنية والتعوُّد على منظر رجال الأمن والحمايات وهي تتجول معك، لذلك لم تتآلف قلوب البغداديين مع جندينا الجديد، فهُجِرَ الجندي المسكين ليعتاد على الوحدة بانتظار مَنْ يحنُّ عليه بإكليل من

الزهور مع ندرة زيارات رؤساء العالم إبان الحروب المتعاقبة التي مرَّت وتمرُّ بنا رغم تهديم نصب الجندي المجهول القديم والعزيز إلا أن الساحة أبتْ إلا أن تحتفظ بمكانتها في قلوب البغداديين، فوقوع مبنى نادي العلوية العريق قُبالتها، واحتلال جامع (الباججي) لمساحة كبيرة حولها، وبعد ذلك إنشاء فندق الشيراتون والميريديان ذي الخمس نجوم بمحيطها.

تجمهر بعض الأفراد في محيط الساحة والتي صار يطلق عليها لاحقًا "ساحة الفردوس"، أخذ عدد الأشخاص في الازدياد يهتفون بحناجر متآلفة وبأصوات متناغمة، بأفواه حرة بعدما كممها الخوف في زمن الحاكم الأوحد، يهتفون بسقوط النظام، يرتفع في منتصف هذه الساحة نُصب أو بالأحرى تمثال كبير لشخص يقف يلوح بيديه وهو واحد من التماثيل الكثيرة التي لا حصر لعددها في ساحات بغداد، منها ما يلوح بيده، آخر يرفع سيفًا كبيرًا.. غيرها وغيرها والرسالة واحدة للشعب!.. إنه الأوحد والمهيمن ناشر الرحمة والبركة على رعيته... اختلفتْ الصور وصاحبها واحد، ولم تسلَّم هذه الظاهرة من تندُّر وفكاهة العراقيين، فكانت هنالك نكتة تلوكها الألسن تتمحور حول سؤال يمرُّ بذهن الجميع... فيما لو ولو طبعًا وهذا حلم بعيد.. تم استبدال صاحب التماثيل والصور بحاكم آخر؟! فإن تلك الصور والتماثيل لكثرتها (شيشيلها وشيلمها).. أي كيف ستُزال وتُجمع!.. ففكاهة العراقيين حاضرة دائمًا.

حاول شاب ارتقاء التمثال لسبب نجهله، حملقتْ عيوننا ناحية الشاب، وحتى كامرة المحطة الفضائية ركَّزتْ عليه، إنه يهوي على التمثال

ضربًا بما توفر له، عصى صغيرة أو ما شابه، يبدو أنه غصن شجرة التقطه من الأرض، صابًا غضبه على صاحب التمثال بتمثاله، إنه حقًّا شجاع...!، فإن إبداء الولاء والطاعة والاحترام للتماثيل والصور واجبة كوجوبها لشخصه...

اعتلى التمثال شخص آخر أراد مؤازرة الأول... تكاثر الشجعان بعد حين... هم يحاولون إسقاطه.. ولكن هيهاتْ فمن غير المعقول أن تُحَطَّم كتل كونكريتية ضخمة وكتل برونزية هي مادة التمثال بعصي أو بحجارة صغيرة إلا أنهم مستمرون في المحاولة غير آبهين باستحالة المهمّةَ...

فلتتْ أعيننا من محاجرها، لترى عن قرب ما يحدث وما يدور في زمن العجائب هذا.. توجهتْ دبابة نحوه...

- إنها دبابة عراقية.. هتف حسان...

- بل هي أمريكية، أجاب بسمان...

- إنها كذلك... أكَّدتُ لهما... ألا تلاحظان ملابسهم الغريبة...؟ بزتهم العسكرية تبدو غير مألوفة.. النفر منهم مدجج، مختفي وراء خوذة عسكرية حجبتْ الكثير من معالم وجهه إضافة إلى نظارات شمسية قاتمة أو على الأقل هذا ما يبدو.. رفعت سلَّمًا نحو عنقه، تسلَّق السلَّم جندي أمريكي، ثبت حبل متين حول عنقه، وترك مهمَّة سحب وإسقاط التمثال للمتجمهرين..

نعم أسقطوه!.. تعالتْ الأصوات، الدهشة خيَّمتْ علينا ونحن نتابع ما يجري عبر التلفاز، لم نُصدق أعيننا، لم نصدق بأن جهاز العاكسة رحم بحالنا باستمراره بدفع الشحنات الكهربائية لجهاز التلفاز؛

ليتسنى لنا متابعة الحدث الأهم في حياتنا منذ سنين طوال عِجاف، انقسم التمثال إلى قسمين، الأعلى منه سُحب بل وسُحل عبر الشارع، ونصفه السفلي بقي مثبتًا بقاعدة النصب وهذا ما حدا بالكثيرين إلى توقع عودة النظام إلى الحكم... إن أرجله لا زالت مثبتة ولم تنقلع وبهذا سيعود.. إنه ثابت قابع بمخيلتهم، لا يستطيعون تصديق فشل وسقوط الجبروت... سالتْ الدموع من عيني واسترسلتْ على وجنتي وأنا أُقبِّل بسمان وحسان ونتعانق، نهنئ بعضنا البعض بانتهاء حقبة الخوف والترَّقب والوجل، أخذتُ أتمنى لهم مستقبلًا زاهرًا ملؤه الحرية والاستقرار خاليًا من صوت القذائف ورائحة البارود، أرجو لهم نسيان ما نشأوا عليه من مآسي لتحل محلها السعادة والهدوء!.. ما كنتُ أدري ما تخبئه جذور الشيطان التي بقتْ متغلغلة بتربتنا جرَّاء ما زرع القائد عبر خمسة وثلاثين عامًا.

الموقع هو جسر الجادرية... هو جسر كباقي الجسور المقامة على نهر دجلة؛ لربط جزأي بغداد التي يشطرها النهر بمروره عبرها، هذا النهر المحبَّب والمقرَب من نفوس أهالي بغداد، كُتبتْ في حقه أشعار وأغاني، كل قصص الحب مرَّ بها دجلة، كل محب سهد تفكيرًا بحبيبته كان على شاطئ دجلة، كل عائلة احتفلتْ بوصول عزيز لها بعد سنين غربة كانتْ على أكلة سمك مسكوف على ضفاف دجلة، ذهبنا لعبور هذا الجسر مرورًا بدجلة الخالد؛ لنحتفل مع الأهل والذين يسكنون الضفة الثانية من النهر... ما هذا المنظر الغريب...؟! دبابات تجثم بثقلها على الجسر، اختلجتْ بقلبي أحاسيس متناقضة لكنها متشابكة.. دهشة.. خوف.. حزن.. صُهرتْ ببُوتقة

الفرح، وصلنا بالقرب من هذا المخلوق الغريب الثقيل، ونحن نجهل تمامًا التصرُّف المطلوب منا هل نتقدم منها.. أم نحترس..؟! نقف حتى يطلبون منا التقدُّم..! لمح بسمان بعض الأطفال يلتفون حول الدبابة ويتكلمون مع الجنود بلغة الإشارة للسماح لهم بالتقاط صور تذكارية معهم، دائمًا الأطفال أشجع من الكبار.. تقدم عادل نحوهم ببطء وحذر شديدين...

- من أين تأتي سيدي؟... سأل بلغة إنجليزية مبتسمًا...

- من بيتي في القادسية لأزور بيت الأهل في الكرادة... أجاب عادل بلغة إنجليزية شديدة البطء والوضوح محاولًا رسم ابتسامة...

- نهارك سعيد سيدي.. مؤشرًا بيده بالمرور والابتسامة لازالت تعلو وجهه!... ناظرًا لداخل السيارة بتفحص...

صُعق مَنْ في السيارة بهذا الجواب!.. فمنذ خمس وثلاثين سنة لم ترد على مسامعنا مثل هذه العبارة اللطيفة، ومثل هذه الابتسامة.

وصلنا لبيت أختي حنان وكانت أجواء الفرح بادية بوضوح على كل الوجوه مع ترقب لغد أفضل غير مصدقين ما يجري، عند متابعتنا للتلفاز وما يُبث من خلال شاشته من عجائب!.. رأس التمثال يُسحل في الشوارع يُقذف بكل ما تطال أيدي الناس من حجارة إلى عصي.. إلى غير ذلك كثير، ولا نزال نحن نناقش ما يدور همسًا.. خوفا من الأذان والعيون مجهولة المصدر، لم نستطع التسامي والتغلب على المخاوف التي جُبلنا عليها لمدة نصف قرن تقريبًا، إلا أننا وبعد حين أخذنا نتعامل مع واقع جديد حلَّ على أرض العراق، الكثير من العراقيات أُعيدَ ماضيهن المؤلم في مثل هذا اليوم وفي مثل هذا

الموقف، ذرفن الدموع غزيرة مستذكرات مآسٍ حلتْ بهن في زمن الخوف وزمن الطاغوت... اليوم واليوم فقط استطعن أخذ العزاء بفلذات أكبادهن، ذلك العزاء الذي مُنعن من إقامته بفرمان حزبي إمعانًا وإيغالًا في الحقد الذي يملأ نفوسًا بشرية عُدَّتْ على أنها بشرية جُزافًا.

اعتدنا على منظر الدبابات تسير جنبًا إلى جنب مع السيارات!.. رغم غرابة وقساوة المنظر.. آليات عسكرية ثقيلة تمرُّ أمام ناظرنا ونحن نتناول طعام الإفطار... إنه لحقًّا منظر غريب، والأغرب من ذلك هو تجمهر الأطفال حولها ليتبادلوا بعض المفردات الإنجليزية والتي باتتْ معروفة لديهم، سماع بعض المفردات العراقية على لسان مَنْ يعتلي الدبابات وسيارات الهمر، تبادل لهديا بسيطة، يقوم الأطفال بإعطاء قناني الماء فيحصلوا على الحلوى والتي تُرمى إلى سلة المهملات من قِبل الأمهات خوفًا من احتوائها على أي مادة غريبة ومريبة من أي نوع كان.

شُكِّلَ مجلس حكم، متكوِّن من شخصيات باتتْ معروفة بمعارضتها للنظام السابق وهذا ما يُطلق الآن على القائد وحاشيته القديمة، يرأس هذا المجلس مبعوث أمريكي لإدارة أمور البلد بعد سقوط بغداد في يوم ٢٠٠٣/٤/٩م كما يحلو للبعض من الشعب بهذه التسمية... على أنها تسمية مؤلمة شديدة الوقع على نفوس محبي بغداد، فهم يرفضون هذا المصطلح ويطلقون مصطلح سقوط النظام بدلًا منه، فهو أخف وطأة وأبلغ في وصف ذلك اليوم؛ لأن بغداد لم تسقط فبغداد باقية، تتعالى على جراحها.. وهل بغداد إلا جراحات؟!...

سقط النظام ورجالاته.. اختفى؛ بل وتبخر القائد الملهم الضرورة.. وهذان لقبان من أصل تسعة وتسعين لقبًا لُقِّبَ به بناءً على أمر منه.. اختفى هو وقيادات الحزب المعروفين بولائهم له، وتنفيذ أوامره مهما كانتْ.. تبخروا.. اختلطوا برمال المنطقة الغربية والتي أتوا منها أصلًا... وطبقًا للقانون الفيزيائي المعروف بأن المادة لا تُفنى ولا تُخلق من العدم، فهم تحولوا من قيادات إلى صور عددها اثنان وخمسين صورة مكوَّنة لملصق جداري يحمل علامات ورق الكوتشينة وصورهم المخيفة وبشوارب كثيفة ونظرات تبعث الخوف في قلوب الرجال قبل الأطفال، ببزات عسكرية خلتْ من الرتب لخلو أدمغتهم من المعلومات العسكرية، أُلصق هذا الملصق على واجهات المحلات وفي الطرقات وعلى طريقة الأفلام الأمريكية فإنهم مطلوبون أحياءً أو أمواتًا.

• • • •

مرَّتْ حوالي سنة ونصف، ونحن ننتظر نهضة عمرانية لا يقوم البلد بدونها، نهضة اقتصادية، وأخرى أخلاقية وهي الأهم بين أخواتها السابقات، عام ونصف كل ما حصلنا عليه هو تقاطر صحون البث الفضائي بأسطح المنازل واستقبال العشرات بل المئات من الفضائيات، ومتابعتنا لبرامج المسابقات الغنائية والبرامج الرياضية والترفيهية إلى غير ذلك، ومن أهم ما حصلنا عليه هو دخول خدمة الهواتف النقالة إلى عالمنا أخيرًا، فكانتْ شركة عراقنا للاتصالات هي الشركة الرائدة في هذا المجال، فأصبح جُلّ همنا حجز خط

والحصول على هذه الخدمة العبقرية قبل غيرنا؛ لتصبح إمكانيات الأجهزة الصغيرة محور حديث البلد حيث اقتصرتْ الجلسات الاجتماعية على مناقشة وتعليم كيفية عمل هذه الأجهزة الغريبة على ثقفتنا، ولأول مرة تقبل الكبار مداخلات الشبَّان وتوجيهاتهم، معترفين بجهلهم وعجزهم أمام قدرات أبنائهم، وللأمانة أقول هذا هو فقط ما حصلنا عليه، هذا هو نصيبنا من الكعكة، تلك الكعكة التي طالما تحدث عنها المحللون السياسيون أثناء مناقشتهم الأوضاع على الساحة العراقية في برامج أشبه ما تكون بحلبة مصارعة يسودها الصراخ والمهاترات تلك البرامج التي يطلق عليها (التوك شو) التي أسعفنا الحظ بمتابعتها بفضل حصولنا على اختراع المحطات الفضائية، والتي كنا نتوق لمشاهدتها في سنين القحط والجدب...

عام ونصف ونحن نتجرع مرارة الصبر.. نُمني أنفسنا ببلد ينعم بالحريات وبالتقدُّم والأهم بالأمان الذي أخذ يتسرَّب رويدًا رويدًا، تُركتْ الحدود مفتوحة على مصراعيها لكل شارد ووارد... لكل من هب ودب.. للمحب والعدو.. تقاطرتْ وحوش بشرية من كل الجنسيات العربية.. مُمولة بفلوسنا التي نُهبتْ من جيوبنا سابقًا؛ لتعيد رصف السكة تحت قطار الموت الذي توقف لعدة شهور، أعادتْ رحلة الموت وتحت مسميات المقاومة والتحرير متناسين مقاومة العدو الحقيقي وتحرير البلد الذي يرزخ تحت نير الاستعمار لأكثر من خمسين عامًا، فصبوا نيرانهم حامية على أُجراء يعملون مقابل لقمتهم ولقمة عيالهم.. أزهقوا أرواح طلاب كليات ومدارس!.. صبية لا ذنب لهم سوى انخراطهم في منتخب للعبة (التايكوندو) يحملون

اسم العراق، زوار يقصدون المزارات الشريفة والمقامة لأبناء وأحفاد رسول الأمة والذين تدينوا بدينه، من ورائهم أفواه تزمجر باسم الدين ليل نهار، معتلين منابر شُيَّدتْ بأموال غُسلتْ وبُيضتْ!؛ لمقاومة المحتل وبنسبة واحد إلى مئة!.. تُزهق مائة روح بريئة فيُقتل معها جندي واحد عن طريق الخطأ، وكما يُقال الخطأ والسهو مرجوع للطرفين.

(٢٣)

المكان : بيتنا

الزمان : الشهر العاشر ٢٠٠٤م والموافق شهر رمضان.

من المعروف أن الجو في مثل هذا الشهر يكون لطيفًا.. نهاره حار، لياليه تنعم بنسمات لطيفة وهذا الجو يمثل خيرًا وبركة على الصائمين، الإحساس بالعطش قليل والشعور بالجوع قليل أيضًا، فلا حاجة كبيرة لاختراع الطاقة الكهربائية والتي غابتْ عنا منذ سنين!... منذ زمن القائد الضرورة إلى يومنا هذا فهي كزائر كريم يُسلِّم علينا ساعات قليلة باليوم؛ ليذهب فيُسلِّم على منطقة سكنية أخرى تنتظر زيارته بفارغ الصبر لتبريد الماء والعصير الضروريين لمائدة الإفطار، عمل بعض الحلويات والتي تحتاج في عملها إلى استعمال الأجهزة الكهربائية كالخلاط وعصارة الفواكه، هذه الحلويات هي من الضروريات الأخرى للصائم ولكن بعد الإفطار... غالبًا ما تقوم ربة المنزل بتحضير وجبة السحور، وهي الوجبة التي يتقوى بها الصائم لنهار طويل، فهي تكون قبل الفجر بحوالي ساعة ونصف، فمع هذا المجهود التي تقوم به ربة المنزل في منتصف الليل، تراها وكل أفراد العائلة لا يستيقظون مبكرًا.

كنتُ نائمة حتى ساعة متأخرة من النهار، متعمدة ذلك محاولة مني لتقليص ساعات الصيام الطويلة، شعرتُ بيد بسمان تلمسني بلطف، محاولًا إيقاظي بهدوء، انتظر بسمان قليلًا ليتأكَّد أنني صحوتُ فعلًا، إنه ينظر إلي بنظرة غريبة، فيها حذر، فيها حزن، فيها ذعر:

- ماما حبيبتي.. أصحيتِ فعلًا؟... سألني بسمان...
- نعم.. حبيبي صباح الخير... أجبتُ... أقرأ قلقًا في وجهك!، أهناك ما تروم إخباري به؟!.
- أنتِ محقة يا ماما!... أجابني وهو يحاول إخباري بكارثة أو ما شاكل، محاولًا تلطيفها وتخفيفها...
- ماذا وراؤك يا بسمان...؟ اعتدلتُ جالسة على السرير لأتسلم الخبر، وأنا أفرك بعيني لأطرد النعاس منهما وبسمان يجلس بالقرب مني ولا زال يمرر يده على ساعدي وهو يهم بالكلام...
- إنه العم حمدي... صمتْ قليلًا إنه يعمد لتجزئة الخبر، وبذلك يضمن استيعابي لكلماته متلافيًا بذلك اضطراره لإعادته هذا من ناحية، والناحية الأخرى تخفيف شدة الخبر وتأثيره السلبي علي... هناك مَنْ اقتاد العم حمدي وهو في طريقه لعمله!... صمتْ منتظرًا ردي وهو ينظر بطرف عينه لوجهي محاولًا قراءة ردة فعلي...
- بل قل اختطفه!... أجبتُ في ذهول... ان مَنْ اقتاده ليستْ بقوات حكومية صحيح؟!
- نعم صحيح، إنهم مجهولون، لا أحد يعرف هويتهم وماهيتهم... جاءني جواب بسمان كصاعقة هوتْ على رأسي... اعتدلتُ بجلستي أكثر، توقدتْ داخلي كل ناقلات الحس، استشعرتْ عندي كل أجهزة الإنذار، عملتْ بكل طاقتها أوردتي وشراييني، التهبتْ وجنتي، تأثرتْ حنجرتي، سدتْ مخارج حروفي حشرجة،، علتْ بلعومي مرارة خانقة، منعتني من الكلام، وبسمان لازال بانتظار سؤالًا آخر يبدر مني، وبلحظة خاطفة تقاطرتْ الأسئلة بعقلي، أطلقتها سيلًا غير قابل للانقطاع على بسمان:

- مَنْ أخبرك بذلك؟.. ومتى كان؟.. ولما لم توقظني قبل هذا؟.. وكيف هو حال خالتك حنان الآن؟.. مَنْ معها؟.. هل أعلمتَ والدك؟...
قاطع بسمان سيل الأسئلة المتدفق:
- ماما، إن خالتي حنان الآن بأمس الحاجة لوجودك بقربها، غيري ملابسك على وجه السرعة وسأُجيب على أسئلتك كلها ونحن في طريقنا إليها، هيا حبيبتي، تمسكي بالله فهو حسبنا، أما عن بابا فإن حسان قام بالمهمَّة وسوف يلحق بنا هناك...

لا أعرف أين سرح بي خيالي... أنا أُركز صوب نقطة مجهولة، مركزة تفكيري نعم... لكن على اللاشئ... شاردة بذهني مبتعدة عن واقع رافضة الإذعان لأوامره، لا أستطيع أن أصبرعلى تحمل الوقت لوصولي إلى حنان،، متمنية لو يُطوى بي الطريق... أعادتني إلى الواقع حقيقة واحدة هي حقيقة الزحام والاختناقات المرورية اليومية، الطرق مزدحمة والسيارات شبه متوقفة بل متوقفة فعلًا على جسر الجادرية الرابط بيني وبين حنان... أقصد الرابط بين صوب الكرخ والرُّصافة، إنه الجسر الوحيد والمتبقي لنا للانتقال إلى الطرف الثاني من المدينة في هذا الجزء من بغداد بعد أن سُلِّب الجسر المعلق؛ ليُضم إلى حدود المنطقة الخضراء كما أصبحت تُسمى منطقة كرادة مريم، والكثير من المناطق المحيطة بها فهي تضم الآن مبنى السفارة الأمريكية والتي اتخذتْ من مبنى القصر الجمهوري مقرًا لها، وكذلك مقرات الحكومة الجديدة؛ ليتمكنوا من بسط الأمن والأمان لهم وليأتي بعدي الطوفان!، فالجسر المُعلَّق... مُعلَّق العمل به الآن... مقتصرًا في عبوره على حمايات الشخصيات الحكومية، ولهذا صار

جسر الجادرية هو المعبر الوحيد، أنعم الله علينا بعبور الجسر في خمس وثلاثين دقيقة!.. بينما الفترة الحقيقية المطلوبة لعبوره ثلاث دقائق كثرتْ أو قلتْ، تنفسنا الصعداء ومشتْ بنا السيارة تحث الخطى، وما هي إلا دقيقتان وعند أول إشارة ضوئية (وهي لا تعمل بطبيعة الحال لانعدام الكهرباء)، وإنما مَنْ يعمل عمل الإشارة هم الجنود الأمريكان ومهمتهم التفتيش عن كل شيء وعن لا شيء!..
دخلنا إلى زحام آخر لا يقل قساوة عن الذي يسبقه، هاجتْ بي الذكريات واختلطتْ بالأحزان مع اشتداد العطش وأنا في أول النهار والصيام لازال في أوله أيضًا، خرجنا من هذا الزحام لندخل آخر... وهكذا استمرتْ رحلتنا لقطع مسافة ثمانية أميال ما يقرب من الساعة والنصف!.

لم تكد السيارة تستقر في وقوفها حتى نزلتُ منها، وقفتُ أمام الباب الحديدي أسود اللون وأنا أرفع قدمي وأستند على رءوس أصابعي لأرفع من نفسي وأزيد من طولي، مددتُ يدي خلف الباب لأصل إلى المزلاج، سحبته فانفتح الباب على طارمة عريضة تتسع لسيارتين أوأكثر على طول يتسع لثلاث سيارات، رُصفتْ ببلاطات رخامية كبيرة وإلى الجانب منها تقع حديقة المنزل، وهي ليستْ بالكبيرة أحيطتْ بأشجار النارنج والتي لم تُثمر بعد على أنها ارتفعتْ لِتُظلَّل المساحة الخضراء في وسط الحديقة كما أنها ظللتْ شجيرات الورد بألوانها المختلفة، والأهم والأقرب إلى قلب حنان هي شجيرة (السايكس) بفروعها الخضراء الجميلة والتي تقع بجانب حوض الماء الصغير، وهو حوض متوافر في كل حدائق بيوت بغداد

مخصص لحنفية الماء الخام غير المعالج لسقي المزروعات وأيضًا لتنظيف الطارمات اعتادتْ حنان الجلوس عنده بقرب معشوقتها (شجيرة السايكس) لمراعاتها وتتبع نموها وتخليصها من الفروع المتيبسة، محاولةً توفير أشعة الشمس لفروعها أثناء الشتاء وتظليلها أثناء الصيف وإبعادها عن الأشعة الحارقة...

اجتزتُ الممر الطويل بخطى متسارعة لأصل إلى باب المطبخ... دخلتُ لأرى حنان تجلس على أحد كراسي مائدة الإفطار وحولها يجلس كل من بابا وماما وقريب لنا يسكن غير بعيد بنفس الحي، التفتتْ حنان في حزن وغم كبيرين أخذا بلبها، هي موجودة وغير متواجدة، صامتة لا تكاد تنطق بكلمة أو حتى همسة، عيناها تنبئان عن حالها، ويداها تكادا تنطقان، تفركهما ببعضهما البعض دون توقف!.. جسدها يميل بحركة رتيبة إلى الأمام والخلف تارةً وإلى اليمين والشمال تارةً أخرى، قبَّلتها ربتُّ على كتفيها دون أن تغير من وضعها، سألتُ عن ابنها مصطفى لم تجبني... أجابتني ماما:

- إنه في صالة الجلوس... يجلس بالقرب من الهاتف، شاحب اللون، يلفه همٌّ عميق، يعمل على توصيل بعض الأسلاك الكهربائية لربط جهاز الهاتف بجهاز آخر لا أعرف ماهيته...

عانقته.. أطلقنا لنفسنا العنان لتختلط دموعنا...

- ما أنتَ فاعل يا حبيبي؟... سألته في محاولة مني لتغيير الموضوع.

- أحاول ربط جهاز تسجيل وهذا ما طلبه مني أعمامي لتسجيل كل مكالمات الهاتف استعدادًا لِتَسَلُّم مكالمة من الخاطفين.

- إنهم خاطفون إذًا.. ليسوا بجهة رسمية؟.. هذا ما تتوقعون.

ـ أنا متأكد من ذلك ياخالتي... جاءني صوته وكأنه قد شاخ لعشرين سنة، هو يشعر بالمسئولية التي حَطَّتْ عليه بغتة.. كيف لا؟ وهو الوحيد المتواجد مع أمه الآن، فإن غياب الأخ الأكبر لأغراض الدراسة في عمان، جعلتْ منه في واجهة المسئوليَّات والأحداث.
ـ كيف لك التأكد من أنهم خاطفون ولا غير ذلك؟... استعلمتُ منه...
ـ كنتُ متوجهًا إلى جامعتي ككل صباح... (قال مصطفى)... غادرتُ المنزل بعد مغادرة والدي، وهذا هو الموعد المعتاد لمغادرتنا في كل صباح، هو إلى مصنعه وأنا إلى جامعتي (وكان العزيز حمدي اتخذ قرارًا باستعمال المواصلات العمومية بدلًا من استعمال سيارته الخاصة لدواعي أمنية) وأنا أمشي للوصول إلى الشارع العمومي، مارًا بمحل الجار أبو كريم مؤديًا له تحية الصباح فإذا به يستوقفني... يريد أن يطلعني على أمر أهمه..! طلب مني الجلوس على أريكة خشبية قديمة شاخصة بمقدِّمة محله منذ أمد بعيد، اعتذرتُ منه فإن محاضرتي الأولى على وشك البدء، غير أن كمية القلق والحزن الباديين في نظراته جعلتني أرضخ لطلبه: صباح الخير يا مصطفى.. قالها على عجل لتكون مدخلًا لكلام قد لا يجعل صباحي خيرًا... قال مصطفى، وهو يحدثني عما دار بينه وبين جاره من حوار... إن الوالد قد مرَّ بنا قبل قليل وكالمعتاد في كل صباح، سكت أبو كريم ليبدأ بما ينوي اطلاعي عليه وأنا أنصتُ إليه ليتابع... توقف قليلًا لإلقاء تحية الصباح كعادته... اقتربتْ منه حافلة صغيرة نوع (كيا) رمادية اللون، أخذ صوته بالخفوت وركَّز بصره على وجهي، توقَّعتُ شرًا من طريقة كلامه وأنا ألتزم الصمت علَّه يكمل بأسرع ما يكون فمن المؤكد أنه يحمل لي خبرًا ليس بالسار على أي حال... فتح

باب الحافلة شخص دون الترَّجل منها وهتف: حمدي... التفتنا أنا والوالد باتجاه صوت المنادي ليكرر: حمدي.. وقد أراد لسلاحه أن يظهر، والشر يتطاير من عينيه وعيون شخصين آخرين كانا برفقته داخل الحافلة... أتستقل الحافلة بهدوء أم نعمد لإدخالك إياها وعلى طريقتنا؟!!!، وقد تعمد رفع وتيرة الشر والتجبر في نبرة صوته أصبح جليًا لوالدك ولي أيضًا أن العملية عملية خطف واضحة، صعد والدك الحافلة بكل هدوء منبعث من توكله على الذي خلقه، فهو حسبه وحسب كل إنسان شريف ومؤمن كوالدك.. أردتُ القدوم لداركم لأطلعكم إلا أنني انتظرتُ مرورك بنا، فأنا أعرفك هذا الشبل من ذاك الأسد!.. لا تجزع يا بني ولا حتى تمنحه فرصة التسلل إلى نفسك، فهذا قدركم مثلما هو قدر الكثير من العراقيين هذه الأيام... كلامك يا عم يؤكد ما ذهبتْ إليه أنتَ ووالدي العزيز!!!... قلتْ إنهم ينادونه باسمه الصريح؟... نعم، وفوق ذلك فهم على إطلاع مسبق بتحركات والدك ومواعيده!، فهم لم ينتظروا أكثر من دقائق معدودة ليظهر لهم هدفهم المنشود!، ليكن توكلك على الله يا بني وكذلك العائلة الكريمة، هدئ من روعك يا ولدي، أأنت بخير؟! سأرافقك لغاية البيت، إنك في حاجة لمَنْ يسندك..!.. سأقوم بذلك... ليس بي حاجة لذلك، سأقفل راجعًا إلى البيت وليعينني الله على نقل هذا الخبر لوالدتي...

بدأ صوت مصطفى يخفت ويملأه الحزن والشجن، أطلق لنفسه العنان، سمح لدموعه بالانسياب على وجنتيه بعدما حبسها، خوفًا من أن تُضعف والدته فيما لو شعرتْ بضعفه...

- أتوسل إليك سيدي جهاز الهاتف! أن ترنَّ.. علَّك تخبرني بمصير حبيبي، علَّني استمع لصوته فإني في شوق لسماعه منذ أسبوع، أعرف مكانه، حاله، أهو جائع أم شبعان.. مريض؟، وهذا أكيد فإنه لم يتناول علاج ضغط الدم، إنه الآن يعاني من الصداع لا محالة...

أكاد أن أجزم بأن هذا ما يدور بخلد حنان وهي تصوب نظراتها على جهاز الهاتف لاهية عمن حولها..! كلنا نحيط بحنان منذ اليوم الأول، نبيتُ عندها نلفها وولديها مصطفى ومحمد وابنتها الكبيرة المتزوجة من قريب لها كانت متواجدة طوال الوقت بالقُرب من والدتها تاركة منزلها لتساند الوالدة؛ بل هي نفسها من تحتاج إلى المساندة، وحتى ابنتها المتزوجة والتي تعيش مع العائلة لشهرين منصرِّمين بسبب سفر الزوج إلى بلد بعيد عن العراق لأغراض العمل وعلى أمل اللحاق به بعد تهيئة السكن اللازم لهما مع ابنتهما الصغيرة، والجنين الذي في أحشائها ليس به رغبة للمجيء لعالم الظلم والغدر، لعالم يحكمه قانون الغابة، ضغطنا على ابنة حنان باتجاه واحد ألا وهو السفر إلى زوجها واللحاق به بعد ما تهيأتْ سبل المعيشة هناك، كانتْ رافضة رفضًا قاطعًا.. لم تتخيل السفر وترك الأوضاع معلقة ومصير الوالد مبهم لحد الآن، إلا أننا دفعنا بها للسفر قبل أن تدخل شهرها التاسع وتتعقد أمور السفر أكثر، غادرتنا على مضض والقلق يسكن نفوسنا حول رحلتها الطويلة مع طفلة لم تتجاوز العامين وجنين على وشك الخروج ليرى النور، ذلك النور الذي خبئ بغياب الجد بل بتغيبه القسري.

شارف شهر رمضان على الانصرَّام وقرُّب حلول العيد، ونحن على الجدول اليومي بالتوجه كل إلى عمله ودوامه عدا أولاد حنان!.. فالخوف كان الحاجز بينهم وبين الاستمرار في الدوام، مائدة الإفطار في بيت حنان هي المائدة المستديرة التي نطرح على طاولتها مستجدات الوضع القائم ومناقشة كل الأخبار التي تصل إلى مسامعنا من المحيطين، نتناول وجبتنا فقط لسد الرَّمق الذي يعيننا على مواصلة ما يترتب على المسلمين من حقوق الشهر الفضيل بعدها نبدأ بالتحضير لاستقبال الكثير من الناس وخاصة أخوة العزيز حمدي وبعض أقاربه وانتظار رنَّة هاتف من شأنها إطفاء نيراننا المستعرة منذ اختفاء العزيز والغموض الذي يكتنف اختفاءه.

حلَّ العيد وانتهى دون مراسيمه المعتادة، بل على العكس كان حلوله هذه السنة بدون حمدي مدعاة للحزن الشديد...

مرَّ شهران والحال هو الحال من الانتظار والترَّقب... حلَّ الشتاء ببرودته القارسة المعتادة في مثل هذا الشهر من كل عام، لبستْ أرضيات البيوت حلتها الشتوية من سجاد مصنوع من الصوف الثقيل، أُشعلتْ المدافئ بكل أنواعها النفطية والغازية إلا الكهربائية؛ لعدم توفر الطاقة الكهربائية في البلد.. اقتصر وجود هذا النوع من المدافئ في البيوت للديكور فقط، ولإنعاش ذاكرتنا بشيء اسمه كهرباء، كل البيوت دُفئتْ إلا بيت حنان!، فلم يشمله التغيير والانتقال من موسم الحر إلى موسم البرد، وكأن الزمن توقف باختفاء العزيز حمدي.. رفضتْ حنان وبشدة الإحساس بالدفء وشريك عمرها ورفيق مسيرتها بردان، فهي لم تفتأ تكرر وتذكر مَنْ تسَّول له نفسه

مطالبتها فرش السجاد وبعث الدفء في أركان المنزل، بأن حمدي يلبس قميصًا صيفيًا بنصف كم... حَرَّمتْ على نفسها الشعور بالدفء، فهي تعاقب نفسها على جرم لم تقترفه... بعدما طالتْ مدة الانتظار أخذنا في العودة والنوم في منازلنا عدا الوالد والوالدة فهم باقون بجوارها مع ولديها.

••••

بدأ الشعب يُهيَّأ والأحزاب تُعبأ لخوض تجربة الانتخابات، تلك التجربة الجديدة ليستْ على صعيد البلد بل وعلى المنطقة العربية برُّمتها، لأول مرة تزدان جدران وواجهات المحلات في الشوارع بملصقات انتخابية لُصقتْ بعفوية وفوضوية لا تمتْ بأيّة صلة لشيء اسمه الذوق والتمدُّن والتحضر سوى أنها ملصقات تدعو لانتخاب القائمة الفلانية، فهي مَنْ ستحيل خراب البلد إلى جنة عدن!.. سمعنا بأحزاب سياسية وطنية وعلمانية وحتى شيوعية رغم حَلِّه في بلده الأم.. تملكنا الزهو!... كيف لا؟ وبيدنا صعود هذه القائمة أو تلك.. بيدنا أن ننتخب أو لا ننتخب!، ونحن مَنْ كنا نُساق كقطيع غنم صوب حتفه؛ لنكتب كلمة واحدة محددة مفروضة علينا وجلادنا بسيفه ينتظر منا الفراغ من كتابتها؛ ليعلن للعالم أجمع وحتى قبل أن يجف حبرها بأنه القائد الضرورة بل وإنه ربنا بيده حياتنا ومماتنا ويتمنى لو بيده النشور... إنها حالة جديدة على كل الأصعدة، حملات دعائية، ندوات تليفزيونية، نقاشات وجدالات، وحتى نزاعات فكرية في كل بيت اختلافات في وجهات النظر دون أن تفسد للود قضية، كان الشعب

بأحوج ما يكون لها، متعطش فعلًا للديمقراطية (حتى دون أن يعيها بمعناها اللغوي)... كان حمدي أكثرنا اندفاعًا لها، وهذا قبل اختطافه طبعًا، فقد كان يتوجه بحواره إلى أولادنا الشبَّان وحثهم على المشاركة والإدلاء بصوتهم لمَنْ يرونهم سيمثلون طموحهم ويلبون طلبهم، كنتُ ترى الجميع منشغلًا ومتحمسًا على الرغم من تيقن الجميع باشتعال الساحة الأمنية على صعيد التفجيرات والقتل الطائفي والسياسي، كل هذا لم يثنِ العراقيون عن عزمهم خوض التجربة بحلوها ومرّها، التأكد من وجود أسمائهم في القوائم الانتخابية في مراكز الاقتراع ومطابقة الأسماء مع المستمسكات المطلوبة وفي مقدمة هذه المستمسكات ما يسمى بالبطاقة التموينية، وهي البطاقة التي تملكها كل عائلة عراقية لغرض استلام بعض المواد التموينية والتي استحدثتْ في زمن الحصار؛ لتصبح فيما بعد أكثر المستمسكات طلبًا من قِبل دوائر الدولة بالإضافة إلى هوية الأحوال المدنية (البطاقة التعريفية للشخص) وشهادة الجنسية العراقية.. وهي ما يثبت عراقية حاملها، وأيضًا بطاقة السكن وبطاقة الشرطة فهذه المستمسكات في مجموعها تُطلبُ في أيَّة معاملة لدى الدولة حتى إن العراقيين أطلقوا عليها "الأربعة المبشرة بالجنة" تندرًا.

اتخذتْ من المدارس مقرًا للاقتراع، أحيطتْ بأفراد من الجيش والشرطة لتأمين سلامة المقترعين... أعلن اليوم السابع عشر من شهر كانون الثاني، وهو التاريخ المرتقب لإجراء الاقتراع، طُبق به حظر التجوال ليكون هذا الإجراء بعد ذلك هو أول إجراء يُتخذ عند الأزمات السياسية أو أيَّة مناسبة دينية تشتمل على تجمعات بشرية

كبيرة.. لم تغب التقنيات الحديثة من الحملات الانتخابية، فإن الرسائل النصية القصيرة ازدحمتْ بها هواتفنا المحمولة على أن تتوقف كل أنواع الدعاية والإعلان قبل أربع وعشرين ساعة قبل اليوم المرتقب، في خضم هذه المعمعات والمهاترات السياسية وردنا ما كنا ننتظر!، وهذا بعد ما مرَّ حوالي شهران ونصف على حادث اختطاف العزيز حمدي (رغم معرفتي لتكرار هذه الصفة إلا أنني سأكرره قبل اسم حمدي) فهو عزيز علي فعلًا حيث إنه يمثل لي الأخ الحنون الذي لم تلده أمي، فهو نعم الأخ ونعم الصديق، هو مَنْ كافأتني الحياة به وعوضتني به عن غياب أخ أميل عليه إذا ما مالتْ الأيام علي... تحدث أحدهم إلى حنان عبر الهاتف أخيرًا؛ ليعلن عن وجود العزيز حمدي عندهم!... مَنْ هم؟.. أهم عصابة سياسية أم طائفية؟!... عصابة إجرامية للحصول على المال فحسب.. لم يعرف المتصل عن ماهيتهم... ما نطق به لا يتعدى الترهيب والتهديد وبث الخوف والوجل في نفس حنان؛ ليعلن عن المطلب الوحيد.. الفدية!... وأي فدية.. مبلغ خيالي من المال وبخلافه ستتم تصفيته!... (أقيمي عزاءه) هذا ما أجادتْ به قريحة محدثها، إن الفدية التعجيزية التي طُلبتْ لم تكن هي المطلب الحقيقي.. بل المطلب الحقيقي والذي قُرئ بين السطور هو تنحي أحد مرشحي الانتخابات من أقارب العزيز حمدي. وهذا أصبح مطلبًا مألوفًا من ذوي المرشحين، أرادوا وَأد وليدة السقوط الوحيدة، حاولوا بشتى الطرق لجم كباح الديمقراطية والتي لم ترق لمريدي الحزب الواحد، إن مَنْ كان يفوز بانتخابات صورية مُورستْ عن طريق الخوف، والفوز بنسبة ٩٩,٩٩% لا ترق له انتخابات حقيقية نزيهة.

لم يستطع أحد تنفيذ مطلبهم التعجيزي الهستيري... كان النداء الهاتفي الذي استلمته حنان هو أول وآخر نداء، مرَّت عدة أيام عصيبة على الكل كان الترَّقب واستجداء رنَّة من الهاتف الملعون، إن مجرد النظر إليه كفيل بملء القلب بالأسى.

شارفتْ اللمسات الأخيرة في التحضيرات لإتمام عملية الاقتراع على الانتهاء، فقد حُصِّنتْ مراكز الاقتراع بأسوار عبارة عن كتل كونكيرتية عالية وثقيلة، سرى مفعول حظر تجوال للمركبات لثلاثة أيام سبقتْ اليوم الموعود وعلى المقترعين السير مشيًا على الأقدام صوب مراكزهم الانتخابية حتى وإن بعدتْ، انخرط الكثير من الأفراد تبرُّعًا منهم بتنظيم العملية بعد أن تلقوا تدريبات معينة تصبُّ في صالح تسهيل وتأمين طريق الناخبين، شُكلتْ ثلاث حلقات من الجيش والشرطة حول مدينة بغداد في محاولة لمنع أو لتقليل محاولات تعثر العملية عن طريق التفجيرات وإطلاق الصواريخ عن بعد، هكذا كان الوضع الأمني متأزمًا جدًا ومشحونًا بكل ما يخطر على بال من توقعات، انتشرتْ الكثير من الإشاعات والتي لا يُعرف مصدرها الحقيقي، تهدد بمصير مظلم لكل مَنْ سيذهب للتصويت، هكذا كانت تعمل ما تسمى بـ "خلايا الإرهاب" على إفشال العملية بكل ما تأتى لها من أساليب قسر وتخويف.

كان صباح يوم الخامس عشر من شهر كانون الثاني الساعة السادسة والنصف صباحًا أي قبل يومين من موعد الانتخابات.. أنا وعادل والأولاد نيام كل بغرفته.. رنَّ الهاتف بقربي.. إنه موعد صلاة الفجر وها هو منبه الهاتف يقوم بدوره ككل فجر، مددتُ يدي لأنهي رنَّته

المعهودة كمنبه!.. شيء ما جعلني اتنبه إلى أن هذه الرنة ليستْ هي الخاصة بالمنبه!.. إنها رنَّة اتصال.. لثوانٍ معدودة أخذتُ أستمع للرنَّة للتأكد منها.. إنها فعلًا رنَّة اتصال، وكفعل لا إرادي رفعتُ رأسي وركَّزتُ نظري صوب الجدار المقابل للسرير؛ لأعرف الوقت من الساعة المعلقة قبالتي، فإن ساعة عقلي تخبرني بأن الوقت لايزال مبكرًا، فعلًا إن ساعة عقلي تتطابق والساعة الجدارية المعلقة، إنها السادسة والنصف صباحًا، مَنْ عساه يكون المتصل؟!.. نظرتُ إلى عادل بجانبي علَّه يسعفني بالرد على هذه المكالمة التي لا تبشر بخير.. إنه مستغرق بالنوم ولم تقلقه رنَّة الهاتف:

- آلو... نطقتها بصوت منخفض دون أن أعرف السبب، أنا أنتظر سماع خبرًا سيئًا...

- صباح الخير يا لميس...

جاءني صوت أختي نهى، وهي تتكلم بهمس وحذر وتوجُّس بذات الوقت، معروف عن نهى عاطفيتها الشديدة وعدم استطاعتها التغلب والسيطرة على ما بداخلها، وهي غير قادرة على التلاعب بنبرة صوتها، كان صوتها مثقلاً بخبر لا أستطيع التكهن بماهيته... أجبتها:

- صباح الخير.. باستفسار خالٍ من الصبر والمجاملة... أرجوك خبري ما لديكِ...

- أنتم ما زلتم نيام أكيد أليس كذلك؟... حاولتْ التمهيد لخبرها...

- غير مهم.. أجبتها وأنا أستطلع منها ما وراء مكالمتها المبكرة...

- هناك مَنْ اتصل ببيت حنان ليلة أمس... سكتتْ لبرهة لجرِّ أنفاسها وكذلك لإعطائي الفرصة لتحضير نفسي لما سأسمع منها... واصلتْ

الكلام: المكالمة كانتْ من مجهول أطلق على نفسه اسم فاعل خير؛ ليخبرهم بمكان حمدي...

- أهو على قيد الحياة؟.. قلتها وكل ما بي يرتعش.. أجيبيني بالله عليكِ يا نهى...

شعرتُ بيد تمتد إلي بحنان محاولةً التهدئة، التفتُ صوب عادل وقد ارتسمتْ على وجهه الدهشة والخوف والحذر محاولًا إبداء الهدوء وهو يشد على يدي بقوة، فقد استيقظ على نبرة الخوف بصوتي...

- لا نعرف أيَّة تفاصيل بعد.. هدئي من روعك يا لميس، إنها لعبة الحياة.

- كفي عن الفلسفة يا نهى، فلا وقت لها في مثل هذه اللحظات، وهاتِ ما عندك... قلتها ولم أبالِ حتى بوقعها على نفسية نهى...

- إن الشخص الذي اتصل ليلة أمس لم يقل أي شيء، وأكيد فإن كل الاحتمالات مفتوحة، لم يقل غير اسم المستشفى التي يتواجد بها الغالي حمدي...

- المستشفى؟!!!، وهذا ينهي حيرتنا يا نهى!.. ما دام في المستشفى فإنه وبحمد الله على قيد الحياة!... حتى وإن كان مصابًا... بدأتْ نبرة فرح تتسلل لصوتي وإن كانتْ مكبوتة...

- أتمنى على الله أن يكون استنتاجك صحيحًا... قالتها نهى بإحباط واضح...

- وأي شيء غير ذلك؟.. فمَنْ يرقد بمستشفى يجب أن يكون مصابًا؛ ومصابًا فقط...

- وممكن أن يكون في مشرحتها.. سكتتْ عن الكلام.. فإن العبرة عملتْ على خنق صوتها وتملكتها عصبية ونقمة واضحتين... كفي عن الكلام يا لميس، وهيا أحضري سريعًا إلى بيت حنان أنتِ وعادل فنحن سنسبقكما إلى هناك، حاولي الإسراع قبل أن تدب الحركة في الشوارع وتحد زحمتها من وصولكما بسرعة، فبعد سويعات سيدخل نظام حظر التجوال حيز التنفيذ.

حاول عادل جاهدًا العمل على تهدئتي رغم ما به من مخاوف وهواجس تملأ قلبه، حاول إخفاء ما به عبثًا.. فإننا نتكلم عن العزيز حمدي، كيف لا؟ فهو يعني الكثير لعادل إنه الصديق الحميم موضع سره، هو الناصح الأمين في كل المواقف، إنه أول شخص تعرف عليه من عائلتنا عندما أراد عادل التقدم لخطبتي، إنه.. وإنه.. ويكفي أن أقول إنه حمدي.

قرَّر عادل التوجُّه إلى أقرب مركز انتخابي أو حتى التوجُّه إلى الشارع للوقوف على الوضع، كان يود التأكد من إمكانية الذهاب إلى بيت حنان وترك الأولاد فإنهم لا يزالون نيامًا... توجهنا أنا وعادل قاصدين المركز الانتخابي القريب، عرفنا أن حركة سير المركبات سالكة لحد الآن على أقل تقدير، تأكدنا من استمرار الوضع لغاية نهاية اليوم، رجعنا باتجاه البيت فنستقل سيارتنا ووجهتنا بيت حنان بالطبع، نحث الخطى والصمت هو سيد الموقف ليس بنا رغبة للكلام، وأي كلام ممكن أن نتجاذب وعقولنا مزدحمة بتوقعات أقل ما يقال عنها أنها مربكة، رنَّ هاتف عادل الذي يحتضنه بين أصابعه، شعرتُ برجفة سرتْ في أوصالي تجتاح قلبي، انتابتني حالة فرح

مؤقتة، توسمتُ خيرًا بهذه المكالمة، ومع هذا تسارعتْ ضربات قلبي وتعذر عليَّ التنفس حتى شعرتُ بالاختناق...

- آلو... هتف عادل بنفس الحذر الذي انتابني، تمنى لو يكون الصوت عائدًا لشخص بعيد عن الموضوع...

- أنا بالقرب من البيت.. دقائق وسنتوجه إلى بيت حنان... جاءني صوت عادل وكأنه يصدر من بئر عميق، عانى وأجهد نفسه ليستطيع إكمال المكالمة مع شخص ما زلتُ أجهله...

- ما عندك من خبر...؟.. أين أنت الآن..؟ أسمعُ ما لا يطمئن في صوتك.. ارتفع صوت عادل وتبدلتْ نبرته...

- مَنْ المتصل يا عادل؟... سألته ولا أكاد أشعر برجلي... تأكد لدي الخبر.. ذلك الخبر الذي كنتُ أُقاوم سماعه، حتى إني لم أشأ أن أسأل عادل عنه مكذبة استنتاج عقلي.

لم ينطق عادل بكلمة ولم يجب سؤالي، أحسستُ بما يختلج بصدره حتى تخيل لي بأني أسمع ضربات قلبه بجانبي، أخذ يتهاوى نحو الأرض دون أن يسقط.. حاولتُ إسناده وتكملة دربنا إلى البيت، أسند ثقل جسده إلى أقرب جدار فيقوم بما لم تقم به ساقاه، تلاقتْ نظراتنا لنخبر كلانا الآخر بما أَلَمَّ به، عزَّينا بعضنا دون كلمات.

حاولنا الوصول إلى البيت مع ما تبقى لدينا من طاقة، تركنا أرجلنا تقودنا دون تدخل فعقولنا تموج بما عرفته للتو... فتح لنا بسمان الباب، أخذ يتطلع إلينا بتركيز وهو يحاول قراءة ملامح وجوهنا، قطعنا الممر الطويل المؤدي إلى المطبخ، تلقتْ عادل أول أريكة في غرفة الجلوس ليهوي بثقل أفكاره وما أَلَمَّ به من همٍّ عميق، غطى

وجهه بكلتا يديه محاولًا الهروب من أسئلة ازدحمتْ بصدري وأيضًا بصدر بسمان...

- البقاء لله يا لميس... لفظها على مراحل، فمن الصعب بمكان لفظ أحرف الكلمات مع البكاء... أجهش ببكاء مُرٍّ لم أرَه من قبل لم ينطق بكلمة بعدها، غزتْ الدموع وجنتيه لتبلل لحيته.

حاولتُ بما تبقى لدي من رباطة جأش لسماع تفاصيل الخبر، بدأ بسمان يضرب بقبضة يده على الجدار وعلى جبهته بعصبية شديدة أكثر مما هي ملامح حزن.. أفهم تمامًا سببها فقد كان يشعر بالحنق والغضب من خاطفي حمدي.. وعلى ما آلتْ إليه الأمور، وعلى نفوس تجعلهم يقدمون على سلب روح بدم بارد...

- أأبكيك يا حمدي..؟!.. أيكفي بكائي.. أم أضمر دمعي لأهمله فرحًا بشهادتك والتي طالما طلبتها من الخالق.. أم أتأسى بأهالي مَنْ سبقوك إلى الشهادة وعلى أيدي نفس الوحوش الكاسرة لأمد طويل؟!.. على مدى خمسة وثلاثين عامًا والجرائم متواصلة وبنفس النسق... قلتها بصوت عالٍ يملء أذني، سكنتْ هذه الكلمات روحي وتربعتْ في وجداني حتى لم تعد تغادرها!!..آه وآه.

الحزن والذهول وعدم التصديق صفات كلها كانتْ متمثلة في وجوه مَنْ تواجدوا في بيت حنان ساعة وصولنا... نحن بانتظار وصول عليٌّ (وهو الابن الأكبر لحنان)؛ ليقطع دراسته في الأردن ويترك أعباء الدراسة والتخصص الطبي، وهو حلم جميع أفراد العائلة وبالذات والده (حمدي) اضطر لترك الدراسة ليحضر مراسيم وأعباء ومهام موارات جسد الشهيد الثرى، ما إن وطأتْ قدميه أرض المطار

حتى توجه مباشرة إلى المستشفى؛ ليلتحق بالمشيعيين الذين كانوا في انتظار تكملة الأوراق الرسمية واستخراج شهادة الوفاة؛ ليتسنى لهم العودة به إلى بيته.. بيته الذي غادره منذ حوالي ثلاثة أشهر، بيته الذي غادره على قدميه سيعود له وهو جثة مسجاة في نعش خشبي خشن، خرج وهو يحمل مسئولية إعالة عائلته، عاد ليُحمل على أكتاف أولاده ومحبيه، يحنو عليه ذاك الصندوق الخشبي الضيق فيرافقه إلى مثواه الأخير...

كنا جزعين لأجل علي، فإنه قد فارق والده منذ سفره إلى الأردن من سنتين تقريبًا، لم يعد خلالهما لزيارة أهله، فشغله في المستشفى والتحضير للامتحانات لا يسمحان له بالمغادرة... وهكذا كُتب عليهما الفراق مبكرًا.

- صحيح إنه منظر مألوف بالنسبة لي أسِرَّة المستشفيات، معاناة المرضى ومصارعة آلامهم، ردة فعل ذوو المرضى حال سماعهم خبر وفاة أحبابهم، إنها مشاهدات يومية ضمن سياق عملي الروتيني، كنتُ أتأثر في بداية عملي كطبيب، لكن مع تكرار هذه المشاهد كان لِزامًا علي استيعاب مصاعب مهنتي، مهنتي التي اخترتها بكل حب... توقف علي فجأة عن الكلام، محاولًا لملمة أفكاره المشتتة من جهة، ومُخبئًا حزنًا ودمعات ساخنة انسابتْ بدون استئذان على وجنتيه، تركنا له حرية الكلام والتعبير عن المشاعر بعد كتمانها لمدة ثلاثة أيام كان خلالها يستلم العزاء في والده، عاد ليواصل ما بدأ ونحن ننصتْ إليه بشغف هذه المرة... أنا المصدوم، وأيَّة صدمة

وفيمَنْ؟!.. وبأية طريقة؟.. وبأي توقيت؟، وأنا في غربتي ووحدتي، يصل إلى مسامعي ما يهز كياني بل يهده...

- كان بالعون يا حبيبي... جاءنا صوت بابا محاولًا التخفيف عنه، أنتَ منذ وصولك من عمان لم تهنأ براحة، من مراسيم الدفن وتقبُّل العزاء وما إلى ذلك يا حبيبي، حاول أن تريح جسدك والأهم عقلك ولو لربع ساعة، وبعدها تكلم مثلما يحلو لك فكلنا بانتظارك...

- وهل برأيك جدي العزيز أنني سأهنأ بأي نوع من أنواع الراحة بعد اليوم حتى ولو حاولتْ؟... تلفظ علي بهذه الكلمات بصوت منخفض تخنقه عبراته...

- إنها الحياة يا بني... ستستمر وتستمر معها الأفراح والأتراح، الولادات والوفيات، هذا هو حال الدنيا يا قرة عيني... قالها الوالد خافيًا غصته على فراق من أحب...

- أنا أعلم ذلك يا جدي... بل ومؤمن به إيمانًا كاملًا ولكن... توقف برهة ليكمل.. إنه أبي.. ولم يستطع تكملة ما بدأ.

ربتتْ على كتفه حنان وضمتْ رأسها بين يدي ابنها وأخذا بالبكاء بل بالعويل حتى بكى كل مَنْ في الغرفة...

توجهنا كلنا وكأننا على اتفاق مسبق إلى وجه الابن الأوسط للشهيد إنه مصطفى، نريد أن نسمع منه تفاصيل النداء الذي استلمه من الشخص المجهول، والذي كنى نفسه بـ (فاعل خير)، وذلك عند الساعة الحادية عشرة ليلًا وعلى الهاتف الأرضي للمنزل، والذي أعلمه من خلاله بمكان والده المفقود...

- رنَّ جرس الهاتف.. ذهبتُ لأرفع سماعته، فأنا الوحيد الذي أنيطتْ به مهمَّة الجواب عليه حسب التعليمات والتوجيهات من قِبل كبار

العائلة وحسب ما تعرفون، وبعد اتخاذهم قرار عدم الاتصال من قِبلهم على الهاتف الأرضي؛ ليبقى هو مصدر مكالمات الخاطفين فقط... أجبتُ بالكلمة المعهودة وقلتُ: آلو.. لأتبين واستقرئ صوت المتصل... آلو... أهذا منزل حمدي الفلاني...؟.. جاءني صوت لم آلفه من قبل، ارتعش جسدي... نعم.. أجبتُ بغلظة واضحة.. مَنْ المتكلم؟ ولم أكد أشعر برجلي تحملني فإن الصوت غريب كليًا قلتُ مع نفسي إنهم هم لا محالة، تهيأتُ لسماع وابلًا من الشتائم وسيلًا من الشروط حول الفدية المطلوبة، مكان وزمان التسليم إلى غير ذلك... أنا فاعل خير يا ولدي... أكمل مَنْ كان على الجانب الآخر من الهاتف بصوت ضعيف وحاني بنفس الوقت، أنتَ لا تعرفني يا بني، قالها بكل أدب وحذر أيضًا... وكذلك أنتَ لا تعرفني.. أخذتُ أستمع بتركيز عالٍ لهذا الصوت... عندي أخ خُطف من حوالي ثلاثة أشهر.. سكت قليلًا؛ ليعطيني فرصة الانتباه لكلامه والتركيز على ما سيقول: ذهبتُ اليوم إلى مستشفى (.....) للبحث عن جثة أخي بإحدى براداتها... سكتْ قليلًا؛ ليستجمع قواه حيث شعرتُ بعبرة تخنق أوتار صوته وعاد ليكمل وأنا لم أتفوَّه ببنت شفه لحد الآن... أما زلتُ على الخط يا ولدي؟ سألني... أنا معك.. أجبته بجفاف.. فلازلتُ لا أعرف شيئًا عنه... وأنا أبحث عن جسد أخي... تاه صوته في أعماق ذكرياته الحزينة وعلى الأقل هذا ما بدا لي حينها، وقد يكون السبب هو مشاهداته الأليمة بذلك المكان الموحش، يا له من موقف!.. كيف استطاع احتماله...؟! سألتُ نفسي وأنا أنتظر معاودة كلامه... أسحب جرارًا وأعيد الآخر بحثًا عن علامة فارقة أعرفها بجسد أخي، عثرتُ على اسم ثلاثي ورقم هاتف كُتب بخط مرتجف على الملابس

الداخلية للجسد.. وكان رقم الهاتف هذا هو والذي أتصل عليه الآن.. سكت ولم يكمل.. فلا حاجة للتكملة، فقد وصلتني وبوضوح نهاية القصة...

سكت مصطفى عن الكلام بفعل الحرقة التي أحسها حين استلامه للمكالمة، وانخرط ببكاء لم ينته إلا باختلاط دموعه بدموع والدته وهي تحاول التخفيف عنه، وعاد ليكمل أراد الاسترسال بذكرياته فإن عبء الكتمان الذي تحمله خوفًا على والدته حينها لم يعد له حاجة بعد الآن...

- بعد أن وضعتُ سماعة الهاتف جذبتني ماما من كتفي وبقوة وسألتني بحزم: ما الخبر يا مصطفى...؟!.. مَنْ المتصل...؟ ألا يجدر بك أن تخبرني وعلى الفور قبل أن يُغمى علي، ما بال لونك تغير واكفهر وجهك؟... إنه شخص يسمي نفسه فاعل خير، يدعي بأن بابا الحبيب في المستشفى الفلاني... انسابت كلماتي دون أن أشعر بأني تكلمتُ علتْ أصوات مَنْ حولي كلها تتساءل: كيف هو حال حمدي..؟ سألتْ جدتي بلهفة تداخل صوتها مع صوتي ماما وجدي بنفس السؤال: أين هو بالضبط؟.. بأيَّة غرفة؟.. ما الذي أصابه؟ عسى ألا تكون إصابته بالغة.. إنه الضغط المرتفع لا محالة، أسئلة كثيرة تصبُّ في نفس المجال وأنا أستمع إليهم ولا أدري ما الجواب لهذا السيل من الأسئلة... لم يطلعني على التفاصيل.. أجبتُ بعدما استجمعتُ قواي، المهم أننا عرفنا مكانه، قلتُ في محاولة لوقف سيل الأسئلة، لم أكد أنهي جوابي حتى بادرتني ماما: اسمع يا مصطفى، حتى لو كان الوالد يحتاج للبقاء يومًا أو حتى يومين في المستشفى ليتعافى كليًا فليبقى، المهم دخوله علينا وهو سالم ومعافى تمامًا، فلا

رغبة لي في اهتزاز مشاعر أخيك الصغير، إنه لا يستطيع تحمل أو استيعاب ما يجري، لا أتحمل المجازفة بقطع علاجه لمجرد عودته إلينا بسرعة.. قالتْ ماما كلامها وأبدتْ رباطة جأش محاولة الظهور بمظهر الأم والزوجة الصلبة الصابرة مغالبة اضطرابها؛ لتعطيني دفعًا للتحلي بالهدوء... حارتْ أفكاري مع حيرتي.. فما عساني أجيب ماما الملهوفة، المتأسية بالصبر وتفهم أقدار الزمان، فبعدما سرح خيالها لأبعد ما تستطيع، اهتدتْ بأن بابا يرقد في المستشفى لإصابة ما، أأستطيع بعد هذا إخبارها بأن لولا لطف الله بنا لما اهتدينا لجثمانه حتى...

- حقًّا إنك شجاع.. إنك رجل بمعنى الكلمة يا حبيبي... قال له أخوه الكبير علي، وهو معجب بصلابته ورباطة جأشه.

أثبت مصطفى للجميع أنه يتحلى بكم هائل من الصلابة ورباطة الجأش وقدرة على تحمل المسئولية، وإلا كيف له أن يقفل على قلبه ومشاعره؟!.. كيف تأتى له التحكم بانفعالاته ولم يسمح لها بالظهور على ملامح وجهه... لله درُّك يا حبيبي...

هنا تدخل عادل وسأله:

- لِمَ لم تخبرهم لتُقاسم حزنك معهم؟؛ لتخفف عنك يا بني، إنه موقف عصيب...

- آليتُ على نفسي ألا أعرض ماما لهمٍّ وحزن مبكر.. فهي سوف تحزن طويلًا.. ما فائدة إضافة ليلة حالكة الظلام وانتظار الليل؛ لينجلي إلى لياليها الحزينة التي هي بانتظارها...

- حقًّا إنك أهلٌ بأن تكون الرجل الجديد لهذه العائلة... قالها بابا لرفع معنويات مصطفى...

ـ وأين أنا من هذه المسئولية يا جدي؟... سأل علي باستغراب وبشيء من الاستهجان...

ـ أنتَ الرجل الأول لها يا قرة عيني، لكن بعدك المؤقت عنها واهتمامك بإنهاء المسئولية الأكبر، والتي تركها على عاتقك والدك الغالي، يجعل من مصطفى بهذا الموقع ليسد عنك وأنتَ في الأردن تكمل ما بدأتْ، فدراستك وتخصصك الطبي هو تحقيق حلم غائبنا الحاضر والدك العزيز...

ـ وأي أردن هذه بعد الذي أنابنا يا جدي العزيز؟.. فهل من المعقول بمكان ترك عائلتي في هذا الظرف؟...

هاج الجميع تقريبًا على رد علي، كل مَنْ يحب هذه العائلة ويكن الاحترام والتقدير للغالي حمدي، هو مَنْ كان يتطلع لذلك اليوم الذي سيرى به ثمرة زواجه الأولى وهو يد بيد وكتف بكتف مع الأطباء الأخصائيين للذب عن آلام الناس، يرى ابنه البكر بقامته الطويلة، بجمال وجهه واكتمال رجولته، بإنسانيته ولطفه وهو يرتدي المئزر الأبيض، مشاركًا أمهر الجراحين لاستئصال كل عضو لا يعمل على خدمة هذا الكيان العراقي... فكيف لهذا الحلم الكبير بالتوقف؟!...

ـ أأنت جاد فيما تطرح يا قرة عيني؟... سأله بابا بحزن...

ـ أنا أكثر من جاد يا جدي، فأنا اتخذتُ قراري قبل أن أصل بغداد وأواري جسد الشهيد الثرى... فور تلقي الخبر... فمَنْ لوالدتي؟.. ومَنْ لأخي الصغير محمد؟، وحتى مصطفى فهو بالمرحلة الأولى من دراسته الجامعية، بل حتى أختاي... نعم إنهما متزوجتان ولهما عائلات والحمد لله.. فأنتَ أعرف مني يا جدي باحتياجات البنات في مجتمعنا حتى بعد الزواج، فها أنت اليوم وعلى الرغم من زواج ماما

وخالاتي، وجودك مع ماما الذي دام ثلاثة أشهر، تواجدك معهم وتركك لفراشك وراحتك في بيتك يدعوني لأتبع نهجك على أقل تقدير...

- تقول هذا لترضي غروري وتخاطب عاطفتي، لكن عقلي سيظل متقدًا ليرفض مجرد التفكير بما تطرح علينا الآن، لم ولن أسمح لك بالتخلي عن حلم الغالي حمدي... أجهش بابا بالبكاء وعلا صوته وأطرق بنظره إلى الأرض فلم يعد للكلام تتمة...

- ألم يحن دوري بالكلام بعد، أليس من الأجدر الركون لرأي وأنا مَنْ تتكلمون عنها وتناقشون وضعها؟ مع كل الاحترام لرأي الجميع وبالخصوص بابا... تفوهتْ حنان بهذه الكلمات بقلب مكلوم وصوت واطئ وضعيف تمكنتْ منه بحة كبيرة؛ لكثرة بكاءها في الثلاثة أيام المنصرمة... سوف لن أتخلى ولن أتوانى عن تحقيق حلم بدأه الغالي حمدي مهما كلفني الأمر من مشاق بل وصعاب... حتى بالحلم لا يدور بِخُلدك ولو مجرد التفكير العدول عن تكملة مشوارك الطبي... أنهتْ كلمات حنان القليلة ـ وخير الكلام ما قلَّ ودلَّ ـ أي نقاش في هذا الموضوع.

كانت أيام العزاء الثلاثة الماضية قد مرَّت سريعًا، فكل مَنْ سمع بالخبر حضر أحد مجلسي العزاء الذي أُقيم أحدهما في منزله وهو المجلس الخاص بالنساء، وآخر خاص بالرجال في أحد جوامع بغداد، وهذا هو المتعارف عليه لدى كل العراقيين تقريبًا، يمرُّ النهار باستقبال النساء وتقبل العزاء فيأتي الليل؛ لنجتمع مع رجال العائلة فنستمع لتفاصيل المجلس الرجالي مَنْ حضر ومَنْ لم يحضر بعد، مستوى الخدمات المقدَّمة لهم، وهل كل شيء يسير حسب الأصول

والمستوى الاجتماعي المطلوب؟ هذا يدور بكل مجالس العزاء... فكيف به وهو مجلس حمدي...؟.. حمدي المحب للتقاليد والأعراف الاجتماعية البغدادية الأصيلة، والذي كان يتتبع كل شاردة وواردة في كل مناسبات الفرح والحزن على حد سواء؛ ليكون المجلس بأعلى درجات الالتزام بالأصول المتعارف عليها.. وكان لنا ما أردنا من ترتيب وتنظيم وذلك بفضل توجيه الآباء لأبنائهم فهم المضيفون.

أصبحتْ الأيام تمرُّ بثقل وبطء، الخوف كان متواجدًا بكل زاوية من زوايا البيت، أقول الخوف نعم، فما الذي يمنع من تكرار ما حدث ولأي كان!... هذا التوجُّس أصبح متغلغلًا في كل خلايا أدمغتنا.. كانتْ حنان رافضة لكل ما يمتْ إلى عودة الحياة الطبيعية بصلة، منعتْ ولديها من العودة إلى مقاعد دراستهم، أقل ما يمكن من الخروج إلى خارج المنزل إلا للضرورة القصوى... كانتْ دائمًا ما تردد الحمد لله الذي مكننا من دفع علي ولو بالإكراه إلى السفر إلى الأردن لمواصلة دراسته العليا وبذلك تشعر بالاطمئنان عليه بعيدًا عن بلد يأكل أولاده.

كلنا عدنا إلى حياتنا اليومية ولم نعد... نذهب ونجيء بغير روح... نتحرك لأنه مطلوب منا التحرك... نتنفس لأن صدورنا تصعد وتنزل دون استئذان منا... لم تعد الأيام على ما هي عليه أبدًا.. أصبحتْ رواسب هواجسنا المتخوفة تحتل مساحة أكبر في نفوسنا... كل يوم يمرُّ كان عبارة عن زيادة في المخاوف والهواجس... لم يهنأ بسمان بفترة خطوبته كما هو متعارف عليه.. الحزن على عمه حمدي ترك الأثر الكبير في نفسه.. الأوضاع الأمنية المتردية حدَّتْ من تحركاته

هو وخطيبته الجميلة والتي اختارها قلبه.. أماكن النزهة أُغلقتْ أبوابها جرَّاء التهديدات المتلاحقة من جماعات الظلام... اغتيالات لشباب يمتهنون مهنة الحلاقة!.. فإنهم يزينون الشبَّان وهذا حرام في أعرافهم وعقولهم المظلمة، اختطافات، انفجارات، سيارات مفخخة جاهزة لأن تنفجر بأيَّة لحظة وفي أي مكان، أفران الخبز صارتْ أهدافًا، أماكن تجمع العمال الساعين للحصول على لقمة العيش اليومية، أصحاب محلات بيع الخضار أُغتيلوا والسبب هو جمعهم بين الخيار والطماطم معًا فهذا إيحاء جنسي!.. عقول عفنة تحكمتْ وعبثتْ بأرواح بريئة، حكمتْ ونفذتْ الحكم من خلال مناظير سوداء عتمة.

أما الانتخابات فقد جرتْ.. واندفع الناس ليقفوا طوابير أمام مراكز الاقتراع.. كان إقبالًا ملحوظًا... فإن الشعب متعطش لممارسة الديمقراطية... تلك الكلمة التي نلوكها بألسنتنا دون أن يترسخ مفهومها بشكلها الصحيح، ومن أين لمفهومها الترَّسخ ببلد لم يعرفها منذ عقود... إلا أن مجرد التداول بها بين العامة والخاصة من الناس هو ديمقراطية... لقد سُجلتْ هنا وهناك اختراقات أمنية واضحة راح ضحيتها العشرات، إلا أنها لم تثنِ البقية عن ممارسة الحق المكتسب بدفعنا ثمنها من دمائنا، وبما أن التجربة فتية فقد جرَّتْ وفق مفاهيم ضيقة لا تتعدى التعصب للطائفة الدينية... حتى أن التكتلات الحزبية والتي أُطلق عليها جُزافًا لفظ الحزبية لم تتعدَ أن كانتْ تكتلات طائفية... لتفوز الطائفة التي غُيبتْ لعقود عن الساحة السياسية؛ ليدخل البلد في دوامة عنف ليس لها نهاية، فإن مَنْ سيطر على مقاليد الحكم لسنين وسنين لم يرُّق له سحب البساط من تحت قدميه

وبطريقة سلمية فعبَّر عن إحباطه عن طريق الدم... نعم الدم... ويا لرخصه عندهم، هدروه وهم في السلطة وأكملوا عليه وهم خارجها... لم نتمكن أنا وأخواتي من ممارسة ذلك الحق.. فقد كنا لاهين عنه بمأساتنا الخاصة.

• • • •

اليوم هو ذكرى مرور أربعون يومًا على الحادث الجلل، والمكان بيت أختي حنان طبعًا.. نساء متشحات بالسواد.. الأعمار تتراوح بين الثمانيين وبين بداية المسيرة الحياتية، تحضيرات لا تكاد تنتهي والأهم هو رفع قطع الأثاث وأطقم الكنبات؛ ليحل محلها مراتب تُصف حول الصالة تُغطى بمفارش تليق بالحدث من المتعارف عليه في مثل هذه المناسبات، ولدى كل طبقات المجتمع هو محاكاة السلف في مجلسهم أي العودة إلى افتراش الأرض والتخلي عن الجلوس على أطقم الكنبات، وهذا يعود لعدة أسباب من وجهة نظري منها أن يتسع المكان لأكبر عدد ممكن من الضيوف، كذلك إضفاء هيئة الحزن ببساطة الجلسة وغيرها، يُضاف إلى هذه الجلسة الأرضية كرسي واحد.. يتوسط الجلسة، يُغطى بالسواد، ولا لون غيره... هذا هو منبر الجلسة والذي ستعتليه سيدة امتهنتْ الكلام واللحن الحزين وبصوت مرتفع؛ لتُسمع كل الحاضرات، فيتغلغل صوتها الشجي في القلوب المنكسرة الملتاعة فتدمع العيون بغزارة، فهي تساعد على إفراغ ما في النفس من لوعة وحسرة مكبوتة، ولتتشارك كل الحاضرات البكاء والأنين وكل على ليلاه... فتهدأ النفوس قليلًا، يلي هذه الفقرة من البكاء والحزن، تقديم الطعام وبكميات كبيرة دائمًا ما

تكفي لضعف العدد المتواجد، فهو دليل على سخاء أهل الحدث ومدى معزة المتوفى لدى ذويه... كان أهم ما في الموضوع هو حضور ابنته، والتي لم تكن متواجدة في البلد أثناء مجلس العزاء، فهي مَنْ التحقتْ ببلد عمل زوجها، صحيح أنها كانتْ بعيدة بجسدها عنا ولكن يبدو جليًا حضورها بقلبها وروحها معنا، حتى أنها كانتْ تطلب منا إبقاء خط الهاتف مفتوحًا ولفترات طويلة؛ لتستمع إلى ما يدور أثناء الجلسة... أُجبرتْ على اللحاق بزوجها أثناء فترة خطف والدها وقلبها يُعتَصَر حزنًا؛ لتلعب دور الزوجة الصالحة والتي تكون بجانب زوجها في أي مكان وفي أي زمان، وهذا هو صميم عملها المعَّدة له منذ طفولتها... حضرتْ اليوم وبعد مرور أربعين يومًا على المصاب؛ لتشاركنا الاحتفاء بالذكرى الأربعينية على أقل تقدير مع طفلتيها وزوجها، طفلتها الثانية والتي لم تتعدَ الشهرين من عمرها بعد، وفور وصولها إلى دار ذويها واستقبالها بالدموع وعند ضمي لها عدتُ بذاكرتي إلى تلك المكالمة التي دارتْ بيني وبينها في ذلك اليوم المشئوم، إنها حقًّا كانتْ حاضرة معنا بكل جوارحها، كيف لا؟ وهي تكرر الاتصال بنا في بغداد حال استلامنا خبر استشهاد الغالي حمدي، حقًّا إن قلب المؤمن دليله، استرجعتُ تلك اللحظة والتي ما إن وطأتْ قدماي بيت حنان على إثر سماعي الخبر حتى سمعتُ رنَّة الهاتف والكل لاهٍ عنه بما يشغله من همٍّ وحزن ودهشة تملكتْ منا جميعًا، فكان لابد لي من رفع سماعة الهاتف ليأتيني صوت ابنته البعيدة والمغتربة، شعرتُ بحرج شديد وتساءلتُ مع نفسي:.. ما هذا التوقيت؟.. وما عساني أن أجيب؟، فقلتُ:

- آلو... أهلًا حبيبتي... وأنا أحاول جاهدة إخفاء ما يختلج في نفسي علَّه لا يتسرَّب لصوتي...
- مَنْ معي...؟ سألتْ بلهفة...
- أنا خالتك لميس.. اختنق صوتي واكتفيتُ بهذا الجواب المختصر دون كلمات التودد المتعارف عليها...
- خالتي الحبيبة.. كيف حالكم؟، وما هي الأخبار؟!... جاءني صوت يملؤه الخوف والذعر: أمن خبر جديد؟ أضافتْ، وقد خُيل لي أنها على إطلاع بما نحن فيه، ولكن من أين لها معرفة الخبر؟، وهي البعيدة خاصة وأن الخبر لم يمضِ عليه إلا سويعات قليلة...
- عن أي خبر تتحدثين؟.. كانتْ كل أجوبتي مختصرة...
- أي خبر.. فأنا أشعر بضيق غريب، أكاد أشعر بقلبي يرتجف بمخبأه.. هل حدث مكروه لبابا...؟!.. خالتي أرجوكِ أصدقيني القول، إن الذي يجري علي الآن شيء غريب... لا أعرف ما هو إلا أنه غريب، بدأتْ في البكاء...
- الصوت مشوش يا حبيبتي.. أنا لا أفهم ما تقولين.. تعمدتُ ذلك لأعطي نفسي لحظات من التفكير فيما عساي أن أجيب.. قلتُ لمَنْ حولي: إنها هي، كيف لي أن أتصرَّف، إنها لم تزل نفساء، ومن الخطورة إخبارها بما يجري الآن...
- هل تسمعيني يا خالة...؟! فقد طال صمتكِ وشعرتْ بما يقلق، أصدقيني القول.. أكملتْ وهي مذعورة: قلبي يحدثني بشيء خطير... أنا أسمع صوت بكاء، بل إنه بكاء ماما على وجه التحديد!.. ليس فقط ماما أسمع الكثير من الأصوات وكلها منخرطة في البكاء!... إنكِ تسمعيني يا خالتي أجيبيني بالله عليك... وانخرطتْ في بكاء شديد.

قررتُ في لحظة أن أهون عليها الموضوع وأقلل من شأنه:

- كيف هي طفلتك؟، وهل بدأتِ تتماثلين للشفاء من جرَّاء العملية القيصرية يا حبيبتي؟.. أهي شبهك أم شبه أبيها؟!...

- إنكِ تحاولين إلهائي عمَّا جرى أليس كذلك؟ أنا لم أعد الاحتمال أكثر، إنكِ تؤذيني بهذه الطريقة... مَنْ الذي دخل عليكم للتو؟.. إن صوت البكاء ارتفع...

- إنها عمتك يا نور عيني، جاءت بعد معرفتها بوجود والدك في المستشفى؛ ليتعالج من بعض الجراح.. تقصدتُ إعطاءها الخبر بالتدريج...

- أي جراح هذه؟! ألم أقل أنكِ تخبئين عني خبرًا يخص بابا، فلتخبريني بكل التفاصيل.. أرجوكِ خالتي... إن رجليَّ لم تعدان تحملاني... وابنتي تكاد تسقط من يدي، أخبريني بالحقيقة كاملة مهما كانتْ محزنة، فإن التكهنات والاستنتاجات تدمرني... غاص صوتها واختفى مع آهاتها ولم أعد قادرة على تعذيبها أكثر.. إنها تتعذب فعلًا كلما طالتْ المكالمة وطال عليها غموض الموقف...

- إنكِ الآن بمفردكِ أم أن زوجكِ في المنزل؟! سألتها لأضع مقدِّمة للخبر أولًا ولأطمئن عليها فيما لو كانتْ بمعيَّة زوجها أم بمفردها...

- أنا وحدي، زوجي ما زال بعمله. هاتِ ما عندك على وجه السرعة.

- إن أباك يرقد في المستشفى على إثر إصابته بطلق ناري غير أن حالته مستقرة...

سمعتْ صوتي واستهجنتْ سذاجته، إنه غير مقنع البتة...

- عذرًا خالتي غير أني غير مقتنعة بما تقولين.. إن بقاء ماما بالبيت وعدم تواجدها بقربه وهو في هذه الحالة يؤكد استنتاجي...
إنها تتألم بمعنى الكلمة فهي بعيدة ولا من قريب تشكو له أحزانها أو مخاوفها... صوتها ينم عن ذعرها ولم أعد قادرة على تعذيبها بإخفاء الحقيقة عنها...
- إننا أشخاص مؤمنون أليس كذلك؟.. قلتُ لها بصوت هادئ ومستقر دون أن يرتجف أو تبدو عليه رعشة.. قررتُ إبلاغها الخبر على أساس (وقوع البلاء أهون من انتظاره)، فكنتُ سأبدأ بالدخول في صلب الموضوع إلا أنها قاطعتني قائلة:
- إنه توفى...؟! قوليها يا خالتي.. قوليها.. صرختْ.. هتفتْ بكل ما لديها من طاقة: بابا حبيبي.. بكتْ بمرارة وبكيتُ معها.

بعد انتهاء مراسم الأربعينية بعدة أيام عادتْ الابنة المكلومة أدراجها إلى ذلك البلد البعيد... بدأتْ تلوح بالأفق بوادر جديدة ومخيفة وشبهات تدور حول مصير مصطفى فلربما يتعرَّض لنفس ما تعرَّض له والده!، واحتمال أن مخاوفنا هي مَنْ أوجدتْ هذه الشبهات... أخذنا نؤول كل حركة وكل سكنة من أي نوع، وكنتيجة لتلك المخاوف بدأنا في الضغط على حنان باتجاه واحد.. ألا وهو السفر ومغادرة البلد في أقرب ما يمكن، وبذلك القرار تكون حنان قد ضربتْ عصفورين بحجر: الهروب من المخاوف والابتعاد عن التهديدات التي تحفُّ بنا جميعًا بصورة عامة وبعائلتها بصورة خاصة، إضافة إلى النزول عند الطلب الملح لابنها علي والذي لم يفتأ يطلب منهم ترك البيت والتوجه إليه والعيش معه في حال

أصرَّتْ حنان على مواصلته لدراسته، فهو يريد وبشدة أخذ دوره كابن كبير للعائلة وتحمل مسئوليته الجديدة وإن التنازل عنها يقضُّ مضجعه، استجابتْ أخيرًا حنان لمطالب الجميع بالمغادرة، ومنها طلب الابنة الأكبر والتي تعيش في بغداد مع زوجها رغم علمها بما ستعانيه بالابتعاد عن الأم والأخوة غير أنها آثرتْ أمان أهلها على راحتها... سافرتْ حنان مع ولديها إلى الأردن تاركةً وراءها كل عمرها وذكرياتها، منزلها بكامل أثاثه، أهلها وجيرانها، مستقبل أولادها الدراسي.. كل شيء إلا أنها لم تنسَ أن تأخذ معها شيء مهم... أحزانها ومأساتها.

(٢٤)

احتجتُ أن أذكِّر ابني حسان بشراء قوارير الماء، فقد شارفتْ القارورة الأخيرة والتي نضعها على براد الماء على الانتهاء، فإن جلب ماء الشرب مهمته، تناولتُ هاتفي النقال وهو بالقرب مني دائمًا، فهو يلازمني على مدار اليوم، إن ملازمة الهاتف أصبحتْ حالة عامة لدى الجميع دون استثناء، منهم مَنْ يحمله بجيب بنطاله، منهم مَنْ يضعه في جيب القميص، منهن من تدلِّيه على صدرها كقلادة... المهم هو معنا دائمًا للجوء إليه وبأسرع وقت ممكن في الحالات الضرورية، وأقصد بالحالات الضرورية هي تعرُّضنا لأحد كوارث هذه الأيام.. الخطف، السطو المسلح.. تفجير يقع بالقرب منا وغيرها كثير...

كانتْ الساعة تشير إلى الحادية عشر والنصف صباحًا، وقد غادر حسان عند الساعة السابعة صباحًا للذهاب إلى الكلية والتي تقع على مسافة بعيدة عن المنزل، عند هذا الوقت تبدأ الاستراحة الأولى مما يعني إمكانية محادثته... رنَّ الهاتف مثلما أريد... لكن لم يأتني صوت حسان مثلما أريد...

- آلو... مَنْ؟.. حسان؟... رغم أني متأكدة أنه ليس بحسان، ورغم ذلك كررتُ ولأكثر من مرة.. حسان...

- أي حسَّان هذا؟! أجيبي عيوني...

جاءني صوت غريب فظ غليظ، أجش.. سارتْ بي رعشة بدأتْ من أعلى نقطة برأسي مارة بكل خلية من جسدي، كمَنْ يُصعق بتيار

عالي الفولتية حتى أسناني شعرتُ بها اصطكتْ، عرفتُ على الفور أن صاحب الصوت هو أحد خاطفي حسَّان... استندتُ على أقرب جدار بالمطبخ، هيأتُ مسامعي لاستلام وابل من الشتائم والسباب، والكثير من كلمات التهديد والوعيد، استجمعتُ ما تبقى لدي من قوة إذا كان هذا المصطلح ينطبق على ما تبقى مني، وقلتُ:

- مَنْ أنت...؟ إنه هاتف ولدي حسان.

أجابني بنفس الغلظة والفظاظة (وهذا ما كنتُ متوقعة أصلًا)؛ ليقول:

- أنا موظف الاستعلامات في الكلية... ومَنْ أنتِ؟

- أنا والدته.. وما سبب وجود هاتفه عندك؟... قلتها ولا زلتُ غير واثقة بقوله إلا أنني متمنية أن يكون صادقًا.

- إن الجهاز مزود بكاميرا، ولدي تعليمات من عِمادة الكلية بعدم السماح بدخول أي هاتف مزود بكاميرا إلى الحرم الجامعي، وهذه التعليمات اتخذتْ للمحافظة على خصوصية طالباتنا وطلابنا...

رفعتُ رأسي إلى سقف المطبخ لأتبيَّن مَنْ هذا الذي أسال جردل الماء البارد على رأسي.. هذا بالفعل ما أحسسته حينها، شعرتُ وخجلتُ من سذاجة تفكيري.. فأنا وحدي بالدار... هدأتُ قليلًا وشعرتُ أخيرًا بأوصالي، وعادتْ إلي أحاسيسي.. هدأتُ قليلًا، لينتابني القلق مرة أخرى... ولم أشعر بالراحة الحقيقية إلا بعد مرور ساعة تقريبًا، بعد ما اتصل بي حسَّان وأكَّد لي موضوع رجل الاستعلامات...

كانتْ هذه هي حياتنا، نقدر البلاء قبل وقوعه، مهددين بالأخطار من كل نوع وفي كل لحظة... خطر فقدان أحد أحباءنا عن طريق سيارة

مفخخة تنفجر في أي وقت وفي أي مكان حتى في جامع للصلاة.. انفجار عبوة لاصقة وضعتْ بسيارة أحدنا.. الخطف من قِبل جماعات مسلحة تدعي الإسلام والإسلام منها براء، وهذا أكثر ما كان يقلقني فقد كنتْ أصرَّح للبعيد قبل القريب بأن جُل خوفي من الاختطاف.. فالموت بانفجار ما هو قدر ممكن وقوعه لكن الخطف شيء مرعب بمعنى الكلمة، أن يصبح عزيز القلب بين أيدي أناس يُطلق عليهم كلمة بشر جُزافًا، ما هم من البشر في أي صورة وما هم آدميون، لا يمتون للآدميين بأيَّة صلة من قريب ولا من بعيد، هم وحوش، تَلَبسوا بمظهر البشر فإن مَنْ يعمد إلى هذه الأساليب الدنيئة قد تخلى بالكامل عن آدميته، الرحمة نُزعتْ من صدورهم، إذا كان لديهم رحمة أصلًا، إن شعوري هذا ليس وليد الأحداث، بل إنه شعور انتابني منذ ولادة حسان.. عشتُ اثنين وعشرين سنة (هو عمر حسَّان الآن) متيقنة بأنه لم ولن يكن من نصيبي.. أشعر بفجيعتي به مقدَّمًا.. وكثيرة هي المواقف الخطرة التي تعرَّض لها في طفولته، وعند كل موقف أكاد أتيقن أنها النهاية، كثيرًا ما صرحتُ عن مخاوفي الداخلية لأخواتي بين فترة وأخرى، وكن دائمًا ينهرنني ويلومنني على سوء تفكيري وعدم توكلي على الله ـ فإن مَنْ يخاف الجنَّ يظهر له ـ.

بعد مرور سبعة أشهر على وفاة الغالي حمدي، قررنا تزويج بسمان، كان حمدي رحمه الله هو أول المباركين على الخطوبة، بل هو مَنْ أخذ على عاتقه جلب رجل الدين إلى منزل الفتاة، والذي سيعقد قرانهما وحسب ما هو متعارف عليه، اتخذنا قرار التزويج رغم عدم

مرور سنة على وفاة الغالي حمدي؛ لأن الظروف الأمنية تتدهور بسرعة وكل يوم، الكل ارتأى التزويج بأسرع ما يمكن، فإن تردد بسمان على بيت خطيبته بصورة يومية تقريبًا، ووقوع بيت خطيبته بعيدًا نسبيًا عن بيتنا وكذلك وقوعه بمنطقة غالبية سكانها من الطائفة الأخرى.. فكان من الخطورة توجُّه شخص من طائفة معينة لمنطقة تسكنها غالبية الطائفة الأخرى.. هكذا قُسمتْ أحياء بغداد السكنية على أساس طائفي، وكان التهجير مصير السكان من كلتا المنطقتين حتى مناسباتنا المفرحة أصبحتْ منوطة بالوضع الأمني، كل قراراتنا نتخذها وفقًا لما تقتضيه الحالة الأمنية... أجيال نشأتْ وتربتْ على العنف والقهر والظلم سبيلًا واحدًا للظهور بمظهر القوي والمتفرَّد بمصير الناس، كيف لا؟، وهم يحاولون تقليد قدوتهم شاهرًا سلاحه الرَّشاش، طالقًا للأعيرة النارية بيد واحدة معلنًا ومستعرضًا قدرته على الضرب بيد من حديد على أعدائه... محاكيًا فرعون بتسلُّطه واستبداده، سنين عِجاف طويلة مرَّت والنشئ يتخذ منه قدوة، فما بالك بشبَّانٍ وأجيالٍ اقتدتْ بمثله حاكمًا، أيُّ مستقبل سيكون لمثلهم.

بدأنا في التحضيرات والترتيبات اللازمة لإقامة حفل الزفاف، اختيار بدلة الزفاف ومكملاتها لكليهما، اختيار وحجز القاعة، تأثيث بيت الزوجية وإكمال كل المتطلبات، طبع بطاقات الدعوة والتأكُّد من وصولها لكل المدعوين... اتصلتُ بأختي ريم وهي تقيم في بلد عربي مرافقة لزوجها الذي لم يسعفه الحظ في الحصول على فرصة عمل لائقة في بلده.. كنا نريد وبإلحاح اجتماع الأخوات الأربعة بمثل هكذا مناسبة، فإن بسمان هو أول حفيد سيتزوج وهذه أول فرحة لنا من

هذا النوع.. غير أن فرحتنا لم يُكتب لها الكمال، فوجود حنان بعمان وعدم استطاعتها الحضور والأهم من هذا هو الحزن الذي لا يزال يتملكنا بفقدان الغالي حمدي، نغَّص علينا الفرحة المرجوة... كانتْ أعصابي مشدودة طوال أشهر التحضيرات؛ لِقِصَر الفترة الزمنية بين فقداننا للغالي ومكانته التي احتلها في نفسي منذ انتمائه لعائلتنا، ورغبتي في الحفاظ على منسكي الحزين من جانب، وبين زواج ابني البكر وما يمثله بالنسبة لي، فهو ليس مجرد ابن، إنه صديق وإنه الأخ الذي طالما تمنيتُ وجوده في حياتي، هو مستودع أسراري والبئر العميق الذي لا يسمح بإشاعتها، هو حلمي الصغير الذي يكبر أمام عيني؛ ليصبح ذلك الشاب المتحلي بكل الخصال الجميلة، إنه وسيم وأنيق، حنون، يحب الأصدقاء ويُخلص لهم، مهتم بثقافته فهو ليس فقط طبيب أسنان بل هو يعمل على رَّفد ذهنه بكل ما هو مفيد وجديد، إن يوم زواجه هبة السماء لي، كانتْ السعادة تتناثر حباتها بيننا؛ لتعم المكان بمَنْ فيه، زخات مطر تخترق الأرض البور فما إن لامستْ الأرض حتى اهتزتْ وربتْ وأنبتتْ من كل زوج بهيج إلا أن مظلة كبيرة كانتْ تقبع على نفسي.. مظلة سوداء قاتمة وداكنة تمنع من وصول حبات المطر إلى أهدافها، فإن الحزن قد تماسك بما لا يسمح لحبات الفرح التغلغل والوصول إلى روحي...

فرحتُ.. حزنتُ.. بكيتُ.. ضحكتُ.. رقصتُ طربًا لسعادتي هذا هو يوم ابني قرة عيني، أحاطتْ صديقاتي بي محاولات منع نظرات بسمان من الوقوع على حالي عندما انتابتني موجة بكاء شديدة لم أستطع مقاومتها رغم أني في فرح ابني، والسبب هو خلو حفلة

الزفاف من أختي حنان وحرماني من تواجد الغالي حمدي معنا بمثل هذا اليوم، والذي كان ينتظره مثلما انتظرناه أنا وعادل، أحمد الله على أن بسمان كان لاهي مع عروسه ومجموعة أصدقائه، الذين كانوا يحملونه على الأكتاف فرحًا بهذا اليوم، ومن بعدها توجه هو وعروسه لتقطيع كيكة العرس على أنغام أغنية من اختيار العروسين.

انقضتْ الليلة على خير ما يرام ومثل ما مرسوم لها من قِبلنا، حتى وقت مغادرة القاعة كان مخططًا له مسبقًا بما يتلائم مع الوضع العام وخوفًا من دخول حظر التجوال حيز التطبيق، والذي يبدأ عادة عند الساعة الحادية عشرة ليلًا، فكان لِزامًا علينا إنهاء الاحتفالية قبل هذا التوقيت بساعة ونصف على الأقل، وبذلك يتسنى للعروسين تقبل التهاني من المدعوين قبل مغادرة القاعة، لننطلق بهما إلى فندق الرَّشيد لقضاء عدة ليالٍ بانتظار حلول موعد سفرهم إلى القاهرة؛ لقضاء شهر العسل حسب رغبتيهما، لم ينتهِ مهرجان التنسيق مع حظر التجوال.. حيث يتحتم علينا إنهاء مهمَّة توصيلهما من نادي الصيد الواقع في منطقة المنصور والذهاب بهم إلى فندق الرَّشيد على مسافة ليستْ بالقصيرة بحسابات هذا الزمن العصيب والليل وظلامه، ومن ثمَّ التوجُّه إلى المنزل الواقع بمنطقة السيدية، والانتهاء من تفريغ حمولة السيارة من أكاليل زهور كانتْ قد أُستخدمتْ في القاعة، وبعض عُلب الحلويات وعدد من طبقات كيك الأعراس الذي زاد عن احتياج المدعوين إلى غير ذلك، وإدخال السيارة في مرآب البيت والعمل على غلق الأبواب وتشغيل المولد الكهربائي كل هذا

قبل حلول الساعة الحادية عشرة.. لم تشترط الحكومة أن نكون بمنازلنا وغلق الأبواب في هذا الموعد، بل مَنْ اشترط علينا ذلك هو الظلام وغدره.

• • • •

مرَّتْ أكثر من سنة وكل شيء طبيعي، الانفجارات.. الاغتيالات.. السطو المسلح على محال المجوهرات والصاغة والمنازل.. ترك مغلف يحتوي على طلقة أمام أبواب المنازل من قِبل مجهولين إيذانًا بحتمية ترك البيت بل والمنطقة السكنية برُّمتها، وذلك لأغلبية طائفة على الأخرى.. شراء منتجات صينية الصنع وبأفكار متجددة لتوفير الطاقة الكهربائية الضرورية، فقد أصبح توفيرها مسئولية المواطن على عكس ما هو متعارف عليه في كل البلدان من حيث أن مسئولية توفيرها تقع على عاتق الدولة.. تفادي التوجُّه إلى حديقة المنزل الخارجية؛ لتشغيل المولد بعد أن يختلط الظلام لما ينطوي عليه من مخاطرة خشية تواجد عناصر ضالة مسلحة تغتنم تلك الفرصة للوصول لمآربها باقتحام البيت؛ لتجريده من كل ثمين فهو صيد سهل، أصبح القلق هو الصديق الدائم لبرنامجنا اليومي، أبواب المنازل والمحلات التجارية تُغلق مع ساعة الغروب، فإن تأخر أحد أفراد العائلة عن هذا الموعد المضروب قسرًا فإنه قلق ما بعده قلق، عدم الإجابة على الهاتف من أحد أفراد العائلة صباحًا أو مساءً فهذا قلق، رغم معرفتنا بضعف التغطية في كل أنحاء بغداد وهذا راجع لضعف الخدمات المُقدَّمة من شركات الهاتف المحمول، وهذا طبعًا

ليس وليد الصدفة بل هو أحد طرق السرقات المنظمة والتي تجري من حولنا في جميع المؤسسات الخدمية، أقول رغم معرفتنا لذلك إلا أن اللحظة التي تمرُّ دون أن يستجيب أحد أفراد العائلة لرنَّة الهاتف كفيلة بأن تفقدك نصف عمرك أو تؤدي بنا إلى مرض السكر والذي صار الرفيق الدائم لغالبية المواطنين لكثرة ما يتعرَّضون له من مفاجآت وسماع أخبار الكوارث الإنسانية وليستْ الكوارث الطبيعية.

كان بسمان قد أنهى دراسته الجامعية في عام ٢٠٠١؛ ليتخرج كطبيب أسنان وهذا قبل السقوط، عُيِّن في مستشفى في بغداد ليبدأ مسيرة ما يُسمى بقانون التدرج الطبي، ذلك القانون الذي سُن بالتزامن مع حملة مجانية التعليم التي طُبِّقتْ في سبعينيات القرن الماضي أو قبلها بقليل، إذ يتحتم على خريج المجموعة الطبية مزاولة مهنته لدى الدولة حوالي أربع سنوات ويترتب على هذا القانون توجُّه الخريج إلى قرى وأرياف البلد؛ لتقديم المعونة الطبية هناك عرفانًا بالجميل لبلده الذي سهل عليه الدراسة بالمجان ودون أدنى تكاليف.. إنه العدل بعينه إضافة إلى اكتساب خبرات علمية وإنسانية لا غنى لأيِّ طبيب عنها،، كذلك الاعتماد على النفس ومواجهة الحياة المهنية في صورتها الحقيقية، بعد أن أكمل بسمان سنته الأولى بإحدى مستوصفات أقضية مدينة بغداد، توجَّه إلى مدينة القرنة التابعة إلى محافظة البصرة والتي تقع على بعد ستمائة ميل إلى الجنوب من بغداد؛ ليقضي حوالي السنة ونصف السنة هناك، عاد بعدها إلى بغداد ليُعيَّن في قضاء تابع لها، وكان ذلك بعد السقوط... شاءتْ الصدف وحدها ليكون هو واثنان فقط من زملائه

من طائفة واحدة وهي الطائفة المغضوب عليها طوال عقود.. وبقية المنتسبين من الطائفة الأخرى.. لم نكترث لذلك في بداية الأمر ولم يُشكل لدينا أي هاجس، على اعتبار أن الجميع في خدمة أبناء الوطن الواحد حتى جاء اليوم الذي تغيرتْ به مفاهيمنا التي جُبلنا عليها من سنين.

بسمان وزوجته مع حسان يتهامسون مع بعضهم البعض كلما سنحتْ لهم الفرصة.. والفرصة حسب اعتقادهم هي عدم تواجدي في المكان.. نسوا أو تناسوا أنني أم... والأم لها قرني استشعار أعني حاسة سادسة، هناك ما يحاولون إخفاءه عني وهيهات أن يخفى عني شيء يخصهم بالتحديد تنشط مع كل ما يتعلق بأولادها، ضبطهم بحالة تلبُّس.. إنهم يجلسون حول مائدة المطبخ، يتناقشون وبصوت خافت...

- الأحسن والأنسب لكم إخباري بما يجول برءوسكم... (ضحكتُ بصوت لأثير انتباههم)... فأنا سأعرفه عاجلًا أم آجلًا.

دارتْ نظراتهم إلى بعضهم، كل يستفسر مع نفسه: ما العمل الآن؟... التفتوا هم الثلاثة لي باستسلام مستعدين لإخباري فورًا...

- لقد اتصل زميل لي في العمل قبل عدة ساعات.. سكت بسمان لبرهة ثم أكمل: إنه يخبرني بأمر ما.. صمتْ منتظرًا مني الإنصات له بجدية.. إنه ينصحني بعدم التوجُّه غدًا إلى عملي... بدرتْ منه زفرة عميقة أُجبرتَ معها للرضوخ لمطلبه، وهو أخذ الخبر على محمل الجد.. توقف عن الكلام للحظة على الرغم من عدم إتمامه له، ورغم وجود الكثير ليخبرني به إلا أنه تعمد تقسيم الخبر للتخفيف من

وطأته على المتلقي: إن زميلي يدعي أن سكان المنطقة التي تقع مستشفانا ضمن حدودها اتصلوا به، أعلموه عن رغبتهم في عدم تواجدنا بينهم، وهم يهددون بإلحاق الأذى بنا إن تجاهلنا هذا التحذير، وعلينا الأخذ بجدية هذا التهديد...

- مَنْ تقصد بكلمة (بنا)؟.. مَنْ أنتم يا بسمان؟... تساءلتُ مندهشة فإن الموضوع على ما يبدو خطير وجدي...

- أنا وزميلي... يقصدون نحن ـ الطائفة ـ غير المرغوب فيها...

- عجبي... (قلتُ)... نحن مَنْ يستلم الحكم الآن!، وما زالوا يمارسون علينا الاضطهاد... أنكون نحن ـ المضطهدين ـ قبل الحكم وبعده.. أيُعقل أن نكون نحن المعذبون على الأرض على مدى التاريخ؟..لِمَ كل هذا الإصرار على مقتنا وإبعادنا عن الحياة السياسية بل وازدرائنا؟!... تساءلتُ مندهشة وكأني تواجهتُ مع هذه الحقيقة لأول مرة في حياتي... أي زميل هذا الذي اتصل بك؟ من أي طرف هو يا تُرى؟

- إنه منهم.. ودائمًا مَنْ اعتبرته صديقًا حميمًا لي، وهذا ما أثبته الآن، فقد أصدقني القول وخاف على مصيري بعد ما عرف من إضمارهم الشر وتبييت النية على إلحاق الأذى بنا...

- وما الذي حدا به لهذا العمل الشريف والتطوعي حسب رأيك؟... سألتُ بسمان مستهجنة اتخاذه كصديق...

- إنه من الأشخاص الذين لا يعيرون أهمية تُذكر لهذه الأمور ويعتبرها تفاهات.. حتى أنه يقول بأنهم يكنون لنا كل الاحترام

ويقدرون عملنا وإخلاصنا ومثابرتنا على تقديم العون لسكان المنطقة، حتى أنهم يقولون أننا لا نستحق سوى الخير ولكن...
- لكن ماذا؟... بعدما تملكتني الدهشة مما أسمع...
- إنكِ تعرفين الحقيقة يا ماما فلِمَ هذه الدهشة التي أراها تبدو جلية على ملامح وجهك؟!..
- اقتراحي هو أن أرافقه غدًا بالذهاب إلى الدوام، وعدم تركه بمفرده في مواجهة أي طارئ، وليتسنى لنا التحري عن مصداقية الخبر... تدخل حسان ليعمل على طمأنتي...
- هذا غير منطقي بالمرة يا حسان... قال عادل حيث إنه كان يستمع لكل ما دار بيننا من نقاش، بعدما شعر هو الآخر بإخفاء ما يقلق... أتقترح مصاحبتك له لتكونا هدفين بدل واحد.. أنا غير موافق.. قالها عادل بحزم جعل من مناقشته هذا المقترح شيئًا مستحيلاً... الأجدر بنا اتخاذ التهديد على محمل الجد...
- إنه جد، وجد الجد يا بابا.. إنه صديقي وأنا على إطلاع كامل ومعرفة بشخصيته، فهو لا يقول شيئًا قبل أن يتأكد منه...
القلق والخوف وكذلك الحيرة كلها كانتْ بادية على بسمان، كيف لا؟ وإنه شيء يتعلق بحياته على الصعيدين المهني والإنساني...
تدارسنا الموقف، وكل منا أبدى رأيه وحسب قراءته للموقف، وبعد مداولات وآراء كثيرة استقر بنا الرأي بالتمهل، وعدم توجُّه بسمان للعمل ليوم غد على أقل تقدير؛ ليكون لنا الوقت الكافي لدراسته أكثر.

- أين الغداء يا خالة ؟.. لقد تأخر كثيرًا، سوف لن أكرر زيارتي لمطعمك مجددًا...

- إنه جاهز وينتظرك، فما عليك سوى غسل يديك والتهامه.. كيف لك المحافظة على رشاقتك وأنت محب للطعام بهذا القدر؟... سألتُ حيدر وهو ابن عم بسمان وهو بنفس عمره، وهو يحظى بحبنا جميعًا، إنه شخصية ودودة ومرحة ومُحبة للخير...

بعدما انتهوا من الطعام وشرب الشاي، واصلوا العمل في نقل أثاث بسمان من منزله القريب من منزلنا، والعمل على حشره في غرفة واحدة فقط، كنتُ قد أفرغتها من محتوياتها على وجه السرعة لهذا الغرض.. ملئتْ الغرفة والتي تقع بالطابق العلوي في بيتنا، مُلئتْ بالأثاث ومبيد الحشرات أيضًا، تفاديًا لأضرارها على أخشاب بسمان خاصة مع حر الصيف القائظ.

توجَّه بسمان وزوجته بالشكر الجزيل ممزوجًا بمحبة كبيرة لأولاد عمه الكبير الذين لبوا نداء بسمان بطلب المساعدة لإنهاء مهمَّة نقل أثاثه من شقته إلى بيتنا، وكان الموقف مشحونًا بالأمنيات والعبرات وبعض الدموع التي تترقرق في العيون...
- كم مرة قمتْ بتوديعك يا بسمان لحد هذه اللحظة؟... توجَّه حيدر بسؤاله بعتب المحب والذي يعزُّ عليه الفراق.
إنهما أولاد العم وهما بنفس العمر وتجمعني بأم حيدر علاقة الأخت بأختها، نشأ بسمان وحيدر على المحبة وكلاهما يتمتع بشخصية محبة للمرح، فكان الانسجام هو الرابط..

- إنها والله كثيرة... أجاب بسمان وابتسامة ممزوجة بحزن بسيط تبدو على محياه.. لكن بعد كل وداع لقاء والحمد لله، عسى أن تكون هذه المرة مثل سابقاتها ويكون للقاء نصيب.. الظاهر أن الغربة وعدم الاستقرار قدري.. قالها بمرارة واضحة.

- هيا يا أعزائي فالمغيب وشيك.. توجَّه عادل بكلماته إلى أبناء أخيه خوفًا عليهم من غدر الظلام في الطريق.

غادرنا بسمان وزوجته متوجهين إلى عمان وهي الملاذ شبه الوحيد للعراقيين منذ زمن الحصار ولحد الآن، لم نفلح بمرافقتهم إلى المطار ككل خلق الله.. فدخول المطار هبة لا تُمنح إلا لمستخدميه من المغادرين والواصلين أما المودعين والمستقبلين، فنصيبهم الوقوف عند نقطة تقع في بداية الطريق المؤدي إليه تدعى ساحة عباس بن فرناس ذلك الشخص المُجنح الحالم بالطيران والذي صهرتْ الشمس أجنحته، ليكون نصيب المودعين صهر الشمس لأدمغتهم، وتغلغل ذرات الغبار المتطايرة من الأرض المحيطة بنصب عباس بن فرناس، والتي تخلو من الزرع والضرع عدا القليل من شجيرات الشوك البري، والتي غالبًا ما تدمي سيقان المودعين وأقدامهم، فيعود المودع إلى داره وهو أشعث الرأس مغبره، مدمى القدمين، يحلم بحبة يزدريها للتقليل من الصداع الذي يعتريه...

غادرنا بسمان إلى عمان جوًا رغم ارتفاع تكلفة السفر جوًا مقارنة بنظيره السفر برًا، خوفًا من ويلات طريق البر وما يحدث خلاله، كثيرون هم مَنْ غُيبوا قسرًا لسفرهم بطريق البر أو على الأصح طريق الموت، فهم يقتلون وبدمٍ بارد ممن يخالفهم العقيدة أو

المذهب، غير مبالين لا لجنس المغدور بهم ولا لأعمارهم... كثيرون هم مَنْ أُزهقتْ أرواحهم بعمر الطفولة.. فتيان هوايتهم الرياضة مغادرون لتمثيل بلدهم في مسابقة دولية بلعبة (التايكوندو) لا تتجاوز أعمارهم سن المراهقة.. ضحاياهم يمتهنون كل المهن.. تجار، أساتذة جامعات، أطباء يُشارُ لهم بالبنان، مراسلون صحفيون، لا فرق عندهم المهم هو التشفي والتلذُّذ بفجيعة الغير.

اقتنعنا بضرورة مغادرة البلد.. تحاشيًا للتعرُّض لمصير مجهول أقل ما يُقال عنه أنه مؤلم.. فكانتْ خطوة بسمان في السفر هي المرحلة الأولى لتنفيذ قرارنا بالمغادرة.. على أن نلحق بهم بطريقة مدروسة، فتتم مغادرتي بمعيَّة كل من حسَّان وزين أولًا ومن ثمَّ يلحق بنا عادل فهو مرتبط بعقد عمل يجب عليه إنهاؤه انصياعًا لقدره المكتوب وقدرنا، أصرَّ حسان على ملازمة أباه والبقاء في البلد، والدراسة كانتْ هي العذر، كانتْ السنة الدراسية بأولها، وهو مَنْ تعذر في مسيرته الدراسية لسنتين متعاقبتين، كان ذنبه ليجري عليه وعلينا ما سيجري هو الإبقاء على طعم الفرحة الذي تذوقه توًا بنجاحه وتخطي عقبة الفشل الذي لازمته لسنتين عبثًا حاولنا ثنيه عن عزمه حتى إنني قررتُ الإقلاع عن فكرة السفر إذا لم يذعن لطلبنا، لكن... ودائمًا هنالك كلمة لكن... أقنعني عادل بالسفر دونه مؤقتًا، لحين حصولي له على مقعد جامعي بإحدى جامعات عمان الأهلية طبعًا وهذا لا يستغرق أكثر من أسبوعين، معاهدًا لي بالمجيء معه فورًا.

وهكذا سافرتُ، كنتُ لاهية في الأيام الأولى بتسجيل زين في مدرسة متوسطة على أن تكون خاصة، وهذا ليس قراري إنما هو قرار

الحكومة الأردنية بعدم قبول الطلاب العراقيين في المدارس الحكومية إلا بعد حصولهم على الإقامة السنوية، والتي يتطلب الحصول عليها إما فتح مشروع صناعي كبير أو إيداع مائة ألف دولار أمريكي بأحد مصارفهم على ألا يُستعمل هذا الرصيد لمدة سنة، أما إذا سُحب منه حتى ولو دولار واحد أُلغيتْ الإقامة وفورًا.. إنهم والله لنعم الجار ونعم الأخوة بالدين هم، عاملين وبكل حرص على المثل القائل:" مصائب قومً عند قومٍ فوائدُ".

(٢٥)

أنا لم أكتبُ ما كتبتُ؛ إلا لأكتبَ هذا الفصل.. وأنت لم تقرأ ما قرأتْ إلا لتقرأ هذا الفصل.. هو الفاصل بين شخصية اسمها لميس قبل وبعد.. هو الفاصل بين حياة ولا حياة.. قلب ينبض دون حياة.. رئة تُملأُ وتُفَرغ من الهواء دون تنفس.. أشهر وسنين تتعاقب بلا زمان.. فليعينني الله على كتابته.. وليعينك على قراءته...

ثكلى.. لستُ أنا وحدي بل دهري كله.. فقدتُك يا نور عيني وفقدتَك أيامي.. لم يعد للأيام نور.. وما أصعب الظلمة.. أُحدث الطيور فأنت منهم، طائرٌ غضٌ أنت.. ما شأنهم بطائرٍ يُفرح من حوله بفرحه.. يطربهم بشدوه... تصطبغ الأشجار بألوانه.. عاقبوك لهذا!.. مهمتهم الإبقاء على ظلمة الليالي والأيام.. غطوا بستارتهم السوداء بثقلها لتلف كل شيء.. واجهات منازلنا سوداء.. إعلاناتنا سوداء.. ملابسنا سوداء.. أيامنا بنهاراتها ولياليها سوداء.. أرادوا للسواد البقاء... حدثني حدسي عن سواد سيملؤني.. أو كل حدسٍ يتحقق؟.. لم يحدثني حدسي عن يوم يأتي علي لأسطر معاناتي كتابًا يقرؤه محبُّو القراءة والمطالعة، فيُقيمه أصحاب الاختصاص؛ ليقوم بنقده أدباء لعدم ظهور الضمة على آخره، واختفاء الفتحة عن منصوبه، كيف لي أن أُقدم الخبر على المبتدأ في غير محله؟!.. أتكون أنت مادتي الأدبية التي أُطلُّ بها على قرائي إن صح لي قول ذلك؟!...

إنها حقًّا لعبة غريبة هذه الحياة.

صباح يوم الإثنين الموافق ٢٠٠٦/١٢/١١م...
عدتُ الآن من مكتب الصيرفة القريب من شقتنا في شارع الكاردنز بعمان بعد أن قمتُ بتحويل مبلغًا ليس بالقليل من حساب عادل في عمان إلى بغداد بعد أن طلب مني عادل تحويله ليلة أمس؛ لاحتياجه لهذا المبلغ وحثني على الإسراع في عملية التحويل فهو بحاجة ماسة له، وهذا شيء متوقع من شخص يقوم ببناء منزل العمر الذي بدأنا بتشيده قبل حوالي عام، وهو منزل كبير يتكون من ثلاث وحدات سكنية، أحدهم كبير مخصص لسكن العائلة الكبيرة، وشقتان واحدة لسكن بسمان مع زوجته، والثانية مخصصة لحسان بعد زواجه مستقبلًا...

كان التصميم جميلًا جدًا حيث وضع عادل خبرة كل السنين ممزوجة بحبه وحنانه لأولاده، كان يحلُّم باليوم الذي نسكن فيه ويظلل عليهم كطائر أفرَّد جناحيه؛ ليحمي أفراخه ويدفأهم، إن عملية بناء هذا المنزل كانتْ أحد الأسباب التي جعلتْ عادل يؤجل سفره إلى عمان بغية الانتهاء منه، أراد لحلمه أن يتحقق سريعًا.. لم يخطر لي على بال أي وجهة أخرى لصرف المبلغ المطلوب مني تحويله.. فأين هم مَنْ يتحدثون عن قلب الأم وبأنه دليلها؟!...

كنتُ أنا وبسمان في الشقة ولم يلتحق بعمله لإصابته بنزلة برد شديدة، ففي مثل هذا الوقت من السنة يكون الطقس باردًا جدًا في عمان، أما زوجته وزين فقد توجَّه كل منهما إلى دوامه اليومي، إذ استطاعتْ زوجته الحصول على فرصة عمل في مكتب هندسي

قريب؛ لتمارس مهنتها كمهندسة معمارية بعد أن تمكنتْ من التخرج بعد انتهاء السنة الأولى لزواجها من بسمان...

- سأتناول قهوة الصباح، ألك مزاج في مشاركتي كالمعتاد أم أن حالتك الصحية تمنعك من ذلك؟... سألتُ بسمان وهو يستلقي على الأريكة بقربي...

- ليستْ بي رغبة لذلك شكرًا حبيبتي.. ألا يجدر بكِ الاتصال بـ بابا وإعلامه بتحويلك المبلغ المطلوب؛ ليكون على إطلاع بموعد استلامه.

- سوف أتصل به أكيد.. ولكن بعد شرب القهوة...

- هذا يعود لكِ... أجاب بسمان وأدار ظهره صوب الجدار محاولًا النوم، فإن درجة حرارته مرتفعة بفعل نزلة البرد.

قررتُ الاتصال بعادل قبل شرب القهوة...

اتصلتُ بعادل فعلًا وأنا خالية الذهن تمامًا.. مع انعدام تام للحاسة السادسة الخاصة بالأمهات، تطلعتُ لجهازي الخلوي.. إن حسان هو مَنْ اشتراه لي قبل شهرين عندما كنا في بغداد.. إنه نوع حديث، يطلق عليه تسمية محلية (الافندي) وهذا شأن العراقيين، يطلقون تسميات محلية على غالبية الأجهزة الخلوية منبثقة من شكل وأداء الجهاز، بعدها بأيام اشترى لنفسه جهازًا أنيقًا وجميلًا من مال كان قد ادخره من مصروفه اليومي... شطحتْ بي أفكاري إلى مناسبة عيد مولده الأخير، والذي صادف يوم اثنين وعشرين من الشهر الفائت أي شهر تشرين الثاني، وهي أول مرَّة تمرُّ هذه الذكرى وأنا بعيدة عنه لتواجدي بعمان، فكانتْ التهاني والأمنيات عبر الهاتف...

سمعتُ صوت عادل وهو يقول:
- آلو.. آلو... لميس أين أنتِ؟...
فقد سرحتُ مع أفكاري وأنا لاهية عن الهاتف، أجبتُ..
- هلو عادل.. أنا آسفة، لقد سرحتُ وأنا أنتظر رنَّة هاتفك، كيف الحال يا حبيبي؟... لم أنتظر سماع إجابته فأنا على عجلة، أريد شرب قهوتي بعد إنهاء المكالمة... المبلغ سوف يصلك غدًا إن شاء الله، سلم على الجميع...
- أنتِ على عجلة من أمركِ يا لميس.. ابقي معي قليلًا فأنا بحاجة للكلام.. أنتِ لوحدكِ في البيت ككل صباح أليس كذلك؟...
- لا.. إن بسمان يعاني من نزلة برد ولم يذهب لعمله هذا اليوم.. ما بال صوتك؟ إنه يحدثني عن شيء ما أجهله.. ما وراءك؟.. أنتَ متعب من عملية البناء.. خفف من حرصك حبيبي وهادن العمال لا تتوقع منهم الإتقان كما تريد، تماش مع الواقع، فإنك أعرف مني بالعمال ومستوى تنفيذهم...
لم يجبني عادل وهذه ليستْ عادته في الكلام عن العمال، فهو يحلو له انتقاد طريقة عملهم... عادل... أتسمعني؟.. أعندك ما تخبرني به؟.. بادرته فإن صمته جعلني في حيرة من أمري...
- مثل ماذا؟ أجاب عادل وكله قناعة أن سؤاله ما هو إلا مقدِّمة لخبر.
- أنا خالية الذهن تمامًا، لكن طريقتك في الكلام تحدثني عن وقوع شيء ما...
بدأتْ أحاسيسي أخيرًا في التحرك دون التركيز على شيء محدد...

- ماذا عن بسمان؟.. هل هو نائم أم صاحي؟... أخذ صوت عادل بالتبدل كليًا... شعرتُ معه بأنه على وشك الإفصاح عما به أخيرًا...
- إنه بجانبي مستلقٍ على الأريكة... بالمناسبة يا عادل، إن حسان وقبل ثلاثة أيام طلب مني رقم الهاتف الخاص بزين، كان يروم التحدث معه، وقد أرسله زين عبر رسالة نصية له إلا أنه ولحد الآن لم يتصل، أرجوك تأكد من استلامه لتلك الرسالة، كذلك فهو لم يتصل بي منذ يومين.. أهو مشغول إلى هذا الحد في دراسته...
- اسمعي يا لميس.. قالها بتهجس.. لدي ما أخبركِ به... تعمد الكلام ببطء وهدوء ووضوح.. كي لا يضطر لإعادته...
كلما استرجعتُ مع نفسي تلك اللحظات أُصاب بالدهشة.. فأين إحساسي حينها؟.. أكان مجمدًا أم نائمًا؟، فقد كنتُ مجردة منه...
- لميس أنصتي لي...
وما زلتُ لم أتبين سبب الألم والحزن اللذين يملآن صوت عادل... أكمل عادل مع أخذ نفس عميق:
- لقد خُطف حسان...
توقف ليتأكد من سماعي للكلمة، وكذلك ليستجمع طاقته لإكمال ما بدأ، نفس الإحساس الذي تشعر به وأنت بطائرة تستعد للإقلاع، فهي تقف لتستجمع كل الطاقة اللازمة لتحلَّق: إنه مخطوف منذ يومين.. توقف عن الكلام تاركًا لي المجال الكافي لأستوعب ما سمعتْ بكل ضخامته وقسوته... وصلني الخبر بكل حذافيره.. وامتلأتْ آذاني به.. استقر بأحشائي كطعنة سكين، ومع هذا ولسبب أجهله سألته ببلاهة:
- ما هذا الذي تقول؟! وكأنني لم أفهم ما قال، أو أن الصوت لم يكن واضحًا، أردتُ التأكد من سلامة سمعي وعقلي، ولم أكد أشعر بأني

أطلب منه إعادة الكلام، وبذلك أُعرَّضه لتلفظ المصيبة التي حلَّتْ به قبلي وللمرة الثانية... هو مهموم من يومين وأنا لاهية مع مفردات الحياة اليومية.. ذلك الهمُّ العميق الذي لم أستشعره.. لم يخامرني أي شك بل كنتُ أتابع مباراة كانتْ تجري بين فريقنا لكرة القدم بكل حماس عبر شاشة التلفاز...

- هوني عليكِ يا لميس.. قالها عادل وهو متأكد بأن ما يطلب مستحيل...

- ليشعر بي أحدكم، أرجوكم اشعروا بوجودي معكم.. صرخ بسمان.. هناك مصيبة ما أليس كذلك؟ ماما أجيبيني بالله عليكِ...

التفتُ إلى بسمان وأنا بكامل أعصابي وبهدوء شديد أجبته:

- على رسلك حبيبي... بدأتُ أشعر بالحروف تنساب على لساني دون أي نوع من أنواع السيطرة: لقد خُطف حسَّان... كفى هذا؟...

أخذ بسمان الهاتف من يدي ليسأل والده:

- متى هذا يا بابا ؟.. فهو ليس معك الآن؟.. أهو عندهم بين أيديهم؟!... أيدي مَنْ بالضبط؟...

تدخلتُ بحزم وقوة لاسترجاع الهاتف:

- عادل اهدأ أرجوك وكلمني...

- أنا هادئ يا لميس.. عسى أن تتحلو أنتم به... قبل يومين أي يوم السبت خرج حسان من البيت عند الساعة الثامنة صباحًا...

- وأي وجهة يقصد وبهذا الوقت المبكر، إنه السبت.. إنه يوم عطلة! الجامعات تغلق أبوابها بهذا اليوم.. ما الذي حدا به للخروج بهذا الوقت المبكر والمدينة لا تزال نائمة لم تستيقظ بعد!.. ألم تكن معه في البيت يا عادل ؟ ألم تمنعه من الخروج؟... وجهتُ سيلاً من

الأسئلة دون التوقف وحتى دون التفكير بها بل هي تجري على لساني دون استئذان...

- لتهدئي أرجوكِ يا لميس.. حاولي السيطرة على مشاعرك.. أنا أشعر بحالكِ بالتأكيد، ولكن أطلب منك الهدوء قليلًا فإن الذي بكِ هو بي أيضًا بل وأكثر، فأنا أعاني منذ يومين، إن الذي مرَّ بي ليس بالسهل...

- كان الله بعونك فعلًا.. ليومين ونحن نتكلم مع بعضنا وأنا أسأل عن حال حسان، وأنتَ تقول إنه بغرفته يستمع إلى الموسيقى، وعندما أسألك بأنه لا يجيب هاتفه تقول إنه يضع السماعات بأذنيه كعادته، تخبئ عني وتتجرع مرارة المصيبة بمفردك...

- أنا أتصور؛ والكل هنا معي يشاطرني نفس الرأي أن الدافع للخطف دافع مادي بحت.. وهذا ما يهوّن عليَّ الأمر... أخذ عادل يسترسل بالكلام: لقد اتصلوا بي بعد ساعة واحدة فقط وطلبوا فدية، وأنا قمتُ بالمهمَّة يوم أمس وسلَّمتُ...

- وإذا كان الدافع ماديًا وليس طائفيًا مثل ما تتوقع، فأين هو الآن ولدي؟.. ولِمَ لم يطلقوا سراحه وقد استلموا منك ما يريدون...

- لأنهم لم يستلموا كل المبلغ المطلوب، فكيف لي الحصول على مبلغ كبير وفي ظرف يوم واحد؟، فأنا أنتظر تجميع بقية المبلغ.. قالها عادل بمرارة...

- وأنا قمتُ قبل قليل بتحويل باقي فدية ابني دون أن يخامرني أدنى شك!.. يا لي من أم فاشلة...

- لا تؤنبي وتعنفي نفسك يا لميس...

لم أستمع إلى باقي كلام عادل.. فإني شعرتُ برجة على الأرض بقربي... التفتُ إلى مصدر الصوت لأرى بسمان ممددًا على الأرض مغمض العينين، لم يستطع تحمل الصدمة غاب عن الوعي... هذا الوعي المقيت الذي يعلمه بخبر اختفاء أخيه؛ ليبقى في هذه الحياة الصعبة بدون سند وبلا معين... كلمَّته، مددتُ يدي على رأسه وأنا أرثي لحالنا جميعًا:

- كلمني يا حبيبي... فأنا بأمس الحاجة لكلامك.. هون عليك يا قرة عيني، لا تجعل المصيبة مصيبتين.

فتح عينيه اللتين ما أراد لهما أن تُفتحا لهذه الحياة الغادرة.

••••

أنا محاطة بأقرب وأحب الناس إلى قلبي: حنان وأولادها وابنتها.. زوجة بسمان، والتي حضرتْ مبكرة إلى المنزل على إثر مكالمة هاتفية من قِبل بسمان ليطلعها على ما حلَّ بنا، وهي في عملها لتأتي ماشية على قدميها ما بها من صبر لانتظار سيارة أجرة تقلها، باكية العينين تملأها الحسرة، عاد زين من المدرسة يتطلع إلى الوجوه، هاله ما يرى من بكاء وحزن يلفُّ المكان، دنتْ نحوه ابنة حنان؛ لتهدئ من روعه وتخبره بما يجري، لتمسح دموعه التي انسابتْ ما إن سمع الخبر، وصلتْ للتو صديقة عزيزة هي والدة صديق طفولة بسمان بعد أن اتصل بهم بسمان ليحيطوا بنا قبل وصول بيت حنان، فهم يسكنون بمدينة إربد وهذا يعني عدم وصولهم إلينا قبل ساعتين من الوقت.

احتضنتُ كتاب الله.. أتلو فيه سورة يوسف.. لاهية به عما يدور من حولي.. كثيرة هي النداءات الهاتفية.. كانتْ تأتي من كل مكان.

عاد بسمان بمعيَّة صديقه محمد من وسط البلد بعدما استطاعوا الحصول على تذكرة طائرة تقلني يوم غد صباحًا إلى بلد المصائب والفواجع بغداد.. عبثًا حاول المحيطيون بي التأثير على قراري في السفر، وأنا على هذا الحال غير أنهم رضخوا لمطلبي؛ لكونه مطلب منطقي وعقلاني على الأقل لأكون إلى جانب المسكين عادل بمحنته على الرغم من إحاطة ماما وبابا وبقية الأهل إلا أن وجودي معه شيء ثانٍ.

الساعات تمرُّ، النداءات لا تفتر، أصدقاء يأتون لمساندتنا، قصص كثيرة عن حالات مشابهة جرَّتْ لأناس لا أعرفهم أو حتى لو أعرفهم، انتهتْ برجوع أولادهم، تعرفين بيت فلان الفلاني.. كيف لا يا لميس.. تلك التي طُلقتْ ابنتها قبل أسبوعين!، أو الأخرى التي التقينا بها في (مكة مول) قبل أسبوع.. تلك أو تلك المهم عندهم زرع الأمل بنفسي وكذلك الخروج بي من صمتي الذي يسبب القلق لديهم.. فقط كلام الله كان هو المعين.

أُجبرتُ على التوجُّه إلى أقرب مستشفى تحت إصرار علي ابن جنان على إثر ألم شديد شعرتُ به في منطقة الصدر وصعوبة في التنفس.. يخافون علي من مكابدة الألم وأنا محاطة بالمحبين وقرة عيني يكابده وهو محاط بالغادرين.. يشلون عني حزني ويخففون عن همي ومَنْ لك يا ثمرة الفوائد ليذب عنك؟! أكاد أبصر نظرة عينيك الخائفتين وأنتَ تتلقى التعذيب النفسي والجسدي على أيدي مَنْ فارقتهم إلى

غير رجعة مخافة الخالق العظيم، كلما بالغ المحيطون بي في اهتمامهم بي بالغتُ في الشعور بتأنيب الضمير، لم أحتج إلى تلقي علاج يذكر سوى المهدئات علَّها تساعدني على النوم.

عند الساعة السابعة صباحًا كنا أنا وبسمان وعلي في المطار أحمل معي حقيبة سفر صغيرة قامتْ بإعدادها زوجة بسمان على وجه السرعة.. تأبطتها وتأبطتْ همومي.. كان موعد إقلاع الطائرة عند الساعة التاسعة صباحًا، فارقتُ بسمان وعلي وهم يشدون على يدي ويرفعون من معنوياتي قدر إمكانهم، يطلبون مني تناول أي وجبة سريعة فإن الزاد فارقني وفارقته.. أصعب ما في الأمر هو حرقي لأعصابي مجبرة فإن إشعال السجائر ممنوع في المطارات، ولم تكن بي رغبة للجلوس في ذلك القفص الصغير والحقير المعَّد مسبقًا لمَنْ يصرُّ على السير في عكس اتجاه التحضر المفتعل.. أنتظر بفارغ الصبر سماع النداء الخاص بطائر الخطوط الجوية العراقية في رحلتها المغادرة إلى بغداد فلم يشأ لي القدر سماعه، والسبب معروف ومتوقع دائمًا.. فهو تأخر الرحلة القادمة من بغداد، هذا التأخير زاد من معاناتي ومعاناة مَنْ يترَّقب وصولي منهم مَنْ كان في عمان أو في بغداد...

مرَّت ساعة؛ واثنتان؛ وخمس! حتى صُعقتُ بخبر الاضطرار إلى المبيت في مطار عمان على أن نقلع عند صباح اليوم التالي.. لقد حطتْ الطائرة العراقية على أرض مطار عمان.. لكنها حطتْ متأخرة كثيرًا، ومع تدهور الوضع الأمني هناك في بغداد جعل من هبوط طائرة بعد أن يختلط الظلام مجازفة يُخاف عقباها...

ما هذا يا بغداد؟!، فكل ما يتعلق بكِ مؤلم.. متعب.. حتى التوجُّه إليكِ. أبكي.. أخفي بكائي... أمسح دموعي قبل نزولها.. تلافيًا لأي سؤال يُوجَّه لي من المحيطين بي.. خاصة وإن السيدات يتمتعن بقابلية مخابراتية عالية لاستدراج المقابل على الكلام.
أثرتُ البقاء مع خالقي.. التجأتُ إلى الصلاة وقراءة القرآن بعدما استسلم الكثير إلى النوم يتوسدون حقائبهم فوق المقاعد البلاستيكية القاسية.

حطتْ طائرتي على أرض مطار بغداد بعد ما لفتْ بنا الطائرة لأكثر من لفة في الجو، وهذا ما يُطلق عليه الهبوط اللولبي؛ لتفادي نيران القاذفات والتي تُطلق عن بعد باتجاه الطائرات القاصدة مدرج المطار، وهذا يمثل لدى الجماعات الإرهابية انتصارًا ساحقًا، فقتل خلق الله هدفهم.

ضربتُ جرس الباب، ولكن لا حياة لمَنْ تنادي.. كل مرافق الحياة أُصيبتْ بالشلل على إثر انعدام الطاقة الكهربائية.. كان عادل وبابا وماما يتناولون وجبة الإفطار.. تعانقنا كما لم نتعانق من قبل، إنه الوجع المشترك.. أطلقتُ لدموعي ولنحيبي العنان بعدما كبلتهما ومنعتهما لمدة أربع وعشرين ساعة، حتى إني طلبتُ من الجميع الاختصار في الكلام أثناء النداءات التي كانتْ لا تفتأ من الرنين علي طوال الليل لتسليتي والذب عني، فإن سماع صوت أحدهم يُضعف من صبري.. كانتْ علامات الأسى والحزن تعم الوجوه، شعرتُ بوجه عادل وقد هرم كما لم آلفه، فقد افترقنا منذ عشرين يومًا فقط، إنه ليس عمل الفراق بل هو عمل المصيبة التي حطَّتْ على رأسه..

توجهتُ فورًا إلى المطبخ لعمل فنجان قهوة أحتسيه مع سيجارة طال انتظارها، انتبذتُ عن أبي مكانًا قصيًّا فأنا لم أدخن أبدًا في وجوده احترامًا له رغم معرفته بتدخيني منذ زمن طويل، سرِّتُ باتجاه طاولة كرة المضرب في الطارمة الجانبية للمنزل، شبكتها منصوبة.. كراتها مهيأة.. مضاربها جاهزة... أين لاعبوها ؟.. ذهبوا.. كلٌّ إلى صوب.. تفرقوا إلى غير رجعة.. بكيتُ.. بكيتُ الديار الدارسة على قول شعراء الجاهلية.. كم شهدتْ هذه الطاولة من تبادلات من كل أفراد العائلة.. كم سمعتْ قهقهات تنبع من قلوب شابة تعرِّف الضحكة طريقها إليها رغم ما يدور حولهم؟.. كانوا يتندرون بطرائف عند رؤيتهم لسيارات (الهمر) العائدة للجيش الأمريكي، وهي تمرُّ قرب الباب الخارجي فتعلو خوذهم فوق الباب، فيتركون اللعب ويتوجهون صوبهم؛ ليستمعوا إلى بعض الكلمات العراقية التي يحلو لبعضهم النطق بها وبلكنة غريبة تدعو للضحك...

سمعتُ وقع أقدام بالقرب مني.. إنه عادل فهو قد توقع حالتي فجاء؛ ليربت على كتفي ويحيطني بحنان أحتاج ويحتاج هو له... جاءتْ ماما ومعها أقداح فيها نقيع بعض الأعشاب المهدئة للأعصاب، وهي كثيرة الاستخدام في بلد جُل زمانه ثورات وانقلابات عسكرية، حروب غير مبررة وشبَّان أُعدوا سلفًا لمصير مأساوي، وجاء اليوم الإرهاب؛ ليكمل تلك المسيرة الحافلة بالمصائب..

- الآن وقد هدئنا قليلًا فلتخبرني بالتفاصيل، طلبتُ من عادل...
- يوم الجمعة الماضية أخبرني حسَّان بنيته لقاء صديقه صالح... ذلك الصديق الذي لم نوافق يومًا على صداقته لحسَّان... أخبرني بأنه مرَّ

زمن طويل لم يلتقيان فمنذ بدء الدوام الجامعي لحسان لم يلتقِ بصالح، على أن يكون اللقاء في منطقة محايدة، وهذا بإصرار مني فإنه يسكن حي العدل مثلما تعرفين، استهجنتُ الموعد المبكر واختيار يوم السبت!.. إلا أنه أقنعني بحجته، فالشوارع في هذا الوقت تكون سالكة والمسير بها مريح دونًا عن بقية أيام الأسبوع فإن عملية الخروج من أيَّة نقطة تفتيش تستغرق ما لا يقل عن النصف ساعة أو أكثر، كذلك فإن دوام حسان طوال أيام الأسبوع يجعل لقاءهم شبه مستحيل... استيقظتُ معه بعد أدائنا لفريضة الفجر، وبعد تناول وجبة الإفطار غادرني مستقلًا سيارته، وما هي إلا ساعة ونصف أو أقل.. رنَّ هاتفي وكان المتصل حسان..

- آلو.. نعم حبيبي أنا أسمعك.. تكلم يا بني... تأخر وصول الصوت وهذا شيء اعتدنا عليه لسوء الخدمة المقدَّمة لنا...

- إن ابنك معنا...

كان صوتًا طبيعيًا إلا أن صاحبه تعمد الخشونة، أكمل دون إعطائي فرصة استيعاب كلامه:

- ما الذي حدا به القدوم إلينا؟..

- ومَنْ أنتم؟... تعمدتُ كذلك أنا مخاطبته بنفس لهجته العدائية ظنًا مني أنه أحد أفراد نقطة تفتيش.

- إن ابنك يدَّعي الذهاب إلى صديق له، ومَنْ الذي أَذِنَ له بتخطٰي حدوده.. كيف يتجرأ الدخول بعرين الأسد؟...

- على رسلك... أي حدود وأي أسد مَنْ أنتَ على وجه التحديد؟... إلا أنني بدأتُ أتهيأ لسماع ما أخافه وأخشاه...

- أنا من منظمة الجهاد والتوحيد في حي العدل... هتف بصوتٍ عالٍ أراد لي أن أشعر بالكراهية له من خلال كلامه: ألم تخبر ابنك بأنكم من الطائفة غير المرغوب فيها، وهو محرم عليكم دخول مناطقنا...

- أين الجهاد وأين التوحيد.. وأين العدل؟... تمتمتُ مع نفسي بحسرة دون أن أقاطع عادل فهو مسترسل بذكرياته...

أكمل عادل كلامه وهو لم يرفع عينه عن نقطة ما.. مبهم مداها، أخذ شهيقًا عميقًا ولم يخرجه إلا مع كلماته:

- هيأتُ نفسي لتلقي الأوامر وكل الطلبات مرفقة بالتعليمات والتهديدات وسيل من الكلمات الجارحة التي اعتاد عليها مَنْ هم بهذا المستوى الاجتماعي...

- كان الله بعونك يا عادل.. والله إنك لصبور، ولك من الشجاعة ورباطة الجأش ما يجزع منها غالبية الآباء... قلتُ كلامي هذا ونطقتُ أخيرًا بعد طول صمت وقد غُشي بصري لكثرة الدموع...

- كنتُ مجبرًا على ذلك، فإن فلذة كبدي بين أيديهم..

- إذا كانتْ لك رغبة صادقة في لقاء ولدك حيًّا.. فادفع (٥٠٠٠٠$) وأقفل الخط دوني...

توالتْ النداءات بعدها والمتكلم نفسه، ونفس الوقاحة والغلظة، وتعمد إسماعي ما يؤلمني بخصوص مستقبل ابني وما ينتظره من مصير فيما لو تأخرتُ عن تلبية مطالبهم... اتصلتُ بالأهل ليفجعوا بدورهم وليكونوا من حولي بمحنتي بل ومحنتهم، سألتهم النصيحة والمشورة، أردتُ تفكيرهم في الموضوع بدلًا عني إذ لم يعد لي من

الفكر ما أستطيع التفكير به واتخاذ أي قرار، توكلتُ على الله صباح اليوم التالي وبحوزتي نصف المبلغ المطلوب وقد قام بجمعه لي مَنْ حولي، كان كل مَنْ حولي متفائلين بقرب لقائي ولدي مجددًا، الجميع متفقون بأن سرعة طلب الفدية تعني أن عملية الخطف مرادها المال، ضُرب لي موعد وحُدد المكان والزمان لتسليمهم المال، والشرط المعروف مسبقًا هو توجُّهي للموعد بمفردي.. أصرَّ ماجد (وهو شاب جارٌ لنا) أن يصحبني في مهمتي هذه، وبعد الرفض المستمر من قِبلي خوفًا على حياته أو تعرُّضه لمكروه.. إلا أنه وأهله أصرُّوا على ذلك، أذعنتُ أخيرًا وقبلتُ عرضهم المغري.. وأنا مرتاح.. فأنا بأمس الحاجة لمَنْ يساندني في خوض تجربة قاسية على أيِّ إنسان وما بالك بأب.. توجهتُ لخالقي بدعائي، فأنا أتوجَّه لمجهول، جالتْ بخاطري أفكارٌ كثيرة وذكريات حلوها مُرّ.. استعدتُ ذكريات لجوئي للقسم الداخلي بالجامعة طالبًا التبرُّع بالدم ساعيًا لإنقاذ حياة حسان في ساعات حياته الأولى، مَنَّ الله علي بنجاته، وكذلك اليوم أتوجَّه راجيًا ربي لينجيه لي أيضًا، قطعتْ سلسلة أفكاري رنَّة هاتفي.. نعم إن اسم حسان يظهر على شاشة الهاتف، ارتعدتْ فرائضي لسماعي نفس الصوت المقيت: مَنْ هذا الذي يرافقك؟!.. ألم ننهك عن مرافقة أيًّا مَنْ كان؟.. قالها بعصبية شديدة...

- إنه جار لي يا ولدي.. فإن وضعي حرج ولا يسمح لي قيادة سيارتي بمفردي، فأنا رجل كبير السن ومريض.. محاولًا استدرار عطفه.. ناسيًا أن العطف يسكن القلوب.. فكيف له السكن بجسم خلى من القلب...

- أنزله حالًا دون نقاش وإلا.. وأخذتْ كلمات الإجرام تنهال على مسامعي مسترسلة على لسان خُلِّق لهذه الكلمات، شعرتُ بتلذُّذه في ترديد هذه الكلمات...

حثني ماجد على طلب سماع صوت ولدي قبل التسليم...

تجاهل طلبي كليًا مكررًا إصراره على نزول مَنْ معي وحالًا، أدهشني معرفتهم بوجود شخص معي!.. إنهم في مكان يستطيعون معه متابعتي إذًا!.. غير أن المكان يخلو من أبنية قريبة...

ترَّجل ماجد وأنا كلي قلق عليه؛ لأكمل طريقي وحيدًا.. اتجهتُ إلى حيث أمرني بعد أن طلب إبقاء الخط مفتوحًا، كررتُ طلبي لسماع صوت حسان إلا أنه أصرَّ على الدفع أولًا ومن ثمَّ سيعود لي حسان قريبًا.. أمرني بالتوقف بعد أن أوصلني إلى منتصف طريق سريع؛ لأركن سيارتي في منطقة ترابية تقع إلى جانب الطريق السريع:

- انزل من السيارة وبيدك المبلغ المطلوب.. هيا دون تأخير... واخذ صبره يَنفذ...

- أرني حسان لأطمئن عليه وأتأكَّد أنه بخير قبل كل شيء... كلمته بحزم هذه المرة نابع من خوفي وقلقي على حسان، أو هو نابع من حرارة الموقف وشعوري بقرب نهاية المطاف، تصورتُ أنها ستكون عملية تبادل أسلمه ما يهمه بهذه الحياة فيسلمني اهم ما لي بهذه الحياة...

- توجَّه إلى الساقية بقربك.. ستجد صندوقًا كارتونيًا صغيرًا.. مغطى بأوراق الأشجار وبعض الأعشاب الجافة، ضع المبلغ في داخل الصندوق وأعد تغطيته بالأوراق والأعشاب.. هيا وبسرعة.. فليس

لدي متسع من الوقت.. وبعد ساعة من انتهائك من ذلك سيكون ولدك عندك.. أقفَلَ الخط متعمدًا؛ كي لا يسمع مني المزيد...
عدتُ أدراجي.. لا أعرِّف أيَّ طريق عودة سلكتُ... هل توقفتُ لإشارة المرور أو بالأحرى لإشارة شرطي المرور؟!.. استدرتُ نحو منعطف أم لم يكن في الطريق منعطفٌ؟!.. هل صادفتني اختناقات مرورية كالمعتاد أم كان الطريق سالكًا ؟!.. لا أذكر غير لحظة توقفي أمام باب المنزل!، وأنا خالي الوفاض.. الآن بحوزتهم ابني ومالي..! وعلى الرغم من ذلك داخلني شيء من الفرح، يحدوني أمل بقرب اللقاء.
مرَّت أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة على ذلك وها أنتِ الآن أمامي تستمعين لي دون رجوع ولدنا...

خبأ عادل وجهه بكلتا يديه، لم يستطع إكمال كلامه، عبراته كانت أسرع من كلماته، بكى حتى ارتفع صوته، أخذ يجهش بالبكاء، حاولتُ التخفيف عنه، وفي نفس الوقت أردتُ أن يطلق العنان لأحاسيسه، أن يُخرج ما آلمه علَّه يخفف من شدة حزنه بكبته مشاعره... رفع رأسه متوجهًا لي بالكلام:
- هذه أول مرة أُطلق العنان لنفسي يا لميس فسامحيني...
- هذا لأني قربك يا حبيبي.. أرجوك أن تسترسل، ولا تحاول كبت آلامك وغصتك التي في حلقك...

مرَّت ثلاثة أيام والحال كما هو الحال... الكثير من الأهل وعمات حسان وعمه يلفونا بحنانهم ويآزروننا في محنتنا ومحنتهم، نداءات هاتفية لا تنقطع.. من الأردن، ليبيا، كندا، سوريا، لندن، كل بقاع

الأرض التي ضمتْ شتات العراقيين بين جنباتها، كلما هاج بي الشوق وكلما عصف بي القلق والهواجس على حسان واختلط الأمل باليأس ألتجئ للكلام مع حنان في الأردن أو ريم في ليبيا؛ لتختلط دموعي بدموعهم عبر الأثير، وهذه هي الطريقة الوحيدة للتواصل في زمن الكوارث والتهجير القسري والمنظم المتعمد، أما بسمان فيطلب مني دائمًا اطلاعه على المستجدات قلتْ أو كثرتْ، تشبثتُ بالصلاة وقراءة القرآن والتسبيح، التجأتُ إلى الرحيم الذي شملتْ رحمته كل الكائنات، وكان متنفسي هو التوجُّه والتقرُّب إلى الله، كان عزائي في مصيبتي هو أن المصائب عمَّتْ كل العراقيين وعندما تعمُّ المصيبة تهون... وصدق مَنْ قال: "حشر مع الناس عيد".

رنَّ هاتف عادل رنَّة مميزة غير كل الرنَّات، فقد اعتمدنا رنَّة خاصة؛ لهاتف الحبيب حسان عندما يرنُّ علينا فهم الخاطفون، وهذا كان نوع من أنواع الحلول للتقليل مما ينتابنا مع كل رنَّة هاتف، لاعتقادنا بأن الخاطفين هم مَنْ يتصل بنا...
- إنهم هم.. الخاطفون.. هتف عادل بصوت منخفض وكأنهم يقدرون سماعه حتى قبل فتح الخط، اتسعتْ حدقتا عينيه، تغيَّر لونه...
كان وقت الغروب، أنا وماما متجهين نحو القبلة للبدء في صلاة المغرب، تسمرتْ أرجلنا، سرَّتْ رعشة بعموم جسدي فهذه هي المرة الأولى التي أتواجه مع نداء يأتيني من خاطفي حبيبي، ممن يأسرونه، إنه مقيد عندهم الآن بالتأكيد، ياترى هو يسمعهم الآن؟!.. أيقومون بضربه أم يكيلون له سيلًا من الشتائم؟.. أجرَّدوه من ملابسه مع شدة البرد؟.. أهو جائع ؟!.. كيف حاله دون استحمام لمدة ثلاثة أو

أربعة أيام؟.. ما عساه أن يشعر دون تواجد فرشاة أسنانه، هو يستحم يوميًا صيفًا وشتاءً.. يعمد إلى فرشاته بعد كل وجبة طعام.. تفوح من جنبيه رائحة (الباكو روبان)، وهو العطر المفضل لديه فهو العطر المفضل لوالده، كانتْ خالته ريم تتندر عليه عند رجوعه وفي حوزته كيس مشتريات، فتقول: "انتبهوا لمشتريات (ميدو)" وهو اسم الدلع الذي رافقه منذ طفولته.. إن كيس حسان لا يحوي الطماطم والخضار أو حتى الشيكولاتة.. إن مقتنياته عبارة عن مزيل للعرق من النوع الفاخر.. زجاجة عطره المفضل.. علبة (جل) لتصفيف الشعر.. تستعرَّض المشتريات ونحن نضحك...

أين أنتَ من كل هذا يا حبيب قلبي؟..

انتبهتُ وقد جذبني صوت عادل مما سرحتُ فيه وإليه، وهو يقول:

ـ آلو...

شاهدتُ اسم حسان يظهر على شاشة الهاتف وكأن الوقت لم يمضِ وكأنني لم أرحل وأغادر المكان، لم يجرِ ما جرى.. فهذا هو حسان يرنُّ على أبيه لحاجة ما...

هوتْ ماما بجسدها النحيف على الأريكة بقربها فهي لم تعد قادرة على الوقوف، فإن ساقيها لم يعد يحملانها..

ـ آلو.. نعم يا ولدي... قالها عادل متعمدًا الهدوء والتودُّد، سكت للحظات فهو يستمع لكلام أحد أفراد العصابة...

ـ أنا أعرِّف أن ما سلمته لكم هو نصف المطلوب غير أني...

لم تُعطَ الفرصة لعادل لإكمال الكلام، توقف عادل عن الكلام وما جدوى الكلام في خط قد أُغلق...

- طلبوا ما تبقى من المبلغ... قال عادل وقد رمى جهاز الهاتف بعصبية وحسرة...
- هل إن ما حددوه من مبلغ هو بمثابة قانون مسلَّط على رءوسنا؟!... قالتْ ماما وهي محتدمة... أكأن يعود لأبيهم مثلًا دون علم منا؟!.. اشتاطتْ ماما غضبًا.

عدنا إلى الصلاة دون أن أفهم ما ردّدتُ خلالها.. طلب عادل التشاور معنا للوصول إلى حل:
- لو كان ما يطلبون يعيد إلينا الحبيب المُغيب فهو حلال عليهم.. حتى وإن كان ما يطلبون يجرِّدنا من منزلنا ويجعلنا نعيش في كوخ صغير.. غير أن الخوف من عدم إيفائهم بوعدهم وهذا هو المرجح لدي.. هذا هو ما يخامرني أنا أيضًا... قال عادل وقد أسند رأسه على كرسيه، يطيل النظر إلى خارج الغرفة دون أن يرى شيئًا، فإن الظلام خيَّم على حديقة المنزل لعدم وجود القوة الكهربائية...
- إن مَنْ يعمد لتلك الأساليب الوحشية فإن الإيفاء بالوعود هو آخر اهتماماته... أكمل عادل وهو لا يزال يطيل النظر إلى الشباك المقابل لكرسيه..
- إن وعد الحر دين، وهم عبيد وليسوا أحرار... أضافتْ ماما... هم عبيد لأسياد لا يُعرف كنههم.. جُلّ خوفي من لوم أنفسنا بقية عمرنا في حال عدم الاستجابة...
- أُطابقك الرأي.. قُلتها وأشعر بسعادة تغمرني فهو يفتح باب أمل جديد يسمح بدخول الرضا إلى نفسي، إنهم قتلة، لا مبادئ لهم غير الغدر والتنكيل...

- صحيح ما تقولين، هم وأسيادهم عبيد للمال وللجاه، الكل متفق على هذا بل ومؤمن به ولكن هل يتجرأ مَنْ في موقفي الذي لا أُحسد عليه بمخالفتهم؟.. هل لي بعدم الاستجابة لمطلبهم وأنا في مثل هذا الحال؟.
امتدتْ يد عادل إلى قلم وورقة سحبها من فوق طاولة أمامه وأخذ يكتب أو على الأصح يرسم دوائر متداخلة، مُسطرًا أرقامًا تارةً وكلمات تارةً أخرى تداخلتْ مع بعضها البعض وهو شارد كليًا.
أخذتُ أتفوَّه بكلمات غير منطقية وغير مقنعة وأنا أُمثِّل على مَنْ حولي بل أُمثِّل على نفسي قبلهم متعمدة إبداء رجاحة العقل على العاطفة في محاولة يائسة لتبديد قناعة ترسختْ منذ الأزل بأن ما يحكم المرأة هو عاطفتها وليس عقلها، فتشدقتُ بكلمات فارغة جوفاء وأنا أتعمد الجلوس بشكل معتدل، يلامس ظهري مُتكأي أنفس دخان سيجارتي الثالثة والتي أشعلتها من عُقب سيجارتي الثانية بيدٍّ مرتعشة دون الالتفات لعدد ما أشعلتُ من السجائر لأُبدِّد قلقي..
- إن ما نملك لا يعود لنا.. سكتُ برهة للفت انتباه ماما وعادل لما سيأتي من كلمات.. إنه يعود لأولادنا الثلاثة...
- هيا خبري ما لديكِ بسرعة يا لميس.. وجهتْ ماما لي الكلام وهي غير محتملة لوقع كلماتي البطيئة.. لا تتكلمي بالسرعة الإملائية أرجوكِ.. كلمتني من واقع مهنتها...
- القصد من كلامي هذا.. وقد أزدتُ من سرعة كلامي.. السؤال هو فيما لو قررنا الاستجابة لمطلبهم والتنازل عن الكثير.. فهل يحق لنا التصرُّف في مستقبل بسمان وزين، أخاف الملامة فيما بعد، واتهامي

بأنانية الأم.. تلك الأم التي لم يتسع أفقها للتفكير بأولادها الباقيين مقابل رجوع أحدهم...

- كفي عن هذا الهراء، ما هذا التفكير غير القويم؟.. قالتْ لي ماما بنفاذ صبر.. لا أكاد أستوعب ما تقولين، فإن ما تقولين لا تعنيه ولا حتى أستطيع الاقتناع بأنه مرَّ على دماغك ولو للحظة.. إنك قلتِ ذلك لتقنعي نفسك بأنكِ قلتيه.. أيهنأ العيش لبسمان وزين دون حسان؟!.. ومَنْ أعطاكِ الحقَّ للتفكير والكلام بدلًا عنهما؟!.. إنكِ تشككين حتى في طريقة تربيتكما لهما.. فليس هذا ما غرسنا في قلوبكم.. لقد غرسنا الحبَّ ونكران الذات فيما بينكن وهذا ما غرستُّن في قلوب أولادكن أيضًا... أكملتْ ماما كلامها دون الالتفات صوبي، وغادرتْ الغرفة باتجاه المطبخ وهي تقول: سأعد بعض القهوة، وهي بحالة عصبية.

- إن ما تقوله ماما هو عين الصواب يا لميس، وسوف لن ننسى لكِ تفكيرك المنطقي... قالها ساخرًا بعض الشيء.

شعرتُ بالدماء تعود للجريان في عروقي بعد هذا التوبيخ، وتلك السخرية التي بدتْ من ماما ومن عادل، فهذا ما أريد فعلًا.. تسليم المبلغ على ضخامته ليتجدد الأمل في نفسي وتقرُّ عيني برؤيته مجددًا، لأضمه إلى صدري ولا أسمح بمغادرته من قلبي، لأُكحل عيني بضحكته الصبوحة وقُبلة يطبعها على خدي لا يمكن له أن يمنعها تحت أيِّ ظرف، شعرتُ بعينيه تنظران لي بعد ولادته بدقائق.. هو ينظر إلي، يركز بصره علي، كانتْ عيناه مفتوحتين، نظراته كلها حنان، يتفرَّس في وجهي؛ ليرى مَنْ سمع صوتها لتسعة

أشهر، يتأمل ذلك الوجه ليتعرف على صاحبته، تعلق قلبي به من أول لحظة.. أحببته، أردتُ أن أضمه لكنهم أخذوه مني؛ لتنظيفه والقيام بوضعه في الميزان إلى غير ذلك، أردتُ تقبيل يديه الصغيرتين إلا أن احتياجه للرعاية الطبية وضرورة تبديل دمه أخذته مني بعيدًا، بل دام شوقي له لعدة أيام، تعلقتُ به كما لم أتعلق ببسمان أول الأمر، هل السبب يعود لصغر سني حين ولادتي لبسمان أم لكوني حديثة العهد بالأمومة وأحاسيسها، انخرطتُ في بكاء شديد، زفراتي ساخنة وكأنها ألسنة لهب تمتد من أعماقي، ألم أكاد أحسه يقطع أحشائي، تمنيتُ لو استطعتُ البكاء بصوت عالٍ ليفرِّغ ما تلبد في صدري دون جدوى، لم أكد السيطرة على نفسي وعلى ضربات قلبي المتسارعة، تيَّبستْ يداي، خدرتْ أطراف أصابعي، اتصلتْ ماما بأختي نهى للاستشارة الطبية وبدأتْ منذ ذلك الحين حبَّاتُ المهدئات (الفاليوم) تعرف طريقها المنتظم إلى جوفي.

دائمًا ما تمرُّ ساعات النهار أسهل وأسرع من ساعات الليل، عيون الشمس تنير القلوب تملأها أملًا، يأتي مَنْ يأتي لزيارتنا ومؤازرتنا، يقصُّ على مسامعنا مختلف القصص التي تتمحور حول الاختطاف، وكيف انتهتْ على خير.. حتى وإن عمدوا لتأليف نهايات سعيدة؛ لتجديد الأمل لدينا، ولكن مع اقتراب الليل وظلمته وعتمته وانفضاض حركة السيارات مع دخول ساعات حظر التجوال المفروض من قِبل ما يطلق على بعض الأفراد جُزافًا الحكومة.. لقلة حيلتها إزاء ما يجتاح البلد من انفلات أمني بل الأصح هو فرض ذلك الحظر من قِبل عصابات الجريمة المنظمة الوافدة إلينا من خارج

الحدود، والتي تنشط مع حلول الظلام، وهذا دائمًا ديدن تلك الجماعات، فهم عشاق الظلام، هو مَنْ يحميهم ويمنحهم الغطاء اللازم لإشهار أسلحتهم صوب صدور الأبرياء.. عند هذا التوقيت يبدأ اليأس في الزحف إلى نفسي.. إنها حلقة يومية تبدأ مع بزوغ قرص الشمس، فيرتفع معدل الأمل على أن يبدأ في الاضمحلال كلما مالتْ الشمس نحو المَغيب، الأمل بعودته يحتل كل قلبي مع الفجر ويأخذ في الانحسار مع إفول نور الشمس؛ ليحل اليأس طاردًا لأمل توسمتُ فيه خيرًا.

احتاج والديّ الذهاب إلى منزلهما لليلة واحدة؛ لتغيير ملابسهما وما إلى ذلك من احتياجات يومية.. جاء الغروب وبيتنا يخلو من معين لنا أنا وعادل حتى المكالمات الهاتفية التي تأتينا من كل أرجاء المعمورة تتوقف مع حلول الظلام، ولسبب أجهله توقفتْ المولد الكهربائي خاصة عن العمل، وأبى إلا أن يتركنا مع الظلام الحالك، أراد عادل الخروج إلى حديقة المنزل لمعاودة تشغيل المولد غير أني رفضتُ وبشدة مفضلة الأمان مع الظلام، أقنعته بإشعال (لألة) حتى أن نورها هادئ ورومانسي ويبعث على الهدوء وبالتالي يسلمنا إلى نوم عميق.. واللألة لمَنْ لم يسعفه الحظ في التعرُّف عليها، فهي عبارة عن مصباح نفطي صغير يعود لبدايات القرن الماضي، أو احتمال أواخر القرن قبل الماضي، أو على الأصح قبل قيام الثورة الصناعية!.. إنها عبارة عن دورق زجاجي مستدير بدائي الصنع يفتقد لأيَّة لمسة حضارية من أيِّ نوع، يستدق هذا الدورق من الأعلى فتعلوه كرة معدنية تحتوي على شق طولي يسمح بمرور شريط

مصنوع من القطن، فيتدلى أغلبه في الدورق ويبقى جزء بسيط منه خارج الكرة المعدنية، وهذا هو الجزء المُعد للإشعال لتوليد الوهج.. وهذا الشريط القطني يسمى الفتيلة، بعد أن يتشبع الجزء الداخلي من الفتيلة بالنفط وبإيقاد عود ثقاب واحد فقط لا غير وبملامسته للجزء العلوي يتولد النور، ولزيادة كفاءة اللألة وزيادة في التقنيات العصرية!.. يُغطى هذا اللهب بأنبوب مصنوع من الزجاج المحلي المصنوع يدويًّا، والذي لا يخلو من الندب الغامقة وبعض التقعرات الزجاجية والتحدبات والشوائب تركتْ خصيصًا لإعطاء لمسة من الحداثة ولتذكيرك بواقع الصناعات الحديثة المؤلم، ليس هذا فقط بل لتقليل شدة الوهج المنبعث من تلك الفتيلة الصغيرة وتقلل من النور الأخاذ حفظًا على سلامة قزحية عينيك من التعرُّض للإضاءة الشديدة!!...

نعم هذا ما آل إليه حال بلد الحضارات المتعاقبة، ومهد حضارة وادي الرافدين كل هذا بفضل تهورات الحاكم الضرورة عذرًا عن الابتعاد عن صلب الموضوع، فكل جزءٍ بهذا الفصل مأساوي حتى إنارته.

حاولنا إشغال أنفسنا بقراءة شيء من القرآن الكريم وبالصلاة فهما المخرج الوحيد من هذه العتمة التي تلفنا من الداخل والخارج...

رنَّ الهاتف تلك الرنَّة الخاصة!.. إنهم هم!..

ردَّ عادل كعادته بكل هدوء ورباطة جأش، تركتُ ما بيدي مع سريان نفس الرعشة بأوصالي، توقفتْ كل حواسي عدا حاسة السمع فكلي آذان مصغية الآن...

- تفضل يا ولدي.. قالها عادل وكله توكل على خالقه.. فلله درُّك يا عادل.. أنا حقًّا فخورة بك.. حدثتُ نفسي.. كيف لك السيطرة على أعصابك ومناداة خاطفي ابنك بهذه العبارة الحانية...
- أنا على استعداد كامل لتسليمكم باقي المبلغ وحسب طلبكم وقت ما تشاءون، ولكن يلزمني سماع صوت ابني قبل كل شيء...
مدَّ يده وناولني الهاتف، وهو يعمل على تهدئتي جاهدًا هامسًا بأذني:
- إنهم يشترطون إسماع صوت حسَّان لكِ فقط!.. أرجوكِ تمالكي أعصابك قدر المستطاع وأنصتِ للصوت لتتأكدي منه متوكلة على الله علَّها تكون السبب في عودة غالينا إلى أحضاننا، لا يغلبكِ الموقف، كوني أكبر منه، أنتِ قادرة على ذلك..
وضعتُ الهاتف على أذني وكل خلية في جسمي تغلبها رعشة قوية..
- الخط مقفول يا عادل..
- صحيح إنه مقفل أعرِّف ذلك مسبقًا.. أكيد إنهم سيعيدون الكرة، اتخذي من هذا الوقت فرصة لالتقاط نفسك والتحلِّي بالصبر والتهيؤ لكل مستجد، فلنحاول تأدية ما علينا من واجب تجاه ولدنا.
رنَّ الهاتف بعد لحظات، ألصقته بأُذني بحركة لا إرادية محاولة سماع كل همسة!.. متمنية في ذات الوقت لو أني لم أضطر للوقوف في هذا الموقف.. كنتُ متوجسة سماع صوت حسان في حالة ضعف أو خوف فهذا من شأنه أن يقتلني، أن يدمرني، جاءني صوت خشن يتعمد الصراخ ليبث الرعب في نفسي:
- أين والدته؟.. هيا أجيبي بسرعة.. لا أملك وقت لأضيعه معكم.. أجيبي وإلا أنهيتُ المكالمة...

- أنا والدته.. أجبتُ بخنوع محاولة إظهار عكس ذلك...
- خذي كلمي.. قالها بفظاظة مفتعلة..
- هلو مام...
إنه صوت حسان بما لا يقبل الشك وهذه كلماته المعتادة في الرد علي.. إن صوته ضعيف وبعيد.. إنه يعبر عن كل ما به.. هاتان الكلمتان وصفتا لي المكان والوضعية وكل ما يتعرض له من قسوة في التعامل.. تلك الكلمتان اللتان حفرتا في تجاويف عقلي لتحفر في قلبي غارزة سكين لا منفذ له للخروج..
- هلو حبيبي حسَّان!..
- كيف أنتِ يا ماما ؟ أجيبيني بالله عليك.....
- هذا يكفي!... جاءني نفس الصوت الأجش...
أخذ الهاتف مني عادل وبسرعة قال:
- أرجوك دعني أسمع صوته أنا أيضًا.. بحقِّ والدك عليك أما تراعي مكانتي وكبر سني..
- هلو بابا..
- هلو حبيبي... قالها عادل بكل لهفة وحنان وحنين، من الواضح أنه يسمع صوت حسان...
- أنا جاهز.. أعلمني بمكان وزمان معينين لأُعطيك ما تريد لتعطيني ما أريد، سوف أبتهل إلى الله ليوفقكم لو تمَّ ذلك.
وضع عادل الهاتف على المنضدة معلنًا انتهاء الجولة المخصصة لهذه الليلة..
- سيعاودون الاتصال في أيِّ وقت.. قال عادل...

- أاستمعتَ لصوت ولدنا يا عادل؟ بادرته بالسؤال..
- نعم.. أجابني وهو متعب كما لو أنه ركض لأميال عديدة للتو.
سكت للحظة ليطلق العنان لدموعه بل لنحيبه، وللمرة الأولى بهذه الطريقة منذ وصولي لبغداد.

أشعلتُ سيجارتي بيدين مرتجفتين والظلمة تلف المكان؛ لتزيد من وضعنا المتأزم والذي لا يحتاج لما يؤزمه أصلًا.. لم أستطع البكاء، بل لم أستطع حتى النطق، فقط أنفث دخان سيجارتي بكل عمق علَّه يصل إلى مركز الحس عندي، فيعمل على تغليفه وعزله عن المحيط ولو للحظة.. مددتُ يدي المرتعشة ومررتُ بها على رأس عادل لتهدئته وبث الأمل في نفسه:
- اتكل على الله.. عساه يستجيب دعاءنا ويعيد الفرحة لقلوبنا.
لم ينتبه عادل لكلماتي ولا ليدي.. إنه غارق في صوت حسان.
أشعلتُ سيجارة بعد أخرى من عُقب السيجارة التي قبلها فلم أحتج لعود ثقاب أو لولاعة..
- إنه صوت حسان، هذا أكيد... قلتُ مستفسرة غير أن السؤال الذي كان يراودني هل كان يتكلم معنا فعلًا أم هو عبارة عن شريط تسجيل كان قد سُجِّل مسبقًا؟..
- لا تكثري من الأسئلة أرجوكِ يا لميس فلم يعد عندي عقل أُفكر به.

خيَّم الظلام داخليًا وخارجيًا وسيطر علينا بالكامل.. ازدادتْ رعشتي حتى أني شعرتُ بقلبي يرتعش بين أضلعي أصابني دوار، كل شيء من حولي يدور، السبب هل هو سخونة الموقف أم كثرة السجائر؟!، فأنا لم أعتد على التدخين بهذه الكمية ولا بهذه الطريقة!.

تناولتُ الهاتف وعمدتُ إلى تسجيل بعض كلمات أَجبرتُ نفسي على نطقها وعادل ينظر إلي مستغربًا ما أقوم به محاولًا، فهم ما أرمي إليه، اتصلتُ بعدها بمحمد زوج نهى، عانيتُ كثيرًا لأستطيع الضغط على حنجرتي وعلى أوتاري الصوتية؛ لأتكلم معه..

- هنالك ما يُقلق يا لميس!.. أرجوكِ تكلمي.. صوتكِ ضعيف جدًا لا أستطيع معه فهمك.. لميس - بالله عليكِ - لم يعد بي طاقة للانتظار أو التكهن.. حاولي تكرار ما قلتِ، أنا لم أفهم أيَّ شيئًا.. أرجوكِ هدئي من روعكِ... طلب مني محمد والقلق يملأه.

- إنهم اتصلوا بنا قبل دقائق... أجبته بصعوبة..

- رائع.. وهذا ما كنا ننتظر.. وما الذي دار في المكالمة هذه؟..

لقد سمعتُ صوت حساا... توقفتُ عن الكلام، ولم أستطع تكملة اسمه وأخذتُ في البكاء طويلًا...

- هوني عليكِ يا عزيزتي.. فهذا خبر جيد.. هيا يا لميس أكملي كلامك.. بتُّ أخشى من أن يلمَّ بكِ ما يمنعك من مقابلة حسَّان.. تماسكي فأنا لم أعهدكِ ضعيفة.. بل إننا نستمد قوتنا منكِ دائمًا.. أين إيمانكِ بالله؟ توكلي عليه.. ما الكلام الذي دار بينكِ وبين حسان؟.. ماذا حدثكِ قلبكِ فإن قلب الأم دليلها؟...

- لا أستطيع البت يا محمد... أجبتُ وأنا أمسح دموعي بظهر أكفي.. يصعب علي التمييز هل كان صوته مباشرًا معي أم عبر جهاز تسجيل؟ هذا ما يقتلني.. لقد قمتُ للتو بتسجيل صوتي، فلتسمعه أرجوك وحاول التمييز بين ما هو مُسجَّل وما هو مباشر...

قربتُ هاتف عادل والمسجل به صوتي من هاتفي، وأسمعته التسجيل علَّه يخبرني ويريحني مما أنا فيه من قلق...

- اسمعي يا لميس ضعي عنكِ هذا واسمعيني.. أنا لا أستطيع القدوم إليكم الآن وأنتم تقطنون منطقة السيدية.. وأنتِ تعرفين إنها من المناطق الساخنة.. ومن غير المعقول البقاء بمفردكم وأنتم تعانون ما تعانون.. اطلبي من عادل القدوم إلينا حالًا ودون تأخير فإن الظلام قد أسدل ستاره على المدينة...

- كيف يتسنى لنا الخروج والساعة قد شارفتْ على السادسة والنصف مساءً؟!...

- لا يهم دعي عادل يقود السيارة مسرعًا، وما هي إلا دقائق وستكونان عند بابنا.. ستستأنسان بنا ونستأنس بكما... فنحن بأشد حالات القلق عليكم...

- أرجوكِ حبيبتي، اعملي بقول محمد.. ولا تُبطيء.. ولا تزيدي من قلقي عليكما... هذا صوت أختي نهى متوسلة إلي بالمجيء.

ما إن سمع عادل بهذا المقترح، حتى بدأ بحزم حقيبة صغيرة تحتوي على بعض الملابس والمتطلبات الضرورية الأخرى، وهو يذهب ويجيء ويتكلم معي:

- إنه عين العقل.. البقاء في هذا البيت أصبح ضربًا من الجنون، فلم أعد قادرًا بعدما جرى ملازمته في انتظار رنَّة هاتف تحمل لنا ما يكدر حالنا...

- ولكن الوقت متأخر!.. والشوارع مقفرة.. والمدينة مظلمة بل إنها مدينة أشباح!.. وأنت خير العارفين.. أقول هذا وأنا أتمنى الوصول إلى بيت أختي نهى بأسرع ما يكون، فما ألمَّ بعادل ألمَّ بي أيضًا.

- اعتمدي على الله وعلي يا لميس.. قال هذا وهو يتأكد من إحكام قفل النوافذ والأبواب الخلفية ومفاتيح المصابيح والأجهزة الكهربائية

بالرغم من اختفاء التيار الكهربائي تقريبًا، ولكن في بعض الحالات وهي كثيرة الحدوث تجود الحكومة بدقائق قليلة؛ لننعم بالتيار الكهربائي وبصورة مفاجئة وبشدة تيار أعلى من الطبيعي، فتتعطل الأجهزة الكهربائية المسكينة لعدم اعتيادها على سريان التيار الكهربائي الحكومي في عروقها وما أكثر حالات الموت المفاجئ من شدة الفرحة.

تسلح عادل بمصباح يعمل بالبطارية الجافة، وهذا شأن كل فرد عراقي غيور يعتمد على نفسه في إنارة دربه ودرب الأجيال القادمة.

تعانقنا أنا ونهى وبكينا طويلًا، وأخذ محمد في تهدئة عادل محاولًا التندُّر ببعض الفكاهات الخفيفة المحبَّبة إلينا كعادته للترفيه عنا.

انتابني ألم شديد في منطقة الصدر، واتخذتْ نهى موقفًا احترازيًا قبل تفاقم الموقف بوضع حبة صغيرة تحت لساني.

عاودوا الاتصال بعادل، منذرين ومتوعدين بعاقبة وخيِّمة تنتظرُنا في حال تراجعنا عن دفع المبلغ المطلوب مهددين بتسليمنا حسان عبارة عن أجزاء صغيرة!!.

ازداد وضعي الصحي سوءًا وأنا أستمع لكل هذا القُبح وأتخيَّل دخول وعودهم حيِّز التنفيذ.

إن أختي نهى تسكن في وحدة سكنية من أربع وحدات سكنية أخرى يشغلها أخت وأخوين لزوجها محمد، وهم جميعهم أولاد عمي الكبير، وهذا المجمَّع السكني إن صح التعبير كان عبارة عن منزل كبير واحد تشغله عائلة عمي، وبعد رحيل عمي وزوجته من دار الدنيا قُسم المنزل وحُوِّل إلى أربع وحدات سكنية؛ ليشغلها ثلاثة من الإخوة

وأخت واحدة، وكان هذا هو الحل الأمثل؛ لتلافي الظروف الصعبة التي يمرُّ بها البلد من كل نواحي الحياة، فكان لسكنهم متجمعين الأثر الإيجابي الكبير في توفير الأمن والأمان، وبعث روح الفرح والترويح عن النفس بسبب تنقلهم فيما بينهم دون التعرُّض للمحيط الخارجي المليء بالمخاطر المحسوبة وغير المحسوبة، وكان الأخ الأكبر صديقًا لعادل فهما متقاربان في السن والأفكار، فكان لوجود ضياء ابن عمي الأثر الكبير على نفسية عادل،، فإنه بأمس الحاجة لوجود قريب وصديق في نفس الوقت يستشيره ويأنس لرأيه، ويمضي الليالي بتجاذب الحديث معه والترويح عما يختلج بداخله من معاناة أقل ما توصف به أنها مأساة..

هجرنا النوم.. نعم لقد هجرنا منذ الليلة الأولى إلى غير رجعة، غير أن هذه الليلة هجرنا مع سبق الإصرار والترَّصد، فلا تأثير يُذكر لحبات الفاليوم ولا لنقيع الأعشاب البرية بل وحتى التسبيح والتضرُّع إلى الله، إنها ليلة عيد الأضحى والحجيج يقفون بصعيد عرفات، وهي أول مناسبة عيد تمرُّ علينا وغالينا مجهول الحاضر والمستقبل!.. تزامنتْ هذه الليلة مع موعد تنفيذ حكم الإعدام لطاغية العصر بعد أشهر من المحاكمات والجلسات العلنية والتي تُبث عبر شاشة التلفاز.. والأهم من ذلك فغدًا صباحًا موعد توجه عادل إلى مجهول آخر؛ لتسليم الفدية المطلوبة لخاطفين حسان.. كيف لنا التوسم خيرًا في عودة حسان إلينا مع توقُّع موجات من العنف ستشهدها البلاد كردة فعل من أتباع النظام انتقامًا من تنفيذ الحكم بمَنْ اعتلى سدَّة الحكم لعقود.. أبعد هذا أتوسم خيرًا في منامٍ.

ساعتان ونصف مرَّتْ، ونحن لاهون عن مصيبتنا وهي خطف الحبيب حسان... صُبَّ قلقنا وتفكيرنا بل وتضرُّعنا لله في اتجاه واحد ألا وهو الأمل في عودة عادل إلينا سالمًا بعد توجُّهه إلى شرذمة الأشرار؛ ليسلمهم ما لم تتمكن لا دراسة ولا عمل لسنين طويلة في تجميعه.. إلا أنه جُمع بوقوف ومساعدة الأهل والأحباب في ظرف ليلة وضحاها، لم يبخل أحد منهم لا بالكثير ولا بالقليل؛ لتسهيل مهمَّتنا.. كان الخوف والخطر محدقين بعادل فبدلًا من فدية فديتان وبدلًا من ضحية ضحيتان!.. فمَنْ أقدم على خطف ولد في عمر الشباب لا يتورع عن خطف والده!.. ضحَّى عادل بما يملكه وما لا يملكه.. والأهم من هذا وذاك فقد ضحى بنفسه في سبيل استعادة الأغلى من نفسه.. لم يتردد للحظة في الترجي وللمرة الثانية إلى أرذل مخلوقات الأرض، رافعًا دمه فوق راحتي يديه يهديه رخيصًا طلبًا لولده، إنه استرخص أغلى ما لديه وهذا كان خير عزاء له فيما بعد...

عاد عادل والعود أحمد.. فرحنا بعودته وحمدنا الله على سلامته!.. متناسين ضخامة المبلغ الذي هُدر وكأننا مستغنين عن مبلغ كان فائضًا عن حاجتنا وكان يقض مضجعنا تواجده معنا.. ما قام به عادل في المرة الأولى قام به مجددًا.. نفس المكان ونفس الساقية وحتى نفس الصندوق.. ترك عادل المبلغ حسب التعليمات والتي ما انفكتْ تتقاطر على مسامعه عبر الهاتف، وأقفل راجعًا نافضًا يده من المبلغ.. موِّفضًا أمره إلى الذي يمهل ولا يهمل.. كنتُ أمنِّي نفسي بأن أضمُّ حسان إلى صدري في أول يوم من أيام العيد.. مرَّ العيد وما بعد العيد ولم أهنأ بعدها بعيد.. فإن منالي بعيد.

اتصل بنا أحد المقربين وهو دائم الاتصال بنا لمعرفة آخر المستجدات في موضوع الساعة بالنسبة لنا.. كان اتصاله هذه المرَّة مختلفًا عن كل مرة، اقترح لنا اسم شخص كنا على معرفة به سابقة، كان من القيادات الحزبية حينها وهو يسكن في بلد عربي مجاور الآن!.. قال:"بأنه يستطيع مساعدتنا في ظرفنا الحالي"، ومن المعروف بأن عددًا لا يستهان به من القيادات الحزبية القديمة أصبحتْ على اتصال مباشر وغير مباشر بما يسمى بجماعات المقاومة أو ما يُطلق عليها داخل البلد بالجماعات الإرهابية وإن تعددتْ أسماؤها!.. فهي تُطلق على تنظيماتها أسماء رنانة، أسماء مختلفة، مثل: التوحيد والجهاد.. الجيش الإسلامي وغيرها كثير، تنضوي تحت مسمى واحد هو القاعدة ـ قاعدة الإجرام والحقد ـ اتصل بدورنا بهذا الشخص، والذي يُكنى (أبو إيناس)، تربطنا به معرفة ليستْ بالمتينة.. لا نعرف الكثير عن منصبه الإداري سوى أنه من القيادات الحزبية المتقدِّمة، أما من الناحية الشخصية فهو إنسان يحترم نفسه كما يحترمه الآخرون، متواضع إلى حد كبير، كل أفراد عائلته يتمتعون بقدر كبير من الإنسانية وحب مساعدة الآخرين تكلَّمنا مع أبي إيناس، أبدى لنا كل مواساته ومواساة عائلته الكريمة، وصلتنا أحاسيسه الصادقة بشأن ما جرى لنا، أبدى أسفه، عمل على مؤازرتنا بكلمات صُبَّتْ كالبلسم على جرحنا، سأل عن كل التفاصيل ولفتْ نظرنا إلى تفاصيل صغيرة لم نُصِبْ تركيزنا عليها مسبقًا، فإن حسه الأمني المتأتى من التدريبات التي خضع لها على مدى مشواره العملي ولسنين طويلة شحذ تفكيره بهذا الاتجاه، سأل عادل عن أشياء دقيقة: في أي يوم من أيام الأسبوع بالتحديد تمَّتْ عملية الخطف؟..

بعد كم ساعة من مغادرة حسان للمنزل تمَّ الاتصال؟.. هل تمَّ التطرُّق إلى الفدية من أول اتصال أم بعده؟.. هل استطاع عادل تمييز لهجة المتصل.. وتحديد انحداره الطبقي ولأيِّ مدينة ينتمي بناءً على طريقة كلامه واستعماله لمفردات بعينها؟! أسئلة كثيرة أجاب عنها عادل لتضييق دائرة الشبهات، عندها تطوع الرجل مشكورًا بمدِّ يد المساعدة.. أثنيتُ عليه كثيرًا على مبادرته.. وعلى مبدأ الغريق يتعلَّق بقشة.. طلبتُ منه وبإلحاح متابعة مصير ولدنا والاتصال بمعارفه القدماء، فإننا نعرف كما هو يعرِّف أن الكثير من رجالات العهد المنصرِّم لهم اليد الطولى في الأحداث التي تجري على الساحة العراقية.. أبدى الرجل كل الاستعداد ووعدنا بتقصي الحقائق على إثر المعلومات التي توفرَّتْ لديه من خلال إجابات ما طرحه من أسئلة متنوعة.

مرَّ يومان على الاتصال السابق مع أبي إيناس، رنَّ هاتف عادل، وما إن وقع نظره على مفتاح تلك الدولة المجاورة التي يقطنها أبو إيناس حتى تهلَّل وجهه، سمعتُ عادل وهو كما يبدو يُجيب عن مجموعة من الأسئلة الجديدة انبثقتْ من تتبعه لخيوط جديدة توافرَّتْ له في محاولة للمها مع بعض؛ لتصبح معلومة مفيدة يرتكز عليها أبو إيناس وتصبح منطلقًا لهدف مرسوم..

حدثني عادل عن نوع الأسئلة والمعلومات التي طلبها أبو إيناس وبعض التوصيات والتحذيرات المطلوب من عادل التمسُّك بها في حال معاودة الاتصال من قِبل الخاطفين وطلب مبلغ آخر.

بدأ يتسلل خيطٌ من الأمل؛ ولا أقول الأمل كله...
لم تمر على هذه المكالمة أكثر من ثلاثة أيام حتى عاود أبو إيناس الاتصال:
- أودُّ أن أخبرك يا عزيزي أبو بسمان، بأنني قد استهديتُ إلى المجموعة التي تحتجز (حسوني)... هكذا ناداه باسم من أسماء الدلع العامة لاسم حسان!.. الفرح يملأ صوته، كذلك الفخر بالإنجاز الرائع وغير المتوقَّع الذي حققه!.. حريًا به الافتخار..
- أنتَ متأكد من هذا يا أبا إيناس!... هتف قلب عادل قبل لسانه فإن ما تقول كفيل بإعادة الروح لنا أنا ووالدته!..
- اسأله كيف تعرَّف عليه؟!.. وهل هو فعلًا حسان أم مجرَّد تشابه في الأسماء أو في الأوصاف؟!... ألححتُ على عادل في سؤاله..
- عذرًا يا أبا إيناس... (قال عادل وهو يرتعش ويحاول السيطرة على مشاعره، وقد علتْ حمرة على وجهه من هول المفاجأة)... فإن والدته تلح علي بالسؤال وأتصور أنك سمعتْ صوتها، لا تلمها فهي والدة.

- قل لأم بسمان: وهل لمثلي أن يتوه عن حسوني...؟!.. وهل يحقُّ لي التلاعب بمشاعرها قبل أن أتأكد من كل كلمة أقولها، إن أوصاف الشاب التي وصلتني هي مائة بالمائة أوصافه!.. كذلك فهو يرتدي بلوزة بيضاء تميل إلى الصفرة مع بنطال جينز أزرق فاتح!.. إضافة إلى كل هذا فإن هوية تعريفه تمحو الشك باليقين..! اطلب من الأخت أم بسمان الاستمرار في تمسكها بالله وتلاوة القرآن، ولا تستعجل الأمور وسوف أزف لها بشارة تحرير العزيز حسوني، وسوف تأتي البشرى من قِبلي وقريبًا إن شاء الله!.. ولتهنأ بمقابلته.

عبثًا حاولنا أنا وعادل معرفة المزيد، ومن أين له هذه التأكيدات وأسئلة كثيرة مرَّت بخاطرنا، غير أنه كان مصرًا على عدم الإجابة وعدم البوح بأيَّة معلومة.

زففتُ الخبر إلى بسمان في عمان والذي كان ملتاعًا ويقوم بالاتصال بنا كل ساعتين تقريبًا؛ ليطلع على كل المستجدات ويتابع كل شاردة وواردة، كان يود محادثتنا حتى لو لم يكن بجعبته أو بجعبتنا ما نتجاذب الحديث حوله، حتى الأطياف التي تمرُّ على عقولنا الباطنية نتكلَّم بها وكأنها رؤى سوف تتحقق، يطلعني على مَنْ قام بزيارتهم في بيتنا في عمان من الأصدقاء والمقربين للشد من أزره وهو في محنته وغربته، أما خالته حنان وعائلتها فهم ملازمين له، هجروا دار سكناهم ليذبوا عن بسمان ويذب عنهم، فها هي المأساة تتكرر، الأمس فارقنا الغالي حمدي واليوم يفارقنا حسان.. غير أن الأمل في قلب حنان يتغلب على مخاوفها بتكرار نفس المصير، حتى أنها آلتْ على نفسها وكظمتْ ألمها وحسرتها ولم تبدهما لي، كنتُ أحس بعبرتها تتكسر في صدرها وأنا أهاتفها كلما اشتد بي الحزن والقلق، أترك نفسي تسترسل وتعبُّر عن مخاوفي، أسمح لحرقتي وحرقتها بكيها وهي تدفن صرختها تكبتها كي لا يحرق لهيبها صدري.. تعمل كمرهم بارد يمرُّ بلطف على حروقي وجراحاتي.

مرَّ يومان أو ثلاثة فلم أعد متذكرة الأيام والتواريخ، فإنها تشبه بعضها البعض ولا اختلاف بين الأيام والأسابيع سوى أني أنتظر وأنتظر.

كان عادل خارج المنزل عندما اتصل بي؛ ليستفهم عن عودة حسان إلى البيت؟! طار فؤادي مثلما طار فؤاده قبلي:

- هل عاد حسان إلى البيت؟!.. ولِمَ لم تتصلي لتعلميني؟!..

وأستطيع أن أبت بأن عينيه حاولتْ اختراق جهاز الهاتف؛ ليلقي نظرة على البيت وهو يحوي حسان بين جدرانه مجددًا..

- عن ماذا تتحدث يا عادل؟!.. فهل تعقل بأني أستطيع تأخير مثل هذا الخبر عنك؟!.. يعود حبيبنا ولم أعمد إلى هاتفي لأزف البشرى لك؟!.. ومن أين لك هذا الخبر؟!..

اخترقتْ عيناي هاتفي لتنفذ إلى مكان تواجد عادل علَّني أستشفُّ مصدر الخبر... كانت حالتي مزيجًا بين أمل وبين خيبته.

- اتصلتْ بي للتو إيناس ابنة أبي إيناس تخبرني وتهنؤني على عودة حسَّان إلينا سالمًا، يملؤها فرحٌ مختلطٌ بالفخر على إنجازهم هذا..

- سأحاول الاتصال بها الآن لأستفسر منها شخصيًا الخبر ومصدره، وسأتصل بك فور حصولي على أيَّة معلومة.. لا تجزع يا عادل سيكون الله دائمًا إلى جوارنا.

- أنا سأعود حالًا إلى البيت فلم أعد قادرًا على متابعة أيِّ مهمَّة.

إن الهاتف يرنُّ حاليًا في دمشق.. ولا قدرة لي على الانتظار..

- آلو... جاءني صوت إيناس مهللة كعادتها.. غير أن ترحيبها الآن وتهليلها مضاعف..

- آلو.. أنا خالة لميس يا حبيبتي..

- أهلًا.. أهلًا بكِ خالتي العزيزة وألف ألف مبروك وقرَّة الأعين على عودة حسان، كل مَنْ معي هنا يتمنون لكم دوام الفرحة..

- أشكر لكم هذه المشاعر!.. إلا أن حسان لم يعد!.. أرجوكِ أعلميني ماهية هذا الخبر؟.. ومدى صحته؟.. وما هو مصدره؟.. فقد اتصل بي قبل لحظات عمك عادل.. غير أن المؤكد لدي هو عدم عودة حسان لي.

- كيف هذا؟! غير معقول!.. إنهم اتصلوا قبل ساعتين من الآن تقريبًا مؤكدين لي الموضوع... قالتْ إيناس مستغربة تمامًا قولي..

- مَنْ يا إيناس...؟!.. مَنْ الذي قام بالاتصال بكِ حبيبتي..؟!...

- إن صديقتي المقربة والتي لا تزال تسكن في بغداد هي مَنْ اتصلتْ بي وأكَّدتْ أن أخيها، والذي يعمل ضمن حماية الدكتور طارق الهاشمي في مكتب حي العدل، هومَنْ اتصل بها للتو ليخبرها!.. فهو الشخص الذي كُلف بمتابعة موضوع حسان!.. أكَّد لها أنهم أطلقوا سراحه حتى أنهم قاموا مشكورين بتسليمه لهويته الشخصية لتسهيل مروره بين السيطرات العسكرية المنتشرة في شوارع بغداد..

- هذا يعني أن حماية الدكتور هي مَنْ قامتْ بخطفه؟!... وجهتُ لها سؤالي هذا بصورة مباغتة وأنا أرتجف...

- لا تدققي في التفاصيل خالتي!!.. ما يهمك ويهمنا هو عودة العزيز حسان.

- سيكون بالطبع هذا موقفي فيما لو عاد حسان بالفعل!.. أما الآن وأنا خالية الوفاض، فمن غير المعقول عدم اهتمامي بكل شاردة وواردة.. فنحن نتكلَّم عن ابني!.. وليس عن قطة ضَلَّتْ طريقها.

- لكِ كل الحقِّ يا خالة.. ولكن ما عندي قد قلته، أليس من المحتمل أن وراء تأخر عودة حسان هو ما نسمع من اختناقات مرورية وتفتيش لكل مَنْ يمرُّ خلال السيطرات خاصة من الشباب أو إغلاق لأحد

الشوارع المؤدية إلى بيتكم وهذا كثيرًا ما يحدث عندكم حسبما نسمع هذه الأيام ؟! عدا عن هذا وذاك فإن حسان يجب أن يكون عندكم الآن.

- ليكون الله في عوننا ونقوى على تحمل كل هذه المواقف.. تمتمتُ مع نفسي... أنا أدين لكِ بالعرفان مهما كانتْ النتيجة يا عزيزتي إيناس، فإن اهتمام الوالد واهتمامك في حد ذاته شيء يستحقُّ التقدير حقًّا، وسوف لا أنسى ما حييتْ ذلك.

- إنه بمثابة أخي يا خالة وهذا أقل ما يمكن فعله... قالتْ إيناس وهي متفاجئة مما حدث، وتشعر ببعض الحرج من تعريضنا لحالة نحن في غنى عنها بمثل حالنا الآن.

قال لي عادل بعد استماعه للكلمات الأخيرة بيني وبين إيناس:

- أنا سأحاول الاتصال بوالدها لعلَّه يطلعني على تفاصيل أكثر...

- نِعْمَ الرأي رأيك يا عادل.. أجبته وأنا أشدُّ على يديه للإسراع بالاتصال.

تبدلتْ المواقف وتاهتْ المعلومات!.. درنا في متاهة لا نهاية لظلمتها لحد يومنا هذا!.. فإن ما أكَّده الوالد يختلف جذريًا عما أكَّدته الابنة!.. فهو رفض مجرَّد ذكر اسم الدكتور رئيس الحزب الفلاني، وحاول تسفيه كلام ابنته على أنها شابة تتحكم بها عواطفها!.. ولا علم له بما نقلته لنا من خبر!.. عبثًا حاول عادل استشفاف أيّ خبر منه، بل وحتى وعوده اللاتي قطعها على نفسه تخلَّى عنها بالكامل... عدنا إلى المربع الأول، لم نحظ بأيَّة معلومة تهدينا إلى مصير ولدنا الغالي المختطف.

ارتبطنا بشخص آخر وعن طريق فراس وهو الابن الأكبر لأبي إيناس إنه شاب في العشرينيات من عمره على أنه صديق لفراس يُكنى أبا عمر، عَرِّف لنا نفسه على أنه شخص مسئول رفيع المستوى على الصعيد السياسي.. بل إنه يعتلي قمة حزب جديد تأسس في سوريا منبثق من حزب البعث المنحل ويُطلق عليه الآن حزب العودة، وبعد اتصالنا بأبي عمر تبيَّن لنا أن عمره لا يقل عن نهايات الخمسينيات!! كيف له أن يكون صديقًا لشاب، على كل الأحوال كان أبو عمر شخصًا مجاملًا للغاية، لطيفًا، ينتقي كلماته بعناية شديدة، دائم الذكر لله تعالى، طلب من عادل سرّد ما حدث بالتفصيل مع ذكر لكل الأسماء والمسميات التي وردتْ أثناء المكالمات مع التواريخ وأماكن تسليم المبالغ، وبعد استماعه لكل التفاصيل وبعد مرور يومين اتصل بنا (من سوريا)؛ ليتم ربطنا بشخص آخر يسكن في العراق يُكنى أبا ندى!! إنه يعمل في صفوف المقاومة، وأخواله كلهم منخرطون في صفوف تنظيم القاعدة!.. على أن أبا ندى لا يستطيع رفض أيَّ طلب لأبي عمر!.. ليس هذا فقط بل إنه يأتمر بأوامره على الرغم من بعد المسافات التي تفصل بينهما!، وعن طريق شخص معروف لدينا ونثقُّ به كل الثقة، كان سابقًا ضابطًا في جهاز المخابرات العراقية، عرفنا أن كل من أبي إيناس وأبي عمر كانا ضابطين في نفس الجهاز ويشغلان مناصب مرموقة فيه، على أن أبا ندى كان موظفًا لا شأن له يُذكر وبنفس الجهاز وبنفس الفترة الزمنية، والأهم من ذلك أن أبا عمر هو صديق حميم لأبي إيناس وليس صديق الابن!.. كما أفهمونا.

بدأنا نتخبط في متاهات جديدة عبر ما يصلنا من معلومات عن طريق كلًا من أبي عمر وأبي ندى، وكلما أردنا التأكُّد من معلومة تأتينا من أبي ندى نلتجئ إلى أبي عمر ليؤكِّدها أو ينفيها على إنه لا يفوتني أن أذكر أن أبا عمر ومن خلال الاتصالات الهاتفية به، شخص مهذب ومؤدب إلى أقصى الحدود، ينتقي كلماته بتأني، يستعمل المفردة المناسبة في الوقت المناسب، كان متعاطفًا وبشدة مع محنتنا، يُشعرك بالتزامه بوعوده ومواقفه، يهوى المساعدة لأجل المساعدة، غالبًا ما كان يُؤكد علينا عدم الرضوخ لدفع أيِّ مبلغ قل أو كثر من قِبل أبي ندى، يعمد من خلال كل اتصال به إلى تذكيرنا بضرورة إبلاغه عما يدور بيننا وبين أبي ندى وهكذا فعلنا.

كانتْ الساعة الثالثة ظهرًا، وأنا كالعادة في بيت أختي نهى عندما رنَّ هاتفي وهو يبيِّن اسم ورقم المتصل، إنه عمُّ بسمان...
- كيف حالك يا أم بسمان؟... والانفعال الشديد واللهفة باديتان في نبرات صوته...
- أهلًا بك.. كيف حالك؟.. وكيف هم مَنْ في البيت جميعًا؟...
قاطعني، وكان دوني ودون كلمات وجمل الترحيب الطويلة والمتكررة المعهودة لدى كل أفراد الشعب العراقي:
- هل أنتِ أمام شاشة التلفاز؟... سألني وهو متأكِّد من جوابي بالنفي غير أنه أراد شد انتباهي وتركيزي على ما سيقول...
- طبعًا لا، مالي ومال شاشة التلفاز... أجبتُ حتى دون التفكير في كلماتي...

ـ إن قناة العراقية عرَّضتْ للتو صور بعض الشبَّان المخطوفين من قِبل عصابة متخصصة في الخطف على الهوية، وقد قامتْ قوات الجيش بتحريرهم وبمحض الصدفة، ومن بينهم شاب شديد الشبه بالغالي حسان!.. غير أن قطع اللقطة وقصرها، حالتْ بيني وبين التأكُّد من وجه ذلك الشاب، إلا أن كل مَنْ في البيت هتف في صوت واحد إنه حسان!. عسى الله أن يُكرمنا ويكون هو بالفعل يا أم بسمان.

هتف كل ركن في جسمي باسم الخالق الرحيم، كيف لي من التحقق يا أبا حيدر؟.. سألتُ وتمنيتُ في نفس اللحظة أن يقوم أيُّ أحد عني بهذه المهمَّة، فإن ما ألمَّ بي شلَّ تفكيري.. مالنا غير الانتظار حتى موعد النشرة التي تليها، فما هي إلا إعادة لما أذاعوه في النشرة الماضية..

ـ ومتى هو موعد النشرة القادمة؟..

ـ أتصوَّر أنها بعد حوالي ست ساعات... قال كلماته هذه محاولًا بث الصبر في نفسي..

ـ ومن أين أأتي بالصبر كل هذا الوقت؟!...

ـ صدقتِ والله يا لميس، ولكن ما باليد حيلة سوى الانتظار، علَّ الخالق يجازي صبرنا خيرًا.

لك أن تتوقع قارئي الحزين مثل ما ألمَّ بي.. أمل، خوف، رعشة تسرِّي في كل أوصالي تتركَّز في قلبي، نفاذ صبر فإن وقت الانتظار طويل، سألتُ نفسي كم مرَّة مكتوب علي أن أسمع خبر تحرير حسان؟.. وهل ستكون هذه هي الأخيرة؟!..

مرَّت الساعات ثقيلة وطويلة، كل مَنْ في البيت بل وحتى مَنْ في بيوت أولاد عمِّي المجاورة أصابها نفس ما أصابني.. حتى إن أحد أولاد ابن عمِّي وهو شاب يدرس في نفس الكلية التي يدرس بها حسان أكَّد لي أن الشبه كبير جدًا بل هو حسان فعلًا (فقد كان متابعًا لنشرة الأخبار)... إنه موقف صعب فعلًا..

جاء موعد النشرة المرتقبة، ازدحمتْ غرفة الجلوس في بيت أختي نهى، كل ترك بيته وفضل الاشتراك مع الآخرين في التحقق من شكل الشاب المشتبه به، نُصبتْ كاميرة فيديو للمساعدة في تكرار اللقطة للتأكُّد وقطع الشك باليقين...

أما إذا دفعك فضولك عزيزي القارئ في السؤال عني وعن حالي وموقفي، فلا أخفيك سرًا فقد خانتني شجاعتي، بل تخلَّتْ عني بالكامل!.. فآثرتُ الانزواء مع عزلتي ومخاوفي بمفردي، غادرتُ المكان قاصدةً باحة الدار الخارجية رغم برودة الطقس، تسلحتُ بغطاء صوفي سميك مع كتيب دعاء وعلبة سجائر يعيناني على التجلُّد والتحلِّي بالصبر القسري، اضطررتُ للانتظار كثيرًا، فإن الخبر الذي يعنينا كان تسلسله الأخير بين مفردات نشرة الأخبار.. لمحتُ أختي نهى وهي تمشي نحوي بتثاقل، يتبعانها كلًا من زوجها وعادل، والخيبة تملأ نفوسهم، وكل ما بداخلهم تسرَّب وبسهولة على قسمات وجوههم.

مرَّت أيام قليلة.. حتى لم تعد تشغلني التواريخ.. كانتْ مائدة العشاء تجمعنا في بيت نهى، وأنا أتناول عشائي والذي هو نفسه فطوري وغدائي، وهي وجبة الشاي بالحليب الساخن مع كعكات صغيرة لسد الرَّمق، ليرنَّ هاتف عادل، تناوله على عجل ونأى بنفسه بعيدًا عنا وكان دائمًا يختار صالة الضيوف بعد أن يغلِّق بابها عليه، إنها شبه مهجورة لاتساعها وتصدرها واجهة المنزل مما يجعلها معرَّضة للفضاء الخارجي من ثلاث جهات؛ ليتركها تئن تحت تأثير درجات حرارة منخفضة، فيخيَّل لك وكأنك تسكن برادًا كبيرًا، وبسبب قلة الوقود وارتفاع سعره في بلد الوقود فكانتْ كل العوائل تقريبًا تجعل التدفئة مقتصرة على غرفة صغيرة واحدة وعلى الأغلب تكون غرفة الجلوس، لقد استغنى الفرد العراقي عن حقِّه في شغل كل مرافق المنزل واعتبرها من الكماليات التي تحقُّ لغيره ولا تحقُّ له؛ لاضطراره ولفترات طويلة التخلِّي عن راحته بل ونسيانها تحت عدة مسميات وأسباب.. ظروف الحرب والقصف جعلتْ منه يتجمع في غرفة واحدة مع كل أفراد العائلة، انقطاع التيار الكهربائي لساعات طويلة في سنوات الحصار، وعدم قدرته على توفير الطاقة إلا لغرفة واحدة، غياب الوقود كثيرة هي الأسباب غير أن النتيجة واحدة هي تدني درجة رفاهية الشعب المبتلى...

أعود إلى رنَّة هاتف عادل، عاد من صومعته وقد علتْ وجهه حيرة وارتياب، فرحة ترقصُّ بعينيه لا يستطيع مغالبتها، أمل يتجدد مع سماع أيِّ خبر، حاول جاهدًا إخفاءه عني، طلب من محمد بنظرة من عينه أن يوافيه إلى الصالة غير أني سبقته بالاستفسار بل ألححتُ

عليه ونزولًا على رغبتي ورغبته في ذات الوقت قال: إن المتصل كان أبو عمر.. انتظر أن يبادر أحدنا بسؤاله فكان له...

- ماذا أراد؟.. هل أخبرك بما هو جديد؟ وجهنا له الكثير من الأسئلة..

- لقد كان يهنئني.. كان ممتلئ بالفخر والزهو.. وهو يهنيني على سلامة عودة حسان!!..

- أيضًا!... تركتُ عشائي وقلتُ بنفاذ صبر يخالطه الأمل.. ما الذي يجري...؟! انخرطتُ في بكاء شديد لقد سئمتُ هذه الأخبار..

هنا تدخل محمد وقال:

- ألا يجدر بهم التأكُّد من الخبر قبل نقله إليك أنت بالذات؟!.. وما هو مصدر هذا الخبر هذه المرَّة من دمشق أم من بغداد؟!...

فيض من الأسئلة التي تجول بخاطر محمد نزلتْ كسيل على مسامع عادل...

- إنه يقول من بغداد!.. وعن طريق أبو ندى... أجاب عادل وهو متعب... إنه يقول: "إن نداءً قد استلمه قبل قليل من أبي ندى يؤكِّد له تحرير حسَّان من أيدي خاطفيه!.. وقبل عدة ساعات، وعندما استبطأ منا الاتصال به وهذا شيء متوقَّع لانشغالنا بفرحتنا، قرر هو الاتصال بنا!!.. مقدِّمًا لنا التهاني.

التجأتْ نهى إلى حبة لتدسها تحت لساني؛ للتخفيف من ألم القلب الذي ألمَّ بي ككل مرَّة أتعرَّض فيها إلى موقف يهزُّ كياني.

مرَّت تلك الليلة كما مرَّت ما قبلها من ليالي.. مظلمة، باردة، حزينة، لا يكاد يستوعب جسدنا فراش، إغفاءته أصعب من أرقه!، فما إن

تغمض أو تلحظ العين فتتزاحم الأحلام حلوها ومرّها، فحتى حلوها يتحول إلى علقم بمجرَّد استصطدامه بنور النهار..

طلبتُ من أبي ندى أن يصف لي حسان؛ للتأكُّد من شخصية مَنْ تمَّ تحريره بالأمس، وأيضًا التأكُّد من صحة ادعائه... انطبق كل ما قاله على حسان!، كل ما يقوله أبو ندى مدعاة للشك، غير أننا كنا نلجأ إلى أبي عمر للتأكُّد إن ثقتنا في أبي عمر تعززتْ من خلال الشخص المقرَّب والذي أكَّد زمالته له.

الانتظار طويل وأطول منه تعلُّقنا بأوهام تحرير ابننا على أيديهم، كل يومين تقريبًا نستلم تأكيدًا وموعدًا مضروبًا بتحريره!.. كثيرة هي مرَّات انتظارنا لموعد مضروب من قِبل أبي ندى وبتأكيد من أبي عمر للقاء ولدنا، وفي كل مرَّة يكون التأكيد أكثر من الذي قبله، وهذا بتزامن استمرار عادل في بذل مبالغ يطلبها أبو ندى تباعًا!.. غالبيتها كانتْ تُطلب لشراء بطاقات شحن جهازه الخلوي وأحيانًا لتصليح سيارته لتكون صالحة لتعقب أفراد العصابة إلى غير ذلك، كل مَنْ حولنا يحاول تنبيهنا إلى كذب هذه المزاعم ونحن نعرِّف هذا!.. غير أننا لم نكن على استعداد لقطع الخيط حتى مع رقته، ذلك الخيط الذي يربطنا بأمل عودة ولدنا على الأقل كان هذا الخيط حافزًا يقوي من عزيمتنا على انتظار اليوم التالي.

واصل عادل رحلته العصيبة بين صور المغدورين بكل ما فيها من مأساوية عبر شاشة حاسوب تابع لمشرحة الطب العدلي في دائرة مدينة الطب أسبوعيًا!.. علَّه يستهدي لجثة الغالي بين الجثث الكثيرة والتي تزداد مع شروق كل يوم جديد!.. كان الأمل الذي يربطنا

بمزاعم أبي ندى يسير جنبًا إلى جنب مع يأسنا في العثور عليه حيًّا!.. أردنا العثور عليه وحسب حيًّا أو ميتًا، استطاع لساني تلفظ كلمة (جثة ولدي!).. أهي من قبيل الصبر أم من قبيل التأسي أم هي الإذعان للأمر الواقع؟!.. مهما يكن فإني قلتها.

كان عادل يتوجَّه إلى دائرة الطب العدلي بمعيَّة ابن عمِّي والذي يسكن في نفس مجمع أختي، لقد أبى أن يترك عادل في محنته هذه لوحده، فقد عزَّ على نفسه ترك والد مفجوع أن يواجه هذا الموقف الصعب بمفرده، وعلى الرغم من قساوة المهمَّة وقُبح المشاهد التي يتعرَّضان لها باستعرَّاض صور لمَنْ لاقوا حتفهم في تفجير عبوة ناسفة، أو انفجار شديد نَجم عن سيارة مفخخة وُضِعتْ بصورة عشوائية في شوارع أحد المناطق المكتظة بالسكان والمارة... أو غيرها من فواجع مسببة للموت في أبشع صوره وطرقه. إن هذه الصور تشكل صدمة في نفس أيّ إنسان ناهيك عن نفس أب يبحث بينهم على صورة تعود لفلذة كبده!.. نعم.. لقد استرخص عادل نفسه وماله في سبيل ولدنا، فلم يلتزم ركنًا قصيًا في المنزل كما أفعل أنا، عزائي الوحيد هو دمعتي وتلاوتي لآيات الذكر الحكيم، مع التهام للحبوب المهدئة والمسكنة إضافة إلى التهام السجائر وليس تدخينها.. غابتْ المقارنة كليًا بين موقفي وموقف عادل، فأنا لم أكتفِ بتعطيل عقلي وحسب بل عملتُ على تعطيل عقول مَنْ حولي في محاولة منهم للخروج بي إلى بر الأمان في خضم عواصف شديدة تعصف بالعائلة ككل. لم أقم بربع ما قام به عادل، وهذا ما يقضُّ مضجعي ليومنا هذا، أشعر بتفاهة موقفي، أستصغر شأني ألوم نفسي، أعاتبها. كيف استكانتْ لقدرها؟ خَنَعتْ واكتَفَتْ بذرف الدموع ليس إلا.

إحساس غريب ينتابني وأنا في انتظار عادل لعودته من هذه المهمَّة، قلق من نتيجة مبهمة.. نوبة ربو تلمُّ بصدري لا يفيد معها بخاخ أو حبوب كورتيزون، امتناع عن الأكل ليوم كامل دون الشعور بحاجتي له، بكاء شديد ينتابني طوال اليوم حتى مع الساعات الأولى لليوم التالي.. أكون في انتظار نهاية.. أيّ نهاية..! المهم هي نهاية، أنتظر أحد اختيارين لا ثالث لهما وكل واحد منهما يؤلمني أكثر من الآخر، فإن عاد عادل بخبر عثوره على صورة حسان من بين صور المغدورين فلا حاجة لتكملة الكلام!، وإن عاد دون العثور والاستدلال على أيِّ شيء فتلك طامة؛ ليبقى الغموض والحيرة تحجب عني الضوء في نهاية النفق؛ ليجعلني أعتقد جازمة بأني سأبقى في حيرتي حتى يحين قدري فأستريح، لا تسأل عن الحالة النفسية لعادل بعد رجوعه خاصة وأن عادل شخص مرهف الحس وعاطفي إلى أبعد مما تتصوَّر، فلا أستبعد أن يقع مغشيًا عليه أمام شاشة الحاسوب هناك، فهذا ممكن حدوثه إذا استدعى الأمر لينظر إلى جرح عميق بعض الشيء في إصبع يدي من جرَّاء العمل في المطبخ.

لم يكتفِ الأشرار والوحوش بما فعلوه وبما يسببوه من إيغال في آلام الشعب، فلم يكتفوا بالخطف والتغييب القسري، القتل والتنكيل تنفيذًا لفتوى ما أنزل الله بها من سلطان، أفتى بها مفتي تمَّ استيراده وبمحض إرادتهم من خارج الحدود، سمحوا لأنفسهم بتنفيذ أوامر قتل وذبح أبناء بلدهم، وحز نحور إخوانهم في المواطنة والإنسانية تنفيذًا لأوامر شخص غريب عن البلد نُصب كمفتي لمجموعتهم من قِبل

مجهولين، بل وحتى أوامر انتهاك لأعراض بنات بلدهم، كل هذا باسم مقاومة المحتل الأمريكي!، ولا أعرِّف.. كيف سيُهزم الجيش الأمريكي من خلال اغتصاب لفتيات بلدهم...؟! انتهجوا لأنفسهم عقائد مستوحاة من قانون الغاب، وأحكام دينية لا تحاكي دساتير الأديان السماوية وغير السماوية، وأكاد أجزم أن ربهم خريج لمصحة عقلية ونفسية بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف، أعود وأقول: "إن أمثال أبي ندى ومَنْ لف لفهم لم يكتفوا بذلك بل قضوا على ما تبقى من أعصابنا عن طريق الأخبار والوعود الكاذبة، رغم علمنا المسبق وقناعتنا بعدم وجود نهاية واضحة، ومع تأكُّدنا من كذب مزاعمهم ولكن مع حالتنا هذه، لم يكن في مقدورنا إطفاء بصيص الأمل، أوهامنا تعيننا على الاستمرار بالحياة.

الحياة في الطرف الثاني تتطلب تواجدي.. كيف لا؟! وهناك نصف قلبي!.. على بعد ثمانمائة ميلًا تقريبًا ينبض قلبي مع نبضهم!.. قلب بسمان الملتاع، على إن عدم تمكنه من الحضور إلى بغداد في هذه المحنة؛ للرفض المتكرر من قِبل كل أفراد العائلة زاد من التياعه، جعل الدم يتفجر في عروقه غيضًا وغضبًا، تمنى لو اقتصَّ ممن أفقدوه سنده في هذه الحياة، الظهر الذي يستند عليه فيما لو مالتْ به الأيام، لم يستطع أن يتكهن بأن الأيام سوف تميل عليه بغياب سنده!... دون حتى أن يتعرَّف على مَنْ سلبوه ضحكته.. بل قل مَنْ سلبوه رئته التي يستنشق عبرها رحيقَّ عطر الأيام الندية، وهل للأيام عطرٌ دون أخيه..؟، وهل قلب زين الغض أقل لوعة من قلب بسمان؟.. إنه ذلك الصبي بأعوامه الأثنى عشر، وفي غربته ووحدته

بعد أن غاب عنه بسمان رغم معيشتهما معًا إلا أنه غاب بإحساسه وشعوره وشغله الحزن عمن حوله زوجته وأخيه!.. وحتى شغله قد انقطع عنه، حيرته التي تاه معها بفقده أخيه أفقدته الإحساس بالحياة.. إن زين كان بأَمسّ الحاجة لي حتى مع تواجد خالته حنان، وعلى فترات متقاربة فهي لم تتركهم إلا للقيام بمهام من غير الممكن تأجيلها، ومما زاد في ضرورة توجُّهي لعمان هو قرار عادل دعوة أخيه من استراليا، وطلب مساعدته في التوجُّه إلى سوريا للقاء ومقابلة أبي عمر وجهًا لوجه في محاولة لتوثيق ادعاءاتهم حول حقيقة الموقف، فكان لِزامًا علي التواجد في عمان وشرح كل شاردة وواردة لعامر(وهو أخو عادل)؛ ليتسنَّى له مناقشة أبي عمر وليكن ملمًّا بكل التفاصيل.

تركتُ بغداد بعد مكوثي بها لمدة ثلاثة أشهر.. مرَّت بكل مآسيها لأستقبل مآسي أيام وليالي عمان.

وصل عامر إلى عمان بعد وصولي إليها بثلاثة أيام، كان اللقاء مفعمًا بالحزن والذكريات المؤلمة فقد قاسى هو الآخر مرارة فقد ابنه ذي الثامنة عشر ربيعًا بعد مصارعته لمرض عضال... باشر عامر ومنذ صباح اليوم الثاني لوصوله بالاتصال بأبي عمر في دمشق للتنسيق للقاء المشترك بينهم، بعد أن أبدى أبو عمر الاستعداد الكامل لهذه الخطوة، بل كان مندفعًا لها مشيرًا ومؤكِّدًا على صحة كل معلومة أدلى بها لنا، وبذلك الأمل والتفاؤل.

غادرنا عامر بعد يومين من وصوله إلينا؛ ليصل إلى دمشق.. لم يتخلَ عني الأقارب والأصحاب ممن اتخذ من عمان ملاذًا له، وقد

كان موقفهم مشرِّفًا للغاية، أجدهم حولي يحيطونني ويوآزرونني في محنتي محاولين الذود عني وتوفير ما يعينني على مصاعبي دون حتى أن أطلب.

رنَّ هاتفي في شقتي الواقعة في شارع الكاردنز في قلب عمان، وكان بسمان وزوجته وزين وعائلة أختي حنان من حولي، وكانتْ المكالمة من سوريا..
- أكيد هو عمو عامر... هتف بسمان وروحه تكاد تطير لسماع أيّ خبر..
- إنه هو بالفعل ونبرة صوته تخبر بما هو مفرح، حتى أن كلماته كانتْ منتقاة ليؤكِّد لي بأن اللقاء مع أبي عمر كان حميميًّا وبأن الموقف تحت السيطرة وكل شيء يسير على ما رُسم له، وأن كلًا من أبي عمر في دمشق وأبي ندى في بغداد على اتصال مباشر ومستمر؛ لتنسيق العمل بخطوات مدروسة ومحسوبة العواقب، وأن أبا عمر أكَّد لعامر بقرب انتهاء المهمَّة وعلى خير.

بتُّ ليلتي والأمل يحدوني بلقاء قرَّة عيني وأخذه لصدري معانقةً إياه بحرارة من شأنها إذابة جليد روحي، كانتْ أحلامي تريحني ليلًا لتتعبني نهارًا!.. كيف لا؟! وأنا ألتقي بحبيبي وهو يخبرني بحقيقة وجوده بين أضلعي، يغمرني بقبلاته ليؤكِّد لي أنه معي حقيقة وليس حلمًا!. لأصحو على واقعي المُر؛ لأصحو على سرَّاب لف صحرائي ذلك الواقع الذي أمعنَّ وأوغل في إيلامي.

توالتْ النداءات من دمشق وعامر يؤكِّد لي في كل مرَّة جدية أبي عمر، وقد اتخذ قرار بقائه في دمشق لحين تحرير حسان، وتحقيق

الحلم الذي من أجله ترك بيته وعائلته في استراليا على أمل تحقيق ما لم يستطع تحقيقه مع ولده ـ رحمة الله عليه ـ وليرسم بسمة لم تسعفه الأيام برسمها على محياه ومحيا زوجته.

تمرُّ أيامي طويلة وثقيلة حزينة مليئة بغموض مبهم لا أتجرَّأ على العيش به وبدونه، يسألني كل مَنْ حولي: ماذا يخبرك حدسك، فأنتِ أمٌّ وقلب الأم يعلم؟؛ ليأتي جوابي فيزدهم حيرة فوق حيرتهم...
ـ إن حدسي بالفعل غائب ومعطل لا يكاد يخبرني بأيِّ شيء!.. أنا متأكِّدة من رجوعه لي وفي ذات الوقت أنا متأكِّدة كل التأكُّد أنه غاب، ولن تكون له عودة وستبقى أيامي معتمة أكثر من لياليي.. أكاد أسمع نبض قلبه الشاب وتمسكه بالحياة لم يفتأ يمارس رياضة كرة القدم تلك الرياضة المحبَّبة له وهو ابن الثانية والعشرين عامًا بكل حيوية هذا العمر، ليملأ قلبي فراغ مطبق عنيف لعدم استطاعتي تحسس نفسه والاندهاش من برودة أطرافه حتى أكاد رؤية جسده مسجى تحتضنه حفرة ضيقة حفرَّتْ خصيصًا له في حديقة منزل الخاطفين، ولم يعد بوسعي التعرُّف على مكان قبره والتحقق من رفاته، فأعاوده وأزور قبره كلما هاجتْ بي شجوني، إنه خليط غريب غير متجانس من الأحاسيس، لكنه هذا ما كان يتقاذفني طول الوقت.

رجع إلينا عامر بعد خمسة أيام والحال هو الحال والوعود ذاتها، والتأكيدات ذاتها على أن أبا عمر هو مَنْ سيحقق لنا الحلم المنشود، والانتظار والصبر سيِّد الموقف.. أقفل عامر راجعًا إلى عائلته بعد أن أمضى حوالي عشرة أيام أو أكثر بقليل على أمل عودة حسان

إلينا.. لم نقطف ثمار رحلة أخي عادل الطويلة والشاقة من وإلى استراليا مرورًا بعمان ودمشق.. عدنا إلى سالف عهدنا!!.. تربطنا الهواتف التي مُلَّتْ رنَّاتها وما تحمله إلينا من مواعيد غبية... واصل عادل في بغداد رحلته الأسبوعية المضنية مع صور حاسبة الطب العدلي، وواصل رحلته اليومية مع نداءات وطلبات أبي ندى غير المنتهية.. !.. واصل كل ما من شأنه اقتفاء أثر لحسان.. وواصلتُ أنا الاستكانة وتقبلتُ دور الأم المكلومة دون محاولة اتخاذ أيَّة خطوة إيجابية..!.. لفني وغمرني الفشل!.. حتى رحيلي عن هذه الدنيا بات عصيًّا!.. كنتُ أجزم بأني لا محالة راحلة عن هذه الدنيا!.. فها أنا بقيتُ أتنفس الهواء وصدر ابني عازف عن الصعود والهبوط بنفسٍ يربطه بهذه الحياة..

عدتُ بذاكرتي الممعنة في القدم، عندما كنتُ أطلع على لافتات الشهداء والتي تحمل قسمًا منها لصور شبَّان لا ذنب لهم.. عادتْ بي ذاكرتي إلى تيقني المريض وإحساسي بسكين تخترق أضلعي على حال مَنْ فقدتْ عزيزها، لا يعمل على إخراج هذا السكين سوى تيقني حينها ومن دون إرادتي بلحاق تلك الوالدة لولدها في دار الآخرة تاركةً عذابات الدنيا رافضة لبقائها دون عزيزها!.. فأين هذا مني الآن...؟ متى سألحق بك يا حبيبي؟!.. أسيعمد القدر إلى طحني برحى انتظارك وستجبرني أيامي على مواجهة حلول شهر رمضان والالتفاف حول مائدة الإفطار دونك...؟!.. أستجبرني الأيام على إيقاد شمعتك الثالثة والعشرين في غيابك؟!...

هرعتُ إلى هاتفي.. توجهتُ إلى شرفة شقتنا، فهي المكان الوحيد الذي يمكنني من الحصول على مكالمة شبه واضحة مع أبي ندى حيث إنه يسكن في ضواحي بغداد بمكان لا تشمله تغطية الشبكة بصورة صحيحة، لم يعد بي من الصبر ما يؤهلني لانتظار موعدًا جديدًا ضُرب من قبله لتحرير حسَّان (هذا هو الموعد رقم ستة أو سبعة)، وأنا كلي يقين بكذب مزاعمه، ولكن مع هذا فأنا حريصة على سماعه...

رفعتُ صوتي حتى وصل إلى كل سكان العمارة ليسمعني، قربتُ الهاتف من أذني حتى كاد ينغرس بها علِّي أفهم ما يقول بصوته وبلكنته البدوية والتي يغيب عني الكثير من مصطلحاتها التي لم أعتد على سماعها من قبل، تلك اللكنة التي بتُّ أمقتها لاقترانها بما يؤذيني...

- أنا عند كلمتي.. لا تقلقي يا خالة أم بسمان.. اليوم ستنتهي كل عذاباتك.. سيكون حسان اليوم، وأقولها بملء فمي اليوم سيكون في منزلي.. وسأدعه يستحم فقد أحضرتُ له ثيابًا جديدة بعد طلبي مبلغ من الدكتور)، وهذا كان يطلقه على عادل (لهذا الغرض ليكن حسان مستعدًا للقاء والده في أبهى صورة..

خطف بسمان الهاتف من يدي ليستمع إلى مزاعم أبي ندى، والتي كان يتوقع ماهيتها من خلال الانفعالات التي بدتْ على ملامحي.

جاءتْ عندي حنان استعدادًا لاستلام أحلى خبر يمكن لأذني استلامه، طارتْ قلوبنا في صباح اليوم التالي مع كل رنَّة هاتف، كانتْ حنان تحاول جاهدةً إخفاء لهفتها والتي كانتْ بادية عليها رغم محاولاتها،

أرادتْ أن تبدد الوقت قدر المستطاع وتلهيني بأحاديث تجرُّها شرقًا وغربًا لا يربط بينهما سوى الكلام!.. والكلام فقط لتخرَّجني مما أنا عليه من لهفة وترَّقب، عبثًا حاولتْ أن تثني من عزمي لإحاطة تاريخ اليوم بهالة فوق التقويم المعلَّق والمتدلي من جدار المطبخ... إنه تاريخ (٢٠٠٧/٥/١٦م)، وبهذا اليوم يكون قد مضى على حادث الاختطاف خمسة أشهر!.. وما تخلل هذه الأشهر الخمسة من أخبار ومواعيد انتظرتها بكل جوارحي، تلك المواعيد الكاذبة التي شكَّلتْ سورًا حصينًا حولنا يمنع تسرُّب اليأس لأنفسنا، فكل موعد وإن كان كاذبًا كان يربطنا بخيط أمل نستطيع من خلاله المواصلة وانتظار ما بعده من موعد جديد.

٢٠٠٧/٩/٢٣م... موعد إقلاع الطائرة من مطار عمان حاملة عائلة حنان إلى أمريكا، وكان هذا اليوم أحد أيام شهر رمضان... كان لهذا اليوم مذاق خاص لدى عائلة حنان، إنهم في لهفة شديدة له منذ أشهر!.. يتطلعون له قُدمًا كلما أُنهوا لمقابلة من مقابلات منظمة الأمم المتحدة في عمان بهدف توطين العوائل العراقية ممن تعرَّضوا لويلات الحرب الأخيرة... إن قرار البقاء في الأردن شيء صعب وغير مقدور عليه من الكثير من العراقيين، غلاء الأسعار وارتفاع بدلات الإيجار، المحاربة النفسية من قِبل الشعب الأردني للعراقيين المتواجدين على أراضيهم لا لشيء سوى اقتناعهم بمسئولية الشعب العراقي في الإطاحة (بالقائد الضرورة)!! فهم لسبب معروف ولكن غير معلن يكنون الحب العميق لقائدنا، وحتى أكثر من محبتهم لملكهم أحيانًا ذلك الملك الذي حلل وحرم؛ لينهض بواقع مملكة خاوية

على عروشها.. كنا نتعرَّض للتعنيف النفسي من قِبل أيّ أردني نصادفه في أيِّ مكان وإقحامنا في مساجلات سياسية لا حصر لها حتى وإن رفضنا مبادلتهم النقاش حول ذلك، أضف إلى ذلك تعذر التحاق أولادنا بالمدارس الرسمية والاكتفاء بقبولهم في المدارس الخاصة، والتي تكلِّف الكثير من المبالغ والتي لا قِبَل لها لغالبية العوائل خاصة مع وجود أكثر من طالب لدى الكثيرين، فقد كان التحاق الطلبة بالمدارس الرسمية مقتصرًا على مَنْ حباه الله بالحصول على الإقامة السنوية، تلك الإقامة التي لا تصدر إلا لمَنْ أودع (مئة ألف دولار أمريكي)، أو ما يعادلها في أحد مصارف عمان، أو لمَنْ أسس أو أنشأ مشروعًا صناعيًا ضخمًا، وعدم الحصول على الإقامة لا يهدد الطلاب فقط وإنما يجعلك عُرضة وبأيِّ وقت للإبعاد الفوري والقسري، عدا ذلك يتحتم عليك دفع غرامات مالية لكل يوم تقضيه على أرض المملكة، هذا وغيره الكثير جعل من برنامج الأمم المتحدة المُخلِّص من هذا المأزق الحقيقي، هذا البرنامج الذي سيمنحك الحصانة من الإبعاد القسري والأهم من ذلك إيجاد بلد ثالث لتوطين كل الملتحقين بهذا البرنامج، ليس فقط من الأردن بل تعدا ليشمل كل بلدان الجوار العراقي وأيضًا بلدانًا أخرى تقبلتْ واقع تواجد العراقيين على أراضيها، البلد الثالث!.. ذلك الملاذ الغامض والمجهول والبعيد كل البعد عن العراق بكل ما تحمل الكلمة من معنى، إنه بعيد جغرافيًا، عاطفيًا، نفسيًا، فكريًا ليشمل ذلك البعد العادات والتقاليد، وكل الموروثات الفكرية.. كانتْ عائلة حنان إحدى تلك العوائل المتوسمة خيرًا في أمريكا طلبًا للاستقرار، والشعور

بآدميتهم والتي سلبتْ منهم ولسنين ليست بالقليلة، ولكون الشعب الأمريكي متعدد الأعراق والألوان واللغات ولا سمة غالبة لأيِّ عرق على الآخر، ولتلك الخصوصية بالذات أصبحتْ أمريكا هي الحلم المنشود، أضف إلى ذلك الحصول على الجنسية بعد سنين قليلة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، فتكون مواطنًا أمريكيًا لك وعليك حقوق وواجبات أيّ مواطن أمريكي، وهذا ما ينشده العراقي منذ سنين أن يشعر بأنه مواطن من الدرجة الأولى في بلد ما بعد أن حرِّم من هذا الشعور في بلده أولًا ومن باقي البلدان ثانيًا (لقد فقدنا هذا الإحساس من تسلُّط القائد الضرورة على رقابنا)، فهو ومن لفَّ لفه مواطنو الدرجة الأولى وليأتي بعدي الطوفان... لا تتركوا لميس لوحدها.. أَحيطو بها مساءً وصباحًا.. بددوا لي شيئًا من قلقي وخوفي عليها بعد سفري... لم تنطق حنان بغير هذه الجمل والتوصيات متوجهة بها إلى كل مَنْ جاء ليودعها قُبيل قيام رحلتها المنتظرة إلى أمريكا، نعم هذا ما كان يشغل حنان ويهمها ليقضَّ مضجعها ويستولي على فرحتها في تحقيق حلمها وعائلتها في المغادرة إلى أمريكا بعد أن كاد اليأس يطبق على ذلك الحلم الذي من أجله اضطرتْ إلى المرور بسلسلة طويلة من الإجراءات والمقابلات، لقد أحاطتني حنان بكل الحنان..!! خلال الأشهر المنصرِّمة، لم يهنأ لها مقام بعيدًا عني، رفضتْ الترفيه عن نفسها بأيَّة طريقة من طرق الترفيه المتوفرة؛ لرفضي ذلك.

ها قد جاءتْ ساعة الفراق.. استسلمتُ لقدري بالبعد عن حنان.. لم تعد أحاسيسي على ما كانتْ عليه.. كل شيء من حولي بهت لونه.. لم تعد تهزني الفرحة.. لا تثور عواصف غضبي مع أعتى رياح غدر

ممكن أن تعصف بي.. لم أعد قادرة حتى على تحسس آلالام.. انطفأتْ جذوتي.. تلبدتْ أحاسيس بكل صورها.. بكيتُ عند وداع حنان!.. لكن دون لوعة.. فلينجح مَنْ ينجح.. وليفشل مَنْ يفشل.. بل حتى خبر وفاة أيّ إنسان تعدا الخمسين من عمره أستلمه بقبول.. فقط ما يزلزل روحي من الأعماق تعرُّض شاب لأيِّ محنة من محن زماننا، معاناة الأمهات تحرِّقني.. كل دعائي وجُلَّ طلبي من خالقي أن أكون آخر أمّ على هذا الكوكب تُفجع في ولدها.

غادرتني حنان وغادرتني سلوتي.. حتى الابتسامة التي كانتْ تستطيع حنان استلالها من أعماقي ورسمها على محياي غادرتني، أثقلتْ الليالي على زين وحملته عبئًا أكبر من قابلية صبي لم يتعدَّ الثالثة عشر من عمره، أصبحنا لوحدنا بعدما اضطر بسمان وزوجته للسكن في شقة منفصلة؛ لتكون هذه الشقة الجديدة قريبة من مقر عمله الجديد، فقد مَنَّ الله عليه بالعمل في عيادة لطب الأسنان؛ ليمارس مهنته التي أحبها والحصول على مبلغ وإن كان زهيدًا بسبب القانون الأردني الذي ينص على عدم توظيف الطبيب العراقي إلا بعد انتمائه لنقابة الأطباء الأردنية، وهذا يتطلب منه الحصول على الإقامة السنوية كشرط أساسي يجب توافره في طالب الانتماء إليها!.

عدنا إلى المربع الأول.. لهذا قَبِلَ بسمان براتب متدني جدًا ووافق على استغلال ظروفه من قِبل الطبيب صاحب العيادة على هذا الأساس، غير أن عمله وعمل زوجته بأحد المكاتب الهندسية القريبة من مقر عمله جعل من اتخاذ سكن يقع في حدود نفس المنطقة أمر ضروري، وبعد إلحاحي الشديد على اتخاذ هذه الخطوة وأن الحياة

تستمر في غياب مَنْ نحب!.. هكذا واجهنا طول الليالي وبرودتها لخلوها من الأحباء أنا وزين بمفردنا تقريبًا، هذه هي سخرية القدر، أيامنا وسنينا تمضي حتى مع إصرارنا على التوقف.

أما عادل فهو لا يزال في بغداد عاصمة الأحزان والآلام.. لم تفقده كثرة الإحباطات أمل العثور على أي خيط من شأنه الوصول إلى معرفة أيّ خبر عن ابننا..

أخذ زين على عاتقه محاولة إخراجي من واقعي المؤلم.. تارةً يشجعني على الخروج مع إحدى الصديقات، تارةً أخرى محاولًا إضفاء بهجة وإن كانتْ مفتعلة على أجواء البيت، يرافقني إلى سريري؛ ليرغي معي بأيِّ موضوع يخطر على باله، وما إن يلمح بوادر الكرى تغمض أجفاني عندها يتوقف عن الكلام؛ لينسحب وبكل هدوء على أطراف أصابعه لئلا يوقظني صوت ملامسة خفه مع السجاد.

بدأنا ننتظر يوم الخميس من كل أسبوع؛ لأنه موعد مبيت بسمان وزوجته معنا، فتكون نهاية أسبوع لطيفة تجمعنا وجبة (دجاج كنتاكي) تصلنا إلى البيت بعد أن يكون قد مرَّت خمس وأربعون دقيقة في انتظار عامل التوصيل؛ ليهل علينا حاملًا أكياس الدجاج وأصابع البطاطا المحمرة مع المشروب الأسود السحري مع كل ما يحويه من مضار إلا أنه يبقى سيِّد المشروبات الغازية.

استمر عادل في زيارته لنا كل شهر مضيفًا عبئًا إضافيًا على أعبائه، وكذلك استمرتْ زيارات والتفاف صديقاتي من حولي عاملين بوصية

حنان.. أخذن على عاتقهن التخفيف والترويح عني بكل الوسائل، وكان لهذا الاهتمام الأثر الكبير على نفسي، الاتصالات الهاتفية المستمرة وبصورة يومية من أهلي وأخواتي مبعث للراحة، ومع كل هذا يبقى ما في القلب في القلب... إنه فعلًا يوم مبهج كلَّلتنا الفرحة بمفهومها الجديد قصيرة المدى ضعيفة التأثير، غير قادرة على الولوج لأعماق النفس ومع كل هذا هي فرحة.. فاليوم موعد وصول عادل إلى عمان.. إنه يزورنا بصورة منتظمة لكن هذه المرَّة مختلفة عن سابقاتها.. إنه قرر البقاء معنا في عمان، إن المخاطر المحدقة به في بغداد غير قابلة للانتهاء، إنه أستاذ جامعي وهذا المركز في حد ذاته مدعاة للاستهداف فالكثير من الأساتذة وعدد غير قليل من الأطباء المشهورين تمَّتْ تصفيتهم بأساليب متعددة ومختلفة، إضافة إلى هذا فهو ينتمي إلى (الطائفة الكافرة حسب فتاويهم العجيبة)، وفوق هذا وذاك فإنه يتمتع بحبوبة واضحة من المال إذًا فهو صيد سهل وثمين.. لهذا ولغيره اقتنع عادل أخيرًا بمغادرة البلد والانضمام إلينا ليندّي ليالينا وأيامنا... فرح الأولاد كثيرًا بهذا القرار بل وملأتْ الفرحة قلوبهم، ملأتني فرحة ناقصة ففي الأعماق ظلمة، عتمة، استقرتْ هناك، قبعتْ ليس لها خلاص ولا اضمحلال.. ملأتْ رأس عادل فكرة واحدة فقط، طغتْ على بقية الفكر، يحاول عبثًا نقل عدواها لي، يحاول وبمساعدة الأصدقاء من حولنا ممن سبقونا في التسجيل ببرنامج الأمم المتحدة إيصال فكرة السفر إلى أمريكا على أنها الملاذ الأخير لمَنْ هم في مثل حالنا!!..

رافضة أنا، رافضة وبشدة.. أترك وأبتعد عن بغداد.. بغداد التي آلمتني بل أوغلتْ في إيلامي، سلبتْ مني أحلامي.. جلَّلتْ بالظلمة الليالي، فجعتني في أغلى ما عندي، مدتْ يدًا نحوي فقطعتْ جزءًا من قلبي.. أنا حتى لا أدري أيَّ جزءً من ترابك يا بغداد يواري رفات حبيبي!.. أأهجر بيتًا ضمَّنا لسنين؛ لأتوجه إلى آخر عاري الجدران من ذكرياتي... لم تُرسم بصمة ليد حسان على أُكرة بابه...؟!..
قالوا إن هذا دوائي وفيه شفائي يوهمون ويتوهمون نسياني لك.. ومَنْ له أن ينسى عمره وزمانه بل ودهره.

رافقتُ عادل إلى مبنى الأمم المتحدة خانعة لا قانعة.. أقف في طابور طويل يلتف على نفسه لاستيعاب الأعداد الكبيرة، حاملين صك الغفران بيدنا بعدما قمنا بملء استمارة معلومات لها أول وليس لها آخر، وصلنا أخيرًا إلى كشك خشبي صغير، يتمُّ فيه تسليم أجهزة الهاتف، رافعين أيدينا مستسلمين لعملية تفتيش بسيطة، وهذا ما جرى عليه الحال في غالبية المباني الحساسة وغير الحساسة بعدما أنعم الله على الأمة برجال يطيلون لحاهم ويقصرون جلابيبهم ويصغرون عقولهم!..

انتهينا من عملية التفتيش؛ لننضم إلى قافلة المنتظرين المعذبين على الأرض، وإن واتنا الحظ فنكون في مكتب صغير وموظف يستمع ويدرِّج قصتنا المأساوية على جهاز حاسوب أمامه... اضطررتُ للخروج من المكتب؛ لنوبة بكاء عاتية انتابتني لأترك عادل وكالمعتاد يواجه إيلام سرّد القصة، تلك القصة التي لولاها لم نحظَ بفرصة ذهبية للعيش في أمريكا.. نحن نتاجر إذًا بمعاناة ولدي!..

أستدرُّ عطفهم في الحصول على فرصة تحقيق الحلم.. فإنَّ الحيَّ أبدى من الميت.. كثيرًا ما استمعتُ لهذه المقولة مجهولة المصدر، لا تنسي بأنكِ أُمٌّ لاثنين آخرين أنتِ لستِ أُمًّا لحسان فقط!، فإن زين بحاجة لكِ بل وحتى بسمان، شيئان اثنان هما مَنْ ذهبا بي إلى مبنى الأمم المتحدة، الأول: هو الخوف على زين من مصير مماثل لمصير حسان إن أنا قبعتُ هنا، الثاني: العيش بالقرب من حنان مجددًا، مقابل شيئين اثنين يمنعاني من مجرَّد التفكير بالهجرة، أولهما: بعدي عن أيِّ خبر يتعلَّق بحسان، والثاني: بعدي عن والدتي وعدم قدرتي على القيام بما يوجبه عليّ ديني وضميري وحبي لها...

إن ما مرَّ على الشعب العراقي من ويلات عمدتْ إلى تغيير هيكله الفكري والنفسي، تغيرتْ مبادئه، تحوَّلتْ اهتماماته، تبدلتْ كل قناعاته، آمن بمفاهيم جديدة تتمحور حول فرصة للعيش الكريم بغض النظر عن كيفية الحصول عليها، بدأنا نحسد بعضنا البعض حتى في مصائبنا!. كثيرون هم مَنْ توجهوا لي بالنصح بالتقديم إلى الـ"يو إن" (مثلما كان يُطلق عليها) لأن فرص قبولنا عالية جدا!... كانوا يقولو:ن خطف ولدكم (كان الله بعونكم) وعدم رجوعه (ألهمكم الله الصبر) يجعل ملفكم يتصدر بقية الملفات، فتكونوا مقبولين لا محالة وسوف تكون فترة انتظاركم قصيرة.. أكاد أسمع همسهم الداخلي مع أنفسهم، وهم يقولون: (بينما نحن غير متأكدين من قبولنا)!!..

أنا لا أدعي أني بعيدة عما جرى من تغيير للنفوس.. بل وضعني ظرفي بأن أُجري مقارنات مع غيري ممن تعرَّضوا لخطف أولادهم غير أن الله مَنَّ عليهم بالعثور على جثثهم!.. لا عجب فإنهم سعدوا

على الأقل بدفنهم.. استطاعوا إقامة مجالس عزاء ليتقبلوا التعازي في فلذات كبدهم.. ارتاحتْ الأمهات بلبسهن ملابس الحداد السوداء!.. تمكنوا من التوجُّه كل حين إلى قبر أحبائهم يغادونهم ويناجوهم.

استعد بسمان وزوجته للسفر إلى أمريكا بعدما مرَّ أكثر من سنتين على تاريخ تقديمهم للأمم المتحدة.. سيتوجهان إلى مدينة سانديجو تلك المدينة التي تقطنها عائلة حنان، كان هذا حدثًا أدخل الفرحة على نفوسنا جميعًا.. حتى وأنا مقبلة على وداع وفراق ابني الكبير والقريب إلى قلبي وعقلي، أشعر بالغبطة فعسى أن تُكتب له الراحة هناك ويتخلص من المعاناة التي يعانيها غالبية أبناء جيله من الخوف من ملاحقة قوى الأمن لهم؛ لعدم حصولهم على الإقامة القانونية، سلبهم الكثير من حقوقهم المدنية والمهنية؛ ليعيش قدر ما يعيش في الأردن دون أن يمرَّ بخياله ولو مرور الكرام الحصول على الجواز الأردني، إنه ضرب من ضروب الخيال وأبعد من السماء عن الأرض، عد يا بني لواقعك ولا تَمُدَّنَ عينيك إلى ما تمتع به غيرك.

غادرنا بسمان في مطلع شهر كانون الثاني لعام ألفين وثمانية؛ ليشقَّ له طريقًا في حياة جديدة وبعيدة كل البعد عما اعتاد عليه كل شاب عربي طموح قضى أربعة أخماس عمره في الدراسة، والمتابعة والسهر متأسيًا بالمقولة التي تطرُّق مسامعنا، وتلازم تفكيرنا دائمًا وهي (مَنْ سهر الليالي نال المعالي)، وعلى ذكر هذه المقولة فإنها أول جملة تُسطر لي في دفتر مذكراتي، وكنتُ حينها أبلغ من العمر تسع سنوات حيث إن والدتي هي أول من افتتح الكتابة لي فيه، فأُتيحتْ لها الفرصة لتوصيل وتجذير هذا المعنى فيَّ!..

إن بسمان والكثيرين من أمثاله طبقَّ الشطر الأول من المقولة على أمل الوصول إلى الشطر الثاني في يومٍ ما، على أن هذا اليوم وحتى كتابة هذه السطور ما زال في علم الغيب.

اتصل بي عادل (إن للهاتف دور كبير في قصتنا) من بغداد، بعدما اضطر للسفر إليها حيث استجدتْ أمور في موضوعنا!.. وكالعادة فإن عادل هو مَنْ يأخذ بزمام الأمور ويتصرف بإيجابية، وكعادتي أنزوي مع آلامي ومعاناتي وكأنها تعنيني أنا وحدي، أقبع في غرفتي مفترشة سجادة صلاتي رافعة أكفِّ التضرُّع والدعاء، أعترف بأني تحوَّلتُ إلى شخصية سلبية غير قادرة على اتخاذ أيّ قرار تلحفتُ حزني، تسورتُ همومي؛ ليكون جدارًا عازلًا بيني وبين محيطي، بينما لم يتردد عادل ولو لثانية في الحجز على أول طائرة عائدًا إلى بغداد؛ ليعاود الاتصال بالشخصية الوهمية الهلامية التي لم ينل عادل لحد الآن التشرُّف بملاقاته إنه أبو ندى... طلب مني عادل التحلِّي بالصبر ورباطة الجأش، فإن ما سيخبرني به شيء محزن هذا في حال صحَّ إدعاء أبا ندى!:

- لقد عثرنا على جثة حسان!.

- آه وآه من هذه الجملة.

- هذا ما أخبرني به أبو ندى!... قال عادل وصوته تخنقه العبرات فتهتزُّ نبرات صوته مع اهتزاز أوتاره الصوتية... لقد أخبرني أبو ندى ذلك بلا مبالاة ولا حتى مراعاة لنفسية أب... ما كان مني غير سؤالي له وأنا متحجر الإحساس..

- عن أيِّ جثة تتحدث يا أبا ندى؟.. وأنتَ مَنْ أكَّد مرارًا سلامة ولدي؟.. وما الذي دعاك لتعاود الاتصال بي بعد كل هذه الأشهر، وبعد انقطاع دام طويلًا...؟!.. ألم يكن آخر نداء بيننا ونحن ننتظر خروج حسان من حمام بيتك مرتديًا ما أحضرته له من ملابس جديدة حتى أُلاقيه وهو في أحسن صورة؟!...

- أتقول بأنني كاذب يا دكتور... ؟.. لا حاجة إذًا لتكملة المكالمة... مدعيًا جرح كرامته!.. وهل له ولأمثاله كرامة؟!.. عقب عادل وهو يخبرني تفاصيل ما جرى بينهما من كلام...

- أين عثرتم على جثته بالله عليك؟... سألته وأنا قاصد التشكيك في صدق ادعائه...

- عثرنا عليه والسلام... أجابني وهو مصدوم من طريقة كلامي هذه المرة..

- أعثرتم على كرة مفقودة أم على بشر؟ وأيّ بشر إنه ابني!!.. ألم يتبادر إلى ذهنك بأن هذا هو أول ما سأسألك عنه... سألته غير مبالٍ من وقع كلامي عليه؛ ليجيبني محاولًا إضفاء الجدية على كلامه...

- هذا شيء أكيد يا دكتور.. أنا أنأى بنفسي عن إيلام أيّ شخص.. كيف وهذا الشخص أنتَ بالذات؟!، أنتَ مَنْ أوصاني به خيرًا أبو عمر...

- دعك من هذا... أجبته... قل ما في جعبتك..! ولسان حالي يقول زدني من أكاذيبك...

- عثرنا عليه في دار يقع في حيِّ العدل كانتْ العصابة تتخذه مقرًا مؤقتًا لها...

- وكيف تسنَّى لكم التأكُّد من هذه المعلومة والتأكُّد من الدار الذي كانتْ تشغله نفس العصابة التي خطفتْ ولدي وليستْ غيرها؟... سألته بنفاذ صبر...

- ولِمَ التجأتُ لنا يا دكتور؟.. ألغير هذه القابليات والإمكانيات التي تشقُّ وتصعب على غيرنا...

- هذا صحيح والله يا أبا ندى، وتذكَّر أن مَنْ تخاطبه الآن هو والد صاحب هذه الجثة التي تتحدث عنها، والتي كانتْ في الأمس القريب فقط جسم شاب يملأه النشاط والأمل، والذي كنتم تعملون على تحريره من يد خاطفيه...

- أنا لا أستطيع الإطالة، فإن موقعي خطر، وها هي السمتيات الأمريكية تحوم فوق منازلنا وأظنك تسمع صوتها، فأنتَ تعرِّف بأننا مقاتلو القاعدة مستهدفين من قِبَلهم...

- أتقول مقاتلي القاعدة...؟!.. ألم يقل أبو عمر أن أخوالك هم من القاعدة فقط ولستَ أنتَ...

- هذا فرِّق لا يستحقُّ المناقشة... إذا رغبتَ في استلام الجثة ابعث بمبلغ عشرة آلاف دولار وستصلك!... قالها بخشونة ونفاذ صبر...

- أريد التأكُّد من أنها تعود فعلًا لولدي وليس لشاب آخر...

- إنها تعود له بالتأكيد... أراد أن ينهي الكلام في الموضوع...

- اسمع يا أبا ندى، أنا رجل علمي ولا يكفيني الكلام.. هناك تحليل (الدي إن آي)، فهو الفيصل بيننا...

- مالي ولهذا التحليل الذي أجهله، ومن أين لي أن أحصل عليه؟.. قالها باستهجان وازدراء...

- لا عليك اترك الموضوع لي، ابعث لي بجزء صغير منها وأنا أتعهد بإكمال الباقي، وحين حصولي على النتيجة وأتأكَّد أنها تعود لابني، سأقوم بإرسال المبلغ كاملًا وبسرعة، فيأخذ كل ذي حقٍّ حقَّه وإلا فالموضوع بعيد عني ولا يهمني لا من قريب ولا من بعيد... شعرتُ بأني حاصرته بكلامي هذا...

- ما الفرق بأن يكون ولدك أم لا؟ على كل حال إنها تعود لشاب مختطف وتمَّتْ تصفيته جسديًا.. ألا يستحقُّ منك إكرام الميت بدفنه؟!...

- إنه لمنطق غريب حقًّا!.. لم يعد عندي ما أقوله يا أبا ندى.. أرجو منك إيصال تحياتي وسلامي وشكري الجزيل للأخ أبي عمر على اختيارك أنتَ بالذات لهذه المهمَّة!.. فقد كنتَ بحقٍّ رشة الملح التي رُشتْ على جرحي وبجدارة.

أقفلتُ الخط مباشرة فلم أعد قادرًا على الاستمرار في الكلام مع شخص يستهين بمشاعري ويسترخصها.

سكت عادل عن الكلام في انتظار تعقيب مني، فأنا لم أتفوَّه بأيَّة كلمة عندما كان عادل ينقل لي ما جرى من مناقشة بينه وبين أبي ندى.

بعدما تمَّتْ كل تهيئات السفر المطلوبة، أخذتُ في تنفيذ جزء آخر مهمٍّ، وهذا ما يعمد إليه كل مَنْ يتجه لرحلة طويلة ألا وهي الاتصال بكل الأهل والأصدقاء المقربين لتوديعهم... اتصلنا لمدة ثلاثة أيام متواصلة فليس من الضروري أن تجد هواتف المطلوبين مفتوحة لاستقبال نداءك، فالبعض منهم استغرق أكثر من محاولة لمكالمته

شخصيًا، البعض كررتُ مكالمتي لهم حتى مع مقدرتي التكلُّم معهم فمثلًا مما... لا يكفيني نداء واحد، وكأن في أمريكا ستنقطع الاتصالات أو كأن المكالمة من عمان أقرب لقلبي! لا أعرف السبب بالتحديد ولا يتبع لمنطق محدد ولكني احتجتُ لمكالمتها طويلًا وكثيرًا، في إحدى مكالماتي لها كان هذا الحوار...

- حبيبتي ماما أرجوكِ لا تحقدي علي وعلى قرار سفري والابتعاد عنكِ.

- وهل لوالدة أن تحقد على ابنتها!.. أَيُعقل مطلبكِ يا حبيبتي؟.

- إنكِ خير العارفين أني رافضة لهذة الخطوة، لكنها كانتْ نزولًا على رغبة عادل ومصلحة زين.

- ليس بكِ حاجة يا نور عيني لتكرار هذا الكلام، فقد طرق أذني لمرَّات، أنا متأكَّدة من ذلك لتذهبي ويبارك خطوتكم ربُّ العزة، فقلبي راضٍ عنكم وكُفي عن البكاء فلم أعد أحتمل سماعكِ تجهشين به فقد كتب لعينيك الحلوتين البكاء حتى إن دموعكِ استنفذتْ، فكُفي عن ذرفها أستحلفكِ بحقِّ ذكرى والدك عليكِ...

أردتُ تغيير الموضوع فسألتها عن الخالة أُم علاء:

- أُحبُّ أن أُسلم على الخالة أُم علاء، ابعثي برقم هاتفها لأتصل بها..

سكتتْ ماما للحظات، تاهتْ منها كلماتها وتسلسل أفكارها..

- أهناك ما يُقلق يا ماما؟...

- قبل حوالي سنة من الآن... سكتت ماما للحظة مستجمعة ما تبقى لها من شجاعة أدبية؛ لتخبرني بأن الخالة أُم علاء ودعتْ الحياة وارتاحتْ..

- لكنكِ لم تعلميني بالخبر...
- وما فائدة إعلامك به؟.. أليس كل منا يذهب لحتفه حسب ما قُدِّر له؟
- أكيد ولكن.. ألم تحظَ برؤية علاء قبل وفاتها؟.. وما حجته الآن ألم يستطع الحضور إلى بغداد بعد أن سقط النظام وسقط عنه حكم الإعدام؟!...
- لكل إنسان مشاغله وظروفه، فنحن غائبون عن ظروفه هناك، لكنه قد تهيأ للمجيء إلى بغداد قبل وفاتها، كانتْ رحمها الله سعيدة جدًا لهذا الخبر، كانتْ تدور على جميع الأهل لتخبرهم بمَقدم علاء، وتخبرهم بموعد وصوله لتؤكِّد لنفسها قبل أن تؤكِّد لنا أن علاء لم ينسها، وأنه في لهفة أشدُّ من لهفتها، مَنَّتْ نفسها بلقاء حميم حتى أنها تناستْ ما ألمَّ بها من مرض جعلها تشتكي منه لأشهر طويلة رغم تأكيد كل الأطباء الذين راجعتهم على خلوها من أيِّ مرض عضوي، وأن ما بها من أعراض ما هي إلا أعراض لمرض نفسي.
- ليرحمها الله في مرقدها، فلها الحقُّ كل الحقِّ فإن ما عانته غير محتمل... قلتها وأنا كلي إحساس بها... إذًا ما الذي أخره عن القدوم؟
- لم يؤخره شيء، فقط لتكتمل معاناتهما!! أكملتْ كل التحضيرات حتى أنها عمدتْ إلى إعداد ما يحبه من وجبات عراقية بيدها رغم أنها لم تعد أيّ طبخة منذ سنوات وكُّنَ بناتها هُنَّ مَنْ يعددن لها طعامها، اجتمعتْ الأخوات وعوائلهن عند بيت والديهُّنَ وعمّك انكبَّ كعادته على تلاوة القرآن في انتظار الساعة الثالثة عصرًا، وهو موعد هبوط طائرته، قبل الموعد بعشرين دقيقة توجَّهتْ خالتك أُم علاء لفراشها لالتقاط أنفاسها والاسترخاء قليلًا بعد الجهد الذي بذلته

في إعداد ما يلزم، أخذتها إغفاءة بسيطة، رنَّ هاتف إحدى أخواته في المنزل؛ ليخبرها زوجها الذي تواجد في المطار باستقباله علاء وبأنه هو وعلاء مستقلين إحدى تكسيات المطار متوجهين للمنزل، طارتْ قلوبهم فرحًا، توجَّهتْ البنت إلى غرفة أُمها؛ لتعلِّمها الخبر الذي انتظرته لأكثر من خمس وعشرين سنة...

- ماما، ماما حبيبتي ألا تستيقظين، فمرحلة الانتظار كُتِبَ لها نهاية.. أُماه، هيا أجيبيني فإن عزيزك في الطريق إليكِ، ما خبرك يا حبيبتي الكرى لم يزرْ عينيكِ مثل الآن، إن الراحة النفسية هي مَنْ جعلتها تستسلِّم لنوم العميق... قالتْ في نفسها محلِّلة نوم أُمها الثقيل، وعدم استجابتها لصوت الابنة... بدأ يدبُّ خوف ورعشة تعرِّف مصدره لكنها ترفضه.. عمدتْ لمغادرة الغرفة متهيِّبة مواجهة ما أطلعها عليه قلبها.. نادتْ على أختها طالبة منها العمل على إيقاظ والدتهما وكأنها لم تفعل.
- اتركيها تستريح قليلًا وسوف أوقظها عندما يكون علاء عند باب الدار فلا أُحبُّ أن تنتظر أكثر مما انتظرتْ..
- ستكون صدمتها قوية إذا ما فعلتِ ذلك اعمدي إلى إيقاظها الآن... قالتها بتوتر واضح، وكأنها تأمرها بالتوجُّه إلى الغرفة حالًا وبدون تأجيل..
- لكِ هذا، رغم جهلي لسبب إصراركِ...
مرَّت حوالي ثلاث دقائق لا غير حتى سمعتْ ما كانتْ تنتظره في خوف... آه يا أُماه.. لينجدني أحدكم، إن أُمي لا تستجيب اسعفوني...- بالله عليكم... تأكَّدتْ لها شكوكها، هرعتْ لنجدة أختها مؤنبة نفسها

على أنانيتها... رحلتْ الخالة أُم علاء في هدوء محتضنة حنينها وأشواقها وآلامها إلى مثواها الأخير، مغمضة عينيها عن نور نظرة علاء التي طالما تاقتْ لها لسنين.. تحولتْ الفرحة إلى آهة سكنتْ القلوب لم تكد تفارقهم، غصة كبيرة لازمتهم منذ غياب علاء عنهم بالكاد كانتْ ستولي عنهم اليوم بل حتى قبل قليل، أنهتْ إغماضة السيدة الوالدة تعلُّقهم بالحياة السعيدة التي تاقوا لعيشتها.. غابوا مع أحزانهم، فقد الأم ليس بالشيء السهل، انكبوا على وجهها البارد المشوب بصفرة الموت يقبلوه، ذلك الجسد الهامد بلا حراك، كان طوال السنين يتحرك بكل الاتجاهات، ذلك الجسد النحيل والقامة الطويلة، سمرة واضحة تلوَّنه وشعرها المخضب بشيبه أبتْ أن يُخضَّب بحناء.. وهل الخِضاب الملوِّن إلا لسعيدة القلب يلفها رأفةُ وحنينُ ولدها المحيطين بها !!، كانتْ نشيطة أينما تتوجَّه تلقاها وقد وطأتْ قدماها ذلك المكان قبل وصولك إليه، تهبُّ للنجدة قبل حتى أن يُطلب منها النجدة، ملأتْ فراغًا تركه غياب علاء عنها بمساعدة كل ذي حاجة، لم تكنْ رقدَّتها الهادئة المستسلمة لنداء الموت تشبه في شيء حياتها المليئة بكل معاني الحياة...

رنَّ جرس الباب، أفاقوا من دهشتهم للتو وكأن جرس الباب ضُرب في نفوسهم ووجدانهم؛ ليفيقوا على حقيقة غابتْ عن أذهانهم في خضم توديعهم لتلك الروح التي عانتْ الكثير، إنه علاء... نطقتْ ألسنتهم بهذا الاسم وكأنه كابوس صحَّاهم من رقدَّتهم مع جسد تلك الوالدة الحنون!!.. هل يستطيعون أن يتغلبوا على حزنهم؛ ليدفنوه

بعيدًا في أعماقهم لتتهلَّل أساريرهم نشوة وفرحًا بعودة الأخ المنتظر لربع قرن من الزمان؟!..

اصطنعتْ الأخت الكبرى الفرحة بل هي فرِحة بما لا يقبل الشك؛ لملاقاة أخٍ يصغرها بسنتين فقط، لم يمنعها حزنها المتسرِّبلة به للتو من الفرح بمقدَّمه، تركتْ لجسدها الارتماء بأحضان علاء لم تفكر ولو لحظة في الدموع المنسابة من عينيها لتبلِّل وجهه... أهي دموع فرح أم دموع توديع الأم المسجاة في فراشها؟!، لم يتبادر لذهن علاء ولو للحظة ما ينتظره فها هي الأخت فرحانة به، ومع طول الفترة التي استغرقتها تحية أخته الكبرى ران لمسمعه صوت بكاء.. بل إنه نحيب، بدأ يتسلَّل لنفسه شكٌ مفاده عدم ظهور والدته الغالية؛ لملاقاته لحد اللحظة!.. أين موقع الوالد من كل هذا؟، لِمَ لم تحضر أختاه لحد الآن لعناقه؟، وهل هذا كله هو لاهٍ عما يجري داخل البيت؟!.

وضِع حد لكل ذلك وقوف سيارة أجرة متهالكة بالكاد تستطيع أن تواصل مسيرها بلونها البرتقالي المُجرِّب الذي فارقه... وهجٍّ نضوج اللون، أدهش علاء هذا المنظر!! تراني جئتُ على متن طائرة حديثة أم ركبتُ لآلة الزمن!.. فما أراه الآن يشعرني بفترة الستينيات من القرن الماضي، حتى أن منظر سيارة الأجرة جعله لاهٍ عما حمله الموضوع أعلى السيارة، إنه صندوق خشبي متهالك هو الآخر، خمسة ألواح خشبية تستعمل في أحسن الأحوال كصندوق يحوي طبقات البيض المعَّدة للنزول في الأسواق، استعمل في تثبيته إلى أعلى سقف السيارة حبل مصنوع من البلاستيك أخضر اللون فاقع وكأن هذا هو الشيء الوحيد بلون زاهٍ وحديث، على عكس كل ما

يحيط به من ألوان، فلون واجهة منزلهم باهتْ وقديم، الشجرة التي تقف إلى جانب بابهم أغصانها متآكلة ومتهالكة أوراقها اصطبغتْ بطبقة تراب كثيفة أخفى معه خضرتها، أَسفلتْ شارعهم جالتْ به عوامل التعرية! حتى الشمس بهتتْ أشعتها، مُلئتْ أنفاسه برائحة تراب جعله يَسعل بنوبات متواصلة دون الإلمام بالسبب، الشيء الوحيد الباقي كما فارقه لون بلاط مدخل الدار!! ذلك اللون الأصفر، البلاطات بمقاس (عشرون بعشرين) زهتْ بنظافة واضحة للعيَّان رغم قِدمها إنها هي نفسها أعادته إلى سنين صباه، حتى ضحكات رفاق الصبا داعبتْ مسامعه؛ لترتسم ابتسامة صغيرة استطاع استحضارها من بين طيَّات الماضي البعيد، تحوَّلتْ ابتسامته الخجولة إلى وجل وذعر بمجرَّد سماعه لصوت بل أصوات ترتفع من حوله بإيقاع يكاد يعرِّفه.. إنها صرخات الندب على ميت!! تُرى ما مصدرها؟!... نعم.. إنه منزلهم! هو مصدر الصراخ أفاق وكأن ما مرَّ به قبل لحظات حلم بعيد ضلَّل إحساسه، كيف سمح لناظريه التغاضي عن منظر نعش يعلو سيارة الأجرة!.. هل إن غياب منظر النعوش في سدني غَيَّب عنه هذا المنظر المألوف؟!..

لم تطل به فترة الغياب عن الوعي كثيرًا فإن نظرة واحدة لأبيه وأختيه ومجموعة من الأطفال بالتأكيد هم أبناء وبنات أخواته.. أعادتْ إليه إحساسه بالواقع، إنه نعشٌ معدٌ لما تبقى من والدته.

• • • •

قصرتْ أو طالتْ الفترة الزمنية التي استغرقتها معاملتنا للجوء.. صعبتْ أو تيسرتْ، فالنهاية واحدة هي تحديد موعد سفر لنا... وكان هذا الموعد يصادف يوم الثلاثاء الثاني من شهر حزيران لعام ٢٠٠٩... عملنا كل ما يُعمل ويتخذ من تدابير في مثل هذه الحالات.. تصفية ما نملك من مسلتزمات البيت وإن قلَّتْ فقد كنا نسكن شقة مفروشة، الحصول على وثائق دراسية مُصدقة من مديرية التربية نستطيع أن نثبت من خلالها المراحل الدراسية التي أتمَّها زين، تصفية الأمور المالية وغيرها...

إنها فعلًا رحلة مرهقة استغرقتْ حوالي سبع وعشرون ساعة بين طيران وتبديل طائرات مرورًا بأكثر من مطار.. استغرقتْ إحدى الرحلات حوالي عشر ساعات متواصلة!.. لم يزر النوم عيني سوى لدقائق معدودة، سرحتُ مع ذكرياتي.

استعرَّضتُ أحداث اختفاء حبيبي ونور عيني حسان بحذافيرها وكأنها شريط سينمائي يعرَّض أمامي، عدتُ بذاكرتي إلى أيام محزنة مرَّت بي، سنين تعب وجري لتوفير لقمة العيش، طفولتي السعيدة، صباي الأسعد، ارتباطي بعادل وهذا هو الحدث الأسعد، انقطاعي عن صديقات الدراسة المقرَّبين لنفسي خلال سنين رعايتي واهتمامي بتربية ولدي بسمان وحسان، السنين العِجاف وتنقلي بين الجزائر وبغداد وليبيا طلبًا للماء والكلأ..!؛ لأعود بعدها إلى بغداد ومعي أولادي الثلاثة مبتعدة عن زوجي وصديقي ورفيقي المخلِّص عادل.

تذكرتُ كيف اتصلتُ بصديقاتي وعادتْ لقاءاتنا، وعادتْ معها حلاوة الأيام ونقاؤها، ضحكاتنا التي تملأ قلوبنا تخرُّج من أعماقنا.

اتجهتْ بنظرها نحوي، رفعتْ حاجبها الأيمن مشيرة إلى سيدة اختارتْ أن تجلس في ركن الصالة بعيدة شيئًا ما عن بقية النساء!.. مستغربة وجود وجه جديد بين الوجوه المعتادة في جلساتنا الدوريَّة، وصلتني استفهاماتها جليَّة، تصرفتُ وكأن تلميحاتها وإشاراتها لم تلمس مداركي!.. مالتْ بكتفها الأيمن نحوي، همَّتْ بنفث حشرة حطتْ على شعري، أو هكذا أرادتْ أن توهم مَنْ حولنا، أصبحتْ شفتاها أقرَّب ما تكون إلى أذني:

- مَنْ تراها هذه الضيفة الجديدة على مجلسنا؟!.. قالتها وألقتْ عن كاهلها سؤالًا أُثقلَّ عليها من أول وصولها إلى بيت ميِّسم صديقتنا، إذ وصلتْ متأخرة كعادتها في كل اللقاءات فإنها تدير مكتب للتدريب على قيادة السيارة مع زوجها...هذه أول ملاحظة عنها أما الثانية فهي اختلاف أنواع السيارات التي تقودها في كل لقاء، وحسب متطلبات العمل.

- إنها صديقة قديمة لميِّسم... أجبتُها في صوت خافتْ، وهي لا تزال تميل نحوي وتحوَّلتْ كلها إلى آذان، ولم تفِ إجابتي بل زاد من فضولها؛ لمعرفة المزيد عنها... التزام الصمت هو سمة الضيفة الجديدة، وهذا ما آثار وزاد من فضول جليستي...

- الظاهر لم نحظَ بإعجاب الضيفة!... خرجتْ كلماتها من بين أسنانها وهي تصرُّ بفكيها على أحرف الكلمات مع عدم تحريك شفتيها!... قالتْ كلماتها هذه وهي تعود إلى الاعتدال في مجلسها والاسترخاء بعدما قالتْ ما تريد أن تقول...

حبستُ ضحكة كادتْ أن تظهر على ملامحي لولا لُّطف الله، وسيطرتي على أعصابي في مثل تلك الظروف وهذه مزية تحسب لي.
ارتفعتْ أصوات السيدات مرَّة واحدة حتى أني تذكرتُ مقولة والدي الحبيب عندما كنا نتجمع أنا وأخواتي وأزواجنا وأولادنا في بيت الوالد، حيث كلنا نتكلَّم سويًّا عندها يقول لنا بابا: (بناتي حبيباتي كلُّكُّن تتكلَّمن في وقت واحد !.. مَنْ يا تُرى المستمع؟!)... كان وراء الزمجرة التي علتْ للتو هو حضور صحون الطعام المعَّد مسبقًا من قِبل صديقتنا صاحبة الدعوة، مهلِّلين في فترة تناول الطعام، كانتْ هذه سمة سائدة في جميع لقاءاتنا الصباحية الدوريَّة، إنه الترفيه عن النفس ونسيان ما نتعرَّض إليه من ضغوط الحياة والحصار، وكل ما يمُّتْ إلى السياسة والواقع اليومي المُرّالذي نحياه، نعود إلى الوراء إلى أكثر من عشرين سنة وعندما كنا طالبات في إعدادية واحدة، عاجزات عن تكهُّن ما سيحلُّ بنا مستمتعين بكل دقيقة من الخمس عشرة دقيقة هي وقت ما يسمى بالفرصة، والتي تتوسط ستة حصص تشكِّل جدولنا الدراسي اليومي.
تعمدنا ودون اتفاق مسبق على الإبقاء على هذه الأجواء التي من شأنها إخراجنا من الواقع بكل مرارته وحلوه، ناسيات في بعض الأحيان أزواجنا وأولادنا بل وكل مسئولياتنا لحوالي أربع أو خمس ساعات على أكثر تقدير، هو طول لقاءنا النصف شهري...
تجهتْ بسؤالها هذه المرَّة والجميع يلتفُّ حول مائدة الطعام البعض جلوس والآخر يلفُّ حول المائدة؛ لانتقاء ما يحلو لهُّنَ من أصناف المقبلات والطعام وحتى الحلويات... قالتْ:

- لم نحظَ بشرف التعرُّف على ضيفتنا... رافعة صوتها لتُسمع صديقتنا ميِّسم...

- إنها السيدة عفاف، زميلتي القديمة في الوزارة... أجابتْ ميِّسم وهي ترسمُّ ابتسامة صغيرة مع إضفاء الجديَّة على كلامها محاولةً تذكيرنا بوجود شخصية جديدة إلى تجمعنا..

- أهلًا وسهلًا، قالتْ إحدانا برزانة مصطنعة واحترام يليقُّ بوجود شخص غريب عن طبيعتنا، فالضيفة تجهلُّ طبيعة علاقاتنا والهدف من لقاءاتنا، ليأتي الترحيب بالضيفة من جميع الحضور.

بالطبع مهما نحاول الابتعاد عن الواقع إلا أن ما نعانيه يفرِّض نفسه بشتى الوسائل، فبعد الانتهاء من الطعام عُدن إلى الصالة؛ لترتفع طبقة من الدخان فوق رءوسنا بفعل السجائر التي بين أصابع الحاضرات، دار حديث حول التحضير للحرب المتوقعة والموشكَّة على القيام مع بداية الشهر الثالث من العام (ألفان وثلاثة).. انتحلّتْ كل واحدة منا شخصية جنرالات الحرب؛ لتدلي بتصريح نابع من قناعتها ومستند إلى ما سمعته من زوجها!.. مهما اختلفتْ القناعات إلا أنها جميعًا تلتقي عند نقطة واحدة هي مسئولية (القائد الضرورة) فيما وصل إليه حال الشعب!...

ونحن نتجاذب أطراف الحديث وكالعادة أغلبنا يتحدَّث في نفس الوقت، دخل صوت جديد فارضًا نفسه على كل الأصوات، لا يعزف بنفس النغمة الجماعية، وبالطبع حين تشذ آلة موسيقية واحدة عن المقطوعة التي يعزفها الجميع وبانسجام فسيسطُّر ويعلو صوتها على كل الآلات:

ـ أتقصدن بكلامكُّن هذا أن قائدنا الملّهم هو سبب لكل ما نحن عليه...؟!... جاءنا صوت الضيفة الجديدة مجبرًا كل الآلات عن التوقف عن العزف!.. منصتين لكلامها يملؤنا الخوف والوجل..
ـ أهو مَنْ فرض الحصار الظالم على شعبنا؟!... أكملتْ وبكل ثقة منتهزة صمتنا، عارفة بحقيقة مخاوفنا مما زادها زهوًّا وثقة بنفسها!... أنسيتم كل إنجازاته للبلد.. ذلك التطوُّر الحاصل لكل مفاصل الحياة...؟! هذه الفنادق العالمية الشامخة!.. تلك الجسور المنشأة على دجلة العظيم، أين أنتم من تلك الأسلحة المتطورة والتي تقف في عيون الأصدقاء قبل الأعداء... استمرَّتْ في عزف نغمتها منفرِّدة مُلتذة بتغلُّب صوتها على كل الأصوات..
سيدة واحدة من بين الحاضرات الخمس عشرة أقل وأكثر بقليل، انبرتْ لها... ومَنْ غيرها يتجرَّأ على الإدلاء برأي مخالف؟!، فهي زوجة أحد أبناء عمومة (القائد الضرورة)، أثلجتْ صدورنا، تكلَّمتْ بلسان كل الحاضرات بل وبخمس وتسعين بالمائة من كل الشعب، حطَّتْ النقاط على الحروف:
ـ أما الفنادق فهي لا تتعدى عدد أصابع اليد الواحدة وعلى مدى خمس وثلاثين سنة!.. والجسور مثلها مثل سابقتها الفنادق!.. لقد استلَّم قيادة البلد وفي خزينة البلد فائض كبير.. أما الآن فمديونتنا عشرات أو مئات المليارات، تدهورتْ العملة؛ لتصبح في ذيل قائمة العملات بعدما كانتْ تحتلُّ المراتب الأولى!.. مستوى التعليم هبطَّ إلى الحضيض، ولم تعد منظمة اليونسكو تعترِّف بأيَّة شهادة تخرُّج بعد عام ألف وتسعمئة وتسعين في الوقت الذي كانتْ جامعتنا

تستقطبُ الطلاب من جميع أنحاء الوطن العربي!... أتودين الاستمرار أم أكتفي بهذا القدر فكل مرافق الحياة أصابها الوهن كسابقاتها...؟! أتصوَّر أن من مصلحتنا إنهاء الموضوع، فلا تؤلبي علينا المواجع، أنا لا أستطيع طمس نور الشمس بغربال!.. لمجرَّد حصول زوجي على منصب عالٍ لا يستحقُّه أصلًا وذلك لمجرَّد قرابته من القائد...

اقتصر الحديث على كليهما!، ومَنْ غيرهما تستطيع إقحام نفسها والزجُّ بمصيرها ومصير عائلتها إلى ما وراء الشمس!.

ومع انتهاء هذه المناقشة والمحاورة النارية انتهتْ جلستنا بل انتهتْ كل جلساتنا، لقد كانتْ هذه الجلسة هي الأخيرة؛ لقيام الحرب فلم نعاود لقاءاتنا بعدها، ولمدة تزيد على الثلاثة أعوام... هذا التوقُّف القسري بسبب تدهور الحالة الأمنية على إثر الأحداث الخطيرة والغريبة التي شهدها البلد بعد سقوط النظام، بعد أن أُقحمتْ وأُدخلتْ جماعات إرهابيَّة تحكمتْ في مصائر العباد.. وهنا أقول وبكل ثقة أُدخلتْ ولا أقول دخلتْ؛ لأن دخولها كان تطبيقًا لأجندات خارجية!.. بدأنا نسمع عن ممارسات شاذة وغريبة لا عن تعاليم الدين فحسب بل عن قناعات بشرية في حد ذاتها، انفجرتْ السيارات المفخخة بالقرِّب من المدارس والجامعات والمساجد وداخل الأسواق الشعبية في مناطق تجمع العمال وفي المخابز والأفران مقاومة للاحتلال الأمريكي!!.. سُلبتْ أرواح أعزائنا.. خَطفوا بل تجرّأوا على ذبح الإنسان؛ ليكون ذبحه أسهل وأكثر من ذبح الشاة، عادوا بنا إلى زمن الحرِّيم الذي عرِّفناه من خلال ما قرأناه في بواطن الكتب، بل

استنبطوا ما لم يُذكر في أيِّ كتاب.. مَنْ تتجرَّأ على الخرُّوج من دون حجاب فهي عُرضة للذبح!.. مَنْ تسوِّل لها نفسها وتقود سيارتها لقضاء حوائج العائلة فهي أيضًا عُرضة للقتل، إلزام رُّعاة الغنم بستر عورات الماعز بالملابس الداخلية عذرًا فإني لا أستطيع إشباع فضولك عزيزي القارئ وأُطلعك على نوعية وموديل الملابس الداخلية، فهل كان (البكيني) مسموح أم لا؟!.. ألزموا بائع الخُضَر بعدم وضع محصولي الطماطم والخيار جنبًا إلى جنب فإن الشيطان ثالثهم!.. حرَّام، حرَّام، قتل البشر حلال، ترويِّع وتجويِّع البشر حلال، جاءونا بجملة قوانين لم نسمع بها من قبل، لم تمرْ على بال سوى على بال شيخهم ومفتيهم المجهول.

بعد كل هذه التحرِّيمات والحلالات.. كيف لنا اللقاءات...؟! إضافة إلى ذلك فإن الكثيرات منا أخذتْ نصيبها من هذه المآسي التي فرَّضتْ نفسها علينا، فهذه حنان، وهذه أنا، وأُخرى فقدتْ أخًا لها في تفجير سيارة مفخخة استهدفتْ مسجدًا في منطقة الكرادة الشرقية ذاتَ الأغلبية الشيعية رغم أنه ـ رحمة الله عليه ـ كان من الطائفة السُّنية!، أُخريات فضَّلن الابتعاد والهروب إلى إحدى دول الجِوار، وتلك التي هُجرتْ قسرًا؛ لتترك منزلها وحيَّها الذي قضتْ فيه كل حياتها تاركةً ذكرياتها دون حتى أن تستطيع أخذ قُصاصات رسائل حبيبها وزوجها المتوفى قبل سنين.
انفضَّ مجلسنا وانفضَّتْ معه حلاوة العيش.

• • • •

شعرتُ بيدٍّ تمتدُّ إلى كتفي؛ لتنبهني إلى وقوف المضيفة الألمانية برَّشقتها وقدِّها الممشوق، بشعرِّها الذهبي المسترسل على كتفيها خافيةً الكثير منه بالقبعة الزرقاء، وهي تبتسم، تقف خلف عربة المشروبات بكل أنواعها الكحوليَّة منها والغازية وأنواع العصائر.. تسألني بلغة إنجليزية بلكنة ألمانية واضحة:

- (apple juice good for you)

أشرتُ برأسي موافقة فإن عصير التفاح هو المفضَّل عندي.

لم يبقَ سوى ثلاث ساعات من الرحلة الطويلة بين فرانكفورت وشيكاغو، كانتْ الخدمة جيدة على متن طائرة الخطوط الألمانية (لوفتهانزا) لم أتمكن خلالها من النوم، وعلى عكس ذلك فقد استرسلتُ في نوم عميق في الطائرة الأمريكية والتي تقلُّنا من شيكاغو إلى مدينة سانديجو في رحلة امتدتْ لخمس ساعات لم نحظَ فيها بأيِّ نوع من أنواع الوجبات فهي رحلة داخلية!.. لمحتُ إشارة ربط الحزام لتتملَّكني فرحة عارمة؛ لانتهاء رحلتنا التي استغرقتْ سبع وعشرين ساعة.. كلَّلتها فرحتي بترَّقبي لقاء حنان وأولادها.

كانتْ عائلة حنان وعائلة أخرى هم من أصدقائنا القدماء الذين حالفهم الحظ في الوصول إلى أمريكا منذ ما يُقارب العام.

كل شيء جميل ومبهج، فللقاء طعم مميز، واستقبال المسافر يبعث السرور في النفس تمامًا عكس الوداع.. كانتْ الشقة التي تمَّ استئجارها مسبقًا صغيرة، تشتمل على غرفتين كل واحدة منها أصغر من أختها، صالتها تعتبر كبيرة بالنسبة إلى غرف النوم، كذلك تحوي حمَّامين جميلين ونظيفين... أنا أعرِّف أنك عزيزي القارئ

والأهم عزيزتي القارئة بانتظار خبر عن المطبخ... هذا تركته للآخر؛ لأنه مثير للدهشة!.. إنه صغير وداخلي، يعتمد دخول الضوء إليه على نافذة مربعة الشكل لا يتعدى قياسها عن (أربعين في أربعين سنتيمترًا) مرتفعة جدًا لا تسمح بمشاهدة أيّ منظر من خلالها، المطبخ مزود بدواليب تحيط بضلعين فقط؛ لترتفع فوقها الدواليب المعلَّقة، باب الفرن بعد فتحه يُقسِّم مساحة المطبخ إلى قسمين لتنهي حركة المرور نهائيًا بين الجزأين، عند وقوفي في أيِّ جزء من المطبخ، يجعل من دخول عادل مبعث على نزاع عصبي غير قابل للحلِّ سوى بخروجه منه، رغم صغر مساحته إلا أنه مزود بكل ما تحتاجه ربَّة البيت (ثلاجة، طباخ بفرن كبير، غسالة الصحون، مايكرِّويف)، والأهم من كلِّ ذلك هو تزويد حوض الغسيل بجهاز صغير مُلحق به من الأسفل يعمل على تقطيع وطحن بقايا الطعام أو قشور الخضروات، إنه يساعد على جريان الماء بكل سلاسة.

غرفة النوم الرئيسية تطلُّ على مرآب السيارات، فلم يهنأ لي جفن ولم أستسلِّم لنوم عميق ما دامتْ حركة السيارات مستمرة تقريبًا طوال الليل، هنا في أمريكا ساعات العمل مستمرة على مدار الأربع وعشرين ساعة، هذا يعود من عمله عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، غيره يترك منزله عند الساعة الخامسة فجرًا للالتحاق بعمله، أما جارتي التي تسكن أسفل منِّي، فقد بلاني الله بسيارتها وبطاريتها التي لا تعمل إلا بالطرق المتواصل عليها، وبسبب غضبها ورثاءها لحالها المتعب والمستمر كل يوم فتعمد إلى تفرِّيغ شحنات الغضب على غطاء المحرِّك، فتتركه يهوي بقوة محدَّثًا لصوت أقرَّب ما

يكون لصوت القصف الذي تشبعتْ به أُذناي، فأستيقظ مفزوعة متوهمة وجودي في بغداد.

طلبتْ منِّي موظفة تعمل في منظمة يُطلق عليها (الكاثوليك جارتي)، وهي المنظمة التي تعمل على مساعدة اللاجئين عند أول وصولهم إلى أمريكا، تصرِّف لهم مساعدات مالية لمدة ثمانية أشهر، أن أتوجَّه إلى أقرَّب مدرسة لتعلُّم اللغة الإنجليزية، وهذا شرطهم لاستمرار المساعدات خلال هذه الأشهر وإلا ستقطع، أجبتُها بأن حالتي النفسية لا تسمح لي بالانخراط في هذه المدرسة، فإني عاجزة عن التوجُّه إلى أيِّ مكان من شأنه أن يلمني بمجتمع عراقي على الأخص فأتعرَّض للسؤال عن ظروف عائلتي وأول سؤال يرِّد على البال هو عدد أفراد العائلة، وعدد الأولاد، وما هي القصة التي جاءتْ بي إلى هنا، فهذا يؤلمني جدًا ومن خاصية السيدة العراقية هو طرح سيل من الأسئلة حتى دون انتظار أن يأتيها الجواب، فأكون عاجزة عن التفكير في الإجابة، فأردُّ دون التخطيط المسبق على الأسئلة، وحسب تسلسل الأسئلة المطروحة حتى دون تدقيق إجاباتي وحذف ما لا يلائم، وما لا يصلح الإجابة عليه..
امتنعتُ عن تلبية طلب الموظفة بالدوام في مثل هذه المدارس مفضَّلةً البقاء في بيتي.
- في هذه الحالة يتوجب عليكِ إذًا التردُّد على منظمة اجتماعية، أو ما شابه تعنى بمَنْ تعرَّضوا لمثل هذه الحوادث... قالتْ الموظفة، وهي سيِّدة في نهاية الأربعينيات من عمرها تنحدرُّ من أصول آسيوية، احتفظتْ برَّشاقة لافتة للنظر وأناقة طاغية، تتحلَّى بأخلاق دمثة

وهدوء مميزين، لفتني إليها وعدا عن كل هذه المقومات تعاطفها مع حالتي، وشعورها بشعوري وكأيّ أُمّ في مكاني.

توجَّهتُ مع حنان إلى (وول-مارت)، وهو عبارة عن مركز للتسوق منتشر في أكثر المدن الأمريكية، وإن أكثر مُرتاديه من العراقيين، والسبب هو أسعاره المنخفضة، كما أنه يحوي جُلَّ المتطلبات الأساسية واللازمة لبدء الحياة لأيَّة عائلة، تعددتْ زياراتنا له لتجهيز الشقة بما هو مطلوب من أغطية وشراشف، وسادات، وكل مستلزمات المطبخ.

لم يمضِ على وجودنا أكثر من شهر بدأنا نشعر بالاستقرار، حصلنا خلالها على الرقم الوطني، وحقّ ممارسة العمل، وحتى رخصة قيادة السيارة مع الاختلاف الكبير فيما اعتدنا عليه في القيادة من حيث القوانين وحتى تخطيط وتقسيم الشوارع، وقد تمرَّنا على يد سائقة محترِّفة تعرِّف شِعاب مدينة الكاهون (وهو اسم المدينة الصغيرة التي نقطنها) - وأهل مكة أعرَّف بشعابها - هذه السيدة المتمرِّسة في قيادة السيارات والحاصلة على رخصة السوق منذ شهرين.. إنها حنان.. فالقانون هنا هو سيِّد الموقف شأنه شأن كل الدول المتقدَّمة، فبعد نجاحنا في المرحلة الأولى، وهي مرحلة الإجابة على الورق عن الأسئلة التي تتعلَّق بالقوانين المرورية السارية هنا، وهذا يسمح لنا بالسوق بمعيَّة شخص حاصل على الرُّخصة لحين اجتيازنا لامتحان القيادة خلف المقود، ولم يكن هذا الشخص الحاصل على رُّخصة القيادة غير أختي حنان، وبما أنها لم يسبق لها القيادة لا في بغداد ولا في عمان، أخذتْ تتهكم علينا وتسخر من الأيام التي جعلتْ

منها مدرِّبة لأشخاص مارسوا القيادة منذ سنين طويلة.. كانتْ تقول دائمًا: (والله زمان.. أنا مَنْ أُدرِّب لميس) كانتْ تقوم بإنهاء كل مشاويرنا، لنستغني عن خدماتها بعد أقل من شهر بحصولنا على الرُّخصة.. لم يدُرْ بخلدي أن أحصُّل على حقوق أيّ مواطن أمريكي في ظرف شهر واحد فقط عدا حقٍّ واحد هو التصويت في الانتخابات الرئاسية.

أتممنا عملية تسجيل زين بمدرسة ثانوية مع احتفاظه بنفس المرحلة الدراسية دون خسارة لأيِّ صف، بل وحتى دون أيّ اختبار، المهم عندهم هو المرحلة العمرية فقط، فعمره كفيل بوضعه مع أقرانه من الطلاب ولكن بصف مخصص للطلاب غير الناطقين باللغة الإنجليزية كلغة أولى، لم يطلب منا الكثير من المستمسكات المصدَّقة وغير المصدَّقة؛ لإثبات ما ندعي من معلومات، سارتْ الأمور على أساس الثقة المتبادلة بين أولياء الأمور وإدارة المدرسة فكلمة التكذيب غير دارجة في قاموسهم!، وهذا سهَّل علينا البداية وحتى النهاية.

إن الجو جميل جدًا ومعتدل صيفًا وشتاءً في مدينة سانديجو جعلَّ منها قِبلة السُّواح والمتقاعدين الذين يفضِّلون قضاء باقي عمرهم بها، وجود السواحل الخلابة وما حبا الله هذه السواحل من مناظر ساحرة، فالجبال والسهول والماء وكلُّ النِعَّم الطبيعية ناهيك عن النِعَّم الآدمية، بديع خلق الله وبديع صنع الإنسان جعلتْ منها ملاذًا ناجعًا.

هذه الراحة وسهولة كل سُّبل الحياة أتتْ أُكلها... عمرَّتْ القلوب بالسعادة والارتياح.. انبثقتْ هذه السعادة من الأعماق لتطفو وتبدو

واضحة على وجه سكانها، كنتُ أستغرِّب وأنا أسير راجلةً أحيانًا ومستقلة لدراجة هوائية أحيانًا أخرى من البيت وإلى أسواق عربية صغيرة نوعًا ما تقع في نهاية الشارع، فيبتسم ويؤدي التحيَّة كل مَنْ مرَّ بقربي، نساءً ورجالًا، أطفالًا وصبيانًا.. يبدون في أحيانًا كثيرة إعجابهم بملبسي بل وحتى طريقة حجابي، تلك الابتسامة التي تملأني أمان وركون إلى دماثة خُلقهم مع كل ما اختزن من انطباعات جاهزة ومعلبة معَّدة مسبقًا وبإتقان لتملأني خوفًا ووجلًا من هذا الشعب،، انطباعات تضافرتْ الجهود لرَّسمها وترسيخها بعقولنا، أفلام الجريمة وما يحدث في محطات قطارات الأنفاق من عنف، لمستهم الموجودة وبوضوح في كل حرب جرَّتْ في أنحاء العالم، أيادي ترتجف بشدَّة مسبَّبة حركة لا إرادية بلحية صاحبها، كلمات وعبارات نارية تنطلق كانطلاق الصاروخ من بين حنك مشايخ يطلُّون علينا يوميًا عبر الفضائيات دون أن نعرِّف لهم أصل ولا فصل في عالم الفقه والبلاغة، دافعهم في ذلك هو ملء الفرَّاغات بأيِّ كلام لتمضية الساعات الأربع والعشرين من برنامج هذه الفضائية أو تلك.

بددوا بتحيَّتهم البسيطة والتي لا تتعدَّى كلمة واحدة هي (هاي) كل مخاوفي وبدلوا لي كل انطباعاتي، حتى أنهم ساعدوا على تفرِّيغ الشحنات السالبة وتسرَّبتْ إلى الأرض وكأني جهاز ربط إلى ما يسمى(الإرث أو الأرضي) هذا استنادًا إلى مصطلحات الكهربائية المستقرة... حدث معي ذلك في وقت كنتُ فيه متشحة بالسواد من رأسي حتى أخمص قدمي مرتدية ملابس الحداد حزنًا على فقدان

والدي الغالي رحمه الله عندما كنتُ لا أزال في عمان.. آه عمان فقدتُ عندكِ أحبائي.. لم أهنأ بليلة نوم واحدة من لياليكِ.. كل فواجعي حدثتْ وأنا في عمان.. ما أحبتني ولا أحبَّبتها.

تآلفنا مع الوجوه المارَّة بنا طوال اليوم، تآلفنا مع الابتسامة والتحيَّة حتى أصبحتْ الابتسامة تُرسم على وجوهنا تلقائيًا، دبتْ في أرواحنا الراحة النفسية رويدًا رويدًا، تبدلتْ قناعاتي عن الابتعاد والغربة، بعدما كنتُ أخالها نوعًا من العقاب بمعنى أصح نوع من أنواع النفي القسري، وبعد تربتي القصيرة بتُّ أعتبرها رحلة مشوقة مدعاة للراحة والاستجمام وابتعادًا عن محيط القلق والمشاكل.

أسماء باللغة الإنجليزية لمحلات زينتْ واجهاتها بإعلانات كُتبتْ باللغة العربية... يتوفر لدينا قيمر عراقي كل صباح... كاهي حار... طرشي النجف... سمك مسكَوف...... مجوهرات الكرادة... وغيرها الكثير لا حصر لها رجل مطأطئ الرأس تطقطق بيده حبات مسبحة طويلة يلفها حول سبابة يده وخنصرها، سيكارة تحول نصف طولها إلى رماد منحي يكاد أن يسقط لكنه لا يسقط،، شاب يرتدي الفانيلا والشورت، يشحط بقدميه الأرض محدِّثًا صوتًا بنعله المفتوح وأصابع قدمه تنفرُّ من نعله نحو الأرض، يزين أذنًا واحدة قرط كبير، كلها في مجموعها تقليد لزي أمريكي دارج غير أنه عراقي بما لا يقبل الشك،، هؤلاء هم سكان مدينة الكاهون، كل هذه الملامح جعلتْ من الشعور بالغربة كلام للتداول فقط.

رنَّ الهاتف الخلوي العائلي... فارتفاع فاتورة الهاتف الخلوي جعلتنا نقتصر على شراء هاتف واحد يمكننا التواصل مع محيطنا وبأقل

كلفة.. رد عادل على الهاتف بكلمات إنجليزية في ثقة عالية تميزه عنا ولذلك كان هو الوحيد الذي له الشجاعة الكافية ليرُّد، أما أنا وزين كنا وبمجرَّد سماعنا لرنَّة الهاتف وعلى الرغم من معرِّفتنا غير القليلة باللغة إلا أن التخوُّف من عدم فهم لغة مَنْ على الطرف الثاني من الخط يجعلنا نقذف بالهاتف صوب عادل مباشرة.. بعدما رد عادل ناولني الهاتف فإن المكالمة لي..

- لا تقلقي فإن المتحدَّثة عراقية... طمأنني عادل بهذه الكلمات..

- آلو.. تلفظتها وكلي ثقة بنفسي.. تفضلي..

- أود التكلُّم مع السيدة لميس..

- أنا هي.. تفضلي..

- أنا مترجمة عراقية لدى منظمة (أحياء المعذبين) أتكلَّم معكِ بتكليف من سيَّدة تدعى ليز.. تودُّ مساعدتكِ للخرُّوج من أزمتكِ بعد أن عرِّفتْ بها من خلال منظمة (الكاثوليك جارتي)، وترغب في التحدُّث معكِ.

- وما المطلوب منِّي الآن.. أجبتها ببرُّود وبصورة رسمية... فليستْ بي أيَّة رغبة لذلك؛ قلتُ مع نفسي، أنا أستطيع سماع صوت السيَّدة الأمريكية تحدِّث المترجمة..

- تطلب منكِ الحضور إلى مكتبهم..

- بصراحة شديدة أنا غير مستعدة للكلام عن قصتي... كفاني كلامًا.. أنا أحاول جاهدةً الابتعاد عنه.

- هي مقدرة ذلك تمامًا وسوف لن تجبركِ على التكلُّم ما دمتِ رافضة ذلك... تنصتُ إلى كلامي لتعاود ترجمته إلى السيَّدة الأمريكية.

- إذًا ما المغزى من حضوري؟ أسكت أنا لأسمع ترجمتها، والحقُّ يقال كانتْ تُترجم بكل دقة وتنقل كل كلمة وبنفس الروح.
- هدفهم المساعدة والمساعدة فقط في كل شيء تحتاجينه هنا.
- إذا تعهدتِ لي بعدم زجِّي للتحدُّث عن قصتي، فيمكن لي التفكير في الحضور.
- هي تتعهد.
- وأين يقع مكتبهم؟.
- يقع في المدينة القديمة وعلى بعد خمس وعشرين دقيقة تقريبًا عن الكاهون.
- ياه... إنه بعيد جدًا ولا يتسنَّى لي القيادة كل هذه المسافة، فأنا لا أزال أجهل الوصول إلى أيِّ مكان خارج حدود الكاهون.
- لابأس ستحضر هي إليكِ وتقلُّكِ إلى مكتبهم في الموعد الذي يلائمك.
حثني عادل على قبول العرض..
حُدد موعد لمجيئها بعد أن طلبتْ العنوان.

أنهيتُ المكالمة وأخذتُ أدور حول محوري بحركات رتيبة معلِّنة عن ضجري ونفاذ صبري.. أصبحتُ مادة للتداول!.. أم حالة للدراسة..؟! أم مضربًا للأمثال...؟! إنها معاناتي أنا، لِمَ علي أن أخبر بها كل مَنْ حولي؟... حسنًا أنا أنا أعرِّف أنهم هم مَنْ قاموا بإحضارنا والعمل على سفرنا... هم مَنْ يمدوننا بمساعدات ومعونات لا تكاد تغطي بدل الإيجار!..... أنا أعرِّف تمامًا أن كل مَنْ حولنا مِن العراقيين ينتظم بدوام معيَّن، بمدرسة لغة أو كليَّة، القليل مَنْ حالفه الحظ في الحصول

على عمل حتى وإن لم يكن يرقى لمستوى الطموح.. بينما أنا الوحيدة مَنْ أُمضي يومي مقسمًا بين القليل من الشغل المنزلي والقليل من الوقت في إعداد الطعام، والكثير من البكاء واستذكار واجترار مأساتي.. غير أني غير قادرة بل عاجزة عن التأقلُّم مع حياة يغيب عنها حسان... لِمَ لا يفهموني.

أصبحنا أنا وعادل جاهزين قبل حلول الموعد المتفق عليه مع الشخص الذي سيأتي ليقلنا إلى منظمة (السرفايفر)، وهي منظمة أحياء المعذبين.. كنا نحتسي قهوة الصباح عندما رنَّ جرس باب الشقة عند الموعد المحدد بالضبط، لم أتبيَّن مَنْ وراء الباب المفتوح، هرولتُ إلى المطبخ لأنظف فناجين القهوة وأُعيدها إلى مكانها لأشعر بالراحة عند عودتي، عندما يكون كل شيء في محله ولا وجود لما أُطلق عليه الفوضى في مطبخي، هتف بي عادل للإسراع فإن الشخص بالانتظار خلف مقوده اتجهتُ بتثاقل والهمُّ يسيطر علي، اتخذتُ مقعدي بجانب مَنْ يقود السيارة ليحتلَّ عادل المقعد الخلفي، فمَنْ خلف المقود شابة لطيفة، ممتلئة نشاطًا وحيوية، حركتها السريعة في كل شيء تنمُّ عن اندفاعها بعملها، ابتسامتها تنمُّ عن شخصية اجتماعية، كلماتها تتزاحم في فمها، تتحدَّث بسرعة بالتزامن مع حركة يدها ممسكة بالمقود، سارتْ بنا في طريق المرور السريع رقم (٨)، وهو أكثر الطرق استخدامًا من منطقتنا صوب الشمال، تعمل على تغيير ممر مشيها باتجاه اليسار؛ لتتفادى زحمة المرور في مثل هذا الوقت من النهار، ولم تتوقف عن الكلام لتعطينا نبذة عن أهداف المنظمة وبالطبع عادل هو مَنْ يتواصل معها، أما أنا ملتزمة

الصمت مكتفية ببعض الابتسامات التي أرسمها حين يسعفني الحظ وأفهم القليل مما تقول، أستطيع أن أُميز أُصولها الأوروبية من لون شعرها الأشقر المتموج التي تركته ينساب على كتفها، بياض بشرتها وكل ملامحها، إن الأصول المكسيكية هي الأصول السائدة في مدينتنا والسبب يعود لقرب المدينة من الحدود مع المكسيك، تصرَّفتْ معي ومنذ البداية على أننا صديقتان فبددتْ بعض من هواجسي، واستطاعتْ أن تتغلب على ما استشفته توترًا تمكن من التسلُّط علي.. أجلستنا في غرفة من غرَّف المكتب المتواضع، وهو عبارة عن شقة في الطابق الثاني من بناية ليستْ بالكبيرة، الغرفة تتوسط المكتب وتحتلُّ قلبه، فباقي الغرَّف كلها صغيرة تحوي مكتبًا وكرسيًا يشغله موظف، استأذن للدخول علينا شابة صغيرة لا تحتاج مع ملامحها إلى الاستنجاد بالفرَّاسة العربية؛ لتتأكد من أنها عراقية حتى قبل أن تتفوَّه بأيَّة كلمة، عرَّفتْ نفسها على أنها هي مَنْ ترجمتْ المكالمة التي دارتْ بيننا قبل أسبوع..

تجاذب عادل معها الحديث؛ ليصل إلى معلومة مفادها أنها كانتْ طالبة في الهندسة المعمارية في جامعة بغداد قبل أن تجبرها الظروف على التخلِّي عن مستقبلها العلمي، وقد استفادتْ من لغتها الإنجليزية الجيدة لتحصل على عملها كمترجمة، أطلَّتْ علينا (ليز) حاملة في يدها قدح القهوة الأمريكية، وهو بمثابة استكان الشاي عندنا، فهو مرافق لهم ليل نهار، حتى في سياراتهم فقد أُفرِّد مكانًا مخصصًا قرب المقود؛ ليحتضن القدح بكل أمان.. مع رشفات القهوة أخذتْ تملي استمارة مطبوعة أمامها.. اسمي، عنواني، عمري،

حالتي الاجتماعية إلى غير ذلك من معلومات أولية.. شعرتُ بها وهي تحاول دفعي للكلام عن قصتي بتوجُّس وحذر.. شهرتُ سلاحي بوجهها!... ومن أين لي غيره إنه البكاء والدموع، ذكَّرتها بوعدها لي، أكَّدتْ احترامها لوعدها غير أن ما مدون في الاستمارة من أسئلة، أجبرتها وأجبرتني على سبر أغوار منطقة.. معتمة في نفسي، جرَّتْ مقابلة قاسية مثلما توقَّعتها مسبقًا!.. فكيف لها مساعدتي وهي تجهل ما ألمَّ بي، آزرتْ دموعها دموعي... حتى فاضتْ كل عين تواجدتْ في الغرفة... فمن أين لبشر الصمود مع هذه التفاصيل المؤلمة.. طبطبتْ على كتفي، عانقتني بحرارة لتذبَّ عني، حاولتْ بصدق دمل ما فتحتْ من جراحاتي، وهنا فقط تعهدتْ لتلزم طي هذه الصفحة!.. وفعلتْ.. ولحد يومنا هذا إلى حين أحتاج أنا إلى الكلام عندما تكون حالتي النفسية متأزمة، عندها أذهب أنا وبمحض إرادتي لما ألاقيه من ترحاب وتفهُّم لوضعي، أشعر بوجود صدر رحب على استعداد لسماعي، ينصت لي ولا يقاطع لحين توقفي عن الكلام، وهذه القابلية على الاستماع يتمتع بها كل أفراد المنظمة.

التوجُّه إلى الطبيب لشعورك بأيِّ عارض مرضي هنا في أمريكا، بعيد عن ما ألفناه في بلدنا.. لكي تقابل طبيبًا يجب عليك أولًا أخذ موعد وهذا شيء طبيعي، غير أن ما هو غير طبيعي انتظارك لعدة أسابيع؛ ليتسنَّى لك عرض حالتك على طبيب العائلة أولًا؛ ليقدر هو بنفسه إن كانتْ حالتك تستدعي تحويلك إلى الطبيب المختص أم لا، لقد نصحنا بعض الأصدقاء باختيار طبيب عائلة معيَّن، هو مقصد كل العراقيين لكونه يتحدَّث اللغة العربية مما يسهل التعامل معه، إنه

طبيب أمريكي الجنسية عراقي المولد، فالتعامل معه سهل يسير، تستطيع أن تشرح الأعراض المرضية التي تلمُّ بك دون الحاجة إلى اللجوء إلى القاموس للاطلاع على أسماء الأجهزة الداخلية في الجسم وبعض المسميات، مثل: السُّعال والحكة أو التشنُّج العضلي وغيرها كثير، عدا ذلك كل شيء مزعج وصعب!... فإن كان الموعد عند الساعة الحادية عشرة صباحًا، فإنك تعمل على ترويض نفسك والتحلِّي بالصبر، فمن الطبيعي جدًا أن ترى الطبيب عند الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، وفوق كل ذلك عليك أن تتعلَّم الركض وراءه لاهثًا، وهو يتنقل عبر ممرَّات العيادة مستلمًا لمكالمة هاتفية تارةً ومتحدِّثًا إلى السكرتيرة تارةً أخرى!.

توجَّهتُ إلى ذلك الطبيب بعدما اشتدتْ علي آلام الانزلاق الغضروفي أسفل الظهر أثناء وجودي في بغداد قبل حوالي ثلاث سنوات، حصلتُ بإعجوبة على كرسي في غرفة الانتظار يساعدني على تحمل الانتظار الطويل... لم يكن لي الخيرة في انتقاء مكان تواجد الكرسي!... فأنا أحبذ الجلوس بمنأى عن المتواجدين وخاصة النساء منهم؛ لأن جلوسي بجانب أيّ امرأة يعني الدخول بمتاهة لها أول وليس لها آخر... سيل الأسئلة الذي ينهمر عليَّ مع اضطراري للجواب، الحديث عن آخر مستجدات الساحة السياسية في العراق وأخبار المفخخات والخطف.. الوضع هنا وأخبار المساعدات المالية، وهل هي مستمرة أم توقفتْ...؟ المقارنة بين كمية المساعدات هنا وكميتها في البلدان الأوروبية!... رميتُ بجسمي وآلامي على الكرسي وأنا متهيئة تمامًا لِجَرِّي إلى الحديث سالف الذكر، فإن مَنْ

يشغل المقعد المجاور لي امرأة.. معلِّلة نفسي وداعية من الخالق أن تكون ممن ترغب في الصمت مثلي!، وما إن استقر جسمي على المقعد وحتى قبل أن أعتدل في جلستي بادرتني والملل يملأ نفسها..
- الانتظار هنا مصيبة تضاف إلى مصائبنا...
قالتْ حتى دون أن تلتفتُ إليَّ، نافثةً زفيرًا طويلًا تكدس بصدرها:
- إنه مدخل جيد وسريع لما تروم التحدُّث به... قلتُ مع نفسي متململة.

تعددتْ مرَّات انتظاري هنا... أردفتْ قبل أن تعطني الفرصة لأُعقب على مداخلتها الأولى، فهي ليستْ في حاجة لتعقيب أو لتسمع الرأي الآخر، المهم عندها التحدُّث واستعراض ما بها والسلام..
- لا غنى لأيٍّ منا عن الطبيب... أخيرًا وجدتُ ما أقول لها:
- أكيد.. خاصة لمَنْ في مثل وضعي الصحي... سكتتْ برهة متوقعة أن أسألها عن وضعها، إلا أن الشيء الذي تجهله هو توجيه كلامها لمثلي... لم يصدر عني أيّ تعقيب، اكتفيتُ بهزة صغيرة برأسي.
- عبثًا راجعتُ الكثير من الأطباء على أن يشخصوا مرضي.. أومأتْ برأسها بارمة شفتها السفلى لتتدلى على حنكها علامة على اليأس.
- كان الله بالعون... اكتفيتُ بهذه الكلمات علَّها تكتشف وتحلِّل نفسية جليستها.
- كم مضى على وجودكِ في أمريكا..؟ دارتْ كفة الكلام إلى ناحية أخرى؛ ليكون الكلام بها أوسع وأشمل.
- تقريبًا أربعة أشهر... رسمتُ ابتسامة جامدة وقصيرة على وجهي.
- أووو.. أنت جديدة إذًا!... أجابتْ يملأها الزهو.

- نعم، أجبتُ...
- أنا هنا منذ عشرة أعوام أو أكثر بقليل، أعيش هنا في أمريكا.. (وكأنني أجهل أين نحن الآن؟)... أمريكا الحلم ولتحقيق هذا الحلم دفعتُ الكثير.. دفعته من مالي والأهم من صحتي، فالمال يعوَّض إلا أن الصحة لا تعوَّض... ليكن ما يكن..
- قلتُ مع نفسي:. سوف لن أعطيك فرصة الاسترسال بالحديث، فأنا غير مستعدة للسماع، كنتُ مصرَّة على موقفي، اكتفيتُ بإشارة صغيرة برمشي، بأني سمعتُ ما قالتْ..
- أنا لم أصل عن طريق (اليوان)... أما أنتِ فمن المؤكَّد جئتِ عن طريقهم، أنتِ من المحظوظين... فهناك مَنْ قام بالنيابة عنكم في متابعة قضيتكم، أنتم مُنحتم حق اللجوء حتى قبل أن تصلوا...
ومع إصراري على عدم الجواب، التفتتْ إلي وقالتْ: أصحيح ما أقول...؟"، فهنا يجب علي المداخلة والجواب على الأقل بكلمة...
- نعم، هذا صحيح...
- أما نحن!... التفتتْ إلي بكل جسمها.. بل استدارتْ بمقعدها لتكون بمواجهتي، فإن الحديث سيطول... قررنا أنا وزوجي مغادرة العراق في أواخر التسعينيات، إن تدهور الأوضاع الاقتصادية والخدمية بل وحتى الأمنية دفعتنا لاتخاذ هذا القرار فلم نستطع صبرًا على ذلك.. أخي الشاب قد أُعدم لمجرَّد إلقاءه لنكتة سياسية وفي حضور بعض من زملائه في الوزارة.. مدَّتْ يدها في حقيبتها بحركة عصبية مسرحية استعراضية، فأخذتْ منديلًا ورقيًا لتمسح دموعًا لم تنزل بعد!... وعلى إثر هذا المصاب فُصل زوجي من عمله بعد أشهر،

عمله الذي أحب وأخلص له طوال عشرين سنة.. حتى دون حساب لراتب تقاعدي أو مكافأة نهاية الخدمة، كل مكالماتنا الهاتفية رُوقبتْ... كنا نشعر أنَّا مراقبون، قررنا إنهاء هذه المعاناة وترك البلد تحت أيِّ ظرف وبأيِّ ثمن، قمنا ببيع ما في حوزتنا وتحويليها إلى نقد نسلِّمه إلى شخص يتولى مهمَّة تهريبنا عن طريق المنطقة الشمالية ومنها إلى تركيا ومن هناك إلى اليونان؛ لنتمكن بعدها من الولوج بطريقة ما إلى هنا، عملنا على ذلك لأشهر طويلة حتى جاء اليوم الموعود..

ليلاحظ قارئي العزيز كم التفاصيل وطول الكلام الذي قُدر لي أن أستمع له عنوة وبهزة رأس بسيطة مجاملة لمحدثتي...

- كنا حوالي خمس عوائل.. استرسلتْ جليستي بكلام والذكريات تقفز أمام عينيها.. اجتمعنا عن طريق نفس الشخص الذي وهبنا له أموالنا وأعمارنا ومصائرنا وبمحض إرادتنا حتى دون التأكُّد من صدقه أو من عدمه... قضينا أيامًا وليالٍ نقطع مسافات خيالية ونعبر طرقًا جبلية وعرَّة، كنا ننام في النهار لنمشي في الليل تحاشيًا لرصد سلطات وقوات الحدود، وبعد انقضاء حوالي عشرة أيام، سكتتْ لبرهة محاولة التذكر وقالتْ: "لم أعد متذكرة للتفاصيل"...

كل هذه التفاصيل وهي غير قادرة على التذكر! مصائب قوم عند قوم فوائد.. شكرًا لله على فقدها لجزء من ذاكرتها...

بينما نحن نسير عبر الأراضي التركية، وبداخلنا فرحة عارمة لتخطينا الحدود العراقية.. إننا الآن أحرار من قبضة رجال وجلاوزة (القائد الضرورة) هذه المعاناة والإعياء لقلة النوم لم تستطع التعتيم

على فرحتنا بخلاصنا..!.. بدأ كل شيء بالنفاذ الطعام المعَّد مسبقًا، الماء، القابلية على التحمُّل، وأهم من هذا كله الصبر.. أخذ اليأس يتسلَّل لنفوسنا عنوة من المصير المجهول الذي ينتظرنا... أثناء مسيرنا الليلي المعتاد، وكنتُ أحمل طفلي ذي العامين على كتفي، صرخ الشخص المسئول عن رحلتنا: التزموا الهدوء والسكينة... ليختبئ الجميع في مكان بعيدًا عن الأنظار!... هناك دورية ليلية، هيا... حتى دون أن نسأل أنفسنا تُرى إلى أين نتوجَّه؟، فنحن نجهل تمامًا طبيعة الأرض التي نطأها، إنها جبلية نعم، ولكن وماذا بعد؟! رميتُ بنفسي حاملة طفلي إلى حيث لا أدري، أستقر.. جسمي بمكان وهذا أهم ما في الموضوع، الظلام يلفني إذ لا أكاد أرى بصيص ضوء يهديني إلى أطرافي أو حتى علاقة ولدي مع جسمي المهم أنه لصيق بي، لازمتْ ولدي نوبة سُّعال متصلة، وأنا أُحاول جاهدة التكتم عليها بأيِّ وسيلة!... والدليل يهمس بصرخة مكبوتة: اكبتيه وإلا السجن مصيرنا بالإجماع... كنتُ أسمع همس الدليل بعيدًا عني... أُناشدك بالله.. كيف لي أن أُسكت سُّعال طفل صغير مصاب بالتهاب القصبات على أقل تقدير...

- ومَنْ الذي شخَّص لكِ حالة ابنك...؟ أخيرًا تفاعلتُ مع الموضوع وخرجتُ عن صمتي لأسأل سؤالًا أقل ما يقال عنه أنه غبي، لكني أردتُ الانسجام مع كلامها فحسب...

- لا يحتاج الأمر إلى عبقرية!... أجابتْ باستهجان!.. إنه طفل صغير يتعرَّض لكل ما تعرَّض، والبرد قارس، والراحة معدومة!، وبعد كل هذا تسألين هذا السؤال...!

جاء جوابها كصفعة أستحقها لا محالة...

ـ مرَّت ساعتان أو أكثر حتى لاحتْ خيوط الفجر؛ لتكشف عن ظلمة لفَّتنا طويلًا وأطول من حقيقتها، حاولتُ النهوض لأتبيَّن الموقف من حولي لأعرِّف مصير مَنْ هم معي زوجي وبقية المجموعة، شعرتُ ولأول مرَّة منذ عدَّة ساعات من الاستقرار في مكاني، من أن شيئًا يهتز تحتي!.. قدمي اليمنى تلامس شيئًا ثابتًا.. أكيد إنها أرض صلبة، رجلي اليسرى تتدلى... ما الذي يقبع تحتها؟ لا أكاد أعرِّف، انتبهتُ إلى صوت زوجي وهو يناديني، عرِّفتُ من خلال صوته أنه في مكان أعلى من مكاني... وصلتُ إلي أصوات بقية المجموعة. مذعورة: أنا في مكان عميق.. في هوَّة سحيقة!، أو ممكن أن يكون خوفي هو مَنْ هوَّل لي الموقف والموقع، ولدي الصغير يغط في نوم عميق لم ينعم به منذ بدأ الرحلة!... رفعتُ رأسي صوب الأصوات!... الكل يحاول أن يمدَّ يده لينتشلني من مكاني، تطابقتْ الصورة في ذهني وعيني لأول مرَّة لأرى أني أجلس على غصن شجرة تنمو من وادي في اتجاه الجبل!... امتدَّ هذا الغصن ليصل سفح الجبل!... إن نصفي الأيمن مستقر على هذا الغصن الكبير... أما نصفي الأيسر فيتدلى في اتجاه الوادي...

ـ يا الله... يا الله.. ما هذا... ؟ إنها حقًّا معاناة، إنه موقف لا يمرُّ علينا سوى بالأفلام فقط... أخيرًا بدأتُ أتفاعل معها...

ـ أدركتُ حينها بأن لُطف الله أحاطني وولدي... أكملتْ وهي مفتخرة لا لأنها استطاعتْ أن تصمد؛ ولكنها فازتْ بجذب انتباهي وتفاعلي مع قصتها...

- وكيف تمكنتم من حلِّ معضلة نقص الماء والطعام؟ سألتها بكل جدية هذه المرَّة...

- اضطررنا لشرب ما هو متوفر من الماء... شرِّبنا من برَّك الماء الاسن ومن السواقي!... أما شهيتنا إلى الطعام فقد انعدمتْ مع هذه الظروف.

- وما هي أخبار مَنْ معكِ من العوائل ؟، وهل كان معكم أطفال غير طفلكِ حماه الله؟...

- سؤالكِ هذا قد أنعش ذاكرتي... إنها أكبر مأساة مرَّت بحياتي بل بحياة أيّ إنسان...

- (آاه، جنتْ على نفسها براقش... مالي أنا ومال بقية المجموعة... أكيد أنها ستسرِّد لي فيلمًا آخر، شعرتُ بندم ولكن بعد فوات الأوان)..

- رافقتنا عائلة متكوِّنة من أُم شابة صغيرة لا تتعدَّى العشرينيات من عمرها وأب في نفس عمرها أو أكبر بقليل ومعهما طفل لم يتعدَ السنة الأولى، كانتْ قد رُزقتْ به بعد انتظار وصبر وعلاج دام لثلاث سنوات!، اضطرا إلى الهروب بعد أن أُصدرتْ قرارات إعدام بحقِّ كل أفراد عائلة الزوج، لاتهامهم بمعادة النظام والعمل ضده، حدث هذا أثناء تواجدهم في سوريا، وهذا هو طوق النجاة بالنسبة لهما فقد حزم الزوج أمره بعدم العودة إلى العراق حيث ينتظره نفس المصير، وبذلك تمَّ التنسيق للهجرة عن طريق أحد الأقارب؛ لينتهي بهما الأمر يسيرون معنا وفي نفس الطريق وبنفس المعاناة، الهدوء والحياء والصوت الرخيم هما صفات لهذه الشابة، قليلة الكلام، نادرًا

ما كانتْ تشاركنا الكلام، حتى أنها لم تتأوه... غير أن المعاناة المشتركة والمصير المجهول الواحد وإصراري على تجاذب الحديث معًا، خرجتْ أخيرًا من عزلتها وطلاق صمتها بالثلاث... تعرَّض طفلها لنزلة برد شديدة مثلما تعرَّض الجميع، لم تنفع معه المضادات الحيوية، وشراب للتخفيف من السُّعال، فالبرد قارس، لا مكان يؤينا ليلًا ولا نهارًا، فِراشنا حجارة الجبال، غطاؤنا لا يتعدَّى ما نرتديه، الخوف حليفنا، والبرد نحمله في عظامنا لا يتخلَّى عنا ولا نتخلَّى عنه!، أخذتْ حالة الطفل بالتردي، ارتفعتْ درجة حرارة جسمه بشكل لا يحتاج معه التأكُّد عبر مقياس للحرارة!، اشتدتْ حمرة وجهه، اختفى صوته مع حشرجة سُّعاله الذي لم يهدأ، انطفأ بريق عينيه الجميلتين، لم نعد مع هذا المنظر قادرين على النظر إليه.

عندما وصلتْ جليستي إلى هذه المرحلة بوصف الطفل استطعتُ أن أُخمن نهاية القصة!... أردتُ أن أوقفها عند هذا الحد؛ لأني بدأتُ أشعر بغثيان ومرارة في حلقي، ألمٌ في رأسي نسيتُ معه ألم ظهري والذي من أجله أنا هنا الآن في عيادة الطبيب؛ ليسوقني قدري فأستمع مكرَّهة إلى هذه التفاصيل... إلا أن ما قرأته في عيون جليستي من انفعال جعلني أعدل عن فكرة قطعي لكلامها...
- أردنا مساعدة الأم الشابة بما نستطيع... استرسلتْ جليستي غير آبهة إلى مَنْ حولنا من المراجعين اللذين بدأوا ينصتون لها أيضًا فهي لاهيَّة عن المكان والزمان... حاولنا دعمها بما تبقى في حوزتنا من أدوية حتى أننا نجهل صلاحية هذه الأدوية لطفل في عمره... الرجال تخلُّوا عما يقي هذا الطفل المسكين من البرد، كاللفحات الصوفية إلى

غير ذلك علَّها تمنع لسعات البرد من الولوج إلى الجسد الصغير تفاديًا لوقوع المحظور والذي يلقي بظلاله على المجموعة ككل... غير أنه وقع!!...فقد لفظَّ الطفل أنفاسه الأخيرة وهو في حجر أمه!... إنها لم تشعر بما حدث!... لصغر سنها أو لقلة تجربتها، فهي لم تعي إشارات الموت التي كستْ طفلها!!... تأكَّد لدى الرجال أن الطفل ودع الحياة، والتي كان نصيبه منها سوى عدَّة أشهر، لم يتجرَّأ أحد منا بتأكيد هذه النهاية المأساوية للوالدين، انتبذ زوجي بعيدًا وبأقصى ما يستطيع ضمن دائرة تواجدنا ليختلِّي بوالده فيطلعه على الحقيقة، صمتنا، الوجوم لفنا، تركَّزتْ أنظارنا على ذلك المنظر، منظر أُمّ تحتضن وليدها، تنكبُّ عليه مانعة الهواء البارد من الوصول إليه، بينما ذلك الهواء يعبث بخصل شعرها، وهي تبتعد بأفكارها ونظرها بعيدًا، شاردة تمامًا... أكانتْ مستوعبة لما يجري أم أنها في انتظار ما جرَّى فعلًا...؟!عاد الأب الشاب بتجربته القصيرة في معنى الأبوة، يحاول أخذ الطفل من بين يدي أمه؛ ليهون عليها الخبر عندما يطلعها على المصيبة التي حلَّتْ بهما فلم يفلح... انصهرتْ مع ولديها كسبيكة لا يستطيع معها التمييز بين المعدنيين المكوِّنين لها، انكبتْ عليه حتى دون أن تعي سببًا لذلك!... حاولتُ التدخل وقلبي ينفطر ألمًا رغم أني لم أواجه موقفًا كهذا بحياتي، ولكن حزني وتعاطفي مع الوالدين منحني قوة لم أكد أتعرَّف عليها مسبقًا... دعيني أساعدكِ في حمله قليلًا حبيبتي... قلتُ لها حانية... أنا لم أتذمر من حمله أو أشعر بالتعب... أجابتْ باهتة وشاردة.. لكننا جميعًا نتعاون فيما بيننا لنهون على بعضنا البعض مصاعب هذه الرحلة فهي قاسية ومتعبة...

أكملتْ الكلام معها علَّها تستجيب لمطلبي وتتخلَّى عن الوليد وهل تتعب أُمّ من حمل قرة عينيها... أجابتني وهي لم ترفع رأسها حتى هذا أكيد يا عزيزتي، ألم تلاحظي أن جميع الآباء والأمهات يتناوبون على حمل أولادهم، فهذا شيء طبيعي فلكل منا طاقة محدودة على التحمل ولكني غير... أنا أنتظر حملاً صغيرًا لي منذ سنين، وما أن أحمله حتى أعطيه..؟! لا لا أيُعقل ذلك، أبقتْ على طفلها بين أضلعها وكأنها تحاول إعادته إلى أحشائها؛ لتمنع أيدينا من الوصول له... جاءنا صوت الدليل الهادر: لا وقت لنا لنضيعه على هذه العاطفة البليدة، فقد استغرقنا وقتًا طويلًا..! والآن يكفي.. يجب علينا ترك المكان.. هيا.. هيا ليتناوله أحدكم منها.. أو سأضطر للتدخل أنا... الوقت يتسرَّب من بين أيدينا هيا تصرَّف كرجل.. موجهًا كلامه بكل قساوته إلى الأب المسكين... دع السيدات المحيطات بها يحاولن معها بعيدًا عنا.. بينما أقوم بحفر قبر أُواري به جسد ولدي، طلب منه الوالد المسكين مُستجيرًا بالله... قبر...؟! أتقصد فعلًا ما تقول...؟!.. قبر... ؟! أنت تعي ما تطلب!!... رد الدليل بفظاظة ودون أدنى شعور أو تعاطف مع الموقف... أليس كل مَنْ يتوفاه الله يحويه قبر...؟! أجابه الأب...

عَلَتني زفرة وتنهيدة لم أستطع مغالبتها وأنا أسمع كلام جليستي هذا... فلم يحوِ قبر ما جسد حسَّان.. نفرتْ منِّي دمعة أردتُ لها أن تكون الوحيدة... فإن لم أُسيطر عليها فستنتابني نوبة بكاء لا أستطيع معها التوقُّف...

- أكيد.. أكيد والله فلم يسمع أحد هذه القصة منِّي إلا ونزلتْ دموعه!... قالتْ لي على أساس معرفتها برقة قلب الأمهات... وما كاد أن يتلفظ الأب بكلمة القبر إلا والدموع تغلبه وغصَّ صوته بعبرة لم تسمح له بمواصلة الكلام... هذا ينطبق على مَنْ يموت في بلده.. أجابه الدليل... وليس مع مَنْ يتواجد على أراضي بلد آخر وبصورة غير شرعية، فهناك عواقب وخيِّمة بانتظارنا فيما لو عُثر على قبر يحوي رُّفات مجهول، ألم تتصوَّر بأن الشرطة تتعقب أيَّ أثر لملاحقة المهربين أمثالي...؟!... هنا وهنا فقط سمعنا صوت أنين وبكاء مكبوت من الأم الثكلى..! وكأنها أفاقة للتو من نوم عميق، أوكأنَّ جهاز استقبالها عاد ليشتغل في هذه اللحظة بعد تعطُّل عن العمل لمدة ساعة أو تزيد، هرع إليها زوجها وأسند رأسها على كتفه وهي لا تزال ممسكة به لتتداخل أصوات نحيبهما على فلذة كبدهما والذي لم يمهلهما القدر لإيقاد شمعته الأولى... استغليتُ الفرصة وحاولتُ سحب الطفل من بين يدها علَّني أحظى بالطفل للتخفيف عنهما، تناولته وبكل سهولة ودون أيّ عناء بعدما ارتختْ أعصابها وأوصالها بمجرَّد استسلامها للواقع، أو يمكن أن يكون اليأس هو مَنْ عمل عمله بها، أو لعله الإيمان بالله والأقدار التي تلمُّ بكل البشر دون استثناء، ليكن ما يكون السبب فقد حملتُ الجسد الصغير الذي خلا من الروح ليهمد ساكنًا دون حِراك.. لم أتعرَّض لمثل هكذا موقف طول حياتي، وأنا بالذات ضعيفة الأعصاب وكل مَنْ حولي كان ينعتني بالجبانة (أحمل بين يدي جثة) وأيَّة جثة..! جثة طفل صغير لم يخبر الحياة بعد... ليس لذنب اقترفه سوى أنه ولد لأبوين عراقيين

بوقت طاغية العراق.. باغتني الدليل بحركة سريعة ليأخذ منِّي الطفل، سار بعكس اتجاه مسيرنا ولعدة خطوات... اتجه صوب صخرة كبيرة تعلو عن صاحبتها من الصخور، سجى الجسد وبحركة تلقائية ودون تفكير طويل على هذه الصخرة وأقفل راجعًا!... هاجتْ الأم المسكينة مستفسرة عن سبب هذا التصرُّف الغريب، حاولتْ بكل ما تأتى لها من قوة التملُّص من بين يدي زوجها لاستعادة الطفل... لا تجزعي حبيبتي.. قال لها الزوج... إنه وليدنا نحن وليس لأحد غيرنا التصرُّف به.. أنا رادُّه إليكِ لا محالة... إنه وليدكما هذا صحيح.. ولكن ليس من حقِّكما تعرِّيض المجموعة بأسرها لمصير أسود... صرخ الدليل، إنهم أُناس دفعوا مبالغ ليستْ بالقليلة للوصول إلى برِّ الأمان، قال كلماته هذه بهياج واضح... عن أيِّ مصير تتحدَّث؟ سأله رجل من المجموعة... عن المسائلة القانونية التي ستدور في حال العثور على القبر الذي تنوون إقامته له... وما البديل عن ذلك إذًا؟ عاود نفس الرجل الاستفسار الصمت يخيِّم على المكان بصورة عامة وعلى الوالدين بصورة خاصة... سأعمد إلى إخفاء جسده بطريقة أخرى غير مواراته الثرى... وهل توجد طريقة أخرى غير الدفن؟ أكمل الرجل: نعم.. بأن يكون طعامًا للنسور... لم ننطق بكلمة.. ننطق بماذا؟! نحن غير مستوعبين ما نسمع... شعرتُ بدقات قلبي تتسارع، وضغط دمي يرتفع إلى رأسي كما ينفذ الدخان من القاطرة.

استوقفتُ جليستي لأتأكد مما سمعتُ، وأنا أحاول تكذيب أُذني وعقلي:
ـ وهذا ما جرَّى فعلًا؟! وأمام ناظري الأم والأب...؟! أرجوكِ عجلي بإتمام القصة لئلا يُقاطعنا صوت السكرتيرة معلنًا دخول أحدانا إلى

الطبيب، فقد مرَّت أكثر من ساعة ونصف ونحن لم نشعر بانقضاء كل هذا الوقت... طلبتُ منها.

- هوني عليكِ عزيزتي فهذا ما حدث فعلًا... كلنا رجالًا ونساءً، صغيرنا وكبيرنا، تعرَّضنا لصدمة لا يمكن لنا نسيانها ما حيينا...

- ولِمَ لم تتركوا الطفل المسكين يواجه مصيره بمفرده دون التعرُّض لهذا المنظر..؟!، وكيف لكم أن تنسوه بعد ذلك... سألتُ جليستي..

- أردنا هذا فعلًا وخاصة الأبوين... غير أنَّ الدليل أصرَّ على مراقبة ما يجري للتأكُّد من مجيء النسور ومراقبتهم وهم يأتون على وليمتهم إلى الآخر.

- كان الله بعونكم على ما عانيتم حينها وبعدها... وهل تمكن صغارك من نسيان المشهد؟!...

- طبعًا لا، فهم ما يزالون يعانون من الكوابيس حتى يومنا هذا، فلم يغادر ذاكرتهم بعد وهذا شيء متوقع..

- وما هو مصير الأبوين؟ سألتها...

- لقد أصرَّا على عدم مواصلة الطريق، فلم يعد لديهما دافع لمواصلة الطريق... تركانا راجعين حتى دون مطالبة الدليل بإعادة المبلغ.

- وأين اتجها وسط هذه المحنة مع وعورة الطريق والأخطار التي تحفُّ بهما؟

- كيف لي أن أعرِّف؟!.. فقد واصلنا المسير..

- لميس.. أين لميس.. هيَّا أُدخلي إلى الطبيب.

تابعتُ زياراتي لمنظمة السرفايفر كل أسبوعين تقريبًا بناءً على موعد مسبقٍ من طبيبي النفسي، وهم يحيطونني بكل الحنان والتفهُّم والرعاية، يلبُّون ما أحتاج إليه وبطيب خاطر، تركوا لي اختيار ما يلائمنِّي في كل شيء.. اختيار الطبيب النفسي أو المرشدة الاجتماعية.. وقت الحضور إليهم.. السكوت أو الكلام.. بل حتى أنهم قاموا بتغيير طبيب العائلة إلى آخر يتمتع بالنظام ودقة المواعيد، وقد رافقني شخص منهم عند أول زيارة لي لطبيبي الجديد؛ ليساعدني في ملء الاستمارة الطبية، فهي طويلة جدًا وتحوي الكثير من التفاصيل حول الأمراض وتاريخي معها وتاريخ عائلتي الطبي أيضًا.. قام بترجمة الكلام من وإلى الطبيب.

شعرتُ بالارتياح مع الطبيب الجديد، توطدتْ صلتي بهم حتى أن ليز كانتْ تغتنم فرصة وجودها في مدينة الكاهون متابعةً لشأن عراقي آخر، فتأتي لزيارتي وتناول القهوة معي وهي تستمع إلي بكل حب محاولة تطبيق مقترحاتي قدر ما يسمح به النظام الداخلي للمنظمة.

ومن الأشياء التي توفرتْ لي هنا والتي كنتُ أفتقدها حقًّا وأنا في بغداد وحتى في عمان هو دار عبادة، أشعر بالسلام والسكينة وأنا أُؤدي صلاة أو أيّ منسك آخر من مناسك ديني، فقد كان التوجُّه إلى الجامع عملية يحفُّها الخطر بالنسبة لأفراد طائفتنا على الرغم من أنها تشكِّل أغلبية الشعب العراقي، فكانتْ حكرًا على بقية المذاهب بل وبقية الأديان السماوية وحتى غير السماوية، فحتى عبدة الشيطان يمارسون شعائرهم بحرية كبيرة.. الدين هنا هو ممارسة مع ربك ما

دمتَ لا تتعدَّى على حقوق الغيِّر، وما دمتَ تؤدي واجباتك تجاه المجتمع، فأنتَ حرٌّ في عقيدتك.

قررنا أنا وحنان السفر إلى ولاية (نيو چرسي)؛ لزيارة بسمان وزوجته هناك حيث إنه حظيَّ على فرصة عمل هناك قبل وصولنا إلى أمريكا بخمسة عشر يومًا فقط.. قرَّرنا الذهاب بعد أن مضى حوالي عام على تواجدنا في أمريكا... إن ولاية (نيو چرسي) من الولايات الشماليّة، تقع بالقرب من ولاية (نيويورك) وقريبة من الحدود مع كندا، وهي من الولايات الباردة جدًا شتاءً تتساقط عليها الثلوج بغزارة؛ لذلك قررنا السفر إلى هناك صيفًا لأننا لا حِمل لنا بالبرد الشديد، إنها جميلة وتشعرمعها أنك فعلًا في أمريكا على عكس ولاياتنا، فالأبنية الشاهقة وازدحام الشوارع تنقلنا بين الأماكن الجميلة والسواحل بمناظرها الخلابة، ولقربها من ولاية (نيويورك)، فهذا ما سهَّل علينا الذهاب لها لزيارة المعالم المشهورة بها تلك الولاية، كان بسمان يترك سيارته في مرآب للسيارات، وأحيانًا يصُّفها في الشارع العام؛ لنستقل الحافلات الكبيرة والتي تتنقل بين الولايتين.. إن الزحام هناك يجعل من صفِّ السيارة مهمَّة مستحيلة ومتعبة في الوقت نفسه، كنا نعبر الجسر الشهير الذي يربط بين الولايتين، ذكَّرتني هذه الولاية بولاية (شيكاغو) من حيث الأبنية العالية وضيق الشوارع وكثرة السيارات بما في ذلك سيارات الأجرة بلونها الأصفر المميز..
قمنا بزيارة ناطحة السحاب المشهورة والمعروفة باسم (امپاير ستيت بلدنج) لنعتلي سطح خُصِص لتوافد الزوار من كل الأجناس

والألوان؛ لمشاهدة كامل المدينة التي تقبع في الأسفل، المنظر من فوق لا يمكن أن يُمحى من الذاكرة، المدينة تحتنا كأنها سماء ثانية بنجوم لا تُعد ولا تُحصى حيث الأنوار التابعة للمدينة تتلألأ في منظر أخاذ!.. لقد ثُبِت على السطح الكثير من التلسكوبات لتُقرَّب لك المنظر أكثر وأكثر، أعداد كبيرة من الناس وأكثر منها عدد الفلاشات المنبثقة من الكاميرات، كلٌّ يريد توثيق زيارته بالصور، رغم أن الوقت كان صيفًا غير أنَّ الطقس في الأعلى أكثر من باردًا.. الهواء يخترقٌ أجسامنا مع كل ما ارتدينا من ملابس سميكة تحسبًا لهذا الموقف، كل مَنْ تواجد هنا قد تحول أنفه إلى اللون الأحمر وحتى الأحمر المُزرِّق، أصحبتْ الوجوه وكأنها وجوه تعود لتماثيل شمع، المبلغ المرتفع نسبيًا بالنسبة لمدخولاتنا لم يقف عارضًا أمام إصرارنا على إشباع فضولنا والصعود إلى فوق، ناهيك عن الأسئلة التي ستوجَّه إلينا عند عودتنا، فالأسئلة عن المدينة وعن ناطحة السحاب بالذات.

اقترَّبتُ من السيَّاج الحديدي السميِّك الذي حُصِن بواسطته المبنى والزوار على حدٍّ سواء، اقترَّب منِّي بسمان، وهو يؤشر بيده صوب بناية أخرى مشهورة هناك هي الأخرى..

- إنها بناية (برج كرايسلر) المميز بشكله وبالطريقة التي أُنيرتْ بها قمته.

- أجبتُ بسمان: هذا صحيح إنه هو بعينه، هو ما كنتُ غالبًا أرفع رأسي نحوه، ونحن في الشارع.

- إلى ماذا تنظرون وما الذي تراقبونه؟... سألتْ حنان، فأخذ بسمان على عاتقه الشرح باعتباره دليلنا السياحي...

أمعنتُ نظري في الحركة التي تجري في الأسفل، حركة السيارات بمقاساتها الصغيرة وكأنها لُعب، حركة المارَّة التي يُخيَّل لي كأنها شخوص وهميَّة وُضِعت فوق مجسَّم من مادة الكارتون السميِّك التي يَصنع منها طلبة عادل في القسم المعماري ما يُسمى(موديل معماري ثلاثي الأبعاد)، جذبتني الإشارة الخضراء التي اشتعلتْ توًّا في منطقة العبور، تابعتُ حركة المارَّة وهم ينتظرون الإشارة على جانبي الطريق، والكل لاهٍ بما يشغله، فقفزتْ بي ذاكرتي إلى نفس الحركة ونفس الحالة من الانتظار ونفس أحجام ومقاسات السيارات وكإنها لُعب!، لينتابني نفس الإحساس وأنا أنظر من نافذة غرفتي في الفندق الكبير في قلب مدينة شيكاغو!..

ما يفصل بين الآن وبين تلك الذكرى سوى أكثر من ثلاثين عامًا.



المؤلفة في سطور

- نسرين أبو قلام.
- كاتبة وروائية عراقية، وُلِدت في بغداد لعام ١٩٥٨
- حاصلة على شهادة الدبلوم في الهندسة المدنية.
- تنتمي لعائلة تحترم الأدب والشعر واحد أفراد العائلة شاعرة معروفة.
- نشأت في بلد متعدد الأطياف والأعراق والأديان، فجعل منها شخصية مقدرة ومتفهمة للرأي الآخر، وقد فعلت الحروب المتعددة فعلها بعائلتها كما فعلت بكل العوائل العراقية، مما حدا بزوجها الأستاذ الجامعي بالتنقل عبر القارات لتوفير الأمن والأمان للعائلةً وهذا كله ترك الكثير من الآثار، الإيجابية منها والسلبية وقد نهلت من فيض التجارب الغنية للكثير من الشعوب التي عايشتها في مسيرتها لتبني قاعدة أدبية تستند عليها لبناء شخصيتها وأسلوبها الخاص بها لتعلو ببنائها الأدبي الأول والذي بين أيديكم.

- الـمؤلفات :

- عندما يصبح الحدس حقيقة : رواية

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

- البريد الإلكتروني: writtinggroup@yahoo.com



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net